المحتويات



مقدمة

الإسلام منظومة شاملة ترتب للمسلم شئون حياته من الصحو إلى المنام، ومن المهد إلى اللحد؛ لتكون كل حركة وسكنة منه هادفة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ (الأنعام).

ظل هذا الاعتقاد سائدًا في التصور الإسلامي إلى أن تكشفت نهاية الربع الأول من القرن العشرين الميلادي عن مقولة مفادها أن الإسلام دين روحاني طقوسي تعبدي، كسوابقه من الأديان، ومن هنا فلا شأن له بالدنيا ولا بالسياسة، ومن يومها والناس فريقان: علماني يرفع شعار "لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين"، وإسلامي يرفع شعار "الإسلام دين ودولة، عقيدة وعمل". وهذا ما اختارته وذهبت إليه المناقشات التي تضمنها هذا الجزء (شبهات حول النظم الحضارية في الإسلام).

وقد تمحورت قضايا هذا الملف في مناحٍ عدة، منها: علاقة الإسلام بالسياسة، ومدى قابلية النظام الإسلامي للتطبيق في واقع الحياة، وعلاقة الإسلام بالعلم والفن، ومحورية دوره في تاريخ المسلمين الحضاري، ومدى إمكانية توافقه مع معطيات المدنية الحديثة.

وقد انتهت مناقشة هذه الشبهات إلى خلاصات من أهمها:

- أن فصل الدين عن شئون الحياة والدولة، والسياسة، وما إلى ذلك، كان رد فعل لتحكم الكنيسة باسم الدين في رقاب البلاد والعباد في أوربا في العصور الوسطى.

أما عندنا ـ نحن المسلمين ـ فإننا لم نعان المشكلة نفسها حتى نستورد لها الحل نفسه، بل إن الإصرار على ذلك يعد من قبيل التقليد الأعمى.

- صلاحية النظم الإسلامية، فكرًا وتشريعًا، تنبع من كونها قد استندت إلى منهج إلهي محكم من الخالق العالم بشئون خلقه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ (الملك).

- لا تناقض ولا تعارض ولا تنافر بين الدين (الإسلام) والعلم، فالدين علم والعلم دين، وأول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ (العلق: ١).

- ومن هنا فإن ما ساد من مقولات مثل: "الدين أفيون الشعوب"، "الدين تنهدات الجماعات المظلومة"، "لو رفع الظلم لزال الدين"، كلها بالنسبة للإسلام مقولات باطلة غير واقعية وغير صادقة.

فلو كان الأمر كذلك، فأي ضغط مُورِس على كثيرين من عقلاء الغرب ومفكريه، وأي ظلم وقع في حقهم، ليهربوا منه إلى اعتناق هذا الدين؟ وكيف نفسر حملة الإسلام القوية على الظلم والفساد والانحراف؟ وكيف نفسر الحصيلة العلمية الثرية التي شهدها تاريخ المسلمين الحضاري.

- دعوى نسبية الأخلاق وعدم معياريتها، وضبطها بضابط الحلال والحرام والمباح... إلخ، دعوى انحلالية، هدفها تمييع الأخلاق ثم تضييعها بالكلية، وإطلاق العنان للغرض والنزوة والشهوة، دون ضابط أو رادع.

وهذا ما ظهرت آثاره جلية في المجتمعات العلمانية،[1] إذ ساد الانحلال الأخلاقي بصورة طاغية.

- فليكن المسلم على ثقة من أمر دينه الذي جاء خاتمًا للأديان، مهيمنًا عليها، مكملًا لها، منظمًا لحياة المسلم، هاديًا له على أساس تشريع رباني حكيم، يقوم على أصول ثابتة، ويفسح في الوقت نفسه مساحة من حرية الحركة؛ ليجتهد أهل كل عصر ومصر، بما يناسب زمانهم ومكانهم، فلا إفراط ولا تفريط، ولا تساهل ولا تضييق، بل الوسطية الرشيدة الجامعة.

١. العَلْمانيَّة: مذهب يُخْرِج الاعتبارات الدينية من العلاقات المدنيَّة والتعليم العام.

الشبهة الأولى

الزعم أن الإسلام دينٌ لا علاقة له بالسِّياسة(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن الإسلام شريعةٌ رُوحيَّة تَعَبُّديَّة، ولا يعدو أن يكون دعوة دينية مقصورة على مجرد الاعتقاد وإقامة الصلات الروحيَّة بين العبد وربه؛ فلا تعلُّقَ لهذا الدين بالشئون المادية في الحياة، كالسياسة والحرب والمال... إلخ.

وتفصيل مزاعمهم: أنه لا علاقة لهذا الدين بشئون الدنيا وسياسة أمور العباد، أو ما يُعبَّر عنه بقولهم: "لا سياسة في الدِّين، ولا دين في السياسة"، وأنَّ الدين يجب أن يَنْزَوي[1] بين جدران المساجد ـ بوصفها مجالًا للتَّعبد ـ وأن يدع شئون الدنيا وساحة السياسة لمذاهب البشر الوضعيَّة وفلسفاتهم الإنسانية، طبقًا لمبدأ "دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله". وقد ارتبطت بهذه الفِرْيَة الرئيسة شبهاتٌ فرعيةٌ، مثل:

- القول بأن ما أنزل الله تكليف فردي.
- عدم وجود دولة موحَّدة بالمدينة، وأن النبي ﷺ لم يكن حاكمًا ورجل دولة؛ بل كان رجل دين فقط، ولا علاقة لدينه بالدولة ونظامها.
- الخلافة دنيوية لا دينيَّة، والشورى لا تَفْترق عن الديمقراطية[2].
- الخلافة قد قامت بمبادرة انقلابية بعد وفاة النبي ﷺ، وناﻟﻬا الأقوى لا الأحق بها.
- الدَّعوة للخلافة عبثية وضد أي دستور

(*) المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، د. فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. الرد على شبهات أحمد الكاتب حول إمامة أهل البيت ووجود المهدي المنتظر، سامي البدري، مطبعة قسم شريعت، إيران، ط٢، ١٤١٧هـ. تهافت العلمانية في الصحافة العربية، سالم البهنساوي، دار الوفاء، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م. المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. الإسلام وأوربا: تعايش أم مجابهة، إنجي كارلسون، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٣م. الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، هجر للطباعة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. أوهام العلمانية حول الرسالة والمنهج، توفيق يوسف الواعي، دار الوفاء، القاهرة، ١٩٩٢م. القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، كارين أرمسترونج، ترجمة: فاطمة نصر، محمد عناني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م. الإسلام والغرب، روم لاندور، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م. بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارت، ترجمة: صبري محمد حسن، دار الأهرام، القاهرة. الإسلام والغزو الفكري، محمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م. صورة الإسلام في الإعلام الغربي، محمد بشاري، دار الفكر، ٢٠٠٤م. موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق من المستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. حضارة الإسلام، جوستاف لوبون، ترجمة: عبد العزيز جاويش، عبد الحميد العبادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م. التبشير العالمي ضد الإسلام، عبد العظيم المطعني، مكتبة النور، القاهرة، ١٩٩٢م. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.

® في **"فصل الدين عن السياسة"** طالع: الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

١. زوى الشيء يَزْويه فانْزَوى: نَحَّاه فتَنَحَّى، وانْزَوى القوم بعضُهم إلى بعض: إذا تدانوا وتضامُّوا.

٢. الديمقراطيَّة: إحدى صور الحُكْم، تكون السِّيادة فيها للشعب، وتُمارَس إمّا مباشرة أو عن طريق نُوَّاب عن الشعب. أو هي إسلوب في الحياة يقوم على المساواة وحُرِّيَّة الرَّأي والتَّفكير وسيادة الشَّعب. والدِّيمقراطية الاجتماعية: هي نظريَّة سياسيَّة تؤيِّد استخدام الرسائل الدِّيمقراطية لتتحرَّك تدريجيًّا من الرَّأسماليَّة إلى الاشتراكية.

حضاري، وليست في الإسلام نصوص توضح كيفية تأسيسها، وهي في تطبيقاتها التاريخية كانت مُتخلِّفة.

ويزعمون أن المطالبة بتطبيق الشريعة لا معنى لها، وأن الزمن قد تجاوزها، وَيَدْعُون إلى حصار الدين في المساجد والموالد. وهم يَخْلُصون من هذا كله إلى أن النظام الإلهي لا يمكن تطبيقه، وأن العمل بالشريعة يؤدي إلى اختلال النظام وسفك الدماء في زعمهم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) أصل مقولة "الفصل بين الإسلام والدولة" يرجع إلى ثورة كمال أتاتورك وما تبعها من حركات وكتابات مشبوهة، كان من ثمراتها كتاب "الإسلام وأصول الحكم".

٢) معطيات القرآن والسنة في شئون الحكم والسياسة تكفل إقامة نظام قوي ناجح.

٣) التاريخ الواقعي للدولة الإسلامية يتضح فيه الاهتمام بشئون الدين والدولة معًا.

٤) ثمة شهادات تاريخية لغير المسلمين تؤكد أن الإسلام دينٌ ودولة.

التفصيل:

أولا. أصل مقولة الفصل بين الدين الإسلامي والدولة:

ظلَّ المسلمون منذ وفاة النبي ﷺ واستخلاف الصديق رضي الله عنه يفهمون الإسلام فهمًا شموليًّا، معتقدين توفيقه بين أمور الدين والدنيا، أو الدنيا والآخرة، أو الدين والدولة، أو السياسة والدين، وأن الله لم يفرط في كتابه ـ القرآن ـ من شيء. ظلوا على هذا الفهم حتى جاء النظام التركي القومي الجديد بقيادة "مصطفى كمال أتاتورك"، فألغى نهائيًّا نظام الخلافة الإسلامية ـ الذي بدأ منذ استخلاف أبي بكر الصديق في السَّقِيْفَة[1] ـ بإنهائه الخلافة العثمانية، فخلا العالم الإسلامي ـ للمرة الأولى في تاريخه ـ ممن يحمل لقب خليفة، ومحا بالفعل من الأرض الخلافة محوًا.

وقد تَطَلَّعت لاستئناف نظام الخلافة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي دوائر عديدة بدوافع متعددة؛ فثمة فريق رأى أن الخلافة واجهة يقف خلفها المسلمون في تصدِّيهم لزحف الغرب الاستعماري على بلادهم، وفريق ثانٍ اعتبرها تراثًا، وفريق ثالث اعتقد أنَّ إقامتها واجب ديني وأصل من أصول الإسلام. كما تطلعت لملء هذا الفراغ في هذا المنصب المهيب عروش وملوك كان في مقدمتهم الملك أحمد فؤاد، ومن هنا لم يكن كتاب "الإسلام وأصول الحكم" بحثًا أكاديميًّا في مجال الفكر السياسي بقدر ما كان إسهامًا فكريًّا في معركة سياسية حامية، وتحدِّيًا للملك رغب في نيل منصب الخلافة، فجاء الكتاب ليهدم فكرة الخلافة من أساسها، ويبرز عدم الحاجة إليها شرعيًّا وواقعيًّا.

جوهر مضمون كتاب "الإسلام وأصول الحكم":

تدور فكرة الكتاب الرئيسة حول القول بأن الخلافة دخيلة على الإسلام، وهي مصدر قهر واستبداد، وقد كانت نكبة على الإسلام والمسلمين عبر تاريخها، وأن الإسلام دين خالص وعلاقة بين العبد وربه، ولا صلة له بشئون السياسة وأمور الدولة، ومحمد ﷺ رسول دعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة

١. السَّقِيْفَة: جمع سقائف، وهي المكان المسقوف أو العريش الذي يُسْتَظَلُّ به، والمقصود هنا سقيفة بني ساعدة ـ قوم من الخَزْرَج ـ التي اجتمع فيها الصحابة لبحث أَمْر الخلافة بعد وفاة رسول الله.

مُلك ولا دعوة لدولة، وولايته ولاية دينية روحية وليس في القرآن والسُّنة ما يعطي طابعًا سياسيًّا دنيويًّا لهذا الدين، وإقامة الشعائر الدينية وصلاح الرعية يمكن أن يتم في ظل أي نوع من الحكومات، مطلقة أو مقيدة، فرديَّة أو جمهوريَّة[1]، استبداديَّة أو دستوريَّة[2]، شوريَّة ديمقراطيَّة أو اشتراكيَّة[3] وبَلْشَفيَّة[4][5]! وما يزال الناس بعد "علي عبد الرازق" - صاحب الكتاب - بين مؤيد لآرائه متعصب لها ومعارض لمزاعمه مُفَنِّد لشبهاته[6] ®.

السياسة جزء من النظام الإسلامي الشامل:

والحق أنَّ مَنْ ينكرون صلة الإسلام بالسياسة ينطلقون من مقولة باطلة أساسًا، وهي أن الإسلام مجموعة من العبادات بالمفهوم الضيِّق لهذه الكلمة، أي مجموعة من الطقوس والشعائر التعبدية تؤدَّى وكفى.

وهذا قول يجانب الحقيقة تمامًا؛ فمن بدهيات الفكر الإسلامي أن الإسلام نظام شامل للحياة، والسياسة من أهم شئونها ومجالاتها، فلا يُتصور أن يدع الإسلام هذا الجانب المهم - السياسة - ويهمله دون أن يرسم له الإطار العريض وينص على المبادئ التوجيهية العامة فيه، ثم يترك التفاصيل والجزئيات للناس يتصرفون فيها بما يناسب ظروف زمانهم ومكانهم دون أن ينفلتوا من توجيهات هذا الإطار العام وتلك الأصول الكلِّيَّة، أي دون أن ينصرفوا عن جوهر هذا الدين وروحه وهديه.

ولا شك في أنَّ علاقة الإسلام بالسياسة ثابتة في المرجعية الإسلامية - القرآن والسنة - نظريًّا، وفي واقع تاريخ المسلمين عمليًّا، فمن الإشارات التي تضمَّنتها آيات القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى:٣٨)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۖ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩)﴾ (النساء)، فـ (أولي الأمر) هنا - وإن انصرفت إلى كل من يحمل مسئولية - تنصرف إلى الولاية العظمى في الإسلام، وهي ولاية أمر المسلمين أو رئاسة الدولة الإسلامية، فَلِوَلِي أمر المسلمين حق الطاعة على رعيته، شريطة أن يكون ملتزمًا بمبادئ الإسلام وتوجيهاته، أي مطيعًا لله ولرسوله كما يكلف بذلك صدر الآية.

بالإضافة إلى هذا فإن القرآن حافل بالنصوص التي تُعلي من شأن العدل باعتباره أساس الحكم الصالح والإدارة السليمة، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ

---

١. الجُمهوريَّة: دولة يرأسها حاكم مُنتَخب من الشَّعب أو من ممثِّليه، وتكون رياسته لمدة محدَّدة ينصُّ عليها دستور البلاد.

٢. الدُستوريَّة: شَرْعِيَّة القوانين والأحكام وتوافقها مع دستور الدَّولة أو قانونها الدُّستوري.
واليمين الدُّستوريَّة: هي القَسَم الذي يتعهَّد فيه رئيس الجمهورية قُبيل تسلُّمه الحكم بالمحافظة على الدُّستور.

٣. الاشتراكيَّة: مذهب سياسي واقتصادي يقوم على سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج وعدالة التوزيع والتخطيط الشامل.

٤. البُلْشُفيَّة: مذهب يدعو إلى تطبيق الشُّيوعيَّة على المجتمعات الرَّأسمالية بعد المرور بمرحلة الجماعيَّة.

٥. انظر: دراسات في النظام السياسي والمالي في الإسلام، د. عبد الرحمن سالم، دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٧: ٢٨. نظام الدولة في الإسلام، د. عبد الله جمال الدين، طبعة خاصة، ١٩٩٨م، ص٢١ وما بعدها.

٦. الإسلام كبديل، د. مراد هوفمان، مؤسسة بافاريا، الترجمة العربية، مجلة النور الكويتية، ط١، ١٩٩٣م، ص١٣٧ وما بعدها.

® في **"ظروف ظهور فكرة فصل الدين عن الدولة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (النساء:٥٨)، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨) [١].

ومن المعاني الأخرى التي حرص القرآن الكريم على ترسيخها بين المسلمين وفي نفوسهم الإخاء والمساواة، وجعل معيار التفاضل هو التقوى لا الدم والعنصر والحسب والنسب؛ مما يعني أن أفراد الأمة وجماعاتها كأعضاء الأسرة متآخون متحابون، أو هذا ما يجب أن يكونوا عليه في واقعهم العملي.

ومما يشير إلى هذه المعاني من الآيات الكريمة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات:١٣)، ويطول الحديث بمن يقصد استقصاء الآيات الكريمة التي تعالج شئون المجتمع الإسلامي وتبلور نظمه، وأسلوب حياته من بيع وشراء، وحرب وسلم، وحدود وقصاص... إلخ. وكلها نظم وقواعد وضعها الإسلام الحنيف ليلتزمها المسلمون، ويشرف على تنفيذها وليُّ أمرهم؛ ولأجل هذا ورد قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (المائدة).

ثانيًا. معطيات القرآن والسنة تكفل إقامة نظام سياسي قوي:

لقد حفلت السُّنة النبويَّة بالنصوص التي تتعلق بالسياسة وشئونها، وهي تؤكد ما ورد في القرآن بهذا الشأن وتُبَيِّنُه، ومن ذلك قوله ﷺ: " كلُّكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راعٍ ومسئول عن رعيته..." [٢].

فإذا كانت هذه واجبات الحاكم فمن حقه على الرعية الطاعة في غير معصية، قال ﷺ: "من بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليُطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر" [٣]. وقوله ﷺ: "لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف" [٤].

وقد رفع ﷺ من شأن العدل والإنصاف في الحكم، وأخبر بأن الإمام العادل أول السبعة الذين يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه [٥].

وقد حرَّض النبي ﷺ على وحدة الصف بقوله: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا" [٦].

فلا شك إذن أن القرآن والسنة قد قوَّما ـ ولم يغفلا كما زعم المغرضون ـ جانب السياسة في حياة المجتمع

---

١. لا يَجْرِمَنَّكم شنآن قوم: لا يَحْمِلَنَّكم ولا يُكسِبَنَّكم بُغْض قوم على ألا تعدلوا بينهم.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن (٨٥٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية (٤٨٢٨) بنحوه.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول (٤٨٨٢).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التمني ، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم (٦٨٣٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (٤٨٧١) واللفظ له.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين (١٣٥٧)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (٢٤٢٧).

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم (٢٣١٤)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٦٧٥٠).

الإسلامي، ووضعا المبادئ الهادية الموجِّهة وتركا التفصيلات يُجدِّدها أهل كل عصر حسب ظروف زمانهم ومكانهم، مسترشدين بهذه الأصول العامة[1].

وسُنَّة النبي ﷺ العملية تؤكد سنته القولية في هذا الشأن، فلئن كانت المرحلة المكية من سيرته قد انصرفت لتثبيت العقيدة؛ فقد تفرَّغ في الفترة المدنية لتكوين الأمة، وبناء صرح الدولة، وتشييد نظامها، وتوطيد أركانها، وكإرهاصات للفترة الثانية هذه ولطبيعتها المشار إليها مثَّلت بيعة العقبة الثانية اللبنة الأولى في بناء الأمة ككيان سياسي، فلم تكن اتفاقًا على الالتزام بخط أخلاقي فحسب كالبيعة الأولى؛ بل كانت ميثاقًا ذا طابع سياسي، ففيها خاطب أبو الهيثم بن التَّيْهان ـ أحد الأنصار ـ رسول الله ﷺ قائلًا:

إن بيننا وبين الرجال ـ أي الناس ـ حبالًا، أي عُهودًا واتفاقات ومواثيق، وإنّا قاطعوها، أي بالتزامنا معك الذي يَجُبُّ[2] غيره من الالتزامات التي لا تتفق وطبيعته، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: "بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم"[3].

والذي أراد ابن التَّيْهان ﷺ قوله في هذا المقام هو أنهم بدخولهم ـ أي جماعة الأنصار ـ في الإسلام، وبعقدهم الميثاق مع الله ورسوله، سوف يقطعون المواثيق والعهود مع اليهود وغيرهم؛ ولذا فهم يَودُّون أن يطمئنوا إن فعلوا ذلك وتمّ لنبي الله النصر ألَّا يتركهم ويعود إلى قومه؛ فأكد لهم الرسول التزامه بالعهد والميثاق.

يقول المولى ﷻ: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ (آل عمران)، وهو تأكيد لمعنى كلام ابن التَّيْهان ورد رسول الله ﷺ عليه، فقد قطع القوم حبالهم مع الناس واعتصموا بحبل الله جميعًا،أي دخلوا في عهده وميثاقه، واجتمعوا على الإيمان به، وتحابوا في سبيله وأصبحوا إخوانًا متآلفي القلوب بنعمة الله تبارك وتعالى، وتلك هي الرابطة الأساسية بين أفراد أمة الإسلام، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾ (الحجرات)[®].

ثالثًا. التاريخ الواقعي للدولة الإسلامية يبرز فيه الاهتمام بشئون الدين والدولة معًا:

عندما أُذن للنبي ﷺ في الهجرة، تصرف منذ وطئت قدماه قِباء بضواحي يثرب كأنه يسير على خطة محكمة وضعها من قبل، وحانت فرصة تنفيذها الآن، فسار في هذا المضمار قُدمًا كل خطوة تعقبها أخرى، والخطوات

---

١. دراسات في النظام السياسي والمالي في الإسلام، د. عبد الرحمن سالم، مرجع سابق، ص١١ وما بعدها.

٢. يَجُبُّ:أي يَقْطع ويَمْحُو، ومنه الحديث: "إنّ الإسلام يَجُبُّ ما قبْله، والتَّوبة تَجُبُّ ما قبلها"، أي: يقطعان ويمحوان ما كان قبلهما من الكفر والمعاصي والذنوب.

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث كعب بن مالك الأنصاري ﷺ (١٥٨٣٦)، والطبراني في المعجم الكبير، باب الكاف، كعب بن مالك الأنصاري عُقْبِي يُكنى أبا عبد الله، ويُقال أبو عبد الرحمن (١٧٤)، وصححه الألباني في فقه السيرة (١/ ١٤٦).

® في "التوجيهات السياسية في الإسلام" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

تتلاحق وتتكامل، وبناء الأمة يُشاد بترتيب وإحكام وتوقيت دقيق.

ابتدأ ببناء المسجد الذي أصبح رمزًا لوجود الأمة المادي، بالإضافة إلى وجودها المعنوي، فلم يكن المسجد موضعًا للصلاة فحسب؛ بل كان موضع اجتماع المسلمين للاستماع إلى خطب الرسول ﷺ وتلاوة القرآن و الائتناس ببعضهم وسماع الأخبار، وبجواره يقيم قائد الأمة، ومن هنا تُدَبَّر شئونها.

ثم آخَى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار لتتشكل جماعة المؤمنين على أُسس متينة، لكن مجتمع المدينة لم يقتصر على المسلمين؛ بل ضَمَّ من بقوا على حالهم ولم يدخلوا في الإسلام من العرب واليهود، فوضع الرسول الدستور المنظِّم للعلاقات بين هذه الجماعات، وحدَّد لكلٍّ حقوقه وواجباته فيما عرف بالصَّحيفة.

ويحق لنا أن نَصِفَ هذه الصحيفة النبويَّة بأنها نص دستوري توافرت له أبعاد ثورية قانونية نظرية، ورؤية منهجية بعيدة المدى، فضلًا عن تفرده التاريخي في باب العلاقات بين طوائف الدولة وفئاتها[1].

إذن بهذه المعطيات قامت الدولة التي اشتملت على الأمة التي سكنت أرضًا ذات معالم، وقادها الرسول ﷺ واهتدت بمعالم الدستور النبوي، وقد مارس النبي ﷺ بالإضافة إلى التوجيه الديني مسئوليات القيادة النبوية، مستندًا إلى قواعد الدين؛ فنظَّم شئون الحرب والسلم، وعقد المعاهدات، وجَبَى[2] الأموال وأنفقها في وجوهها، وعيَّن الولاة والقضاة، وبالجملة فقد أدار شئون هذا المجتمع الجديد الذي أخذ شكل دولة ناشئة. وما الدولة في المفهوم المعاصر إلا أرض وشعب وقيادة وحكومة؟!

وقد توافرت كل هذه المقومات لدولة المسلمين في المدينة، وما انضاف إليها في حياة النبي ﷺ. ثمَّ إنَّ الواقع التاريخي المبني على هذه الأصول الشرعية ـ خصوصًا في العصر الراشدي ـ يشهد بإجماع الصحابة ومعهم الأمة على إقامة الإمامة (الخلافة أو الدولة الإسلامية)، وهذا الإجماع يُعَدُّ البرهان الأوَّل لدى القائلين بوجوب الخلافة وهم الأغلبية من أهل الفرق وعلماء المسلمين، ويستشهدون على ذلك بأن الصحابة بمجرد أن بلغهم نبأ وفاة النبي ﷺ بادروا إلى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعدة وتركوا أمر تجهيز النبي ﷺ لأهل بيته، وتداولوا أمر خلافته لإدراكهم مدى أهمية هذا الأمر، وهم وإن اختلفوا في شخص الخليفة المختار والصفات الواجب توافرها فيه؛ فإنهم أجمعوا على وجوب نصب إمام وتعيين خليفة، ولم يقل أحد أبدًا بأنه لا حاجة بهم إلى ذلك، وقد وافق بقية الصحابة ـ ممن لم يحضروا اجتماع السقيفة ـ على ما أقره هذا الاجتماع من اختيار أبي بكر رضي الله عنه في البيعة العامة في المسجد في اليوم التالي.

وكان الصديق قد خطب في اجتماع السقيفة فقال: "أيها الناس، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) ﴾ (آل عمران)، واستمر إلى أن قال: إن محمدًا قد مضى بسبيله، ولا بُدَّ لهذا الأمر

---

١. الإسلام كبديل، مراد هوفمان، مرجع سابق، ص١٤٣.

٢. جَبَى الخَراج جباية: جمعه.

من قائم يقوم به فانظروا، وهاتوا آراءكم، فناداه الناس من كل جانب: صدقت يا أبا بكر[1]. وهكذا أمَّن الناس على كلامه بضرورة إقامة رأس للأمر قائم ولم يستنكروه[2].

وكان ضروريًّا أن يجتهدوا في هذا الأمر؛ لأنه ﷺ وإن وضع في هذا الشأن الأصول والقواعد العامة كما سبق أن أوضحنا؛ فإنه لم يُبَيِّن تفاصيل كيفية إقامة الخلافة أو الإمامة، وهو لم يعين ولم يعهد ولم يُوصِ لأحد - إلا عند الشيعة الذين قالوا: إنه أوصى بالإمامة بعده لعليٍّ ونَسْلِه من فاطمة - بل ترك الأمر شورى؛ لتختار الأمة لنفسها حسب ظروفها مسترشدة بالهَدْي النبوي، أو على حد تعبير د. حسين مؤنس: "وترك الأمة لتختار لنفسها الطريق لكي تُسيِّر نفسها في طريق النصر والإيمان والعِزَّة والكرامة والخير، والأمة بعد ذلك حرة في أن تصنع لنفسها الشكل الذي تحكم نفسها به؛ فهي أساسًا أُمَّة حُرَّة أو اتحاد شعوب حرة، وكل فرد من أفراد هذه الشعوب إنسان حر كريم له مثله الأعلى النابع من القرآن والحديث، فكما أن أمة الإسلام تضمن لمواطنيها الحرية والكرامة والعزة وسلامة الضمير؛ فإن رسول الله ﷺ رسم لأمته الطريق وتركها تسير فيه على النحو الذي تريد، فهي إسلاميَّة أوَّلًا، وشوريَّة ثانيًا، وحُرَّة وضميرها حي أوَّلًا وأخيرًا... تختار من يُسيِّرون أمورها بحُرِّيَّة وبوحي من ضميرها، يستوي أن يكون خليفة أو ملكًا أو سلطانًا أو أميرًا أو رئيسًا أو هيئة تحكم معًا.

فكل هذا سواء ما دامت تسير في هدي الإسلام الحنيف وتسعى لتحقيق مُثُله العليا في ضوء السراج المنير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ ﴾ (الأحزاب)[3].

وفي مرض الصِّدِّيق الأخير تشاور الصحابة في الأمر حتى استقر الأمر على عمر رضي الله عنه، وطمأن الصديق بعض من خافوا شدَّة عمر بأنها شدة في الحق، وأنه يشتد حين يرى الصديق يلين، فتم الأمر، وكانت هذه صورة ثانية للشورى غير الصورة التي اختير عليها الصدِّيق من قبل.

وحين طُعن الفاروق جعل الخلافة في ستة، هم الباقون من العشرة المبشرين بالجنة، ومعهم ابنه عبد الله مستشارًا يستأنسون برأيه، وليس له من الأمر شيء، فكانت صورة ثالثة توافق جوهر القضية، وهي مبدأ الشورى والاختيار الحر.

ثم لما استشهد عثمان رضي الله عنه اختارت بقية أهل الحل والعقد الموجودة بالمدينة عليًّا فكانت رابعة، وحين استشهد علي رضي الله عنه صَرَفَتْ بقية هذه الجماعة الأمر لابنه الحسن الذي آثر حقن الدماء وصَالَح معاوية الذي عهد بها قبل وفاته لابنه يزيد بعد استشارة أهل الأمصار.

وطيلة هذه الفترة وفي أثناء هذا كله لم يَدُر بخَلَد

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا" (٣٤٦٧) بنحوه، وفي مواضع أخرى.
2. النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الدين الريس، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٧، ١٩٧٦م، ص١٨٠.
3. دستور أمة الإسلام، د. حسين مؤنس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١٥٩، ١٦٠.

أحد من الصحابة جواز خلو الأرض من إمام، فدلَّ هذا الإجماع على قطعية وجوب الإمامة[1].

على أن فترة الانسجام بين المبادئ الشرعية السامية في شأن الولاية والحكم والإمارة من شورى وحرية اختيار، وبين التطبيق العملي على الأرض لم تَدُمْ طويلًا، بل سرعان ما تنكر بعض الناس لهذه المبادئ مع بداية العصر الأموي.

ولا غرابة في هذا، فالعهود المثالية عادة قصيرة الأمد يعرف ذلك كل من درس تواريخ الأمم ولا سيما حركات الإصلاح والثورات في مختلف العصور، ينطبق هذا على المجتمع المسلم خلال العهدين النبوي والراشدي إلى منتصف خلافة عثمان ﷺ قبل أن تشب الفتنة الكبرى.

ويُعَلِّلُ قِصَر آماد هذه العهود المثالية في إيجاز بليغ دقيق د. محمد ضياء الدين الريس بقوله: " ومن أسباب ذلك أن الجيل الأول الذي ينهض حاملًا أعباء دعوة جديدة مستمسكًا بالمثل العليا مجاهدًا في سبيل تحقيقها، لا يلبث بعد مُضِي مدة من الوقت تكفي لأن يُنَشَّأ امرؤ من دور الطفولة إلى دور الكهولة أن يَخْلُفَه جيل جديد، لا تتوافر له نفس العناصر التي توافرت للجيل السابق، فلا يكون له ـ في مجموعه ـ مثل قوة إيمانه ولا عمق فهمه للمبادئ، ولا درجة حماسه لها؛ إذ إن الأفكار والمشاعر قلما يورثها جيل لآخر بنفس القوة سليمة كما هي، دون أن يعتورها نقص أو تبديل.

ثم إن المستوى العالي الذي ترتفع إليه النفس الإنسانية في أثناء تلك العهود الاستثنائية يصعب على الطبيعة البشرية أن تحتفظ ببقائها فيه، وقد ركِّبت فيها غرائز وميول وأهواء تنزع بها إلى الهبوط إلى مستويات أدنى، كما أودعت فيها العواطف التي تدفع بها إلى السمو.

وفوق ذلك فإن الظروف والأحوال تختلف، فإن أمثال هذه الحركات الإصلاحية والدعوات والثورات إنما تظهر نتيجة لتجمع أسباب معينة: اقتصادية واجتماعية وسياسية وفكرية، ثم بعد أن تنتهي الدعوات أو الحركات إلى نجاح وتتمكن من تحقيق أهدافها كلها أو بعضها، لا تكون تلك الأسباب قد بقيت كما هي، بل يكون قد زال بعضها، وتحوَّلت طبيعة بعضها الآخر.

كما أنه يترتب على الوضع الناشئ الذي يكون قد أدَّى إليه النجاح أن تتغير البيئة، وتوجد عوامل وتبدو ظواهر لم تكن معروفة من قبل، وما دامت الأسباب والمقدِّمات تتغيَّر فلا بد أن تتغير النتائج تبعًا لها.

أضف إلى ذلك أن بقاء مجتمع ما في مستوى رفيع ـ إذا قيست حاله بمقاييس الأخلاق أو السياسة ـ إنما يرجع إلى جانب الأسباب الأخرى من استعداد المجتمع نفسه وطبيعة الظروف المحيطة به إلى نوع من القيادة.

القيادة الممتازة التي توجِّهه وتلهمه، وهي متمتعة بصفات فائقة غير شائعة الوجود، من حكمة وكياسة وسعة أفق وبُعْد نظر ونزاهة مَقْصِد، والطبيعة لا تجود بالعبقريات كثيرًا، فإذا خلا مكان القيادة لم يجد المجتمع من يملؤه ممن يُضارع[2] الموجِّه الأوَّل في كفاءته

١. النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الدين الريس، مرجع سابق، ص١١٠، ١١١ بتصرف.

٢. يُضارِع: يشابه ويماثل.

أو تكتمل له كل هذه الصفات، وتكون النتيجة التي لا مفر منها أن ينزل المجتمع من مكانته، وتتعثر خطاه، وتتزاحم عليه المشاكل، وتظهر لذلك كله آثار غير مستحبة، يكون مغزاها أن عهدًا قد انقضى وبدأ عهد آخر"[1].

وهكذا وضح لنا من خلال استقراء المرجعية الإسلامية ـ نظرية وتطبيقًا ـ أن شئون السياسة ليست غريبة على الإسلام، بل هي جزء من إطاره العام؛ فقد قدم القرآن والسنة المبادئ الأساسية والأصول الكُلِّيَّة في هذا المجال ثم استرشد التطبيق العملي بهذه الأصول عند التجريب على أرض الواقع؛ فتعددت الصور وبقي الجوهر واحدًا زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ﭫ؛ ليبرهن هذا على أن السياسة لم تنفك عن الإسلام نظرًا وتطبيقًا.

رابعًا. شهادات تاريخية لغير المسلمين تؤكد أن الإسلام دين ودولة:

لقد أدرك هذه الطبيعة الشمولية في الإسلام، واهتمامه بأمر الدنيا ومن ثَمَّ بشأن السياسة وعدم اقتصاره على الجانب الروحاني التعبدي كثيرون حتى من المستشرقين، وهذه طائفة من شهاداتهم بهذا الشأن:

- يقول د. فتزجرالد: "ليس الإسلام دينًا فحسب، ولكنه نظام سياسي أيضًا. وعلى الرغم من أنه قد ظهر في العهد الأخير بعض أفراد من المسلمين ممن يصفون أنفسهم بأنهم عصريون، يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين؛ فإن صرح التفكير الإسلامي كله قد بُني على أساس أن الجانبين متلازمان، لا يمكن أن يفصل أحدهما عن الآخر".
- ويقول نللينو: "لقد أسس محمد في وقت واحد دينًا ودولة، وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته".
- ويؤكد د. شاخت أن الإسلام يعني أكثر من دين؛ إنه يمثل أيضًا نظريات قانونية وسياسية، وجملة القول: إنه نظام كامل من الثقافة، يشمل الدين والدولة معًا".
- ويقول ستروثمان: "الإسلام ظاهرة دينية سياسية؛ إذ إن مؤسِّسه كان نبيًّا، وكان حاكمًا مثاليًّا خبيرًا بأساليب الحكم".
- ويقول أرنولد: " كان النبي ﷺ في نفس الوقت رئيسًا للدين ورئيسًا للدولة".
- ويقول جِب: "الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية؛ وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل، له أسلوبه المعين في الحكم، وله قوانينه وأنظمته الخاصة به"[2].

أَفَبَعْدَ كل هذا الدفع وهذه البراهين من الأصول الشرعية والتطبيقات التاريخية والأقوال المنصِفَة حتى من قِبَل المستشرقين، يسوغ القول بأن هذا الدين لا علاقة له بالدنيا ولا شأن له بالسياسة؟!

وإذا كان ذلك كذلك وأنه حقًّا لا يُعْنَى بشئون الدنيا، فلم كانت كل هذه التشريعات التي نظم بها جانب المعاملات في حياة البشر، والتي تغطي مساحة هائلة من كتب الفقه الإسلامي؟! أليست الدنيا مزرعة الآخرة؟! حقًّا:

1. النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الدين الريس، مرجع سابق، ص٤٧، ٤٨.
2. نظام الدولة في الإسلام، د. عبد الله جمال الدين، مرجع سابق، ص٣٤ وما بعدها.

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ

وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

ولعل هذا الرمد الذي حجب عن عين الشيخ علي عبد الرازق وأمثاله - ممن يرون رأيه - رؤية الحقيقة يرجع إلى سبب معقول واضح، عبَّر عنه د. عبد الله جمال الدين بقوله: " والحقيقة أن الشيخ علي عبد الرازق كتب مؤلَّفه لأغراض سياسية بحتة، فقد ألغيت الخلافة التي تعد رمزًا للوحدة الإسلامية - برغم ما شابها من معايب - وخشيت أوربا والصهيونية والاستعمار من أن يعود هذا الرمز من جديد فيقف عقبة كَئُودًا[1] في سبيل تحقيق أغراضهم، ووجدوا من المصلحة أن يُضَلِّلوا المسلمين، وأن يُظْهِروا أن الخِلافَة ليست من الضرورات الدينية، فالإسلام لا شأن له بالحكم ومسائله، خاصة وقد سمعت أصوات قوية تنادي بعودة الخلافة في مصر أو في الجزيرة العربية، فلنقم بوأد هذه الدعوة في مهدها، ولا بأس أن يقوم بإصدار هذه الفتوى أحد رجال القضاء الشرعيين ممن يُنْسَبون إلى الشريعة وإلى العلم بها؛ لأن هذا سيكون له أثر فعَّال في القضاء على الفكرة التي تطالب بتجديد الخلافة"[2].

ومن عِلَل صدود المنكرين لوجود صلة بين الدين وبين الدنيا والسياسة أنهم خلطوا بين الخلافة كرمز للنظام السياسي في الإسلام على المستوى الفكري وبين تطبيقاتها التاريخية في العصور المختلفة، راشدها وزائغها.

يعبر عن هذا قول د. محمد عمارة عن كتاب "الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق: "والصورة التي تناثرت في أغلب صفحات الكتاب عن الخليفة والإمام في الإسلام والتي تحدثت عن سلطاته المطلقة المستمدة من الله، وصلاحياته التي لا تُعَدُّ ولا تُرَدُّ، هي صورة غريبة عن روح الإسلام، جاءت إلى الحياة السياسية الإسلامية التطبيقية، إما عن طريق الفكر الشيعي عن الإمامة، وهو فكر يعدُّ امتدادًا لنظريات الفرس الإقطاعية في هذا المجال أو عن طريق الحكم الأموي - وما تلاه في الواقع - الذي طبع بطابع الوراثة"[3].

وهذا الخلط هو ما أدى إلى أن تجيء الصورة لدى هؤلاء مُنَفِّرة سوداوية صادة للنفس عن مثل هذا النموذج الذي صورته وعبرت عنه.

والحق أن هذه العلاقة ثابتة بالنصوص القرآنية؛ فقد تضمنت آيات كثيرة ألفاظًا، مثل: الشورى والحكم والعدل... إلخ، وكلها من مفردات السياسة، كما تحدثت الآثار النبوية الشريفة عن الحاكم العادل والجائر، وعن الجهاد والولاية والقضاء.

ثم إن الواقع التطبيقي في العهد النبوي وعهد الراشدين ومن بعدهم قد أيَّد هذا الفهم؛ فقد وَلُّوا الولاة، وعيَّنوا القُضَاة، وبعثوا الجيوش، ودوَّنوا الدواوين، وعقدوا المعاهدات، وأبرموا الاتِّفاقيَّات... ومارسوا شئون الحكم والسلطة والسياسة.

١. كَئُود: عَقَبة كَئُودأي شاقة المصعد.

٢. نظام الدولة في الإسلام، د. عبد الله جمال الدين، مرجع سابق، ص٣٩.

٣. الإسلام وأصول الحكم، د. علي عبد الرازق، تحقيق ودراسة: د. محمد عمارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص٤٩، ٥٠.

الخلاصة:

- عناية الإسلام منذ بداياته الأولى بشئون الحكم والسياسة ثابتة مستقرة لا يمكن تجاهلها، أو إنكارها أو التشكيك فيها.
- الدعوة إلى "الفصل بين الدين والدولة" ترويج للفكر العلماني في العالم الإسلامي، ومحاولة للقضاء على فكرة الأمة في أذهان المسلمين، كما أن كتاب" الإسلام وأصول الحكم" جاء ليهدم فكرة الأمة من أساسها، ويبرز عدم الحاجة إليها شرعيًّا وواقعيًّا.
- اشتمال القرآن والسنة على كثير من الآيات والأحاديث التي تؤكد اهتمام الإسلام بشئون الحكم والسياسة وإيراده طائفة كبيرة من مفرداتها يدحض دعوى عدم وجود علاقة بين الدين والسياسة.
- التطبيق العملي لمبادئ الدولة الإسلامية يؤكد عناية الإسلام بشئون الحكم والسياسة، وإن قلّ هذا التطبيق الصحيح لمبادئ الإسلام على مدار التاريخ، بل لقد أساء بعض الحكام المسلمين التطبيق العملي لهذه المبادئ.
- سجَّل التاريخ شهادات لغير المسلمين (مستشرقين وعُلماء غربيين) تؤكد حقيقة أن الإسلام دين ودولة، وأنه لم يقتصر على الجانب الروحاني التعبدي فقط.

الشبهة الثانية

ادِّعاء أن نظام الحُكْم في الإسلام نظام ثيوقراطي، وحكومته من رجال الدين [1] (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أنَّ نظام الحُكْم في الإسلام نظامٌ يستبد به رجال الدين، ويقولون: إن أوربا تركت هذا النظام بعد الثورة الفرنسية، وإن صاحب السلطة السياسية في النظام الإسلامي وكيلٌ ونائبٌ عن الله؛ لأنه قائمٌ على تنفيذ الشريعة، وهو يُشْبه حكم الكنيسة وسلطة البابوات في العصور الوسطى، كما أن هذا

---

١. الثِّيُوقراطيَّة: هي مذهب يقوم على تعليل السلطة السياسيّة لدى الجماعة على أساس الاعتقاد الديني، منها نظريّة (الحق الإلهي في الحكم)، التي تَعْتَبر أنَّ الله ﷻ مصدر للسلطة، وأن الحاكم بمثابة ظِلِّ الله على الأرض، وتقوم الثيوقراطيّة على أساس العنصرية.

(*) تهافت العلمانية في الصحافة العربية، سالم علي البهنساوي، مرجع سابق. التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، دار النهضة، مكتبة الأسرة، مصر، ٢٠٠٥م. الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، مصر، ١٩٩٦م. الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر، مرجع سابق. أوهام العلمانية حول الرسالة والمنهج، توفيق يوسف الواعي، مرجع سابق. الأقليات الدينية والحل الإسلامي، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م. افتراءات المستشرقين على الإسلام، عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م. العالم الإسلامي والمكائد الدولية، فتحي يكن، مرجع سابق. الشورى والديمقراطية، مقال د. صوفي حسن أبو طالب، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر العاشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، تحت عنوان "الإسلام والقرن الحادي والعشرون"، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

النظام دِكْتَاتوري[1] يعادي الدِّيمقراطيَّة وحقوق الإنسان، ودائمًا يرفض الآخر، والشُّورى فيه ليست مُلْزِمةً للحاكم المستبدّ، المتفرِّد بالحكم، الذي يفعل ما يشاء ولا يملك أحد أن يحاسبه، ويرمون من وراء ذلك إلى نقض نظام الحكم الذي وضعه الإسلام لسياسة الدولة الإسلامية.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لا كهنوت ولا ثيوقراطية في الإسلام؛ بل اختيار وبيعة وشورى.

٢) فكرة "الحاكمية لله" لا صلة لها بالدولة الدينية الكهنوتية، وإنما تعني أن السلطة للأمة والتشريع لله.

٣) الأمة في الإسلام هي مصدر السلطات في إطار الأصول الشرعية العامة، والحاكم مسئول أمامها، وهي رقيبة على تصرفاته.

التفصيل:

أولا. لا كهنوت ولا ثيوقراطية في الإسلام؛ بل اختيار وبيعة وشورى:

الثيوقراطية أوحكومة رجال الدين:

مصطلح يطلق على ذلك الشكل من الحكومة التي يكون أعضاؤها من الكهنة ورجال الدين، الذين لهم حق وضع الشرائع الدينية وتفسيرها، ويمارسون من خلال مناصبهم السلطة الزمنية والدينية جميعًا، ويتمتعون بحق إلهي في الحكم، وبذلك فهم معصومون عن الخطأ في نظر أتباعهم الذين ينتمون إلى مِلَّتهم ويطيعونهم كطاعة الله.

ولقد عُرِفَ هذا الشكل من الحكومات في كثير من الشعوب البدائية التي كانت تمنح زعماءها وحكامها منزلة الأنبياء والآلهة، فلهم حق الحكم بدون مناقشة أو معارضة؛ لأنهم معصومون، وتعود أقدم أشكال هذا الحكم وتلك الحكومات إلى اليهود، بعد أن حرفوا التوراة وخالفوا أنبياءهم واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله.. وبدأ الكهنة فيهم يحلِّلون ويحرمون ويغيرون في شرع الله كما يصور لهم الهوى والحاجة، وعرف هذا الحكم أيضًا في أوربا في العصور الوسطى؛ عندما كانت سلطة الكنيسة تسيطر على الملوك والأمراء، وتفرض عليهم الإتاوات، وتمنحهم البركة وصكوك الغفران، وزعمت أن لرجال الدين صلاحية إلهية في منح البركة، وشفاء المرضى، وعقد الزواج، وقبول الاعتراف، ومنح المغفرة، وسلطة التحليل والتحريم.

ولقد مارست هذه السلطة أشد أنواع التسلط في فرض الحروب الصليبية والدعوة إليها، وفي محاربة العلم والمنطق، وفي إنزال أشد العقوبة بالمخالفين كما في محاكم التفتيش والحروب الدينية القائمة في أوربا. ومن هنا يتضح أن "الثيوقراطية" أو ما يُسَمَّى بحكومة رجال الدين ليست من الإسلام ولا علاقة له بها.

طبيعة الحكم الإسلامي:

تشريع الإسلام من عند الله، وهو تشريع قد اكتمل في القرآن والسنة النبوية، فلا يملك حاكم ولا محكوم أن يضع تشريعًا من عند نفسه، والحاكم يختاره الشعب، ومهمته تنفيذ شرع الله، وليست له حقوق وسلطات

---

١. الدِكْتَاتوريّة: هي حُكْم الفرد المُسْتَبِد الذي لا يلتزم بموافقة المحكومين، أو هي حكم الفرد أو الجماعة دون الالتزام بموافقة الآخرين.

الحاكم في النظام الديمقراطي، فلا يوجد في النظام الإسلامي ما عرف باسم "سلطات رئيس الدولة"، بل يوجد واجبات الخليفة، وطاعة الحاكم في الإسلام مقيدة ومشروطة بالتزامه بالقرآن والسنة؛ لقول النبي ﷺ: "لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف"[1].

قال الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية": "إذا تكاملت فيه شروط العدالة تجوز شهادته وتصح ولايته، فإن انخرم منها وصف مُنِعَ هذه الشهادة والولاية، فلم يُسمع له قول ولم ينفذ له حكم"[2].

والشورى مبدأ أصيل من أصول الإسلام، ويعني: مشاركة الأمة في صُنْع قرارات دولتها ومجتمعها، وإشراكها في حُكْم البلاد، فالأمة هي التي تُمَلِّك حاكمها على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسي، وتُتَوِّجه على هذا وتُعْلِنه له، فيبقى التاج على رأسه ما بقي هو محافظًا أمينًا على صون الدستور، أما إذا حَنِثَ وخان دستور الأمة، فإما أن يبقى رأسه بلا تاج، أو تاجه بلا رأس[3].

وحقوق الشورى التي كفلتها الشريعة للمواطنين تهدف إلى استخلاص عصارة الفكر وتحصيل التجارب والخبرات التي أصقلتها السنون لصالح الأمة الإسلامية، وهي تعني الارتقاء بالإنسان إلى مستوى المسئولية في الوطن، مما يُمَكِّنه من المساهمة الإيجابية في التعبير عن الرأي تجاه أمته والمشاركة في معالجة مشكلات الوطن.

والشورى في الإسلام تعني تكوين رأي عام إيجابي يعكس نظامًا متكاملًا للحكم بين القائد والشعب لا يفقد فيه أي من الطرفين حريته أو يمكنه أن يتهرب من مسئوليته. وهي ليست مُعْلِمة؛ بل هي مُلْزِمة[4]؛ لأنها ليست تفضُّلًا من الحاكم على المحكوم، أو وليدة قوانين تدَّعي أنها حضارية؛ بل هي تشريع إيماني وحق وواجب ودستور لا محيد عن الالتزام به وتطبيقه بما ارتضاه تطبيق الشرع له وهو الإلزام وليس الإعلام فقط، وإلا ما كان للشورى معنى[5].

ثانيًا. فكرة "الحاكمية لله" لا صلة لها بالدولة الدينية الكهنوتية؛ وإنما تعني: السلطة للأمة والتشريع لله:

"لا خلاف بين المسلمين في أن مصدر جميع الأحكام الشرعية من أوامر ونواهٍ هو الله ﷻ، لا يشاركه فيه أحد من الناس فيما وضع من مبادئ وأصول وتشريعات مفصَّلة محددة؛ وطريق التعرف عليها ما أنزل الله في قرآنه أو أوحى به إلى نبيه محمد ﷺ.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التمني، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم (٦٨٣٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (٤٨٧١) واللفظ له.

٢. تهافت العلمانية في الصحافة العربية، سالم البهنساوي، مرجع سابق، ص٢٦٩: ٢٧١ بتصرف.

٣. مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، مقال د. محمد عمارة، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر الثالث عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، تحت عنوان "التجديد في الفكر الإسلامي"، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٧٧.

٤. الشُّورى مُلْزِمة لا مُعْلِمة: بمعنى أن الحاكم مُلْزَم بالأخذ بها وليست مجرد الإعلام.

٥. موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، خديجة النبراوي، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٤١٩ بتصرف.

وفي ذلك ضمان وثيق لحرية الإنسان والحفاظ على كرامته ومصالحه، وعدم استبداد أحد به، أما إعطاء سلطة التشريع والأمر لأحد من الناس فهو إشراك في ربوبية الله، وطريق يؤدي إلى الاستبداد والطغيان والظلم والتعسف، وإهدار حرية الإنسان والإضرار بمصالحه الخاصة.

وقد تضافرت النصوص القرآنية الكريمة الدالة على استقلال الله بهذه السلطة فيما شرع من أحكام، مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ (الأنعام:٥٧)، ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، وقوله: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ (غافر)"[1]. فالحاكمية في الإسلام تعني أن الله ﷻ هو المشرع لخلقه، وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويُحِلُّ لهم ويُحَرِّم عليهم، وهذا أمر مقرر عند المسلمين جميعًا؛ لذلك لم يعترض الإمام عليٌّ على قول الخوارج: "لا حكم إلا لله"، وإنما اعترض على الباعث والمُبتَغَى المقصود من ورائه؛ وهذا هو معنى قوله ﷺ: "كلمة حق يُراد بها باطل".

والإمامان أبو الأعلى المودودي وسيد قطب هما أشهر من استخدم مصطلح "الحاكمية لله" ولكنهما لم يتركا المجال للربط بين هذا المصطلح وبين نظام الحكومة الدينية التي كانت في أوربا في عصور الظلام[2].

ويذهب د. يوسف القرضاوي إلى أن: "الحاكمية التي قال بها المودودي وقطب وجعلاها لله وحده، لا تعني أن الله تعالى هو الذي يُوَلِّي العلماء والأمراء يحكمون باسمه؛ بل المقصود بها الحاكمية التشريعية فحسب، أما سند السلطة السياسية فمرجعه إلى الأمة، هي التي تختار حكامها، وهي التي تحاسبهم وتراقبهم، بل تعزلهم، والتفريق بين الأمرين مهم، والخلط بينهما مُوهِم مضلل كما أشار إلى ذلك د. أحمد كمال أبو المجد بحق، فليس معنى "الحاكمية لله": الدعوة إلى دولة ثيوقراطية، بل هذا ما نفاه كل من سيد قطب والمودودي رحمهما الله.

أما سيد قطب فقال في كتابه "معالم في الطريق": "ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم - هم رجال الدين - كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يعرف باسم "الثيوقراطية" أو "الحكم الإلهي المقدس"؛ لكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة".

وأما الشيخ المودودي فإنه وإن كان استعمل لفظ "الحكومة الإلهية" المُوهِم بالتشابه مع "الثيوقراطية الكنسية الأوربية"؛ فإنه فرق بين المصطلحين أو بين طبيعة الحكمين ونظامهما يقول: "ولكن الثيوقراطية الأوربية تختلف عنها الحكومة الإلهية - الثيوقراطية الإسلامية - اختلافًا كليًّا؛ فإن أوربا لم تعرف منها إلا التي تقوم فيها طبقة من السَّدَنة[3] مخصوصة يُشَرِّعون للناس قانونًا من عند أنفسهم حسب ما شاءت

---

١. نظام الإسلام، د. وهبة الزحيلي، دار قتيبة، دمشق، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٥٩.

٢. بَيِّنَات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١٦٤ وما بعدها.

٣. تهافت العلمانية في الصحافة العربية، سالم البهنساوي، مرجع سابق، ص٢٧٣ وما بعدها.

أهواؤهم وأغراضهم، ويسلطون ألوهيتهم على عامة أهل البلاد مُتَسَتِّرِينَ وراء القانون الإلهي، فما أجدر مثل هذه الحكومة أن تُسَمَّى "بالحكومة الشيطانية" منها "بالحكومة الإلهية".

وأما الثيوقراطية التي جاء بها الإسلام، فلا تستبد بأمرها طبقة من السَّدنة أو المشايخ، بل هي التي تكون في أيدي المسلمين عامة، وهم الذين يتولون أمرها والقيام بشئونها وَفْق ما ورد به كتاب الله وسنة رسوله[1] ®.

ثالثًا. الأمة مصدر السلطات في الإسلام، والحاكم مسئول أمامها وهي رقيبة على تصرفاته:

الأمة هي الأصل الذي يُنْشِئ عقد الإمامة أو البيعة في الإسلام، وهي التي تختار من يتولى أمرها، وذلك بواسطة البيعة الصحيحة الشرعية، فالأمة التي يجب عليها إقامة الإمامة، هي المسئولة أولًا عن أداء هذا الفرض والمطالبة بتنفيذه حتى وإن أنابت عنها في إنجاز ذلك بعضًا منها، فالمسئولية تبقى دائمًا مسئوليتها، والوجوب يظل واقعًا عليها.

ومما يدل على ذلك أن العلماء حينما عرَّفوا "الإمامة" ذكروا أن الأمة هي صاحبة الرئاسة العامة، ومن حقها أن تعزل الإمام لِفِسْقه، فقد ذكر البغدادي في كتابه "أصول الدين" أن: "الجمهور الأعظم من أهل السنة والمعتزلة والخوارج والنجارية قالوا: إن طريق ثبوتها - أي الإمامة - الاختيار من الأمة".

وإذا أردنا أن نعبر عن ذلك بلغة القوانين الدستورية الحديثة؛ فإن ذلك يعني أن الأمة من الوجهة السياسية العملية هي "مصدر السلطات"، وأن كل ما يصدر عن الإمام وهو رئيس الدولة من سلطات أو ولايات، فمرجعه الأول إرادتها، وإذا أنابت الأمة عنها هيئة أو مجموعة من الأفراد أصبحوا هم المسئولين عن تأدية الواجب، وهو اختيار الحاكم ومراقبته ونصحه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وإذا قصَّروا في أداء هذا الحق وقع عليهم الإثم، وهذه الهيئة أو المجموعة من الناس أطلق عليهم علماء السياسة الشرعية اسم "أهل الحل والعقد"[2].

ويخضع الحاكم المسلم لرقابة الأمة التي وَلَّتْه، فإن عدل ونفَّذ أحكام الشرع وجبت طاعته، وإن جار وانحرف خلعته وَوَلَّت غيره، قال الإيجي: "وللأمة خلع الإمام وعزله بسبب يوجبه، كأن يوجد ما يوجب اختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين". وقال ابن حزم بعد أن ذكر واجبات الخليفة: " فهو الإمام الواجب الطاعة، ما قادنا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فإن زاغ عن شيء منها؛ مُنِع من ذلك، وأقيم عليه الحد الحق، فإن لم يُؤْمَن أذاه إلا بخَلْعه خُلِعَ ووُلِّي غيره".

وبهذا يظهر أن الحاكم مسئول عن تصرفاته أمام رعيته، كما أنه في ضميره وقلبه يشعر بخطورة المسئولية العظمى أمام الله في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

---

1. سَدَنة المكان: من يقومون بخِدْمته والوقوف عليه، كسدنة الكعبة، وسدنة بيت الأصنام.

® في **"ارتباط مفهوم الثيوقراطية بالثقافة المسيحية"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة والأربعين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي ٢).

2. النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الدين الريس، مرجع سابق، ص٢١٦ وما بعدها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأنفال)، ويقول النبي ﷺ: "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته..."[1]. وقال: "ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاشٌّ لهم، إلا حرَّم الله عليه الجنة"[2].

ويشعر الخليفة بثقل هذه المسئولية وفداحة تبعاتها كما يعبر عنه قول عمر ﷺ: "لو ماتت سَخْلَة[3] على شاطئ الفرات ضيعة لخِفْتُ أن أُسأَل عنها"[4].

وإذا عجزت الأمة عن خلع الحاكم - كما حدث في الماضي - فلا يعني عجزها التسليم والإقرار بمشروعية حكمه، وإنما يكون السكوت إقرارًا للأمر الواقع؛ عملًا بمبدأ "الضرورات تبيح المحظورات"[5].

الحرية السياسية:

لقد صان الإسلام الحرية السياسية بأمور ثلاثة:

١. أنه جعل أمر المسلمين شورى فيما بينهم، وهذا يجعلهم شركاء في الحكم، يتحملون مَغَبَّة اختيارهم، فيستمتعون بحسن الاختيار، ويذوقون سوءه إن كان، وعليهم حينئذ أن يعالجوا هذا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢. أنه ليس في الإسلام من ذات مَصُونة لا تُمس؛ بل الجميع أمام الشرع سواء، وكلٌّ يخطئ ويصيب، حتى رسول الله كان فيما يعمله برأيه من غير وحي به إليه يخطئ ويصيب، وينبَّه إلى خطئه إن كان الأمر يتعلق بمبدأ من مبادئ الإسلام.

وإن اضطهاد الآراء منشؤه أن يعتقد الحاكم في نفسه النزاهة عن الخطأ، أو يُزيِّن له مَن حوله من المنافقين ذلك، أو يجعلوا ذلك من أسس العلاقة بينه وبين الناس، وحينئذ يكون التضييق على الأفكار والآراء.

٣. ما أوجبه الإسلام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن ذلك الواجب سهَّل على الناس إبداء آرائهم، ولقد "أباح الإسلام للناس أن يبدوا آراءهم في أعمال الحاكمين، من غير فتنة ولا تحريض على الفساد، ولقد كان بعض الناس يتطاولون على مقام النبي، ويعترضون على ما يقوم به من أعمال، ومع ما انطوت عليه نفوسهم من مرض النفاق، ما كان يلومهم على قولهم حتى لا يتخذه بعض الأمراء من بعده مسوِّغًا لمنع الناس من إبداء آرائهم، فكان يتحمل ذلك مع مرارته، ويأخذ بالرفق خشية أن يفتح الباب لمن يجيء بعده"[6].

إن الحاكم في الإسلام مقيد غير مطلق؛ فهناك شريعة تحكمه، وقيم توجهه، وأحكام تقيِّده، وهي

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن (٨٥٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية (٤٨٢٨) بنحوه.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح (٦٧٣٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار (٣٨٠) بلفظ: ما من عبد يسترعه الله رعية.

٣. السَّخْلَةُ: ولد الشاة من المعز والضأن ذَكَرًا أو أُنثى ساعة تضعه أمّه، والجمع سَخْل وسِخَال.

٤. أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، أبو عمر والأوزاعي (٦/ ١٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في طاعة أولي الأمر، فصل في نصيحة الولاة ووعظهم (٧٤١٥).

٥. نظام الإسلام، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٢٢٧، ٢٢٨.

٦. دراسات إسلامية في الأسرة والمجتمع، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، قسم: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، ص٢٠١، ٢٠٢.

أحكام لم يضعها هو ولا حزبه ولا حاشيته، بل وضعها له ولغيره الله ﷻ، ولا يستطيع هو ولا غيره أن يلغوا هذه الأحكام أو يغيروها، أو يجمدوها، فلا ملك ولا رئيس ولا حكومة ولا برلمان، ولا مجلس ثورة، ولا لجنة مركزية، ولا مؤتمر شعبي، ولا أي قوة تملك أن تغير من أحكام الله الثابتة شيئًا.

ومن حق أي مسلم أو مسلمة إذا أمره الحاكم بما يخالف شريعة الله تبارك وتعالى أن يرفض، بل واجبه أن يرفض؛ لأنه إذا تعارض حق الحاكم وحق الله، فحق الله مقدم ولا شك؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ففي الحديث الصحيح: "إنما الطاعة في المعروف"[1].

وفي الحديث أيضًا: "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكرِه، ما لم يُؤْمَر بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة"[2].

وقد قال أول خليفة في الإسلام ـ أبو بكر ﷺ ـ في أول خطبة له: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"[3].

فالحاكم أو الإمام أو الخليفة في الإسلام ليس وكيل الله، بل هو وكيل الأمة، هي التي تختاره، وهي التي تراقبه، وهي التي تعزله، وقد قال عمر ﷺ: "من رأى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقوِّمني"[4].

وخلاصة القول أنه إذا كانت الدولة الكهنوتية قد عرفت الحكم بالحق الإلهي، فكانت الدولة فيها نائبة عن السماء ولا وجود للأمة؛ وإذا كانت الدولة العلمانية تحكم باسم الشعب، ولا وجود فيها لشريعة السماء، فإن الدولة الإسلامية فيها حاكمية الشريعة، والأمة مستخلفة لتحقيق حاكمية الشريعة، وليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وهي سلطة خوَّلَها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم، كما خوَّلها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط بين الخلافة عند المسلمين وما يسميه الفرنج " ثيوكراتيك "أي: سلطان إلهي؛ فأصل من أصول الإسلام قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها[5].

الخلاصة:

- سيطر رجال الدين على مجريات الأمور في أوربا في المدة التي عرفت في التاريخ بـ" العصور الوسطى "، وكانت سلطة هؤلاء سلطة زمنية دينية، وهذا مخالف لأصول المسيحية الصحيحة التي لا علاقة لها بأمور الحكم، فيمكن من خلال هذا أن نطلق على هذا الحكم

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التمني، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم (٦٨٣٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (٤٨٧١) واللفظ له.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (٦٧٢٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (٤٨٦٩) بنحوه.

٣. أخرجه معمر بن راشد في جامعه، باب لا طاعة في معصية، إني قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن ضعفت فقوِّموني (١٣١١)، وعبد الرزاق في المصنف، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية الإمام عبد الرزاق، باب لا طاعة في معصية (٢٠٧٠٢).

٤. بينات الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٥٧ وما بعدها.

٥. مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، د. محمد عمارة، مرجع سابق، ص٧٦، ٧٧ بتصرف يسير.

مصطلح " حكم ثيوقراطي "، أو " حكم رجال الدين "، ولكن هذا لا يصح في حق الحكم في المجتمع المسلم؛ لأن نظام الحكم الإسلامي يقوم على الاختيار والبيعة والشورى دون أي تسلط من قِبَل الحاكم على المحكومين.

- مصطلح "الحاكمية لله" لا علاقة له بنظام الحكم الثيوقراطي الغربي؛ لأنه نظام إسلامي يَعْنِي أن السلطة الفعلية تكون للأمة، ولكنها تشريع من الله ﷻ، فهو الذي يأمرهم وينهاهم، وهو الذي يحل ويحرم، ولا توجد أي سلطة دينية تستقل بالحكم دون غيرها.
- الأمة في الإسلام هي مصدر السلطات في ظل الأحكام الشرعية التي وضعها الله ﷻ، ولها سلطة مباشرة على الحاكم، فهي التي تراقبه وترصد كل تصرفاته، فإن أصلح أَقَرَّته وأعانته على القيام بأمر الله في الرعية، وإن أفسد فإن لها السلطة في أن تعزله وتولي مكانه من يصلح، وهذا ما أَقَرَّه الخلفاء الراشدون في بداية خلافة كل واحد منهم.

الشبهة الثالثة

الزعم أن التَّخلف الذي يعيشه المسلمون ناتج عن فساد أنظمة الإسلام الفكريَّة والتشريعيَّة (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن أسباب تخلف المسلمين لا ترجع إلى عدم الامتثال لما رسمه الإسلام من قواعد الحياة الفُضْلَى، وإنما ترجع إلى الفساد الجوهري في الأنظمة الفكرية والتشريعيَّة التي أقرها. ويرمون من وراء ذلك إلى القول بعدم صلاحية الإسلام لقيادة أمة نحو التقدم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) مصدر الأنظمة الفكرية و التشريعية في الإسلام مصدر إلهيٌّ، من عند الله الذي أتقن كل شيء صنعًا.

٢) الأنظمة الفكرية والتشريعية في الإسلام تميزت بخصائص فريدة تقاصرت دونها كل النظم حتى الآن.

٣) تخلُّف المسلمين مرهون بتفريطهم وَتَخَلِّيهِم عن مبادئ الإسلام فالعيب في المسلمين لا في أنظمة الإسلام.

التفصيل:

أولا. مصدر الأنظمة الفكرية والتشريعية في الإسلام إلهي:

إن أساس النظم التشريعية في الإسلام أساس فكري علمي نفسي، شامل لجميع مجالات الحياة الإنسانية، كفل للمسلمين الصحة النفسية، والحضارة الراقية والحياة السعيدة الآمنة. والسبب في ذلك أن الأنظمة الفكرية والتشريعية الإسلامية تعتمد على توجيه إلهي لخالق الخلق، العالم بشئونهم وما يصلحهم.

وعن عوامل النهوض بالعالم الإسلامي في ضوء نظم الإسلام ذاتها الفكرية والتشريعية يحدثنا د. شوكت محمد عليَّان فيقول:"إن المخرج للإنسانية اليوم من ورطتها أن تربط ما بينها وبين الروحانيات برباط من الود والتفاهم، مستندة في ذلك إلى وحي سماوي يتمشى مع سنن الوجود، وليس غير الإسلام يتفق مع

(*) ظلام من الغرب، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

تلك السنن؛ لانفراده بِمَزِيَّة الإصلاح وتعميمه بين جميع الأجناس في الحكم والتشريع عكس الديانات الأخرى، فالدِّيانة اليهودية مثلًا تُحَرِّم أن يُقْرِض يهودي يهوديًّا بالربا، ولكنها تبيحه إذا أقرض أبناء الأمم الأخرى، ولو كان مضاعفًا، كما أنها تأمر اليهود إذا ما انتصروا أن يكونوا أصحاب السيادة والثراء؛ أما المغلوبون فهم ما بين قتلى ومسخرين وغنائم. والديانة المسيحية جاءت دعوتها روحانية صرفة، وقد أغفلت روح التشريع في السياسة والاجتماع وغيرهما فاصطدمت بواقع الحياة، وانتهت إلى خصومات وحزازات لا تهدأ لها نفس ولا يستقر لها بال.

والناظر إلى الإسلام بعين الإنصاف يجده الدين الوحيد الذي يستطيع أن يُوَفِّق بين مصالح الناس جميعًا، ويحقق الأمن والاستقرار في نفوس البشر جميعًا، فهو قد كفل الحرية بما رفع من مقام الإنسان، وقرر النظام بما أتى من أحكام الشرع، وجعل طاعة الله ورسوله وأولي الأمر واجبات يقوم بها الناس وهم راضون، مع إعطائهم حق بذل النصح لأُولِي الأمر، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ (النساء)[1]، وجعل للإنسان كرامة يجب أن يعتز بها، بحيث لا تخرجه العزة عن واجب الإخاء الإنساني العام، وجعل العمل للخدمة العامة عبادة، والعمل الذي في سبيل الرزق عبادة ليصل الدنيا بالآخرة، ثم مزج بين الحق الذي يكون دفاعًا عن العدوان، والحق الذي يكون اشتراكًا في نظام عالمي، وقدر المساواة فيما تكافأت فيه المواهب والقدرات.

أما إذا تميز الإنسان بقدرة خاصة أو موهبة خاصة كان حرمانه الفضل ظلمًا، وكذا قرر وجوب التوازن في المجتمع فكَرِهَ تكديس الثروات في جانب، والحرمان في جانب، وبهذا مهد لقيام نظام عالمي بعد أن وضع نظامًا سياسيًّا عامًّا، واجتماعيًّا عامًّا، واقتصاديًّا عامًّا، فهو لم يتخذ من روحانيته حصونًا تعزله عن العالم وتمنعه من النشاط الفكري والإنساني: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ (القصص: ٧٧).

فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يمكن للحضارات أن تعتمد عليه، وتستقي منه كل أنشطتها، وهو الدين الوحيد الذي قدر على حل مشاكل الإنسان والتوفيق بينها، فما على البشر الآن إلا أن يستظلوا بظله الظليل ويتمسكوا بحبل الله المتين، فيَسْتَرْوِحوا نسمات الحياة الهادئة المطمئنة التي يرفرف عليها الإخاء الإنساني الصحيح، وتخفق راية العدل الكامل الشامل، ذلك العدل الذي يصلها بعصر النبوات، فتتسلح بسلاح روحي، وتتكافل تكافلًا اجتماعيًّا يجعل الغَنِي لا يأكل حتى يُتْخَم وبجانبه من لا يجد القُوْت، وبهذا تقوم في العالم من جديد حضارة لا يكون القوَّامون عليها الأقوياء الفَجَرَة، بل الأتقياء البَرَرَة"[2].

---

١. طاعة أولي الأمر في حدود ما أمر الله ورسوله، قال ﷺ: "لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف". أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التمني، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم (٦٨٣٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (٤٨٧١) واللفظ له.

٢. الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت محمد عليَّان، دار الشوَّاق، الرياض، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٣٦٥، ٣٦٦.

إن دعوى فساد الأنظمة الفكرية والتشريعية في الإسلام دعوى باطلة لا يؤيدها دليل من العقل ولا من النقل ولا من الواقع، بل تنقضها أدلة العقول والنقول والوقائع جميعها. ففي نقض هذا الادعاء يقول د. القرضاوي: "إن الذي أنزل هذه الشريعة الإلهية وبيَّن أحكامها، وكلَّف خَلْقه العمل بها، هو الذي خلق الناس وعلم ما هم في حاجة إليه من الأحكام فَشَرَعَهُ، وعلم ما يصلحهم ويرقى بهم من الشرائع، فألزمهم به. قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ (الملك). فهو أعلم بهم من أنفسهم، وأبرُّ بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم.

وإذا كان خالق الإنسان هو منزل الشريعة، فلا يتصور أن يتناقض ما شرعه مع مصلحة عباده، إلا أن يكون غير عالم بذلك حين شرعه، وهذا لا يقول به مسلم. أو يكون عَلِمَه، ولكنه أراد أن يُعَنِّتَهُمْ، وَيُلْزِمَهُم العُسر والحرج، وهذا مَنْفِي بالنصوص القاطعة.

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وقال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) ﴾ (المائدة)، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾ (النساء)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠) ﴾ (البقرة)"[1]. ®

١. المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٣٥٥.

® في **"تفرُّد الله بالتشريع في التصوُّر الإسلامي"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

ثانيًا. الأنظمة الفكرية والتشريعية في الإسلام تميزت بخصائص فريدة تقاصرت دونها كل النظم حتى الآن:

فمن خصائص الأنظمة الفكرية والتشريعية الإسلامية أنها:

١. أنظمة إنسانية عالمية متجددة:

تعتمد الحضارة الإسلامية - بصفة أساسية - على الفكر الإسلامي المستمد من الكتاب والسنة، ولكنها تميز بين العبادات والعقائد من جانب، وما عداها من نظم من جانب آخر، والجانب الأول يخص المسلمين وحدهم، أما الجانب الثاني فهو عام يشمل المسلمين وغير المسلمين.

ومن هنا كانت أنظمتها الفكرية والتشريعية أنظمة إنسانية عالمية غير عنصرية[2] وغير متعصبة؛ فهي تخاطب البشر كافة، وتسوي بينهم بصرف النظر عن دينهم ولغتهم وجنسهم، مصداقًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ (الحجرات).

وهي أنظمة تقوم على التسامح الديني، اتِّباعًا لقوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦). وهي أنظمة متجددة؛ لأنها تفتح باب الاجتهاد - فيما لم يَرِد فيه نص قطعي؛ وتحض على العلم والتأمل في أمور الكون؛ ولذلك كان للأبحاث العلمية الإسلامية دور مشهود في بناء صرح الحضارة العالمية الحديثة.

٢. العُنْصريَّة: مذهب يُفرِّق بين الأجناس والشعوب بحسب أصولها وألوانها، ويُرَتِّب على هذه التفرقة حقوقًا ومزايا.

٢. قيام نظام الحكم على الشورى والمساواة وكفالة الحريات السياسية:

تميزت الأنظمة الفكرية والتشريعية الإسلامية ـ عما عاصرها وما تلاها من أنظمة ـ بإقامة نظام الحكم على أساس الشورى، ولم يضع القرآن الكريم، ولا السنة المطهرة أحكامًا تفصيلية لنظام الشورى، واكتفيا بصياغة المبدأ العام، وتركا التفصيلات لظروف المجتمع.

ومبدأ المساواة أصل عام من أصول الحكم في الإسلام، ويعبر القرآن الكريم عنه بالعدل، والأمر بالعدل والنهي عن الظلم وردت فيه آيات قرآنية كثيرة، وأحاديث نبوية متعددة، ومن أهم تطبيقات العدل الخطاب الموجه إلى أولي الأمر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ (النساء:٥٨).

وقد كفلت النظم الفكرية والتشريعية الإسلامية الحريات السياسية للناس كافة، والشواهد التاريخية تقطع بذلك، ومنها ما قاله الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ لواليه على مصر عمرو بن العاص: "متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"؟

وكذلك الحال في شأن حرية العقيدة، قال تبارك وتعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:٢٥٦)، وتكمل حرية العقيدة حرية إقامة الشعائر الدينية، بل إن التسامح الديني وصل مداه في تقرير حق أهل الكتاب من اليهود والنصارى في اتباع ما ورد في دينهم من أحكام لصيقة بالدين، مثل الأحوال الشخصية، ولو كانت مخالفة للتشريع الإسلامي.

٣. تتضمن الأنظمة الفكرية الإسلامية تنظيمًا شاملًا لأمور الدين والدنيا:

يعد الدين وما ينظمه من قيم روحية وأخلاقية دعامة أساسية من دعامات المجتمع الإسلامي، وأداة فعالة في تحقيق الانسجام الاجتماعي، وركيزة أساسية للتضامن الاجتماعي.

ولا تترك الأنظمة الفكرية والتشريعية الإسلامية رعاية شئون الدين لضمير الفرد بعيدًا عن الدولة؛ بل إن مسئولية حفظ الدين ورعايته تقع على عاتق الدولة.

وبالجمع بين الدين والدولة يتوخى الإسلام تربية الإنسان السوي الطبيعة، الذي تتوازن داخله كل نوازع النفس البشرية، ويلزمه بأن يراعي في سلوكه مصلحته الذاتية، ومصلحة الجماعة التي يعيش فيها، وبذلك تقوم الأنظمة الإسلامية على تحقيق التوازن بين الجانبين المادي والروحي في حياة الإنسان، وفي تنظيم علاقته بالغير؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ (القصص).

واستكمالًا لهذا المبدأ تؤكد شريعة الإسلام على وجود التكامل بين الحياة الدنيا والآخرة؛ فسلوك الإنسان في الدنيا هو الطريق إلى نعيم الآخرة أو عذابها، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ (الزلزلة)، وبهذه الصورة يجتمع للفعل الواحد جزاءان: جزاء دنيوي توقعه السلطة العامة، وجزاء أخروي وأمره موكول إلى الله.

ولذلك نظم الإسلام كل قواعد السلوك الإنساني: قانوني، ديني، أخلاقي. وتبين أنظمة الإسلام أن العلم ليس خادمًا مطيعًا للإيمان، كما كان الحال في العصور الوسطى في أوربا، كما أن الدين ليس عدوًّا مبينًا للعلم حسبما ينادي المذهب الشيوعي؛ فالأحاديث النبوية تجعل من طلب العلم فريضة، والآيات القرآنية تدعو الإنسان إلى اكتشاف أسرار الكون بالدرس والملاحظة والتفكير، ومن هنا كان الاجتهاد وحرية التفكير أصلًا من أصول حضارة الإسلام، فالإسلام يقبل الاجتهاد لملاحقة التطورات الاجتماعية والعلمية والاقتصادية، وهو ما عبر عنه الرسول الكريم ﷺ بقوله: "إن الله يبعث من هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها أمر دينها"[1].

٤. تقوم الأنظمة الإسلامية على التكافل الاجتماعي:

تستهدف الأنظمة الفكرية والتشريعية الإسلامية إقامة مجتمع يوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، وتقيم هذا التوازن على أساس التآخي والمحبة والتراحم، وهو ما نعبر عنه الآن بالسلام الاجتماعي، أو التكافل الاجتماعي، والقرآن الكريم قاطع في هذا الشأن، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة:١٤٣).

ولذلك تتشابه النظم الإسلامية مع بعض النظم الحديثة في وجوه وتفترق عنها في وجوه أخرى؛ وذلك لأنها تتفادى النتائج السلبية لكل منها؛ فتتفادى النتائج السلبية للعولمة التي تقوم على الأنانية المفرطة وحب الذات، وتتفادى الحقد الطبقي والكراهية التي يقوم عليها المذهب الشيوعي.

وتحرص النظم الإسلامية على ألا يكون التآخي والتراحم بين أفراد المجتمع مجرد شعار؛ بل لا بد أن يكون نظامًا قانونيًّا يحكم العلاقات بين الناس دونما تمييز بينهم.

وآية ذلك تحريم كل ما من شأنه أن يكون مصدرًا للحقد والضغينة والاستغلال مثل "الخمر والميسر والزنا وعقود الغرر والربا والاحتكار".

ولا يجوز عقلًا أن يتم الحكم على النظم الإسلامية في حالة عدم وجودها في أرض الواقع أصلًا، أو في حالة تطبيقها تطبيقًا جزئيًّا فاسدًا من جانب بعض الحكام في بعض العصور، فهذه التجاوزات تحدث في أي حضارة قديمة أو حديثة، وكذلك الأمر بالنسبة لتقدم المسلمين أو تخلفهم عن ركب الحضارة السائد في المجتمع.

فالمعادلة ثابتة ومعلومة في كثير من التوجيهات النبوية، وفي العديد من الآيات القرآنية التي حَثَّت على العلم، والأخذ بأسباب التقدم، وبينت أن مكانة العمل وما لصاحب العمل من الثواب والأجر في الدنيا والآخرة إلى جانب كونه كفارة للذنوب.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (التوبة)، وقول النبي ﷺ للرجل:

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (٤٢٩٣)، والطبراني في المعجم الأوسط، باب الميم، من اسمه محمد (٦٥٢٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٩٩).

"اعقلها وتوكل"[1]، أي: خذ بالأسباب ثم توكل على الله ﷻ بعد ذلك.

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن النظم الفكرية والتشريعية للإسلام قد اتسعت لتشمل كل الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكل ما يحقق مصلحة، أو يدرأ به مضرة أو مفسدة، وما يستقيم به أمره في الدنيا والآخرة، وسبحان الله ﷻ إذ يقول: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك)[2].

ثالثًا. تخلف المسلمين مرهون بتفريطهم وتخلّيهم عن مبادئ الإسلام، فالعيب في المسلمين المفرطين لا في أنظمة الإسلام العريقة:

وهذه حقيقة يؤكدها الواقع ويشهد بها التاريخ ويعرفها كل من درس الإسلام وتاريخه أو قرأ في تراثه الزاخر.

لقد قادت الحضارة الإسلامية مسيرة العلم والمعرفة في القرون الوسطى التي تعدُّها أوربا عصور الظلام، في حين أنها تمثل عصور التنوير في تاريخ أمتنا.

وحسبنا أن نشير في هذا السياق إلى أن جورج سارتون قسّم في كتابه "مقدمة في تاريخ العلوم" النشاط العلمي على مدى التاريخ إلى فترات تستمر كل فترة منها نصف قرن، وجعل على رأس كل فترة عالـمًا يكون رمزًا لها على مستوى العالم. فمن ٧٥٠م إلى ١١٠٠م على مدار ٣٥٠ سنة كان كل العلماء الرامزين من العالم الإسلامي: جابر بن حيان والخوارزمي والرازي والمسعودي وأبو الوفاء البيروني وعمر الخيام، وكانوا مسلمين عربًا وأتراكًا وأفغانًا فنبغوا في علوم الكيمياء والرياضة والطب والجغرافيا والطبيعة والفلك. وفي سنة ١١٠٠م ولمدة ٢٥٠ سنة أخرى ابتدأ اشتراك الأوربيين مع علماء العالم الإسلامي، أمثال ابن رشد والطوسي وابن النفيس، وفي تلك المدة قامت النهضة الأوربية الحديثة التي بدأت بترجمة علوم العالم الإسلامي ودراستها والإضافة إليها حتى يومنا هذا، وتلك هي الحقيقة التاريخية التي يشير إليها ويؤكدها العالم العربي المسلم المقيم في ألمانيا، د. محمد منصور الذي اختير من بين ألفي شخصية عالمية تركت بصماتها على الحياة الإنسانية خلال القرن الماضي بمبادرة من جامعة كمبردج[3].

أما تخلف المسلمين اليوم فإن الإسلام لا يتحمل وزره؛ لأن الإسلام ضد كل أمثال التخلف، وعندما تخلف المسلمون عن إدراك المعاني الحقيقية للإسلام تخلفوا في ميدان الحياة، ويعبر مالك بن نبي - المفكر الجزائري الراحل - عن ذلك تعبيرًا صادقًا حين يقول:

"إن التخلف الذي يعاني منه المسلمون اليوم ليس سببه الإسلام، وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام

---

١. حسن: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه (٢٥٧١)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الورع والتوكل (٧٣١)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢٥١٧).

٢. أثر العولمة على الهوية الثقافية في العالم الإسلامي، مقال د. صوفي أبو طالب، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر الحادي عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، تحت عنوان "نحو مشروع حضاري لنهضة العالم الإسلامي"، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٧١: ٨٩ بتصرف.

٣. خصائص الحضارة الإسلامية، مقال د. عبد العزيز بن عثمان التويجري ، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، تحت عنوان "حقيقة الإسلام في عالم متغير"، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٩٧٨.

على المسلمين؛ لتَخَلِّيهِم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين، فليست هناك صلة بين الإسلام وتخلف المسلمين، ولا يجوز الخلط بين الإسلام والواقع المتدنِّي الذي يشهده العالم الإسلامي اليوم.

فهناك أسباب خارجية ترجع في جانب كبير منها إلى مخلفات عهود الاستعمار التي عاقت البلاد الإسلامية عن الحركة الإيجابية، وهذا بدوره - بالإضافة إلى بعض الأسباب الداخلية - أدى إلى نسيان المسلمين للعناصر الإيجابية الدافعة لحركة الحياة.

والتخلف الذي يعانيه المسلمون يعد مرحلة تاريخية في تاريخهم، ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أنهم سيظلون كذلك إلى نهاية التاريخ؛ بل هي السُّنَّة الكونية وتعاقب الدهور والأزمان. إن الأمانة العلمية تقتضي أن يكون الحكم على موقف الإسلام من الحضارة مبنيًّا على دراسة منصفة لأصول الإسلام، وليس على أساس إشعاعات واتهامات وأحكام سابقة لا صلة لها بالحقيقة"[1] ®.

الخلاصة:

- إن النظم الإسلامية "الفكرية والتشريعية" لها أساس فكري علمي نفسي شامل لجميع مجالات الحياة الإنسانية؛ وذلك لأنها تعتمد على منهج إلهي محكم من عند الله ﷻ، العالم بما يصلح شئون خلقه؛ قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ (الملك).
- النظم الإسلامية هي الوحيدة التي تقدر على حل مشاكل الإنسان، وعودة المسلمين مرة أخرى إلى ريادة النهضة الحضارية وقيادة التقدم العالمي إذا تمسكوا بها، والتاريخ الإسلامي للنبي ﷺ وخلفائه من بعده خير شاهد على النتيجة الرائعة لتطبيق هذه النظم في الاجتماع والاقتصاد والسياسة وجميع مجالات الحياة الإنسانية.
- النظم الفكرية والتشريعية الإسلامية تأمر وتحض على العلم، وقد تقدم المسلمون على العالم عدة قرون بفضل اتباع وتطبيق النظم الإسلامية، وذلك في حِقَبِ الازدهار الناتجة عن تمسك المسلمين بمنهجهم الإلهي الحكيم.
- لا شك أن أعداء الإسلام - خاصة اليهود - يحاولون تشويه حقائق الإسلام بالغلط والتلبيس منذ بعثة النبي ﷺ وحتى الآن، ولقد بدءوا بزعزعة الثوابت لدى المسلمين، لا سيما عندما فشلت قوة السيوف والمدافع في تحقيق مآرب أعداء الإسلام بالقوة.
- اعتمدت النظم الإسلامية على منهج الله ﷻ خالق الخلق الأعلم بما يصلحهم، ولقد ثبت من خلال حقائق الواقع والعلم والطب وعلم النفس، أنه "حيث يوجد شرع الله فثم المصلحة".
- إن الأنظمة الفكرية والتشريعية في الإسلام متعددة، فمنها الاجتماعي ومنها الاقتصادي، والتعليمي، والعلمي، والإنساني، وكانت هذه الأنظمة سببًا في رقي المسلمين وتقدمهم لما التزموا بها. وعندما تخلوا عنها تراجع تقدمهم وسقطوا في وهدة التخلف، ولا سبيل لعودتهم إلى مكان الصدارة إلا باتباع هذه

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٦٤٣، ٦٤٤.

® في **"ارتباط التخلُّف الحضاري للمسلمين بتخلِّيهم عن الإسلام"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة العاشرة، من هذا الجزء.

النظم والالتزام بها واحترامها.

الشبهة الرابعة

الزعم أن الإسلام خرافة في عقول أتباعه، ولا أثر له في إصلاح النظم الحياتية(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الإسلام ـ كغيره من الأديان ـ خرافة محلها الضمائر والقلوب لا أرض الواقع، ولا أثر له في إصلاح الحياة بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية، زاعمين أن الدين أفيون الشعوب، وتنهُّدات الجماعات المظلومة، ولو رُفِعَ الظلم لزال الدين، وأن الأخلاق نسبية غير ثابتة، تتغير حسب الزمان والمكان والظروف والأحوال، كما يزعمون أن الله خلق الكون وأودع فيه ما يديره ذاتيًّا دون تدخل إلهي، وأن التراث الإسلامي يجب إخضاعه لمناهج الفكر الأوربي اللاديني. هادفين من وراء ذلك إلى محو الصورة الحقيقية للإسلام وكونه نظامًا شاملًا للحياة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) حاجة الإنسان إلى الدين أساسية وأصيلة، تتصل بجوهر الحياة وسر الوجود وما وراءه.

٢) الإسلام منظومة إصلاحية شاملة لكل جوانب الحياة، وليس محله القلوب والضمائر فقط، وذلك بشهادة الواقع والتاريخ والمنصفين على اختلاف عقائدهم وأديانهم.

٣) محاولة إخضاع التراث الإسلامي لمناهج الفكر الغربي غرضها تحريفه بما يوافق الحياة العصرية المستمدة من الإلحاد الغربي؛ وغايتها تغريب المسلمين عن قِيَمهم، ومحو الدين من حياتهم.

٤) الإسلام رسالة ربانية، هدفها إصلاح الكون، وتحرير الإنسان، وإقامة العدل والمساواة، ورفع الظلم، ولا تنطبق عليه مقولة "الدين أفيون الشعوب" كبعض الأديان والمذاهب والأيديولوجيات الأخرى.

التفصيل:

أولا. وظيفة الدين في الحياة وحاجة الإنسان إليه:

إن حاجة الإنسان إلى الدين ضرورية وملحة وليست ثانوية ولا هامشية، وهي كما يقول د. يوسف القرضاوي: "حاجة أساسية تتصل بجوهر الحياة وسر الوجود، وأعمق أعماق الإنسان"، ويرجع د. يوسف القرضاوي وجه الحاجة إلى الدين في حياة الإنسان إلى عدة أسباب، منها[1]:

١. حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى في الوجود:

إن حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق ـ أول ما تنبثق ـ من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله، أي إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التي شُغِلَت بها فلسفات البشر ولم تقل فيها ما يَشْفِي الغليل.

(*) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، أبو الأعلى المودودي، ترجمة: خليل الحامدي، دار القلم، الكويت، ١٩٨٠م.

١. بينات الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٤٢ وما بعدها.

فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها: من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟! ومهما تشغله مطالب العيش عن هذا التساؤل، فإنه لا بد واقف يومًا ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة:

من أين جئت وجاء هذا الكون العريض من حولي؟ هل وُجدت وحدي أو هناك خالق أَوْجَدَني؟ ومن هو؟ وما صلتي به؟ وكذلك هذا العالم الكبير بأرضه وسمائه، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه، هل وُجد وحده أو أوجده خالق مدبر؟

ثم ماذا بعد هذه الحياة.. وبعد الموت؟ إلى أين المسير بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضي؟ أتكون قصة الحياة مجرد "أرحام تدفع، وأرض تبلع" ولا شيء بعد ذلك؟!

ثم لماذا وُجد الإنسان؟ ولماذا أُعطي العقل والإرادة، وتميز عن سائر الحيوان؟ أهناك غاية من وجوده؟ أم وجد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام ثم يَنْفق (يموت) كما تنفق الدواب؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده في الدنيا فما هي؟ وكيف يعرفها؟

أسئلة تلح على الإنسان في كل عصر، وتتطلب الجواب الذي يَشْفِي الغليل ويطمئن به القلب، ولا سبيل إلى الجواب الشافي إلا باللجوء إلى الدين.. إلى العقيدة الدينية الصافية، الدين هو الذي يعرِّف الإنسان - أول ما يعرفه - أنه لم يخرج من العدم إلى الوجود مصادفة، ولا قام في هذا الكون وحده، وإنما هو مخلوق لخالق عظيم، هو ربه الذي خلقه فسواه فعدله، ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وأمده بنِعَمِه الغامرة، منذ كان جنينًا في بطن أمه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣)﴾ (المرسلات).

وهذا الكون الكبير من حوله ليس غريبًا عنه ولا عدوًّا له؛ إنه مخلوق مثله لله لا يسير جزافًا ولا يمشي اعتباطًا، كل شيء فيه بقدر، وكل أمر فيه بحساب وميزان، إنه نعمة من الله للإنسان ورحمة، ينعم بخيراته، ويستفيد من بركاته، ويتأمل في آياته، فيستدل به على ربه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)﴾ (الأعلى)، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٠)﴾ (آل عمران).

٢. حاجة الفطرة البشرية:

ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية، ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضًا، فالإنسان ليس عقلًا فقط كالعقول الإلكترونية، إنما هو عقل ووجدان وروح، هكذا تكونت فطرته، ونطقت جِبِلَّته.

فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة، ولا يشبع نهمته فن ولا أدب، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة، ويظل قَلِقَ النفس، جوعان الروح، ظمآن الفطرة، وشاعرًا بالفراغ والنقص، حتى يجد العقيدة في الله، فيطمئن بعد قلق، ويسكن بعد اضطراب، ويأمن بعد خوف، ويحس بأنه وجد نفسه.

ويتساءل الفيلسوف "أوجست سباتيه" في كتابه "فلسفة الأديان" قائلًا: "لماذا أنا متدين؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة، إلا وأراني مسوقًا للإجابة عنه بهذا الجواب، وهو: أنا متدين لأني لا أستطيع خلاف ذلك؛ لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي، يقولون لي: ذلك له أثر من آثار الوراثة، أو التربية، أو المزاج،

فأقول لهم: قد اعترضت على نفسي كثيرًا بهذا الاعتراض نفسه، ولكنني وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها".

ولا عجب أن وجدنا هذه العقيدة عند كل الأمم: بدائية ومتحضرة، وفي كل القارات: شرقية وغربية، وفي كل العصور: قديمة وحديثة، وإن كان الأكثرون قد انحرفوا بها عن الصراط المستقيم.

ويقرر المؤرخ الإغريقي "بلوتارك" أنه: "قد وُجِدَتْ في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا قصور، ومدن بلا مدارس، ولكن لم توجد أبدًا مدن بلا معابد".

ولهذا جعل القرآن الكريم الدين ـ بمعنى العقيدة ـ هو الفطرة البشرية نفسها: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ (الروم)®.

٣. حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية:

وثَمَّة حاجة أخرى إلى الدين، حاجة تقتضيها حياة الإنسان، وآماله فيها، وآلامه بها، حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوي إليه، وإلى سناد متين يعتمد عليه إذا ألمت به الشدائد، وحلت بساحته الكوارث، فَفَقَد ما يحب، أو واجه ما يكره، أو خاب ما يرجو، أو وقع به ما يخاف، هنا تأتي العقيدة الدينية، فتمنحه القوة عند الضعف، والأمل في ساعة اليأس، والرجاء في لحظة الخوف، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

إن العقيدة في الله، وفي عدله ورحمته، وفي العوض والجزاء عنده في دار الخلود، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية؛ فتشع في كيانه البهجة، ويغمر روحه التفاؤل، وتتسع في عينه دائرة الوجود، وينظر إلى الحياة بمنظار مُشْرِق، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد في حياته القصيرة الفانية، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ولا يُغني عنه علم ولا فلسفة، ولا مال ولا ولد، ولا مُلْكُ المشرق والمغرب.

ورضي الله عن عمر إذ قال: "ما ابتليت ببلية إلا كان لله عليَّ فيها أربع نعم: إذ لم تكن في ديني، إذ لم أحرم الرضا، إذ لم تكن أعظم، إذ رجوت ثواب الله عليها"[1].

أما الذي يعيش في دنياه بغير إيمان، يرجع إليه في أموره كلها ـ وبخاصة إذا ادْلَهَمَّتْ[2] الخطوب، وتتابعت الكروب، والتبست على الناس المسالك والدروب ـ يستفتيه فيفتيه، ويسأله فيجيبه، ويستعينه فيعينه، ويمنحه المدد الذي لا يغلب، والعون الذي لا ينقطع ـ الذي يعيش بغير هذا الإيمان يعيش مضطرب النفس، متحير الفكر، مبلبل الاتجاه، ممزق الكيان.

إن التمزق الجسمي البشع مثل للتمزق النفسي الذي يعانيه من يحيا بغير دين، ولعل الثاني أقسى من الأول، وأنكى في نظر العارفين المتعمقين؛ لأنه تمزق لا ينتهي

® في **"الحاجة الفطرية إلى الإيمان"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الأولى، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"فطرية النزعة الدينية في الإنسان"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، والوجه الثاني، من الشبهة الثالثة، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

١. أخرجه المناوي في فيض القدير (٢/ ١٥٠٦).
٢. ادْلَهَمَّت الخُطُوب: أي كثر ظلامها.

أثره في لحظات، بل هو عذاب يطول مداه، ويلازم من نكب به طول الحياة.

ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرضون أكثر من غيرهم للقلق النفسي، والتوتر العصبي، والاضطراب الذهني، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة، فإما انتحروا انتحارًا سريعًا، وإما عاشوا مرضى النفوس، أمواتًا كالأحياء! على نحو ما قال الشاعر العربي قديمًا:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ!

إِنَّمَا المَيْتُ مَنْ يَعِيْشُ كَئِيْبًا كَاسِفًا بَالُهُ قَلِيْلَ الرَّجَاءِ!

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسي في العصر الحديث، وهو ما سجله المفكرون والنقاد في العالم كله:

مثل قول المؤرخ الفيلسوف "أرنولد توينبي": "الدين إحدى الملكات الضرورية الطبيعية البشرية، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحي، تضطره إلى التماس العزاء الديني على موائد لا تملك منه شيئًا".

وقَوْل د. "كارل بانج" في كتابه "الإنسان العصري يبحث عن نفسه": "إن كل المرضى الذين استشاروني خلال الثلاثين سنة الماضية من كل أنحاء العالم، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم، وتزعزع عقائدهم، ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم".

وقَوْل "وليم جيمس" (فيلسوف المنفعة والذرائع): "إن أعظم علاج للقلق ـ ولا شك ـ هو الإيمان".

وقَوْل د. "بريال": "إن المرء المتدين حقًّا لا يعاني قط مرضًا نفسيًّا".

وقَوْل "ديل كارنيجي" في كتابه "دع القلق وابدأ الحياة": "إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوي والاستمساك بالدين، كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبي، وأن يشفيا من هذه الأمراض".

وقد أفاض د. "هنري لنك" في كتابه "العودة إلى الإيمان" في بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجربه من وقائع وفيرة خلال عمله في العلاج النفسي®.

٤. حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية:

وهناك حاجة أخرى إلى الدين: حاجة اجتماعية، إنها حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط: بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير وأداء الواجب، وإن لم يوجد من البشر من يراقبهم أو يكافئهم، وضوابط تحكم علاقاتهم، وتلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده، ولا يعتدي على حق غيره أو يفرط في خير مجتمعه، من أجل شهوات نفسه، أو منفعته المادية العاجلة.

ولا يقال: إن القوانين واللوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث، فإن القوانين لا تخلق باعثًا، ولا تكفي ضابطًا، فإن الإفلات منها ممكن، والاحتيال عليها ميسور، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط أخلاقية تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها، لا بد من هذا الباعث الداخلي، ومن هذا

® في **"أثر الإيمان في تحقيق السكينة النفسية"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الأولى، والوجه الثالث، من الشبهة الثانية، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"الفقر الروحي في أوربا"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الحادية والعشرين، من هذا الجزء.

الوازع الذاتي، لا بد من "الضمير" أو "الوجدان" أو "القلب" ـ سَمِّه ما شئت ـ فهو القوة التي إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله، وإذا فسدت فسد كله.

ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقراء التاريخ ـ أن العقيدة الدينية لا يغني غناءها شيء في تربية الضمير، وتزكية الأخلاق، وتكوين البواعث التي تحفز على الخير، والضوابط التي تردع عن الشر، حتى قال بعض قضاة العصر في بريطانيا ـ وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة، رغم تقدم العلم، واتساع الثقافة، ودقة القوانين: "بدون أخلاق لا يوجد قانون، وبدون إيمان لا توجد أخلاق".

ولا غرو أن اعترف بعض الملاحدة أنفسهم بأن الحياة لا تستقيم بدون دين، وبدون عقيدة في الله وفي الجزاء في الدار الآخرة، حتى قال "فولتير":

"لو لم يكن الله موجودًا لوجب علينا أن نخلقه" أي نخترع للناس إلهًا، يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويلتمسون رضاءه؛ فيعملون الصالحات، ويجتنبون السيئات. ويقول مرة أخرى: "لم تشككون في وجود الله، ولولاه لخانتني زوجتي، وسرقني خادمي"! وقال بلوتارخ: "إن مدينة بلا أرض تقوم عليها، أسهل من قيام دولة بلا إله"[1].

ثم يخلص د. القرضاوي إلى أن تجارب الواقع وتجارب التاريخ كلها تنطق بأصالة الإيمان في الحياة، وضرورته للإنسان، فهو ضروري للفرد ليطمئن ويزكو، وهو ضروري للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرقى، ثم يوضح زيف دعوى من يرى أنه بالإمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حينًا، أو المذاهب الفكرية الأيديولوجية الحديثة حينًا آخر، فيقول: وكلا التصورين خطأ، فقد بين الواقع الناطق أنه لا شيء يغني عن الدين ويقوم بديلًا عنه في أداء رسالته الضخمة في حياة الإنسان، فمجال العلم غير مجال الدين.

إن العلم الحديث محدود الوسع، محدود القدرة، محدود المجال، ففي وسع العلم أن يمنح الإنسان الوسائل والآلات، ولكن ليس في وسعه ولا من اختصاصه أن يمنحه الأهداف والغايات، وما أتعس الإنسان إذا تكدست لديه الوسائل دون أن يعرف لنفسه هدفًا ولا لحياته قيمة، إلا أهداف السباع في العدوان، أو أهداف البهائم في الأكل والسفاح، أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان، وخصائص الإنسان، وكرامة الإنسان، فلا.

إن الدين وحده هو الذي يمنح الإنسان أهدافًا عليا للحياة، وغايات كبرى للوجود، ويجعل له فيه مهمة ورسالة، ولحياته قيمة واعتبارًا، كما يمنحه القيم الخلقية والمثل العليا التي تحبسه عن الشر، وتحفزه على الخير، لغير منفعة مادية عاجلة[2].

وتحت عنوان "وظيفة الدين في الحياة، وحاجة الناس إليه" كتب د. محمد الزحيلي بحثًا مركّزًا ذكر في مقدمته أنه استخرجه من استقراء النصوص الشرعية، والمبادئ الإسلامية، والقواعد الكلية، والأحكام

١. بينات الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٤٢: ٤٨.

٢. المرجع السابق، ص٥١.

الفقهية، وأنه قد ظهر له بالدليل والبرهان والمنطق والعقل والواقع والتجربة، عظمة الوظيفة التي يؤديها الدين في الحياة بما يتناسب مع الفطرة البشرية، والتصور السليم عن الكون وخالقه، مما يقطع بحاجة الناس إليه على المستوى الفردي والجماعي.

ثم قال بعد ذلك: "وتتوالى الأيام والسنون، وتتعاقب الحوادث والأحداث لتزيد الأمر وضوحًا في وظيفة الدين في الحياة، وتقدم الدليل بعد الدليل على حاجة الناس إليه، وأن العلم والحضارة والتقدم لا يحلون محل الدين؛ لأن العلم سلاح ذو حدين. وقد يستعمل للتدمير والفتك والإبادة، إذا لم يُلجِّمه الدين والأخلاق والقيم والرقابة الإلهية، ولذلك تتعالى الصيحات للعودة إلى الدين، والالتجاء إليه، والتفيؤ بظلاله، والاستئناس بقيمه وأحكامه، واستنشاق عبيره وعطره ليهتدي الضال، ويئوب الفاسق، ويستيقظ الغافل، ويستقر التائه، وينعم الجميع بما يحققه من سعادة في الدنيا، وينتسبون إلى روضة الإسلام الفيحاء.

كما برزت الحركات الفكرية والسياسية، والاجتماعية المعاصرة، تستعين بالدين، وتطالب بتطبيقه؛ ليمارس وظيفته، ويحل المشاكل والمآسي والصعوبات، وقد رأينا آلاف الأفراد، والعديد من المجتمعات تلوذ في السنوات العشر الأخيرة بالدين، وتلجأ إلى حِمَاه؛ لتنوع الأدلة والبراهين على وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه" [1].

ثانيًا. الإسلام منظومة إصلاحية شاملة لكل جوانب الحياة، وليس محله القلوب فقط:

يمتاز الدين الإسلامي عن غيره من القوانين الوضعية والأيديولوجيات الإصلاحية البشرية، بل عن جميع الأديان السماوية بأنه تناول علاقات الإنسان الثلاث: علاقته بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بمجتمعه؛ لأنه للدنيا والآخرة؛ ولأنه دين ودولة؛ ولأنه للبشر جميعًا؛ ولأنه الدين الخالد إلى يوم القيامة.

كما يمتاز الإسلام - فيما يمتاز به - بمسايرته لواقع الحياة، وصلاحيته لكل عصر، وتوافقه مع كل جيل، وفي أصوله التشريعية القوى الكاملة التي تمد كل البشر بتشريعات حية نامية متطورة تكفل للناس في مختلف بيئاتهم وعصورهم العدالة والاطمئنان والحياة الكريمة الطيبة.

وقد استطاع الإسلام بتشريعاته ونظمه الحضارية أن يقدم الدليل على صلاحيته وقدرته عندما أتيح له أن يُطبَّق في دنيا الواقع، فكانت مدة تطبيقه فترة فاضلة توافرت فيها العدالة الاجتماعية، والكرامة الإنسانية، وارتفعت فيها المُثُل العليا منارة تضيء لأجيال الإنسانية المقبلة طريق الخير والمجد.

لقد نعم الناس بالحياة السعيدة، وتفرغوا لحمل رسالة تحرير العالم كله من أغلال الظلم، وكابوس الجهل وظلمات الضلال.

وإن واقع الأمم الأخرى التي تعمل بأنظمة مغايرة لهذا الدين - ليشهد للإسلام وتشريعاته بالكمال والسمو؛ إذ تضطر هذه الأمم أن تنزل عن بعض ما في تشريعها ونظامها، وأن تستعير من الإسلام أمورًا عديدة. أما الإسلام فلا يستعير شيئًا من القوانين

١. وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، د. محمد الزحيلي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ١٩٩٩م، ص٥، ٦.

الوضعية أو المناهج والأيديولوجيات الأخرى[1].

ويوضح لنا الأستاذ محمد قطب عناصر الثورة الإصلاحية التي حققها الإسلام في جميع مناحي الحياة في عدة نقاط؛ إذ يقول:

فالإسلام أول نظام واقعي طُبِّقَ في واقع البشر حاول أن يقيم "ملكوت الله" في واقع الأرض، ولا يرجئه إلى ما بعد هذه الحياة، في حين أن المسيحية الكَنَسيَّة في أوربا تخلت عن هذه المهمة منذ أول لحظة، وأرجأت "ملكوت الرب" إلى يوم آخر، وأقامت في واقعها "ملكوت القانون الروماني"، الذي أباح استرقاق الأمم والشعوب، وأباح الإقطاع، ثم أباح الرأسمالية[2]، وسمح لطاغوت الجاهلية أن يركب الناس في صور مختلفة خلال ألفين من السنين!

وهذا وحده - على الرغم من كل ما وقع من انحرافات المسلمين - حدث ضخم في تاريخ البشرية، ينبغي تسجيله في التأريخ العلمي الذي يبحث عن الحق ولا يعنيه إلا وقائع التاريخ.

والإسلام - لأنه حاول إقامة ملكوت الله في واقع الأرض - هو الذي حرر الإنسان - من حيث هو إنسان - من كل عبودية تحُدُّ من إنسانيته، وذلك بإخلاص العبودية لله وحده بغير شريك، وإزالة كل طاغوت في الأرض يستعبد الناس، سواء كان الطاغوت صنمًا يُعبد في عالم المحسوسات، أو وثنًا يُؤلَّه في عالم المعنويات، أو كان فردًا، أو قبيلة، أو جماعة، أو طائفة، أو أمة تطغى على الناس، أو كان عُرفًا، أو تقليدًا مستمدًّا من باطل الناس في الأرض، أو كان قوة مادية، أو اقتصادية، وحرره مبتدئًا لا مضطرًّا، ولا واقعًا تحت حتمية من الحتميات الزائفة التي يُؤلِّهها التفسير المادي للتاريخ! وكان ذلك قبل أن تفيق أوربا من ظلماتها، وتثور ثوراتها، وتحقق حُرِّيَّاتها المشوبة بالعوج والانحراف في أكثر من جانب، وكان هذا التحرير - بإخلاص العبودية لله وحده، الجدير وحده بالعبادة - هو المعنى الحقيقي لعقيدة التوحيد، التي تمثلت في الإسلام أصفى ما تكون، وتحققت في واقع الأرض أمكن ما يكون التحقيق، رغم كل ما وقع من انحرافات خلال القرون.

والإسلام هو الذي حرر المرأة - لأول مرة في تاريخ البشرية - تحريرًا نفسيًّا ووجدانيًّا وعمليًّا، وعاملها على أنها إنسان، في حين ظلت أوربا حتى بدايات القرن العشرين تحرمها حق الملك والتصرف في ملكها بالبيع، والشراء، والرهن، والإجارة إلا بوصاية وَصِي، ثم أطلقتها - حين أطلقتها - على طريقة الحيوان لا على مستوى الإنسان، ولا بغية ترقية الإنسانية ورفعها إلى آفاقها العليا، ولكن بُغْية الهبوط بها إلى حمأة الشهوات.

والإسلام هو الذي حَوَّل مجرى العلم من التأملات النظرية إلى المنهج التجريبي، وكان فوق ذلك - لأنه يحاول تحقيق ملكوت الله في واقع الأرض - يستخدم العلم في سبيل الخير، ولا يستخدمه لنشر الإلحاد، ولا لإفساد الأخلاق، ولا لإحداث الدمار في الأرض.

والإسلام هو القوة السياسية الوحيدة في تاريخ

---

١. الرؤى الإسلامية لحقوق الإنسان، مقال د. علي أحمد طه المسيري، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر الخامس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، تحت عنوان "مستقبل الأمة الإسلامية"، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٨٢٣، ٨٢٤.

٢. الرَّأسماليَّة: نظام اقتصادي تكون فيه رءوس الأموال مملوكة لأصحاب الأموال الموظَّفة، وغير مملوكة للعُمَّال، ومن أهم خصائصه التنافس الحرّ لتحقيق أكبر ربح ممكن.

البشرية التي فتحت البلاد دون أن تستعبد العباد، فكفلت للناس حرية العقيدة، وحرية العبادة، وحرية الضرب في فِجاج الأرض ما داموا لا يؤذون المسلمين ولا يقومون بالإفساد في الأرض، ولم تحجب عن البلاد المفتوحة شيئًا مما تملكه من العلم أو الخير؛ اعتزازًا بعَنْجَهِيَّة الغلبة والسلطان.

والإسلام هو الذي قرر أصول المعاملات الدولية في معاهداته التي أبرمها غيره ثم حافظ عليها؛ بينما البشرية ما تزال لا تحافظ على العهد، ولا تفي بالوعد، بل تتبارى في إظهار براعتها في نقض المواثيق والتفلت منها عند أول بادرة تلوح لها، وتحت أي تَعِلَّة تخترعها لتسويغ بربريتها. وهذا كله غير الحضارة الشاملة التي حققها الإسلام في واقع الأرض، والتي تشهد بحيوية هذا الدين في كل اتجاه.

وخلال ذلك كانت تقع الانحرافات، ويقع الهبوط، ويقع الشر، ولكن دون أن يلغي هذا حقائق التاريخ البارزة أو يلغي دلالتها، وإلا فإن هذه الانحرافات كلها ـ وأكثر منها ـ تقع ـ ووقعت بالفعل ـ في تاريخ كل جماعة من البشر، دون أن يكون في مقابلها هذا المستوى من النظافة والرفعة وسمو الآفاق، الذي لم يتحقق، أو لم يتحقق بدرجته تلك كما تحقق في أمة الإسلام[1] ®.

١. المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مرجع سابق، ص٦٩: ٧١.

® في **"شمولية الإسلام لجميع جوانب الحياة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي). والوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي **"بُعد النصرانية عن واقع الحياة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

النظام الاقتصادي في ظل الإسلام:

كتب المفكر الألماني المسلم مراد هوفمان يقول: "لما كان الإسلام توطئة، أو إرشادًا إلى الحياة القويمة في كافة المجالات، كان كذلك في تبيينه للعلاقات التجارية، والتعامل بين القوى المنتجة التي تشمل العمل نفسه، والأرض المستغلة أو المستثمرة، ورأس المال".

باختصار، فإن الإسلام بيَّن مواصفات الاقتصاد السليم، بيد أن القرآن في هذا الصدد لم يذكر سوى بعض الأسس، كما هو شأنه في نظرية الدولة الإسلامية، فترى القرآن يفصل القول في المسلم المقتصد، لا في النظام الاقتصادي، الذي ينبغي للمسلم الأخذ به، وكما أن الإسلام يُلِحُّ على مراعاة الجوانب الأخلاقية في نظام المجتمع أجمع؛ فإنه يبرز ضرورة مراعاة أو التزام تلك القيم الأخلاقية في مجال الاقتصاد والمعاملات التجارية، فتراه يهتم بالدرجة الأولى بالقيم الأخلاقية الاقتصادية لدى المؤمنين، سواء كانوا منتجين أو موزعين أو مستهلكين.

وبالرغم من قلة الأسس المذكورة في القرآن بشأن الأنظمة الاقتصادية؛ فإنها كافية لإقامة أهم الإطارات والشروط الاقتصادية، التي يجب توافرها في كل نظام اقتصادي إسلامي، أو كل نظام اقتصادي يصف نفسه بأنه إسلامي وهي:

١. ينطلق القرآن من احترام الملكية الخاصة للمتاع، أي للأشياء من: عقار وأملاك وبضاعة وممتلكات أخرى، ويدخل في ذلك ـ بشكل أساسي ـ وسائل الإنتاج، وهذا النوع من الملكية الخاصة لا يعد ملكية

مطلقة، كما هي من وجهة نظر القانون الروماني، بل يفهم ذلك على أنه استغلال اجتماعي مشروع، فالملكية المطلقة في الإسلام هي لله وحده.

هذه الصيغة من الملكية لها الأولوية والتفضيل على ملكية الدولة والأوقاف الخاصة، وليس من حق فرد أو أفراد ملكية الثروات الطبيعية المشتركة في عموم النفع مثل: الهواء، والماء، والمرعى، والكلأ، والغابات، والثروات المعدنية، لكن الدولة من حقها منح الرُّخَص للأشخاص والهيئات لاستغلالها.

٢. المسلم مُلْزَمٌ بأن يسعى لكسب نفقات معيشته سعيًا شريفًا، بإسهامه في العمل المنتج، ويشمل هذا التجارة المستهدفة للربح، في إطار الأسعار الحرة التي تسمح بها السوق غير الاحتكارية، فالمضاربات والربح الذي يحققه بعض السماسرة وأمثالهم دون بذل جهد أو عمل حقيقي، كل ذلك حرام في الإسلام، وينسحب هذا على المضاربات في البورصات، والأسواق المالية، والصفقات الآجلة، وكذلك أرباح رأس المال.

٣. على الدولة ـ أي الحاكم ـ أن تراقب الالتزام بقواعد التسعيرة؛ وذلك لتمنع الاحتكار، والغش في الكيل والميزان، وكافة أنواع الجرائم الاقتصادية، وأن تُشرِّع القوانين اللازمة لتحقيق العدالة الاجتماعية، خاصة في مجال الضرائب والجمارك.

ويمكن الاستئناس هنا بهدي القرآن الكريم في تشريعه قوانين الميراث والزكاة، على أن زكاة المال ليست ضريبة تصاعدية صارمة في القرآن الذي حرم الاحتكار والترف المسرف، ولا يحسبن أحد أن من أهداف الإسلام السياسية الاجتماعية ـ المساواة بين الناس في الأموال والكسوب أو الدخول.

٤. ينبغي على المسلم أن يتقي الشُّحَّ والإسراف، فهو مطالب بالاعتدال كذلك بصفته مستهلكًا، لكنه لا ينبغي أن يكون زاهدًا، أي: معتزلًا للدنيا عازفًا عنها تمامًا، فالإسلام لا يرضى له أن ينسى نصيبه من الدنيا.

وتبدو حكمة الإسلام العظيمة في ضمانه للمرونة اللازمة لإقامة الأنظمة الاقتصادية الحقيقية السديدة بعد وضعه للأسس والشروط، أو الأطر العامة التي تحوي هيكل الاقتصاد، لا سيما أن تاريخ الاقتصاد العالمي يثبت أخطاء نظريات الاقتصاد المختلفة ويؤكد فشلها، وهي النظريات التي حسب الناس حين الأخذ بها أول الأمر أنها نظريات سديدة، وذلك يرجع إلى أسباب، منها: التغير المستمر في وضع الشكل الاقتصادي الذي يؤدي بدوره إلى التباين في الآراء والنظريات الاقتصادية، وينسحب ذلك على تاريخ نظريات الاقتصاد الشعبي، وما حفلت به تلك النظريات من أخطاء، وما باءت به من فشل، وذلك ابتداء من آدم سميث، ثم مرورًا بدافيد ريكاردو، وتوماس مالتوس، وكارل ماركس، وجون مايزد كاينيس حتى باول أ. صمويل سون.

والواقع أن علم الاقتصاد الإسلامي الحديث بدأ في التخطيط والتصميم لإقامة نظام اقتصادي إسلامي مميز، بهمَّة كبيرة وحماس مشكور، لكن النجاح المرتقب لم يتحقق إلا بصورة ضئيلة جدًّا، ويرى المسلم ذلك النظام الاقتصادي الإسلامي المنشود بديلًا عن النظام الرأسمالي الاقتصادي الغربي، الذي يؤلِّه السيادة المزعومة للأفراد، وبديلًا عن النظام الشرقي الاشتراكي، نظام الخطط القصيرة والطويلة المدى، الذي يتخذ مجموعة الدولة صنمًا معبودًا.. ولقد صوَّب

بعض المؤيدين لنظام الاقتصاد الإسلامي سهام النقد إلى النظامين (الرأسمالي والاشتراكي)؛ إذ أشار إلى أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي جمع بين الفرد والدولة في علاقة متزنة متساوقة[1] أو منسجمة، وأن الإسلام تمكن قبل ألف وأربعمائة عام في المدينة المنورة من تحقيق قدر من العدالة الاجتماعية والاقتصادية، أقصى مما كان يطمح إليه ماركس أو يحلم به.. ولقد أوضح إفلاس النظام الاقتصادي الشيوعي - بما لا يدع مجالًا للشك - أن حقائق الاقتصاد ليست مسرحًا للدجل والشعوذة"[2].

إن من يضع الاقتصاد في مقابل الدين ويفصل بينهما ويدعي استغناء البشر بأحدهما عن الآخر، كمن يقول: إن الدم هو المهم لجسم الإنسان، وليس الدورة الدموية، فهل يمكن أن يستغني الجسم عن هذه الشبكة؟ فمن يحمل الدم والغذاء وخلافه ليوصله إلى أجزائه المختلفة؟ ولو أردنا أن نضرب مثالًا تفصيليًّا على اهتمام الدين بحياة البشر الاقتصادية؛ فلنتعرف مثلًا على كيفية معالجته لظاهرة الفقر.

يقول الأستاذ محمد فريد وجدي - رحمه الله: "لقد أوجد - أي الإسلام - نظامًا اقتصاديًّا استوعب جميع المبادئ العمرانية المخفِّفة من خطر الفقر والمنجية من آثاره، فأجبر الأغنياء على دفع صدقة عن أموالهم، والصدقة في عُرْفِه هي الزكاة، والزكاة ضريبة إجبارية على كل ذي مال، تجيء منه باعتبار أنها أموال حكومية لأغراض اجتماعية، فهي غير الصدقة التي تُثبِّط الهمم، وتغري بالكسل، وقد جعل الإسلام أمر التصرف في هذه الأموال للحكومة، فهي التي تعمل بما تمليه عليها الحاجة الوقتية والحالة الاجتماعية، ومثل هذا الأخذ من الأغنياء، قد لجأت إليه الأمم الغربية قاطبة اليوم باسم "الضرائب" على رءوس الأموال، وعلى الدخل وعلى المواريث، والغرض منها كلها تدارك حاجات الفقراء، وقد بزَّهم الإسلام جميعًا، وسبقهم بثلاثة عشر قرنًا بتقرير نظام الزكاة، وقد قصد من ذلك إحداث رد فعل إزاء تضخم الأغنياء.

أما قول "ميشليه": إن الأغنياء في كل مجتمع كانوا يزدادون غنى والفقراء فقرًا؛ فهذه الحركة الاندفاعية المستمرة من الأغنياء لا بد لها من حركة عكسية مستمرة مثلها؛ ليحفظ التوازن من تعاكسهما. فما قرره الإسلام من الزكاة يمنع من تركُّز المال في أيدي رجال معدودين، وحرمان الكافة منه حرمانًا مطلقًا.

ولم يهمل الإسلام إزاء هذا الحل بقية الأصول العمرانية المخفِّفة للفقر، فدعا إلى الهجرة، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠)﴾ (النساء)، وعنى عناية خاصة بالحث على التعاون، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢)﴾ (المائدة).

فالتشريع الإسلامي قد مزج الأصول المخففة للفقر، وجعل من مجموعها نظامًا آليًّا محكمًا يعمل في

---

١. مُتَساوِقة: أي متقاربة، من تَسَاوَقَ الشيئان، إذا تقاربا أو تسايرا.

٢. الإسلام كبديل، مراد هوفمان، مرجع سابق، ص١٥١: ١٥٤.

المجتمع عمل الأداة المنظمة للحركة الاقتصادية، فمنع ـ بفرض الزكاة ـ تركُّز المال كله في أيد معدودة، وسنَّ بالحث على الهجرة انتقال العدد الزائد من المجتمع إلى البلاد الأخرى تخفيفًا للضغط عليه، وجعل من حثه على التعاون هيئة تصلح للتوفيق بين العمل ورأس المال.

وقد حث الإسلام بجانب هذا على الصدقة الاختيارية، فحاكى في ذلك جميع الأديان ومذاهب الأخلاق، فهو لم يبتكر هذه الفضيلة، ولكنه أيَّدها وحضَّ عليها، وأبى أن تكون هذه الصدقة سببًا في تكاسل بعض طبقات المجتمع، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ كان إذا هاجر إليه أفراد من جهات بعيدة ـ ولم يجدوا لهم مرتزقًا، والأمة في أول تكونها ـ أمرهم أن يقيموا بالمسجد، فما زالوا يتكاثرون حتى بلغ عددهم أربعمائة، فكانوا إذا طرأ قتال خرجوا معه، فإذا عادوا أووا إلى المسجد وكان الناس يتولونهم بالنفقة، فلما تولى عمر الخلافة، واتسعت مملكة العرب صرفهم من المسجد قائلًا: لقد احتفظ النبي ﷺ بكم في عهد لم تكونوا تجدون فيه مرتزقًا، ولكن اليوم قد اتسعت في وجوهكم أبوابه، فامضوا لشأنكم واعملوا مع العاملين.

أليس كل ما تقدم يثبت أن محمدًا ﷺ كان أكبر بناة الأمم وأعظم صاغة الشعوب؛ إذ فكر ـ وهو يقيم صرحه الاجتماعي الضخم ـ في مسألة للطبقات الاجتماعية، فجاء بنظام اقتصادي ـ يقصد جاءت رسالته ـ هو عينه الذي اهتدت إليه الأمم الأخرى في القرن العشرين؛ لتتقي به انحلال وحدتها وتداعي أركانها"[1].

ولعل من أبرز تجليات الاهتمام بترسيخ أركان الاقتصاد الإسلامي في الوقت الراهن ـ ظاهرة إنشاء عدد من البنوك الإسلامية، وهي تجربة تطبيقية حية لمبادئ هذا الاقتصاد وفلسفته، وعنها يقول د. يوسف القرضاوي: "تجربة المصارف الإسلامية تجربة تستحق التنويه والتشجيع والتأييد ولا شك، فقد نَقَلَتْنَا من الميدان النظري إلى الميدان التطبيقي، وبعد أن كان يقال: إنه يستحيل أن يقام اقتصاد إسلامي بلا بنوك، ويستحيل أن تقوم بنوك بلا فوائد ـ والفوائد هي الربا ـ أصبح الناس يشهدون بأعينهم قيام هذه المؤسسات المالية والمصرفية على غير الربا.

لقد مضى وقت على المسلمين في هذا العصر، حاول بعضهم ـ تحت تأثير الهزيمة النفسية أمام حضارة الغرب وأنظمته ـ أن يلوي أعناق النصوص الإسلامية لِيُبيح الربا، ويُجَوِّزهُ بأسانيد شرعية مفتعلة. ثم جاء عصر انتصر فيه الاتجاه الأصيل بأن الربا حرام حرام حرام، ولا بد من إيجاد بديل للمؤسسات الربوية، ثم جاء عصر إيجاد البدائل على الورق، ثم انتقلت من الورق إلى حيز الواقع، وقام أول بنك إسلامي في دُبَي منذ نحو تسع سنوات، تلته بنوك أخرى في عدد من البلدان الإسلامية، وقد استطاعت هذه المصارف الإسلامية أن تعيد للمسلمين ثقتهم بينهم وبين أنفسهم، وأن تفتح لهم أبوابًا للاستثمار كانت مهمَلة، مثل المشاركة والمضاربة والمرابحة، وهيأت للكثير من أصحاب المشروعات أن يجدوا التمويل اللازم

١. الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٢٢٤: ٢٢٦.

لمشروعاتهم بطريقة بعيدة عما حرم الله، ولا ندعي ـ كما لا تدَّعي المصارف الإسلامية نفسها ـ أنها وصلت إلى درجة الكمال، فهي لا تزال في أول الطريق، وهي لا تملك إلا مساحة ضئيلة جدًّا مما تملكه البنوك الربوية، وهي دائمة العمل على تطوير نفسها وتحسين أدائها"[1].

هل ما زلنا بحاجة إلى التدليل على أن تعاليم الإسلام التفتت بوضوح للجانب الاقتصادي، وأنه من الخطأ وضع الاقتصاد والدين في حالة مقابلة ومقارنة، هي أصلًا مقارنة في غير محلها، والزَّعم أن دور الاقتصاد يلغي دور الدين وينسخه ويغني عنه زعم باطل لا أساس له من الصحة؛ ينقضه الواقع ويكذبه التاريخ؟!®.

العدالة الاجتماعية في ظل الإسلام:

جاء الإسلام لإيجاد مجتمع فاضل تتعاون فيه كل القوى، بحيث لا يطغى فريق على فريق، وأول مظهر للمجتمع الفاضل في الإسلام، هو وجود رأي عام فاضل يتعاون على الخير ودفع الشر، فإن المجتمع في مظهره العام يكون بيئة صالحة لأنْ تترعرع في ظلها الفضيلة وتختفي من نورها الرذيلة.

وإن الرأي العام له رقابة نفسية تجعل كل شرير ينطوي على نفسه فلا يظهر، وكل خيِّر يجد الشجاعة في إعلان خيره فيظهره، وإنه لا يُهذِّب الآحاد إلا الرأي العام الفاضل، ولا يفسد الجماعة إلا الرأي العام الفاسد الذي يتقاعد عن نُصرة الفضيلة، ويترك الرذائل رافعة رأسها.

ولأجل تكوين رأي عام فاضل حث الإسلام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأوجب الإرشاد العام ليمتنع الضال عن شروره، ويسير الخيِّر في طريقه، وذلك بإرشاد الفضلاء، فتكون الجماعة في فضيلة ظاهرة تتعاون على الخير، ولا تتعاون على شر قط[2].

والمجتمع الإسلامي مجتمع معنوي، فالعلاقات الاجتماعية فيه تبنى على الروابط الأدبية من توادٍّ وتراحم، لا على أساس من العلاقات المادية فقط، ولذلك يقول ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تَدَاعَى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[3]. ولا شك أن العلاقات المعنوية التي تقوم على المودة والرحمة هي التي يقوم عليها بنيان الجماعات الإنسانية، وهي الروابط التي تربط آحاد الناس ببعضهم، ومثل المجتمع المادي الذي يبني على الاقتصاد، أو على الاجتماع في مكان كمثل الأحجار المتراصة التي يجاور بعضها بعضًا من غير ارتباط وثيق بين أجزائها، وإنه مهما يكن فيه من تنسيق هندسي، لا يمكن أن يكون متلاحمًا متصلًا، وأنه ينهار لأقل عاصفة تثور، ولا يستمر مجتمع إلا إذا كان مهندس

---

١. حول الإسلام وقضايا العصر، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م، ص١٥٤، ١٥٥.

® في **"النظم الاقتصادية في الإسلام"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي). وفي **"وجهَي النظام الاقتصادي الإسلامي: الثابت والمتغير"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة والثلاثين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

٢. دراسات إسلامية في الأسرة والمجتمع، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، قسم: التكافل الاجتماعي في الإسلام، ص٨.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (٥٦٦٥) بنحوه، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٦٧٥١) واللفظ له.

البناء قوّامًا عليه يتتبع ثغراته، فيسارع بسد ما يظهر منها بعمل مادي أيضًا قد تكون قوة غالبة على الإرادات الإنسانية الحرة.

أما المجتمع المعنوي، فإنه يقوم على أساس من العلاقات الروحية الرابطة بين أجزائه، وهو متماسك غير قابل لأن تتداعى لَبِناته؛ لأنه مترابط الأجزاء بما لا يقبل الانقطاع ما دام يُغَذَّى بالروح والدين، وقد يكون غير مُنسَّق اقتصاديًّا، أو هندسيًّا، ولكنه قوي متين، والاعوجاج الهندسي لا يكون دليل الضعف دائمًا، بل قد يكون الاعوجاج الذي يبدو بادي الرأي من أسباب قوة الجسد، وقد يكون التنسيق المصطنع الذي يُعنى بالمظهر دون المخبر دليل الضعف، وليس بدليل القوة.

ولذلك كان كل نظام وضعه الإسلام بالقرآن أو السنة النبوية، الأساس فيه يقوم على التوجيه الديني الذي يغذي نفوس الآحاد لتجتمع، ونفوس الجماعات لتأتلف، ونفوس الحُكَّام ليعدلوا في دولتهم وليعدلوا مع غيرهم، وليعاملوهم بالمثل في دائرة التقوى والفضيلة، وليكونوا في كل تصرفاتهم ملاحظين المعاني الإنسانية في كل إنسان من غير نظر إلى اختلاف الأجناس والشعوب والقبائل والألوان.

ويقول سيد قطب: "وحينما حاول الإسلام أن يحقق العدالة الاجتماعية كاملة، ارتفع بها عن أن تكون عدالة اقتصادية محدودة، وأن يكون التكليف وحده هو الذي يكفلها، فجعلها عدالة إنسانية شاملة، وأقامها على ركنين قويين: الضمير البشري من داخل النفس، والتكليف القانوني من محيط المجتمع، وزاوج بين هذه القوة وتلك؛ مثيرًا في الوجدان الإنساني أعمق انفعالاته، غير غافل عن ضعف الإنسان وحاجته إلى الوازع الخارجي، كما يقول عمر بن الخطاب ﷺ: يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن"[1].

ويحدد الشيخ سيد قطب ـ رحمه الله ـ الأسس التي أقام عليها الإسلام العدالة الاجتماعية وهي:

- التحرر الوجداني المطلق.
- المساواة الإنسانية الكاملة.
- التكافل الاجتماعي الوثيق[2].

ويوضح الشيخ سيد قطب مفهوم العدالة في النظر الإسلامي بأنها: "مساواة إنسانية يُنْظَر فيها إلى تعادل جميع القيم، بما فيها القيمة الاقتصادية البحتة، وهي على وجه الدقة تكافؤ في الفرص، وترك المواهب بعد ذلك تعمل في الحدود التي لا تتعارض مع الأهداف العليا للحياة.

ثم يقول: وهكذا يبدو أن هناك قيمًا أخرى غير القيم الاقتصادية، يحسب الإسلام حسابها، ويجعلها هي القيم الحقيقية، ويجعل منها وسيلة للتعادل في المجتمع حين تتفاوت الأرزاق المالية بين الناس بأسباب التفاوت المعقولة القائمة على الجهد والموهبة، لا على الوسائل المنكرة التي يحرِّمها الإسلام تحريمًا"[3].

ويؤكد الشيخ أبو زهرة على هذه المعاني للعدالة الاجتماعية في الإسلام فيقول:

"العدالة الاجتماعية معناها: تمكين كل ذي قوة من

---

١. ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، باب الألف، ذِكْر من اسمه أحمد وابتداء اسم أبيه ألف (١٧٦٥).

٢. دراسات إسلامية في الأسرة والمجتمع، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، قسم: التكافل الاجتماعي في الإسلام، ص٣٢ وما بعدها.

٣. المرجع السابق، ص٢٧: ٢٩.

أن يعمل بمقدار طاقته، بحيث تهيأ الفرص المناسبة لكي تظهر كل القوى، وتوضع كل قوة في مرتبتها، وأن توجد الكفالة للعاجزين عن العمل؛ لكي يعيشوا وينالوا حظهم من الحياة، وليكونوا قوة في الجماعة إن كانوا صغارًا، وليأمنوا الجوع والعري إن كانوا كبارًا لا يُرْجَى أن يزول سبب عجزهم، وذلك بأن يُهَيَّأ لكل من لا يجد أسباب العيش المسكن المناسب، والكساء المناسب، والغذاء الذي يدفع المخمصة والجوع.

فموجب العدالة الاجتماعية ليس التسوية المطلقة بين الناس، إنما موجبها أن يتساوى الناس في تهيئة الفرص، فيتوافر التعليم المثمر لكل الناس حتى تظهر القوى، ويُوسَّد إلى كل إنسان ما يصلح له من عمل، ووضع كل امرئ في العمل المناسب هو التنظيم الجماعي السليم الذي يتوافر فيه إنتاج كل القوى من غير أن تهمل قوة، أو تعمل فيها دون طاقتها، أو فيما فوق طاقتها فيفسد الأمر"[1].

وتحت عنوان "الفردية والاجتماعية في الإسلام" يوضح الإمام محمد أبو زهرة أن في العالم الآن نظامين بارزين، والناس من بعد ذلك يتقاربون إلى أحدهما أو يتباعدون:

أول هذين النظامين: يتجه إلى ملاحظة الفردية وإعطاء الحرية للآحاد؛ ليواجهوا نشاطهم أفرادًا وجماعات في حرية منطلقة في حدود المجتمع.

والنظام الثاني: يقوم على رعاية المجتمع أولًا وبالذات ثانيًا، وأن الأفراد يُرغمون في بناء المجتمع، فلا حرية لهم إلا ما يعطيها المجتمع إياهم.

ثم يبين أن الإسلام لا يأخذ بأي النظامين جملة وتفصيلًا، فهو لا يمحو حرية الإنتاج الفردي، ولا يُمكِّن تلك الحرية من كل شيء، فهو وإن أعطى الأفراد حقوقًا تجعل لهم حرية الإنتاج، إلا أنه قَيَّدَ هذه الحقوق بألا يكون ثَمَّة ضرر بالمجموع، فما من حق في الإسلام إلا وهو مقيد بعدم الإضرار بغيره، والحرية الشخصية بكل ضروبها حق ممنوح، ولكنها مقيدة بعدم الإضرار، فإذا كان الضرر أو تُوُقِّع الضرر قُيِّدَ الحق تقييدًا قضائيًّا، ومُنِعَ صاحبه من استعماله إلا في الحدود القانونية، أو سلب ذلك الحق.

وإن الإسلام لم يسلك سبيل التقييد القانوني فقط أو القضائي فقط كما يعبر فقهاء المسلمين؛ بل إنه قيد الأمر بقيود دينية، أي جعل العبد مسئولًا أمام الله ﷻ إذا استخدم الحقوق التي منحه الله ﷻ إياها استخدامًا يؤدي إلى الإضرار بغيره من الناس، فوق أن لولي الأمر العادل أن يتدخل قانونًا في كل ما يرى فيه ضررًا يمس الجمهور.

وتتجه الشريعة الإسلامية في كل أحكامها إلى تحقيق الأهداف التي تؤدي إلى تكافل اجتماعي سليم قائم على الائتلاف والتهذيب الديني والعدالة التي لا تكون فيها قوة تتغلب على الأخرى، وإننا نبتدئ بالعبادات التي هي - في ظاهرها - علاقة العبد بربه، ولكن هي - في معناها - تربية الضمير الاجتماعي الذي يجعل الآحاد مندمجين في الجماعات التي يعيشون فيها بقوة روحية تحكم ميولهم وإرادتهم وتوجه عقولهم؛ فيتحقق التكافل الاجتماعي نفسيًّا قبل أن تتدخل القوانين التي لها مُسَوِّغُهَا من الإسلام.

وإن التكافل الاجتماعي المنبعث من النفس ابتداء

1. المرجع السابق، قسم: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، ص١٢٨.

أجدى على المجتمع من تكافل بقوة القانون من غير اعتماد على الإيمان والضمير الديني؛ لأن ما يُبْنَى على القانون قد يوجد في النفس ما يُسَوِّغُ مخالفته، أما ما يعتمد على الضمير الديني أولًا، ثم على القانون ثانيًا، فإن المؤمن يطيعه على أنه أمر من الله الذي يعلم السر وأخفى، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وإن ذلك لا يسوغ له الهروب من الأحكام المقررة بحكم قانوني[1].

إن الإسلام جعل أساس التكافل الاجتماعي مراعاة كل مؤمن لحق غيره مراعاة تامة، وهذبت العبادات النفوس المؤمنة؛ ليتقدموا بقلوبهم طيبة مخلصة لكل نفع لأنفسهم ولجماعتهم، وإن المجتمع لا يمسخ الفرد ويمحو إرادته، ولكنه يجعل إرادته للخير الجماعي بقوة التدين والضمير، فإن لم يكن ذلك، فقوة السلطان وحماية الجماعة من أضرار الفردية؛ ولذلك كانت حقوق الآحاد مقيدة دائمًا بحق الجماعة، فإن لم يتقيد الفرد بحكم الدين، قيد بحكم السلطان، وكان لولي الأمر أن يسنَّ من النظم ما يكفل الرعاية الاجتماعية السليمة، فيقوموا بحق المجتمع مجبرين ما داموا لم يقوموا به مختارين بحكم الدين، وإنه لهذا كفل الإسلام الحرية الفردية للآحاد على ألا يتجاوزوا في حريتهم الحد المعقول؛ لأن كل حق كما قلنا مقيد بعدم الإضرار بالغير.

وإن الحرية معنى اجتماعي، لا يتصور وجوده إلا في مجتمع متكافل يأخذ الآحاد منه ويعطون، وإذا كانت كذلك فلا بد أن تكون في حدود يرسمها المجتمع الفاضل من غير إرهاق نفسي، وإن الذين يفهمون الحرية انطلاقًا هم عبيد الأهواء الذين لا يراعون حق المجتمع، ولا حق أنفسهم عليهم[2].

وإن كل ما في الإسلام من مبادئ، سواء أكانت مبادئ تتعلق بالعقيدة، أم كانت مبادئ تتعلق بالأخلاق، أو التنظيم الإنساني، يتفق تمام الاتفاق مع العقل، حتى أن أعرابيًّا سُئل: لماذا آمنت بمحمد؟ فقال: ما رأيت محمدًا يقول في أمر: افعل والعقل يقول: لا تفعل، وما رأيت محمدًا يقول في أمر: لا تفعل والعقل يقول: افعل.

وإن النظم التي سنَّها الإسلام لا تزال برونقها وصفائها أعدل من كل ما اهتدى إليه العقل البشري من نظم، سواء أكان ذلك في نظام الحُكم، أم في نظام المعاملات المالية، أم في نظام الأسرة، أم كان في الزواجر الاجتماعية من حدود وقصاص وتعزير.

أمَّا القانون الروماني الذي يعده علماء القانون في أوربا أعظم تراث قانوني وصل إليهم عن سلفهم، فلو وُزِنَ بما جاء به محمد عن ربه لكانت الموازنة منتهية بأن نظم الإسلام هي القوانين العادلة حقًّا وصدقًا، ويكفي أن يعلم الباحث أن قانون الرومان يجعل المرأة أَمَة، والإسلام يجعلها حرة في بيت أبيها، وحرة في بيت الزوجية، ويعطيها من الحقوق مثل ما عليها من واجب، فيقول تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾ (البقرة)، أما القانون الروماني فيفتح باب الرِّق على مصراعيه، ويجعل الرق يكون حيث يخرج الرجل غير الروماني من

١. المرجع السابق، قسم: التكافل الاجتماعي في الإسلام، ص١١: ١٣ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص١٦، ١٧ بتصرف.

بلده، فإذا لقيه أي روماني استرقه، ولا يجعل للرقيق أي حق من الحقوق الاجتماعية، بل الإنسانية[1].

الحرية السياسية في الإسلام[2]:

صان الإسلام الحرية السياسية بأمور ثلاثة، هي:

١. أنه جعل أمر المسلمين شورى فيما بينهم، وهذا يجعلهم شركاء في الحكم يتحملون مَغَبَّة اختيارهم، فيستمتعون بحسن الاختيار ويذوقون سوءه إن كان، وعليهم أن يعالجوا آثار سوء الاختيار بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢. أنه ليس في الإسلام ذات مَصُونة لا تُمس، بل الجميع أمام الشرع سواء، وكلٌّ يخطئ ويصيب، حتى رسول الله ﷺ كان فيما يعمله برأيه من غير وحي يُوْحَى به إليه يخطئ ويصيب، وينبه إلى خطئه إن كان الأمر يتعلق بمبدأ من مبادئ الإسلام، وإن اضطهاد الآراء منشؤه أن يعتقد الحاكم في نفسه النزاهة عن الخطأ، أو يزين له من حوله من المنافقين ذلك، أو يجعلوا ذلك أساسًا من أسس العلاقة بينه وبين الناس، وحينئذ يكون التضييق على الأفكار وعلى الآراء.

٣. ما أوجبه الإسلام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن ذلك الواجب سَهَّلَ على الناس إبداء آرائهم، ولقد أباح الإسلام للناس أن يبدوا آراءهم في أعمال الحاكمين، من غير فتنة ولا تحريض على الفساد، ولقد كان بعض الناس يتطاولون على مقام النبي ﷺ ويعترضون على ما يقوم به من أعمال ومع ما انطوت نفوسهم عليه من مرض النفاق، ما كان يلومهم على قولهم؛ حتى لا يتخذه بعض الأمراء من بعده مسوغًا لمنع الناس من إبداء آرائهم، فكان يتحمل ﷺ ذلك ويأخذهم بالرفق؛ خشية أن يَفْتَح الباب لمن يجيء بعده، ولقد سجل القرآن ذلك فقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (التوبة).

ثالثًا. محاولة إخضاع التراث الإسلامي لمناهج الفكر الغربي الغرض منها تحريفه بما يوافق الحياة العصرية المستمدة من الإلحاد الغربي، وتغريب المسلمين عن قيمهم:

لقد كان أكبر هَمِّ الاستعمار أن يطوِّر المسلمين حتى يتقبلوا حضارته الغازية ومفاهيمه المادية، فإن عجز عن تطوير المسلمين، حاول أن يطوِّر الإسلام نفسه حتى يرحب بكل جديد، ويبارك كل تغيير، ويُسَوِّغ كل محظور، وهذا أخطر وأدهى.

لا بد من تطوير الإسلام حتى يكون دين سلام لا دين جهاد، ومعنى السلام في نظر هؤلاء: أن يقبل الإسلام المعايشة مع الغاصبين لأرضه، المعتدين على حرماته، وبذلك يطمئن السادة الصهيونيون والمستعمرون والملحدون على مصالحهم وسرقاتهم ومكاسبهم العدوانية!

ولا بد من تطوير الإسلام في المجال الاقتصادي حتى يقبل الربا الذي يمثل حجر الأساس في الاقتصاد الغربي، ولا بد أن يتطور الإسلام في الجانب الاجتماعي حتى يقبل مساواة المرأة بالرجل في كل شيء، وتسقط ـ كما قالوا ـ بقية الأغلال القديمة عن عنقها، فلا يوجد

---

١. المرجع السابق، قسم: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، ص١٣ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص٢٠١، ٢٠٢.

أي مُسَوِّغ اليوم لقوامة الرجال على النساء، بعد أن تعلمت المرأة كما تعلم الرجل، وأصبحت تعمل في ميادين الحياة كما يعمل، بل لا داعي لأن يرث الذكر مثل حظ الأنثيين، فقد كان هذا التفاوت؛ لأن المرأة لم يكن لها استقلال اقتصادي كما في عصرنا!

ولا بد للإسلام المتطور أن يحرِّم الطلاق وتعدد الزوجات، ويبيح التبرج والاختلاط بين الجنسين، ويسمح للخاطب أن يصحب مخطوبته في المتنزهات والسينما والخلوات! ويجيز للمرأة أن تعمل في كل المجالات، ولو في حانة أو مَلْهَى أو مرقص، أو غير ذلك مما يحرِّمه الإسلام، ولا بد لإسلام القرن العشرين أن يُبيح الخمر والرقص واللهو والسهر الأحمر، ويبارك فتح الخمَّارات والمراقص والملاهي؛ من أجل تشجيع السياحة، وتثبيت معنى "الحرية الشخصية" التي لا تقوم حياة ديمقراطية إلا بها، حرية الفسوق لا حرية الحقوق.

إن هذا الذي يسميه هؤلاء تطورًا، إنما هو انحراف عن الصراط السوي، وسقوط في مهاوي الردى، وهبوط بالإنسان يحاربه الإسلام، ونحن نعجب لهؤلاء الذين يريدون أن يطوروا الإسلام، ويطوعوه لمقتضيات العصر، ونقول لهم: لماذا تطالبون الإسلام أن يتطور، ولا تطالبون التطور أن يُسلم؟! لماذا تريدون أن تطوعوا الإسلام لمقتضيات العصر، ولا تطوعوا العصر لمقتضيات الإسلام؟!

إلا أن فكرة تطوير الدين نفسه فكرة خطرة على الحياة وعلى الإنسان، مهما تُحْسِنُ الظن بدُعاتها؛ لأن الدين هو المقياس الذي يرجع إليه الناس حين يختلفون ويلجئون إليه عندما يضطربون، والمقياس لا بد أن يثبت على حاله، وإلا اضطربت الأحكام، واختلفت التقديرات.

ولهذا فإن فكرة "تطور الدين" فكرة فاسدة ضالة تنتهي بالكفر، فالدين وظيفته إصلاح الحياة والمجتمع ورده إلى الصراط المستقيم.

وفكرة التطور هذه فكرة استعمارية أرادها الاستعمار القديم والحديث، الشرقي والغربي، إنه يريد لكل شعب مسلم تفسيره "الوطني"[١] أو "القومي"[٢] للإسلام، وبذلك توجد إسلاميات متفرقة ضعيفة سهلة، يسهل هدمها وابتلاعها، بدل إسلام واحد قوي تعسر مقاومته، فيوجد إسلام عربي، وإسلام إفريقي، وإسلام هندي، وإسلام أندونيسي... إلخ، وهكذا يفقد الإسلام وحدته، وتفقد أمته وحدتها الفكرية والتشريعية والاجتماعية، وتصبح أممًا شتى كما أراد الاستعمار، لا أمة واحدة كما أمر الله[٣].

ويوضح د. يوسف القرضاوي أن الكلام السابق لا يعني أن الإسلام يعادي التطور الذي هو بمعنى التقدم الحقيقي في مجالات الحياة المختلفة؛ ولكن التطور ليس دائمًا إلى الأفضل، وليس كل تطور يُنتج خيرًا، كما أن جوهر الأشياء لا يتطور.. وعليه فلا يستطيع أحد أن ينكر التطور المحكوم بقيم الإسلام ومبادئه

---

١. الوطنيَّة: سياسة اجتماعية تقوم على حماية مصالح أهل البلد الأصليين وتقديمها على مصالح المهاجرين، وخصوصًا في الولايات المتحدة الأمريكية.

٢. القوميَّة: صلة اجتماعية عاطفيَّة تنشأ من الاشتراك في الوطن واللغة ووحدة التاريخ والأهداف، أو مبدأ سياسي اجتماعي يُفَضِّل معه صاحبه كلَّ ما يتعلق بأمّته على سواه مما يتعلق بغيرها.

٣. بينات الحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٩١ وما بعدها.

وأحكامه الثابتة[1]، إنما التطور المذموم هو الذي يفرغ الإسلام من قيمه ومبادئه وأحكامه، كما يريده أعداء الإسلام من المستعمرين والمستشرقين وغيرهم، مما يوافق مخططاتهم الخبيثة وتآمرهم ضد الإسلام والمسلمين.

رابعًا. قد تنطبق مقولة "الدين أفيون الشعوب" على بعض الأديان والمذاهب والأيديولوجيات، ولكنها لا تنطبق على الإسلام:

لقد ارتفع الظلم وزال عن جماعة المسلمين ـ وهو ما كان محيقًا بهم خلال الفترة المكية ـ بعد هجرتهم إلى المدينة واستقرارهم بها؛ حيث صارت لهم بها قوة وسلطة، وصار الأعداء يرهبونهم، فَلِمَ لم يتحول هؤلاء المظلومون ـ سابقًا ـ عن الدين الذي اعتنقوه تحت الضغط والظلم والقهر على حد زعم هؤلاء المفترين؟!

وحين كاتب النبي ﷺ ملوك الأرض وزعماءها يدعوهم إلى الإسلام، معروف أن عددًا منهم قد رد ردًّا حسنًا وآمن، فمن أجبر ذوي السلطة والجاه هؤلاء على الإيمان بهذا الدين؟! وحين اكتسح الإعصار المغولي مشرق العالم الإسلامي، ودمَّر حواضره واستذلَّ أهله وتصارعت الأديان المختلفة (بوذية، ومسيحية، وإسلام) على اجتذاب هؤلاء الهمج إليها، وفاز في النهاية الإسلام، فأي ظلم وقهر حاق بهؤلاء الغزاة القاهرين لأهل الإسلام وقتها كي يدفعهم لاعتناق هذا الدين؟!

وحين ظهرت في العصر الحديث الدراسات الاستشراقية، وتجرَّد بعض المستشرقين من الهوى والغرض، وأنصفوا إنصافًا حَدَا بهم في النهاية إلى اعتناق الإسلام، وصاروا من المنافحين عنه مثل: محمد أسد، وموريس بوكاي، ورجاء جارودي، ومراد هوفمان. فمن قهر هؤلاء الأكابر وهذه النخبة على اعتناق هذا الدين؟! وحين تذكر التقارير أن الإسلام ـ مع ضعف حال أهله ووهن قواهم، وتكالب الأعداء عليهم في الوقت الراهن ـ يزحف زحفًا ذاتيًّا ـ ببساطة عقيدته ووضوح تعاليمه ـ ويتفوق في صراعه مع المنصِّرين على اجتذاب قبائل إفريقيا الوثنية، مع ضعف إمكانات دعمه وضخامة إمكانات المنصرين وتعدد وسائلهم لإغراء هؤلاء الوثنيين. فأين الظلم والقهر المزعومان هنا؟!

ويفنِّد د. القرضاوي مقولة "الدين أفيون الشعوب" موضحًا أنها لا تنطبق على الإسلام؛ لأنه جاء ليحارب الظلم والفساد، يقول: "أما دعوى الماركسيين: أن "الدين أفيون الشعوب" يفعل في عقولها ما تفعله المخدرات بالأفراد، ويشغلهم عن حقوقهم المسلوبة، بأماني الآخرة، ويخضعهم لإرادة الظلمة والطغاة، فيطيعونهم وهم راضون ـ فهي دعوى مردودة؛ ذلك أن الدين الصحيح لا يُخدِّر الشعب، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه في الدنيا، استغراقًا بطلب النعيم في الآخرة! الدين الصحيح لا يقر الظلم، ولا يرضى بالفساد والانحراف، فإن صح هذا الادعاء في شأن بعض الأديان، فلا يصح بحال في شأن الإسلام.

الإسلام في الحقيقة ثورة إنسانية كبرى، ثورة لتحرير الإنسان ـ كل إنسان ـ من العبودية والخضوع لغير خالقه.. ثورة في عالم الفكر والضمير والشعور، وثورة في عالم الواقع والتطبيق، وكان عنوان هذه الثورة هي

1. المرجع السابق، ص٩٦ وما بعدها.

هذه الكلمة العظيمة، كلمة التوحيد: "لا إله إلا الله" فكل مُدَّعٍ أو مُتعاطٍ للألوهية في الأرض - بالقول أو بالفعل - هو مزور لا وجود له، ولا يستحق البقاء. وكل الذين زعموا لأنفسهم، أو زعم لهم بعض الناس - أنهم أرباب مع الله، أو من دون الله - يجب أن يسقطوا إلى الأبد، ويتواروا عن مسرح الحياة.

الناس إذن سواسية، لا يجوز أن يستعبد بعضهم بعضًا، أو يطغى بعضهم على بعض، فإذا ظلم بعض الناس وطغى وأفسد، كان على الناس أن يعترضوا طريقه، ويأخذوا على يديه، وإلا كانوا شركاء في الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله.

يقول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (هود)، ويقول: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنفال).

ويقول الرسول ﷺ: "إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه، أوشك الله أن يعمَّهم بعقابه"[1]. ويُوجِب على كل من رأى منكرًا - أي ظلمًا أو فسادًا أو انحرافًا - أن يعمل على تغييره بكل ما يستطع من قوة: "من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"[2].

والتغيير بالقلب - الذي هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان - ليس أمرًا سلبيًّا تافهًا، إنها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر، تتوهَّج وتتَّقِد في الجوانح حتى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل، باللسان أو اليد، وأدنى ثمراته العاجلة النفور من الظَّلَمة والمفسدين والمقاطعة لهم، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم.

وقد عدَّ النبي ﷺ مقاومة الظلم والفساد الداخلي - كمقاومة الغزو والعدوان الخارجي - جهادًا في سبيل الله، بل حين سُئل: أي الجهاد أفضل؟ قال: "كلمة حق - وفي رواية: عدل - عند سلطان جائر"[3]. فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه.

فهذا دين يحرض على مقاومة الظلم حتى الموت، ويعد الميت في سبيل ذلك شهيدًا في سبيل الله تبارك وتعالى، بل في طليعة الشهداء المرموقين، بجوار حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء، كما قال ﷺ: "سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله"[4]. ولهذا يبرأ الإسلام الحنيف من كل من يرضى لنفسه بالذل والمهانة، ويصبر على القيد يوضع في رجله، أو الغُلِّ يوضع في عنقه دون أن يُقاوم الظلم، أو يحاول التخلص منه ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة، يقول

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٩)، وأبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٦٤).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (١٨٦).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث طارق بن شهاب رضي الله عنه (١٨٨٥٠)، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠١٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩١).

٤. صحيح: أخرجه الطبراني في الأوسط، باب العين، من اسمه علي (٤٠٧٩)، والحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب (٤٨٨٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٤).

القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ (النساء).

ويَـرُدُّ الرسـول ﷺ منطـق الاستـسلام الجـبري أو السلبي لأحداث الحياة ووقـائع الـدهر باسـم الإيـمان بالقدر، ويعتبر ذلك ضربًا من العجـز المـذموم في ديـن الله؛ فقد ورد عنه ﷺ قوله: "المؤمن القوي خير وأحـب إلى الله من المؤمن الضعيف، احـرص عـلى مـا ينفعـك واستعن بالله ولا تعجز"[1]. وجـاء في أدعيتـه ﷺ التـي علَّمها بعضَ أصحابه: "اللهم إني أعـوذ بـك مـن الهـم والحَزَن[2]، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضَـلَع الدَّيْن[3] وغَلَبَة الرجال"[4]. ففي هذا الـدعاء اسـتعاذة بالله تعالى من كل مظاهر العنف التـي تعـتري الإنـسان فتغلبه وتقهره وتذله.

فهل يقال في مثل هذا الدين الذي يـدعو إلى الثـورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية، ويحرض على نصرة الحق والقوة والحرية: إنه أفيـون الـشعب، يُخـدِّر المرء ويُمنِّيه بنعـيم الجنـة، ليـسكت عـن مظـالم حياتـه الدنيا؟!

لعل ماركس كان معذورًا حين قـال مـا قـال؛ لأنـه لم يعرف الإسلام، ولم يعرف موقفه من الظلـم والبغـي والفساد، مع أن المنهج العلمـي كـان يُلزمـه ألا يـصدر حكمه عامًّا شاملًا إلا بعد استقراء كامل، ودراسة تامة لكل الأديان، أو للأديان الكبرى على الأقل، وأثرها في الأمم على مدار التاريخ، فـإن لم يـستطع كـان عليـه أن يحكم على الدين الـذي عرفـه لا عـلى غـيره. هـذا هـو مقتضى الأمانة العلمية، والمنهج العلمي[5] ®.

أما دعوى نسبية القيم وعدم ثباتهـا، فالقـصد منهـا تمييعها ثم تضييعها، وإطلاق العنان للإنسان ليتـصرف عـلى مقتـضى مـصلحته ولذتـه وشـهوته، دون اعتبـار للآخرين، على الطريقة الحيوانية.

فمـن قـال: إن فـضائل كالعفـة والحيـاء والـصدق والأمانة والوفاء والشهادة والنجـدة والمروءة والكـرم وإتقان العمل تتغير بتغير الظروف، فمن يمنع إنسانًا أن يكون صادقًا في البدو وفي الحضر، وفي القرية والمدينـة، وفي البيت والعمل؟! بالطبع لـيس للظـروف دخـل في هذا، بقدر ما هي طبيعـة هـذا الإنـسان نفـسه، ومـدى استقامته وتقواه وورعه أو العكس.

وحول نفي الملحدين وجود قيم ثابتة بحكم التطور الـذي يغـير القـيم كلهـا كلـما تغـير الوضـع المـادي والاقتصادي، يقول الأسـتاذ محمـد قطـب: "لم يكتـفِ الماديون في تحقير القيم الإنـسانية بنفـي الأصـالة عنهـا وجعلها مجرد انعكاس لقيم مادية؛ بل مضوا شوطًا آخر في تحقيرها فقالوا: إنها ليست ثابتة، إنما هي دائمة التغير كلما تغير الوضع المادي والاقتصادي.

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز (٦٩٤٥).

٢. الحُزْنُ والحَزَنُ: نقيضُ الفَرَح والسُّرور.

٣. ضَلَع الدَّين مُضْلِعٌ: مُثْقِلٌ للأَضْلاعِ. والإضلاعُ: الإمالة.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، بـاب التعـوذ من غلبة الرجال (٦٠٠٢)، وفي مواضع أخرى.

٥. مدخل لمعرفة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبـة، القاهرة، ط٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٣٤: ٣٨.

® في "نقـض مقولـة الـدين أفيـون الـشعوب" طـالع: الـشبهة الخامسة والعشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

بتعبير آخر: يا أيها المثاليون! إنكم تبحثون عن سراب لا وجود له في الحقيقة، حين تتكلمون عن الحق والعدل والخير والفضيلة والجمال والصدق والأمانة... إلخ، إنها كلمات جوفاء يملؤها كل جيل بما يحلو له، ولكنها هي في ذاتها ليست شيئًا ثابتًا محددًا يمكن التعرف عليه، هنا يذكرنا ماركس بـ "دور كايم" الذي يقول: " إن العقل الجمعي هو الذي يضع القيم والنظم، والتقاليد والأخلاق، وهو لا يثبت على حال، يُحِلُّ اليوم ما حرَّمه بالأمس، ويحرم غدًا ما يحله اليوم.

نفس الهدف، ونفس الوسيلة، كل في تخصص من تخصُّصات العلم! فالعلم الماركسي يقول: إنه كلما تغير الوضع المادي أو الاقتصادي، تغيرت معه جميع القيم والمعايير، تغيرت صورة الملكية من ملكية جماعية في الشيوعية[1] الأولى إلى ملكية فردية، فنشأ الرق ثم الإقطاع ثم الرأسمالية، وكان كل منها في حينه صوابًا؛ لأنه هو الاستجابة الطبعية للوضع المادي والاقتصادي، الاستجابة التي لا يمكن أن يوجد غيرها؛ لأنها انعكاس حتمي للأوضاع، ومن ثم فلا ينبغي أن توصف بالخير أو الشر، ولا ينبغي أن ينظر إليها أصلًا من زاوية خُلُقية، ولا بمعيار خلقي ثابت، إنما مقياس كل شيء هو ذاته، ووجود الشيء بالفعل هو مُسَوِّغُ وجوده، ثم يتغير كل شيء حين يتغير الوضع المادي والاقتصادي، فيصبح الوضع السابق خطأً بعد أن كان صوابًا، وتصبح محاربته واجبة بعد أن كانت قبل ذلك محرمة.

وأخلاقيات الإقطاع - مثلًا - من: التديُّن، وسيطرة الأب على الأسرة، والمحافظة على العفة، والغيرة على العرض، وترابط الأسرة، والتعاون الجماعي - كلها أخلاقيات نابعة من الوضع المادي والاقتصادي ومتناسبة معه، ولكنها ليست قيمًا قائمة بذاتها توصف بأنها خير، ويوصف عكسها بأنه شر، إنما هي فقط صواب في وقتها؛ لأنها هي الاستجابة الطبعية للوضع المادي والاقتصادي، ثم إنها تصبح بعد ذلك خطأً، أو تصبح غير ذات موضوع حين تجيء الرأسمالية، ويتكون المجتمع الصناعي المتطور! بل تصبح رجعية وجمودًا وتأخرًا ينبغي محاربته والتحرر منه؛ لأنها لم تعد تستجيب للأوضاع الاقتصادية الجديدة، التي هي المعيار الوحيد الذي تقاس إليه الأمور.

ومحاولة القول بأن الدين قيمة ذاتية، فينبغي أن يوجد على الدوام، أو أن العفة قيمة ذاتية ينبغي أن تظل قائمة في كل مجتمع - هي سذاجة وغفلة ومثالية من جهة، ومن جهة أخرى هي مخالفة لما هو كائن، ولما ينبغي أن يكون؛ لأنه لا وجود لمثل هذه القيم في ذاتها إنها تستمد وجودها من الباعث الذي ينشئها وهو الوجود المادي والاقتصادي، وهذا الباعث دائم التغير لم يثبت - ولا يمكن أن يثبت - على حال، فكيف يثبت ما ينشأ عنه من قيم وأخلاقيات ومعايير"[2]؟!

فإذا وضعنا هذه الدعاوى على مائدة البحث، وجدنا فيها قليلًا من الحق وكثيرًا من المغالطات، فأما أهمية العامل الاقتصادي في حياة الناس فأمر لا ينبغي

١. الشيوعيَّة: مذهب كارل ماركس، وهو نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي يقوم على الإنتاج الجماعي وإشاعة المِلْكيّة وإزالة الطبقات الاجتماعية، وأن يعمل الفرد على قدر طاقته ويأخذ على قدر حاجته.

٢. مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ٢٠٠١م، ص٣٢٩، ٣٣٠.

لعاقل أن ينكره. وأما إفراده بالأهمية، وجعله أساس كل شيء، وجعل كل شيء مجرد انعكاس له، والقول بأنه المحرك الوحيد - أو حتى المحرك الأساسي - لحياة البشر، فأمر مبالغ فيه إلى حد الاعتساف الذي يجعل جانب الحق الضئيل يضيع في وسط الأضاليل. يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾ (النساء)، أي تقوم حياتكم عليها.

والتشريعات التي تنظم تداول المال في القرآن والأحاديث النبوية كثيرة بصورة ملحوظة، توحي بأهمية الحياة الاقتصادية، وأهمية تنظيم العلاقات المتعلقة بالمال، وحين دخل الرسول ﷺ المدينة أمر ببناء المسجد، ثم أمر ببناء السوق، وفي ذلك دلالة واضحة كذلك على أهمية الحياة الاقتصادية في حياة الأمة، وأنها أمر من أمور العبادة كبناء المسجد تمامًا، ولكن المبالغة في تقدير أهميتها أمر لا يستند إلى حقيقة علمية، ثم هو مفسد للتصور وللسلوك على السواء.

لقد احتاج الماديون - من أجل إعطاء الجانب المادي والاقتصادي أهمية مبالغًا فيها - إلى مجموعة من المغالطات والافتراءات التي لا تقوم على أي دليل علمي، أوّلها: مادية الخلق، وثانيها: مادية الإنسان. فإذا ثبت علميًّا - كما ثبت اليوم - أن المادة حدثت ولم تكن موجودة من قبل، وأنها ليست أزلية أبدية كما زعم التفسير المادي للتاريخ، فقد انهار الأساس الأول الذي افترِي افتراءً من أجل إقامة التفسير المادي للقيم الإنسانية. وإذا ثبت علميًّا - كما هو ثابت منذ قيام شيء اسمه العلم في حياة الإنسان - أن الكائن الحي - كل كائن حي - يسير على نمط مخالف للمادة غير الحية، وإذا ثبت علميًّا كذلك - كما هو ثابت من أبحاث الداروينية[1] الحديثة ذاتها - أن الإنسان متفرد عن الحيوان حتى في كيانه الحيوي - البيولوجي - البحت، فضلًا عن كيانه العقلي، وكيانه الروحي وكل شيء فيه، نقول: إذا ثبت ذلك فقد انهار الأساس الآخر الذي افترِي افتراءً من أجل الهدف ذاته. وإذا علمنا أن قصة تطور المادية إن هي إلا مَهْرَب - غير علمي - يهرب به الماديون من مواجهة قضية خلق الحياة من الموات، فضلًا عما أثبته العلم من أن الموات ذاته مخلوق، وأن الكون المادي قد أُنْشِئ من غير وجود سابق، أي: من العدم.

إذا علمنا ذلك فقد انهارت كل مقومات التفسير المادي للقيم الإنسانية القائمة على أساس أن المادة أزلية أبدية خالقة أو متطورة ينتج من تطورها النبات والحيوان والإنسان، وأن الإنسان هو نتاج المادة فحسب، والتفسير الأصوب فيما يتعلق بالقيم الإنسانية والحياة الإنسانية بأسرها هو أن نرجع فيها إلى "الإنسان"، إلى النفس الإنسانية التي هي محور النشاط كله الذي يقوم به الإنسان.

فإذا رجعنا إلى الإنسان كما نراه في عالم الواقع لا في صورته الـمُفْتَرَاة بغير دليل علمي - فسنجد للجانب الاقتصادي مكانًا واسعًا في حياته، ولكننا سنجد في ساحة نفسه مساحات أخرى واسعة لا يشغلها

١. الدَّارونيَّة: هي مذهب يقول بأنَّ الكائنات الحيّة العضويّة تنشأ وتتطوّر على أساس من الانتخاب الطبيعي للاختلافات المورَّثة، وهذا يزيد من قدرتها على البقاء والتكاثر، وهو المذهب الذي قال به داروين في النُّشوء والارتقاء.

الاقتصاد، وإنما تشغلها قيم أخرى أصيلة أصالة المادة وأصالة الاقتصاد، وسنجد كذلك ظاهرة أخرى لا تقل عن ذلك أهمية، هي أن الإنسان وحدة متكاملة، متفاعل فيها كل العناصر والمكونات لتعطي في النهاية تعبيرًا شاملًا هو محصلة العناصر جميعًا والمكونات جميعًا، وأن أي محاولة لتفسير الإنسان بعنصر واحد من عناصره، أو على ضوء عنصر واحد من عناصره ـ هي محاولة ساذجة جدًّا لا تليق بأية نظرية تتعرض لتفسير السلوك البشري.

وسواء كان العنصر الواحد هو الاقتصاد كما قال ماركس، أو الجنس كما قال فرويد، أو العقل الجمعي المسيطر على الأفراد من خارج كيانهم كما قال دور كايم، فكلها أضأل وأكذب من أن تفسر الحياة الإنسانية واسعة الجوانب متعددة ألوان النشاط، ويكفي أن نجمع هذه التفسيرات الثلاثة بعضها إلى جانب بعض ليتضح لنا أن دعوى كل واحد منهم أن تفسيره هو التفسير العلمي الصحيح، هي دعوى كاذبة، وإن اشتملت على شيء من الحق؛ فالاقتصاد جانب مهم، والجنس جانب مهم، وخضوع الفرد للتيارات الجماعية جانب مهم، لكن أيًّا منها لا يستقل وحده بتوجيه الإنسان ووضع معاييره وقيمه كلها جميعًا، وأن التفسير الحق للإنسان ونشاطه وقيمه يشمل هذه الأمور الثلاثة كلها، ويشمل غيرها مما أغفله ـ عمدًا ـ كل واحد من المفسرين الثلاثة العظام، وأننا ـ لكي ننشئ تفسيرًا حقيقيًّا للحياة الإنسانية ـ لا ينبغي أن نغفل شيئًا من مكونات الإنسان على الإطلاق، أو أن نفسر شيئًا أصيلًا في حياة الإنسان من خلال شيء آخر.

ماذا لو فسرنا الجنس ـ مثلًا ـ من خلال الاقتصاد، فعزونا المشاعر الجنسية إلى عوامل اقتصادية؟! أي تفسير مضحك يكون هذا التفسير؟! كذلك لو فسرنا الاقتصاد من خلال الجنس، فقلنا: إن الدافع الجنسي هو السبب الكامن وراء جميع العمليات الاقتصادية التي يقوم بها الإنسان؟! أي تفسير مضحك يكون هذا التفسير؟!

والسبب في كونه مضحكًا وساذجًا ومرفوضًا هو أن كلًّا من الاقتصاد والجنس عنصر أصيل في كيان الإنسان على ذات الدرجة من الأصالة، فنفي أصالة أيهما وتفسيره من خلال الآخر هو الذي ينشئ تلك السذاجة المضحكة، مع أن هناك ترابطًا أو تشابكًا لا شك فيه بين الاقتصاد والجنس في حياة الإنسان، ذلك أنهما ـ مع أصالة كل منهما ـ يصبَّان في المجرى الكبير الذي يشكل في النهاية حياة الإنسان، ولكن ترابطهما وتشابكهما في المجرى الكبير لا ينفي أن كلًّا منهما رافد مستقل ذو سمات قائمة بذاتها، وذو دفعات قائمة بذاتها، كذلك ـ على نفس المستوى ـ تكون محاولتنا تفسير الدين والقيم العليا كلها على أسس مادية اقتصادية كما يقول ماركس، أو أسس جنسية كما يقول فرويد، أو أسس من العقل الجمعي المستقل عن كيان الأفراد والمغاير لكيان الأفراد كما يقول دور كايم، هي محاولة ساذجة مضحكة ولو أُلِّف فيها ألفُ كتاب، ولو قامت الأبواق اليهودية تروِّج لها من خلال ألوف الأفواه.

إن النفس الإنسانية هي الأصل الذي نرجع إليه لتفسير أحوال الإنسان في الأرض وتفسير ألوان نشاطه المختلفة، وكون هذه "النفس" قابلة للتَّشكُّل في أشكال شتى ـ لا يعني أنه ليس لها كيان محدد، ولا حدود تقف

عندها في تشكلها، إنما هذه المرونة في قابليتها للتشكل - هي ذاتها جزء من مقومات الخلافة التي خلق الله الإنسان ليقوم بها في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠)، فقد علم اللطيف الخبير الحكيم المدبر - لا ذلك الخالق الأصم الذي يدَّعيه الماديُّون، ولا ذلك الذي يخبط خبطًا عشوائيًّا الذي يدعيه دارون - أن تفاعل هذه النفس البشرية مع الكون المادي سينشئ أشكالًا مختلفة من الحياة في الأرض، بحسب درجة علم الإنسان بهذا الكون المادي، ودرجة سيطرته عليه، وقدرته على استخراج طاقاته واستخدامها في عمارة الأرض.

لذلك جعل - بحكمته - هذه النفس قابلة للتشكل لتُوائِم هذه الأشكال المتغيرة، بينما الحيوان والنبات أقل قدرة بكثير على التشكل؛ لأنه لا يحمل أمانة، ولا يقوم بخلافة ولا عمارة.

أفينقلب هذا التكريم الرباني والتفضيل إلى نقيصة يُوصَم بها الإنسان في التفسير المادي للتاريخ، حتى يقال: إنه لا كيان لهذه النفس البشرية، ولا سمات محددة، وإنما تأخذ سَمْتَها وسِماتها من الوضع المادي الذي تكون فيه. إن الحمار لا يمكن إلا أن يكون حمارًا، مهما أوقعت عليه من الضغوط لتغيير طبيعته! أفيكون الإنسان أقل أصالة من الحمار في عُرْف التفسير المادي للتاريخ، في الوقت الذي يزعمون فيه أنه أعلى تطور في عالم المادة؟!

إن قضية أصالة الإنسان، ووجود سمات أصيلة فيه تحدد طبيعته الإنسانية، هي قضية فوق الشك، أيًّا كان المدخل الذي ندخل إليها منه"[1].

الخلاصة:

- النصوص الشرعية والمنطق والعقل والواقع والتجربة، كلها تظهر مدى أهمية الدين في حياة الإنسان وحاجته إليه على المستوى الفردي والجماعي؛ لإحداث التوازن بين المادة والروح والعقل، وتحقيق الوسطية. كما أن الفطرة السليمة تُسلِّم تسليمًا مطلقًا بضرورة وجود الدين في حياة البشر، وقد شهد بذلك علماء الاجتماع وفلاسفة كثيرون من الغرب والشرق.
- الإسلام منظومة شاملة لكافة نواحي الحياة، ولم يقتصر دوره على صلاح القلوب والضمائر فقط، وأكبر دليل على هذا التشريعات التي وضعها الإسلام لسياسة هذا الكون، وتظهر هذه السياسة بصورة واضحة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية... إلخ، فلقد وضع الإسلام العديد من القوانين التي تحكم مسيرة الاقتصاد وتضعه في الطريق الصحيح، وكذلك فعل مع النظم الاجتماعية التي قامت في الإسلام على أسس روحية تتكامل فيما بينها؛ لكي تحمي بناء المجتمع من أي ضرر يلحق به، كذلك النظم السياسية التي قامت على مجموعة من الأسس التي لا تتغير بتغير الزمان، منها: أن الشورى هي أساس اختيار الحاكم، وأن الكل سواء أمام الشرع، فلا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة إسلامية... إلخ. وعلى هذا يقاس نظام الإسلام مع بقية النظم الأخرى.

---

١. مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، مرجع سابق، ص٣٣٤: ٣٣٨.

• المحاولات الغربية التي تدعو إلى تطوير الإسلام ليس هدفها التطوير كما يدعي هؤلاء، وإنما تهدف إلى إخضاع التراث الإسلامي كله لمناهج الفكر الغربي، التي تحاول أن تقتلع الإسلام من جذوره، ووضع الفكر الغربي المنحرف مكانه، وبذلك يسلم لهم كل العالم، ولا توجد أي قوة أخرى تهدد وجودهم المادي النفعي الذي ينكر الدين، ويحاول إبعاده عن الحياة العامة.

• ظهرت في الغرب بعض المقولات الباطلة عن الإسلام، من بينها أن "الدين أفيون الشعوب"، و "الدين تنهُّدات الجماعات المظلومة، ولو رفع الظلم لزال الدين"، ومثل هذه المقولات دعاوى باطلة لا تقوم على دليل؛ فإن كان الدين تنهدات الجماعات المظلومة، فلماذا آمن بعض الغربيين في العصر الحديث دون وقوع أي ظلم عليهم؟! ولو كان الدين هو أفيون الشعوب، فكيف نفسر حملات الإسلام التي تدعو إلى الثورة على الفساد والظلم وضرورة محاربة الانحراف؟! وكيف نفسر الثورة العلمية التي شهدها العالم الإسلامي خلال فترة صحوة الحضارة الإسلامية؟!

• دعوى "نسبية الأخلاق" دعوى باطلة، الهدف منها تمييع الأخلاق ثم ضياعها بالكلية، وإطلاق العنان للإنسان لكي يتصرف حسب ما تمليه عليه نفسه، دون خضوع لأي ضابط من أي نوع، وخاصة ضابط الدين، وظهرت النتيجة السلبية لهذه الدعوى في الغرب؛ فكثر فيه الانحلال الأخلاقي بصورة فاحشة. أما الإسلام فإنه يضع الأخلاق تحت سلطة الدين، ولا يطلق العنان للإنسان كما فعلت الحضارة الغربية، وترتب على هذا انضباط الواقع الأخلاقي للمسلمين، حتى في أكثر مُدَد حياتهم تدهورًا وبعدًا عن الدين.

الشبهة الخامسة

دعوى عدم جدوى مناهج المصلحين وحركات التجديد ما دام الدين تامًّا(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن حركات الإصلاح ومناهجه التي يقوم بها بعض علماء الإسلام ـ لا فائدة منها، بل هي مخالفة لتعاليم الدين الصحيح في نظرهم، ويتساءلون: إذا كان الدين الإسلامي تامًّا ـ كما يدعي المسلمون ـ فما الفائدة من حركات التجديد التي تظهر على الساحة الإسلامية كل يوم؟! ويرمون من وراء ذلك إلى التقليل من دور مثل هذه الحركات التجديدية.

وجها إبطال الشبهة:

١) هذه الدعوى الباطلة نابعة من الاضطراب الداخلي الذي ساد المجتمع الإسلامي، ومن جهود الاستعمار التي تهدف إلى محو شخصية المسلمين في كل زمان ومكان.

٢) وضع الإسلام مجموعة من الأسس التي يجب مراعاتها عند التجديد، فلم يترك الأمر مباحًا لكل من يريد أن يُدلي بدلوه في هذه العملية، وأكد العديد من علماء الإسلام على أن مجالات التجديد والإصلاح مجالات محدودة.

(*) مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. هذه الدعوى باطلة نابعة من الاضطراب الداخلي، الذي ساد المجتمع الإسلامي، ومن جهود الاستعمار التي تهدف إلى محو شخصية المسلمين:

إن المجتمع المسلم تتنازعه عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية شتى، وتحكمه أنظمة مختلفة الوجوه والألوان، وأوضاعه ليست واحدة، أو ثابتة بحال من الأحوال.

والإنسان المسلم المثقف يعيش صراعًا فكريًّا عميق الجذور، بين التمسك بهُوِيَّته الإسلامية، والتبعية لتيارات العصر الوافدة، التي تجتاح الساحة العالمية كلها، والتي تكاد تصبح هي السائدة بالنسبة لكافة شعوب العالم الإسلامي؛ لأنها لا تملك أسباب المقاومة، وليست محصنة داخليًّا حتى تواجه هذه التيارات، فهناك صراع رهيب يدور داخل المجتمع الإسلامي بين التيارات الإسلامية المتعددة والعلمانيين الذين تأثروا بالفكر الغربي بمختلف أشكاله[1].

لقد كانت خطة الاستعمار - في غالب الأحوال - هي التغريب وإفساد شخصية المسلم ومحوها، ويتضح ذلك من قول اللورد كرومر - أول معتمد بريطاني في مصر: "إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس البلاد - يقصد مصر - هي تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن، بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس، وإن كان من الواجب - منعًا من إثارة الشكوك - ألا يعمل على تنصير المسلمين، وأن يرعى من منصبه الرسمي المظاهر الزائفة للدين الإسلامي، كالاحتفالات الدينية، وما شابه ذلك".

إن هدف المستعمرين هو تحويل الناس عن الإسلام، وإن اختلفت الأساليب والوسائل، إلا أن النتائج المتوقعة هي واحدة تقريبًا، والأدلة على ذلك كثيرة، منها ما يأتي:

- ما فعله الاحتلال البريطاني في مناهج التعليم للإضرار بالإسلام والمسلمين.
- عملية الغزو الفكري عن طريق جميع وسائل الإعلام التي تسعى دائبة لمحو الإسلام، وإزالته من الوجود.
- صناعتهم لأبطال وهميين؛ ليخفوا في ظل بطولتهم محاولاتهم التخريبية للإسلام[2].
- محاولاتهم المستمرة لطمس قيم إسلامية تحت دعاوى التحرر والمدنية والتطور.

وهذه الأمور من الوضوح بمكان؛ بحيث لا تحتاج إلا لعقلية محايدة، لتكتشفها وتظهر بواعثها، مما يجعلنا في أشد الحاجة إلى وضع القواعد التي تنقذنا من هذا التشتت، وتحافظ على هويتنا الإسلامية المستهدفة.

ثانيًا. وضع الإسلام مجموعة من الحدود والأسس التي يجب مراعاتها عند التجديد:

إن هذا الادعاء لا يرقى لأن يكون شبهة إلا عند

---

١. ورقة عمل حول مشروع حضاري لنهضة العالم الإسلامي، مقال د. محمد علي الجوزو، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر الحادي عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٢٣، ٢٢٤ بتصرف.

٢. واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية، ط٣، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص٢٥١ وما بعدها.

الذين لا يفرقون بين العقيدة والتشريع، فالعقيدة التي تعني أن الدين واحد لا يُخْتَلَفُ عليها.

أما الشرائع فتختلف باختلاف الزمان والمكان؛ لهذا اختلف الأنبياء مع أنهم يدعون إلى إله واحد؛ وذلك لأن الأدواء التي يحاصرونها تتغير من زمان إلى آخر، فقد اتفقوا في أساس واحد هو التوحيد، ثم اختلفوا بعد ذلك في تفاصيل التشريع لكل منهم، وإن اهتمام أحدهم بوضعٍ ما في بيئته، لا يعني قلة اكتراثه بالأوضاع الأخرى.

أما المصلحون فهم ينتمون إلى عقيدة واحدة وتشريع واحد، لكن فهمهم لتطبيق هذا التشريع قد يختلف من واحد لآخر، باختلاف الزمان والمكان، أو الاختلاف في فَهْمِ أَوْلَوِيَّات التطبيق هنا أو هناك، فمثلًا عندما ينتشر مرض بعينه في بلد ما، يكون علاج المرض ومحاصرته أولى من معالجة بعض الأمراض البسيطة، التي لا يؤثر تأجيلها على فناء البشر في هذا الموضع، وعليه تختلف وجهات المصلحين والمجددين ويمكن أن تتكامل لو تم الاتصال الجيد بينهم.

لقد قامت فلسفة إرسال الرسل وبعثة الأنبياء بدين الله على عدة حقائق منها:

- الدعوة إلى دين واحد وعقيدة واحدة وأصول عبادة واحدة.
- تجديد الدعوة إلى ذلك الدين الواحد، بعدما اندثرت معالمه وانحرفت تعاليمه، وذلك من خلال إرسال الرسل والأنبياء لدعوة أقوامهم إلى دين الأنبياء السابقين في أصوله العامة وقواعده الكلية، وهي توحيد الله وعبادته دون سواه، والتمسك بالفضائل، والتخلص من الرذائل. قال تبارك وتعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ (هود: ٥٠)، ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ (هود:٨٥)، ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٥٤﴾ (النمل)، والدعوة إلى الإيمان بعقيدة البعث والمعاد: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ۝٢٦﴾ (هود)، ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ (العنكبوت: ٣٦).
- استحضار تاريخ الأديان وما حاق بالأقوام السابقين نتيجة رفضهم دعوة أنبيائهم؛ قال تبارك وتعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝٨٩﴾ (هود).

فلما جاء الإسلام وقضت مشيئة الله أن يكون آخر رسالة سماوية لأهل الأرض، وأن يكون محمد ﷺ خاتم المرسلين؛ لزم أن يضمن الإسلام في أصوله وقواعده وفلسفة وجوده قيام علماء ودعاة ومصلحين، يسهرون على تجديد أمر الدين، وإصلاح ما يعوج من فهم أحكامه، أو تطبيق مبادئه، وإحياء ما يندرس من أصوله، أو يتعثر من قواعده، فجاءت في هذا الباب البشارة النبوية بالبعث التجديدي لكل جيل وحقبة تاريخية يعيشها المسلمون فقال ﷺ: "إن الله يبعث من هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"[1]. فلا نبي بعد محمد ﷺ، ولكن مجددون ومصلحون، ومن

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (٤٢٩٣)، والطبراني في الأوسط، باب الميم، من اسمه محمد (٦٧١٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٩٩).

ثم ظهر في تاريخ الإسلام عبر قرونه الأربعة عشرة، مصلحون ومجددون في مناحي الإسلام المختلفة، كما قامت حركات إصلاحية كثيرة تتحرى إصلاح شأن المسلمين، والعودة بهم إلى أصول الإسلام الأولى.

حدود التجديد والإصلاح:

لقد وضع الإسلام مجموعة من الحدود والأسس التي يجب مراعاتها في عملية التجديد، فلم يترك الأمر مباحًا لكل من يريد أن يدلي بدلوه، وأكد علماء الإسلام على أن مجالات التجديد والإصلاح والإحياء مجالات محددة.

فالإسلام يفتح أبواب الاجتهاد والتجديد في أمور الحياة العامة، والتي لا تتعارض مع الثوابت في العقيدة أو في الشريعة، فإذا كان المجتمع الإسلامي في حاجة إلى التغيير والتجديد، فإن مناهج التغيير هي التي تمثل مسارات الجماعات، وتستوعب فعالياتها وطاقاتها، وكلما كانت مناهج التغيير متقنة ومحكمة، انعكس هذا الإتقان على تنظيم وحركة الفعاليات، والنظرة التقويمية لمناهج التغيير الإسلامي.

إن إحساس الإنسان المسلم بضرورة التغيير والتجديد يزداد يومًا بعد يوم؛ لأن أسباب القوة انتقلت إلى غير المسلمين، وذلك بسبب واقعيتهم، وإقبالهم على الأخذ بالمناهج العملية والتربوية التي تنشئ أجيالًا من العلماء والقادة الذين يمكنهم قيادة السفينة بنجاح في خضم هذا البحر المتلاطم من الدول المتقدمة والمتطورة؛ والتي تتنافس على اكتساب المعرفة التي تزيد من قدرتها على المواجهة، وعلى الدفاع عن كيانها، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال:٦٠)[1].

وللتجديد والإصلاح والإحياء مجالاته ومظاهره المتعددة، نذكر منها:

١. العودة إلى أصول الإسلام الثابتة وينابيعه الصافية.

٢. محاربة الانحرافات العقائدية والفكرية، التي ظهرت بين المسلمين نتيجة الجهل والضلال في فهم مبادئ هذا الدين وأصوله.

٣. تلبية احتياجات الأمة الإسلامية، فيما يتعلق بحل مشكلاتها الفكرية والحضارية والتشريعية المختلفة.

٤. ابتكار الوسائل والآليات المناسبة لروح العصر مع التأكيد على حفظ ثوابت الإسلام، وحمايتها من التحريف أو الإقصاء.

٥. التأكيد على ضرورة بث روح الإخاء والمحبة بين أفراد الأمة الإسلامية، كخطوة أولى نحو الوحدة الإسلامية بين أمم العالم الإسلامي وأفراده.

وفي هذا الإطار ظهرت في العالم الإسلامي في العصر الحديث العديد من حركات النهضة والبعث، والإحياء الإسلامي التي كان لها أثر كبير في إيقاظ الشعور الإسلامي، وبعث الاتجاه إلى التحرر الوطني والنهضة الشاملة.

وحول هذا الموضوع يحدثنا د. عبد المقصود عبد الغني ـ رحمه الله ـ فيقول: "وعلى أي حال فإن الفكر الإسلامي أخذ يتطور شيئًا فشيئًا حتى تحقق له الاكتمال

---

١. ورقة عمل حول مشروع حضاري لنهضة العالم الإسلامي، مقال د. علي الجوزو، مرجع سابق، ص٢٢٥، ٢٢٦.

والازدهار على يد أعلامه ورواده الكبار، ولكن قُدِّر لهذا الفكر أن يشهد حالة من الركود والجمود والخمود، بعد رحيل ابن رشد وابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ولم تقتصر هذه الحالة على الفكر وحده، بل إنها امتدت لتشمل الحياة الإسلامية في شتى مجالاتها ومختلف ميادينها، ودب الضعف والتخلف والتدهور والجهل والفقر بين المسلمين، وسيطر عليهم، كما سيطر التقليد والجدل والتعصب المذهبي على علمائهم وفقهائهم، وأصبح الدين مجرد رسوم وطقوس وشعائر، وصار جسدًا بلا روح. والواقع أن هذه الحالة التي كانت تزداد سوءًا قد سيطرت على المسلمين، وطغت على حياتهم لعدة قرون. على أنه من المستحيل أن تستمر تلك الحالة إلى الأبد، فكلما ازدادت الحالة سوءًا كان ذلك مُؤْذِنًا بضرورة التحول وبدء مرحلة جديدة، فمهما طال الليل، فلا بد أن يعقبه النهار، ومهما اشتد الظلام، فلا بد أن يبدده نور الفجر، ومهما اشتدت الأزمات، فلا بد أن يأتي الفرج.

أجل، ما كان للعقل أن يستمر في غفوته، ولا كان للتفكير الإسلامي أن تظل خابية جذوته بل كان من الضروري أن يتيقظ العقل من غفوته، وأن ينهض الفكر من جديد، وأن تبعث الأمة من رقدتها، وكانت نهضة الفكر الإسلامي مع مطلع العصر الحديث الذي نشهد فيه مرحلة جديدة تعتبر من أدق المراحل في مسيرته، وهذه النهضة ترجع إلى الظروف والملابسات التي كان لها تأثيرها في فكرنا الحديث واتجاهاته ".

ومن المقرر أنه: "إذا كان الإسلام قد تضمن من المبادئ ما يدفع الإنسان إلى التطور والحركة لمتابعة الحياة في سيرتها وتطورها؛ فإن السبيل إلى التجديد هو أن نُبْعِد عن الإسلام ما يقف عقبة في طريق تطوره، وأن نزيل عنه ما أحاله إلى الجمود.

ولا شك أن الذي وقف عقبةً في طريق تطوره، وأحاله إلى الجمود هو سيطرة التقليد، وإغلاق باب الاجتهاد؛ لأن الاجتهاد هو أساس الحركة والتطور، فإذا أهملناه وأغلقنا بابه توقف الإسلام عن الحركة، فكأن الاجتهاد هو الذي يضمن له الحيوية والطاقة، التي تجعل النشاط يدب في روحه".

ويقول محمد إقبال في ذلك: "السبيل الوحيد أمامنا أن ننزع عن الإسلام هذه القشرة الجافة التي أحالت إلى الجمود نظرته إلى الحياة التي كانت في جوهرها دائبة الحركة والنشاط؛ وأن نُعيد الكشف عن الحقائق الأصلية، حقائق الحرية والمساواة والاتحاد، فنقيم على أساسها مثلنا العليا في الأخلاق والاجتماع والسياسة".

ويذكر إقبال أن أهل السنة سلَّموا بالاجتهاد من ناحية إمكانه النظري؛ وذلك لأن المذاهب التي وضعها الأئمة مع إحاطتها وشمولها ليست إلا تفسيرات فردية، وهي بوصفها هذا لا تستطيع الزَّعم أنها القول الفصل، ثم إن أصحاب هذه المذاهب الفقهية لم يَدَّعِ أحد منهم إلزام أحد من المسلمين باتباع مذهبه دون غيره، وإذا كان أهل السنة قد سلَّموا بالاجتهاد من ناحية إمكانه النظري، فإنهم أنكروا تطبيقه منذ وضعت المذاهب؛ لأن الاجتهاد الكامل أحيط بشروط يكاد يستحيل - في نظرهم - توافرها في فرد واحد[1] ®.

---

١. الاتجاهات المعاصرة في الفكر الإسلامي، د. عبد المقصود عبد الغني ، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٤ وما بعدها.

® في **"أهمية الاجتهاد والحاجة إليه"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الأولى، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

أما عن أسس هذا التجديد فلقد ذكر فيلسوفنا إقبال أمورًا مهمة تعتبر أسسًا ينبغي مراعاتها في لمبدأ التجديد، وتُعدُّ ركائز أساسية يرتكز عليها، من هذه الأمور ما يأتي:

- ضرورة التوفيق بين مراتب الدوام والتغير، ويوضح ذلك إقبال فيقول: "إن المبدأ الروحي الأول لكل حياة (وهو الذات الإلهية) مبدأ أَبَديٌّ، يُرينا الآيات الدالة عليه في التنوع والتغير، والمجتمع الذي يقوم التصور العقلي فيه على أن يوفق وجوده بين مراتب الدوام والتغير، لا بد أن يكون له مبادئ أبدية تنظم حياته الجماعية وتضبط أموره؛ وذلك لأن الأبدي الخالد يثبت أقدامنا في عالم التغيير، ولكن إذا فهمنا أن المبادئ الأبدية تستبعد كل إمكان للتغيير، فإن هذا الفهم يجعلنا ننزع إلى تثبيت ما هو - أساسًا - متغير في طبيعته.

وفي رأيه أن عدم اتخاذ مبادئ ثابتة لتنظيم الجماعة يؤدي إلى الإخفاق في السياسة والاجتماع كما حدث في أوربا، وكذلك فإن التمسك بالمبادئ الثابتة واستبعاد كل إمكان للتغيير يؤدي إلى الجمود والركود، كما حدث لدى المسلمين في القرون الخمسة الأخيرة قبيل النهضة الحديثة، وإذن فلا بد لكي نتجنب الإخفاق الذي وقعت فيه أوربا، ونتخلص من الركود الذي سيطر على حياة المسلمين في زمن التدهور أن نوفق بين مراتب الدوام والتغيير، بمعنى أن تكون لنا مبادئ ثابتة لا تتغير نحتكم إليها ونحن نسعى للتغيير.

- يجب أن يبدأ التجديد - كما يقول إقبال - بإعادة النظر في التراث العقلي الذي تكوَّن حول الإسلام، وهذا التراث العقلي هو الفهم البشري الذي انتهت إليه جهود العقول في هذه الحقب السالفة، وفاء لمسئولية هذه الأجيال السالفة تجاه دينها، وفي رأينا أن إقبال يريد بذلك تمحيص التراث تمحيصًا يكشف عما فيه من أفكار جديدة ثمينة فنبني عليها، كما يكشف عما فيه من أفكار خاطئة أو لم تعد صالحة فَنَعْدِل عنها.

ومعنى هذا أن نقف من تراثنا وقفة نقدية فاحصة حرة، نختار منه ما نراه صالحًا، ونرفض منه ما لا نراه كذلك، ولكن لا ينبغي أن ننصرف عن تراثنا كله، وقد صرَّح إقبال أنه ليس في استطاعة أمة أن تتنكر لماضيها تنكرًا تامًّا؛ لأن الماضي هو الذي كَيَّفَ شخصيتها الحاضرة، وفيما يتعلق بمجتمع كالمجتمع الإسلامي تصبح إعادة النظر موجهة، فعليه أن ينظر إلى الأمور نظرة جديّة، وأن يزن ما لها من خطورة، وما دامت الأمة لا تستطيع - في نظره - أن تتنكَّر لماضيها، فلا بد أن تتمسك بتراثها وتعتز به، وأن تفحصه لتكشف ما فيه من كنوز ثمينة؛ لتكون هذه الكنوز ركيزة لها، تستند إليها في انطلاقها إلى حياة جديدة، وفي بنائها نظامًا فكريًّا جديدًا.

- يرى إقبال أنه لا بد من تطوُّر مختلف الجوانب، وأن نستفيد من الفكر الأوربي الحديث المعاصر، وأن الثقافة الأوربية ليست إلا ازدهارًا لبعض الجوانب المهمة في ثقافة الإسلام.

ولَكِنَّ إقبالًا لا يعني بذلك تقليد الفكر الغربي تقليدًا أعمى، والأخذ بجميع مناهجه في الحياة، وإنما يقف منه موقفًا نقديًّا مُمَحِّصًا... ولا شك في أن هذا التمحيص سوف يكشف عن الجوانب المشرقة والأفكار البناءة التي قد تفتح لفكرنا مسالك جديدة، دون أن تؤدي إلى انحرافه كما سيكشف عن الأفكار

الهدامة التي ينطوي في باطنها عامل الهدم ويكمن في داخلها الإلحاد، وعندئذ نأخذ الأولى ونستفيد منها، ونرفض الأخرى ونصون فكرنا منها، ومعنى هذا أنه ينبغي أن نتخذ المثل السائر: "خُذْ ما صَفا ودَعْ ما كَدَر" نبراسًا لكل جهد في سبيل تقدم حضارتنا وثقافتنا.

- لا بد في التجديد كذلك من الاستفادة بالواقع وحقائق التجربة، إذ لا يكفي الاعتماد على تفكير الفقهاء المتفلسفين، ومعنى هذا أنه لا ينبغي الاعتماد على الفكر النظري المجرد والالتزام بما قاله السابقون، بل لا بد من إعادة النظر في مثل هذا الفكر من خلال التجارب الواقعية، فإذا أثبتت التجارب خطأً في جوانب من هذا الفكر، فينبغي أن نَعْدِل عنها.

وهذا الرأي الذي يذهب إليه إقبال ليس بِدْعًا، فقد ذهب من قبله الإمام الجويني إلى مثل هذا الرأي، إذ أسقط القرشية في الخلافة نتيجة لحقائق التجارب في الحياة وما أسفر عنه الاضمحلال السياسي الذي أدرك قريشًا، وما نشأ عنه من عجزها عن حكم العالم الإسلامي، وهذا ما يؤكد صحة الذي يرى ضرورة الاستفادة بالواقع، وما أثبتته التجارب من حقائق.

هذه هي أهم الأسس التي ينبغي مراعاتها في التجديد، وقد لاحظنا أن إقبالًا يرى ضرورة الجمع بين القديم والجديد، بين التراث الذي تركه الآباء والأجداد، وما يمكن أن ننتقيه من الفكر الأوربي ونظرياته، والحق أن هذا الموقف المعتدل والمتزن الذي يقفه إقبال يتسم بالوعي واليقظة، ويصدر عن روح مليئة بالوفاء والإخلاص المصحوبين بالإيمان والاعتزاز بالإسلام وقيمته في الحياة.

وينبغي أن ننبه إلى أن التجديد يعتبر ـ في نظر إقبال ـ عملًا شاقًّا يتطلب أفقًا واسعًا وعملًا بصيرًا، وفهمًا لغايات الإسلام ومراميه، ومعرفة بتاريخ الفكر والحياة في الإسلام"[1].

هذا نموذج من نماذج دعوات التجديد والإصلاح الإسلامي، ولعله اتضح إذن لِمَ تعددت هذه الحركات؟ ولِمَ تكرر المصلحون؟! ولعله ظهر أيضًا أن تعددهم مصلحة للإسلام والمسلمين، وتصديقًا لبشارة النبي ﷺ منذ أكثر من ١٤٠٠ عام.

وقبل أن نسدل الستار على ما نحن بصدد الحديث عنه نؤكد على أمر في غاية الأهمية ولا مندوحة من ذكره، وهو أن ثمة ضوابط للتجديد في الفكر الإسلامي، وهي ضوابط تحفظ فكرنا التجديدي من الفوضى الفكرية التي قد تكون سببًا لنشوء النزاعات وهدم المجتمعات.

ولعل أهم هذه الضوابط ما يأتي:

١. ألا يؤدي التجديد إلى التصادم مع النصوص الشرعية أو الإخلال به؛ لأن الأصل هو التمسك بالنصوص الشرعية؛ لقوله ﷻ: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾ (المائدة). وغير ذلك من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية.

فأي فكر يتعارض مع النصوص الشرعية القطعية لا اعتبار له، كالفكر الذي يبيح الربا، ويرفض الحجاب الشرعي للمرأة، وينكر إقامة الحدود الشرعية.

٢. ألا يكون هذا الفكر التجديدي فكرًا ردّه

---

١. الاتجاهات المعاصرة في الفكر الإسلامي، د. عبد المقصود عبد الغني، مرجع سابق، ص٢٥١ وما بعدها.

العلماء، كآراء المعتزلة الذين كانوا يرون أن العقل هو الذي يحسِّن ويقبِّح، ويُوجب ويحرِّم، وقد ردَّ علماء السنة هذا الرأي واعتبروا أن الذي يحسِّن ويقبِّح، ويُوجب ويحرِّم هو الشرع لا العقل.

٣. أن يراعي هذا الفكر القواعد الآتية في الإفتاء:

- لا يجوز أن يتتبع الفكر التجديدي رخص المذاهب وزلل العلماء. قال الأوزاعي: من أخذ بنوادر العلماء خرج عن الإسلام. ونقصد برخص المذاهب الأخذ بالأسهل من كل مذهب وإن كان دليله ضعيفًا أو مرجوحًا.
- ألا يكون الفكر التجديدي مجرد تلفيق بين المذاهب، والمراد بالتلفيق بين المذاهب أخذ صحة الفعل من مذهبين معًا بعد الحكم ببطلانه على كل واحد منهما بمفرده في المسألة الواحدة، كالنكاح بلا ولي ولا شهود، فالنكاح بلا ولي صحيح عند الحنفية، والنكاح بلا شهود صحيح عند المالكية، فإن صحة النكاح حينئذ ملفقة من المذهبين معًا، لكنه باطل عند كل مذهب على حدة.
- ألا يكون الفكر التجديدي مستمدًّا من الآراء الشاذة في المذاهب، والمقصود بالشاذ ـ هنا ـ عكس الراجح والصحيح في المذهب؛ لأن العلماء متفقون على عدم جواز الإفتاء بالشاذ إلا أن يكون المفتي (المجدد) مجتهدًا في المذهب، فيعمل حينئذ بما يراه أرجح أو أصح في نظره لقوة دليله، ولو كان هذا الرأي شاذًّا[1].

ولكن لنعلم أن هذا التجديد الذي أناطه الله بالنخبة الصالحة من علماء هذه الأمة، لا يمكن أن يستقيم على نَهْجٍ سَوِي يُرْضِي الله ﷻ وأن يكون مصداقًا للتجديد الذي عناه رسول الله ﷺ إلا إذا كان القائمون به ربانيين في مواقفهم ومنطلقاتهم، لا يقيمون لدنيا الناس كلها وزنًا أمام الهدف الأقدس، الذي يتمثل في بلوغ مرضاة الله وحده، ولا تصدهم عن التوجه إليه جنود الأهواء والمطامع، مهما تكاثرت وتسربت إليهم من هنا وهناك... ينهضون بواجبهم المقدَّس هذا، ولسان حال كل منهم يناجي الله قائلًا: وعجلت إليك رب لترضى.

فإذا أكرم الله الأمة بهذه النخبة من العلماء، فسوف يكون تجديد الدين هو الحصن الذي يقيه من أطماع النيل منه والعبث به، ولسوف يكونون هم المعنيين بشهادة رسول الله ﷺ، وأعظم بها من شهادة[2]®.

الخلاصة:

- تعدد حركات التجديد ناتج عن تطور الحياة البشرية وتجدد أحوالها وما ينتج عن ذلك من طروء ظروف ومشكلات وعقبات تستلزم اجتهادًا متجددًا يواكبها ويرشدها ويضبطها بضابط الشرع، في إطار أصول الإسلام العامة الثابتة.
- دين الله واحد وأنبياؤه تعددوا لإحياء ما اندثر من حقائق التوحيد والهدي السماوي، وتجديد صلة

---

١. ضرورة التجديد وضوابط في الفكر الإسلامي، مقال د. خالد عبد الله الشعيب، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر الثالث عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق، ص١٠٥، ١٠٦.

٢. الإسلام بين التجديد المطلوب والتبديل المرفوض، مقال د. محمد سعيد رمضان البوطي، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر الثالث عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق، ص١٦٤.

® في **"الاختلاف بين مفهوم التجديد وطمس الهوية"** طالع: الشبهة الثالثة والعشرين، من هذا الجزء.

الأرض بالسماء.

- لأنه لا نبي بعد محمد ﷺ، كان لا بد من ظهور المصلحين وحركات التجديد في تاريخ هذه الأمة؛ ليرشدوها إلى صحيح رسالته ﷺ.
- التجديد ليس خروجًا على القديم برمته، وإنما هو عمل في إطار الثوابت، ينظر إليها بعين، ويلمح الواقع بالعين الأخرى.
- لا يخفى على صاحب عقل واعٍ ذلك الدور الذي قام به الاستعمار لطمس ملامح الشخصية المسلمة ومحو قسماتها، متبعًا في سبيل ذلك كل وسيلة ممكنة.
- التجديد والإصلاح يكون في أمور محددة في تفاصيل الشريعة بما يلائم المستجدات، ولكنه لا يمس شيئًا في "العقيدة"؛ لأنها هي الأساس الديني لكل مسلم، كما أن له ضوابط تحكمه لا يجوز إهمالها أو الغفلة عنها.

الشبهة السادسة

دعوى غياب البرامج التفصيلية من المنظور الإسلامي(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن المنادين بالحل الإسلامي إنما يعوزهم وجود برنامج تفصيلي لما يدعون إليه، وهو ما يعني أن توليتهم إدارة مجتمع أو دولة يوازيه دخول في مرحلة تجريب طويلة، يختبرون فيها ما بين أيديهم من تصوُّرات منتقصة لم تعمل في الحياة الحديثة من قبل، وأن السماح بمثل هذا هو الذي دفع بالمجتمع كله إلى متاهة لا مخلص منها. والذي يُراد من وراء هذا أن يبقى الإسلام بِمَعْزِل عن الحياة العامة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) طبيعة المرحلة الزمنية تقتضي أن يعرض دعاة الحل الإسلامي منهجًا عامًّا لا تفصيل فيه.

٢) المنهج الإسلامي تراث واسع من الاجتهادات الفقهية يشكل كثيرًا من نواحي الحياة.

٣) حاول بعض المعاصرين تقديم تصورات تفصيلية عن المنهج الإسلامي.

٤) كثيرًا ما يُخْفِي الاعتراض على الحل الإسلامي موقفًا خاصًّا من الدين الإسلامي بجملته.

التفصيل:

أولا. طبيعة المرحلة الزمنية هي التي تفرض وجود منهج إجمالي ورؤى كلية:

إن الفكرة الإسلامية لم تزل بجملتها في طور الدعوة التي لا يعززها تمكين إداري أو سياسي، وهذا التمكين هو ضرورة للتصورات الفكرية العامة حتى تظهر طاقتها على مقابلة النوازل بتشريع يلائمها، وعلى تنمية نفسها بالإفادة من أوجه القصور في التطبيق. وأما معالجة الأوضاع القائمة قبل تمكين المنهج، فهو اقتراح يستند إلى خطأ في فهم ذلك المنهج وحقيقته.

ذلك أن التصور الفكري العام هو شيء آخر غير التعديلات الجزئية، أو الاستدراكات البسيطة على الأوضاع القائمة، إنه يبدأ بالفرد البشري ـ وهو صانع

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر، مرجع سابق.

المجتمع ومحدد مشكلاته - فيعيد تشكيل تكوينه النفسي والفكري، ويعدِّل فكرته عن الرقابة عليه، وعمَّن يُوْكَل إليه الجزاء والحساب، وعمن يقصد إليه بالعمل الصالح، والسعي في الأرض؛ ذلك كله موكول إلى الله وحده، وهذا كالنشأة الجديدة للإنسان التي من شأنها أن تسقط شيئًا كثيرًا من مشكلاتنا الاجتماعية، التي يسببها الفساد في العنصر البشري.

ولا يعني هذا أن الحل الإسلامي يَنْزِع عن المجتمع الحالي إيمانه بهذه العقائد، أو يُشَكِّك في ذلك الإيمان، وإنما هو يرفعه ويؤكده، ولا يزال يلتمس إلى نشره السبل حتى يُمسي في الناس ثقافة عامة تُشاهَد في حالهم قبل أن تُسْمَع من أفواههم.

حتى إذا اتجه المنهج - من بعد - إلى إعمال ما عنده من مبادئ في الاقتصاد أو السياسة، فإنه لا يسوغ أن يتنبأ بالموقف الذي ستقفه المؤسسات الداخلية والخارجية، ولا بالعقبات التي يواجهها، ولا بالحلول التي سيتخذها من باب أولى؛ لأن ذلك كله إنما يحدده التطبيق العملي والممارسة للسلطة واتخاذ القرار، وأما ما قبل ذلك فليس إلا احتمالات وظنونًا وفروضًا هي فاقدة القيمة منذ البدء؛ لأنها تعالج أمرًا غير واقع.

فبدا - من بعد ذلك كله - أن المنهج الإسلامي في الإصلاح أقصاهُ في هذه المرحلة أن يعرض كُلِّياته وهَدْيه العام في جوانب الحياة المختلفة، ويترك أمر التفاصيل إلى حين ينفع تحديد التفاصيل ويُجدي في الحياة.

ثانيًا. سعة التراث التشريعي للمنهج الإسلامي:

إنّ القائلين بالحل الإسلامي يمتلكون في ميدان العمل العام، والتصدي للقضايا المجتمعية، واقتراح الحلول لها - تراثًا هائلًا سُجِّلَ تحت بند المعاملات في المراجع والموسوعات الدينية، بالإضافة لبندَيْ العقائد والعبادات، فالدين المعاملة[1]، وتحت هذا البند يندرج تراث العلماء المجتهدين في تاريخ الأمة على مر عصوره، والحلول التي اقترحوها بِمَا عاصروه من قضايا ومشكلات، يَبْنِي اللاحق منهم على جهود السابق، ويُضيف إليها حتى تراكم لدينا هذا التراث الاجتهادي الفقهي الضخم، القابل للزيادة والتضخم والاتساع على مر الزمان.

في هذا الإطار - ولمزيد من الضبط والإيضاح - نورد كلامًا دقيقًا للدكتور محمد بلتاجي حسن يقول فيه: "النصوص الدينية محدودة ومتناهية، ووقائع الحياة وأحداثها تأتي كل يوم بجديد، فليست إذن محدودة أو متناهية؛ فإن أحداث الحياة المتجددة تقدم لنا كل يوم مشكلات واقعية، تحتاج كل منها إلى تشريع، والنصوص الدينية لم تأتِ بتشريعات مفصلة لكل تلك المشكلات، ولـمَّا كنا نؤمن بأن الإسلام عقيدة ونظام للحياة، وأنه يجب علينا أن نتلمس في نصوصه وأصوله ومقاصده كل التشريعات التي تنظم حياتنا، فإن هذا سوف يقودنا بالضرورة إلى فكرة الجهد العقلي العظيم،

---

١. جملة "الدين المعاملة" ليست حديثًا، وإنما معناها صحيح، يشهد لها أحاديث النبي ﷺ في حسن الخلق ومكانته في الإسلام في الإسلام، ويكفي قول النبي ﷺ: "إن الرجل ليبلغ بحسن الخلق درجة الصائم القائم". صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥٠٥٧)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (٤٨٠٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٤٧٩٨).

الذي يواجه المستنيرين وقادة الفكر الإسلامي في كل جيل لاستنباط تشريعات تفصيلية مستوحاة من نصوص التشريع في القرآن والسنة، ومن روحه وأهدافه العامة.

على أن هؤلاء الدارسين والمجتهدين يواجهون أنواعًا من المشكلات تنحصر في ثلاث مجموعات هي:

١. مسائل لم ترد فيها نصوص خاصة من القرآن والسنة، وإن أحاطت بها نصوص عامة على نحو ما.

٢. مسائل حدثت نظائرها أيام الرسول ﷺ في ظروف خاصة، واقتضت نظائرها تشريعات معينة وردت بها نصوص، ثم إن هذه الظروف الخاصة قد تغيرت بعد الرسول، ومن هنا وجب أن ينظر في تطبيق هذه النصوص نظرة نافذة تتحرى مقاصد التشريع ومصالح الناس معًا. وهذا يحتاج إلى جهد عقلي يكون مجاله الملاءمة بين النصوص الدينية التي لا يستطيع أحد إلغاءها أونسخها، والظروف الجديدة التي لا يستطيع أحد تجاهلها، بحيث تؤدي إلى تحقيق مصالح الناس مع الحفاظ على مقاصد التشريع.

٣. مسائل وردت فيها نصوص متعددة متناقضة في ظاهرها، أو غامضة من حيث المراد منها، فتحتاج حينئذ إلى جهود متعددة في البحث عن درجة ثبوت بعض نصوصها، وتحديد المراد من بعضها الآخر، بما يدفع كل تناقض أو غموض.

ومن هنا نرى أن فكرة الجهد العقلي تقابلنا في كل ما يتصل بالتشريع، في المسائل التي لم ترد فيها نصوص خاصة مفصلة، أو التي وردت فيها نصوص تحتاج عند التطبيق إلى تحري روح التشريع ومصالح الناس في كل عصر، ثم في المسائل التي وردت فيها نصوص يُحْمَلُ ظاهرها على التناقض أو الغموض في المعنى، أو التي تكون غير ثابتة بصورة قطعية، وليس التراث الإسلامي في مجال الفقه والتشريع على مرّ العصور إلا الجهود المتتالية في هذا السبيل.

ثم إننا إذا سلمنا بضرورة الجهود العقلية المتابعة في مجال التشريع، فإن هذا يستلزم فكرة المنهج؛ لأن معنى المنهج هو الطريقة المتبعة، ولا نتصور جهودًا عقلية دون طريقة متبعة في التفكير، وإلا كانت جهودًا ضائعة مشتتة لا تؤدي إلى غايتها؛ لأن العقل الإنساني حين يفكر في شيء ما يتحرى أن يصل إلى هدفه عن طريق مقدمات تتبعها نتائج وأسباب تستتبع مُسَبِّبات. لكن مجال النظر العقلي تكثر فيه الفروض والاعتبارات، ويختلف المفكرون فيما بينهم في أخذهم ببعضها ورفض بعضها الآخر، فما يقبله أحدهم من الفروض والاعتبارات يرفضه آخر، أو لا يخطر له على بال أصلًا.

ومن هنا تختلف مناهج التفكير وتختلف النتائج تبعًا لذلك، ولا يعنينا هنا أن نبحث أسباب اختلافها، وإنما يعنينا إثبات حقيقتين تتبع إحداهما الأخرى وهما:

- حاجة التشريع الإسلامي عند التطبيق إلى جهود عقلية متابعة.
- ما تستلزمه هذه الحاجة بالضرورة من فكرة المنهج، أو طريقة التفكير وخطته؛ لأننا لانتصور جهودًا عقلية بدون منهج في التفكير"[1].

ولعله من المناسب هنا إيراد شهادة مستشرق غربي كبير هو الأستاذ "سانتيلانا" الإيطالي (١٨٤٥ - ١٩٣١م) بهذا الصدد، إذ يقول: "ومما لا مراء فيه أن

١. منهج عمر بن الخطاب في التشريع، د. محمد بلتاجي، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٣٥، ٣٦.

الشريعة لم تتدخل في جميع التفاصيل، حسبها أن تتناول عددًا معينًا من القضايا ذات الطابع القانوني البارز فتبحثها وتشرحها، وقديمًا قال المشرِّعون الرومان: "إن قوة القانون هي في الأمر والنهي، والسماح والعقاب". على أن الشريعة الإسلامية - ذات الطابع الديني - لم تلبث أن أضافت مبدأين قانونيين إلى ما سبق ذكره، وهما: المقبولات والمستهجنات، فإذا أسقطنا القسم العقابي من الشق الأول (قانون الشريعة الرومانية) وأضفنا إليه المبدأين الجديدين، أصبح لدينا أوجه خمسة للقانون السائد بشكله التام.

إن هذه المبادئ القانونية على تعدد أشكالها، تئول إلى غاية واحدة هي المصلحة العامة؛ لذلك فليس لهذا القانون - الإلهي مصدرًا - هدف إلا سعادة البشر، والعين النافذة لا يمكن أن تخطئ رؤية هذه الغاية، وإن شق عليها أن تتبينها لأول وهلة.

إن القانون السائد (الشريعة) - ومعناها بالعربية: "الطريق القويمة" - هو نظام لضروب أشكال النشاط البشري الذي يهدف إلى تيسير الحاجات الدنيوية. ولما كان الشرع الإصلاحي يستهدف منفعة المجموع، فهو بجوهره شريعة تطورية غير جامدة خلافًا للشريعة الرومانية من بعض الوجوه"[1].

ثالثًا. جُهودٌ معاصرة في تفصيل الحل الإسلامي:

لقد تحدث وكتب كثيرٌ من الإسلاميين عن طبيعة المشروع الحضاري الإسلامي، الذي يتبنونه ويُرَوِّجون له. وعن خصائصه وكثير من تفاصيله، كتب د. حمدي شاهين تحت عنوان "نحو مشروع حضاري للنهضة رؤية إسلامية"، جاء فيه: "إن المشروع الحضاري لنهضة الأمة ينبغي - فيما نرى - أن يمتاز بخصائص أربع:

1. أن يكون إسلاميًّا في منطلقاته وأهدافه ووسائله ومرجعيته، وهو بذلك يستدرك خُطى المشروعات الكثيرة التي انطلقت بعيدًا عن الإسلام، فَهَوَتْ بعد ذلك في مكان سحيق، وجرَّت على أمتنا الويل والخَبال، وهو بإسلاميته يتفق مع هُوِيَّة الأمة ويتناغم معها، مما يؤهله لبعث طاقاتها، وتوظيف إمكاناتها، وتحقيق آمالها وطموحاتها، ويتلافى ما سببته تجارب سابقة لأمتنا - من تمزق وانقسام وضبابية واغتراب، حيث أرادت أن تسير بالأمة بعيدًا عن دينها وفق مناهج مستوردة، نبتت في غير أرضها، وجاءت لتلبي حاجات غير حاجاتها.
2. أن يكون مشروعًا متكاملًا تَكامُل الإسلام نفسه؛ يستهدف علاج أوجه الخلل والفساد الضارب في أعماق مجتمعاتنا وأفرادنا ومؤسساتنا، والذي استشرى على امتداد عقود متطاولة من الزمن، ويطمح إلى الانطلاق في شتى المجالات ليضع أمتنا على الطريق اللائق بها، لتتبوأ مكانتها التي أرادها الله تعالى لها، يقول تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).
3. أن يكون جماعيًّا، تآزرت جهود عديدة في تصوره وإنضاجه، ثم حَمْلِه وتَبَنِّيه والدعوة إليه، والسعي إلى وضعه موضع التنفيذ.

ولا يمكن تصور إمكانية نجاح مشروع للنهضة بِرُؤًى وتصورات وجهود فردية، في عالم بات لا يؤمن

1. الإسلام في عيون غربية: بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٥٥: ١٥٧. سقوط العلمانية، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص١٩٥: ١٩٨.

بغير جماعية العمل في شتى مناشطه ونواحي حياته جِدًّها وهَزْلها، وإن ظل يُغْرِينا بالنزعات الفردية التي تُهَيِّئُ له دوام السيطرة على أمتنا، وتَحُولُ بيننا وبين حَشْد القُوَى وضمِّ الجهود، إذ يرى أعداء الأمة أن كل تجمع واتحاد بيننا هو خصم من أسباب قوتهم وعامل من عوامل ضعفهم.

وليس أحد أولى من المسلمين بالعمل الجماعي والتحرك بروح الفريق، وهم أتباع دين يأمرنا بالتعاون على البر والتقوى، ويُلْزِم أصحابه بالاعتصام بحبل الله جميعًا، وَيَنْهَى عن التفرق والتشرذم والتحزب.

٤. أن يُؤْثِرَ منهج التغيير الاجتماعي المتدرج، فذلك هو الأقرب إلى روح الإسلام وتعاليمه، وخاصة أن حجم العطب الذي استفحل في مختلف نواحي حياتنا: السياسة، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، والتعليمية والتربوية، على المستوى الفردي والجماعي والمؤسسي ـ تصعب مواجهته أو إصلاحه من خلال منهج التغيير الفوقي وحده، فإن لم تأت الرغبة في التغيير والقدرة عليه من داخل الشعوب نفسها؛ فإن نجاح ذلك التغيير يظل أمرًا مشكوكًا فيه، ويظل عمره ـ إن حدث ـ قصيرًا، ويظل بناؤه مُفْتَقِدًا إلى دعامات قوية تسانده، وتشد من أزره، ويأوي هو إليها ويستنصر بها"[1].

يُضاف إلى هذا محاولات عديدة قدمها باحثون من دعاة المشروع الإسلامي حوت رؤية تفصيلية، ولنذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ موسوعة من ثلاثة أجزاء للشيخ القرضاوي، عناوينها: "الحلول المستوردة وكيف جَنَتْ على أمتنا"، "الحل الإسلامي فريضة وضرورة"، "بَيِّنات الحل الإسلامي".

وللأستاذ محمود المراكبي أيضًا موسوعة أخرى من ثلاثة أجزاء، عنوان الأخير منها "الحلول الإسلامية بين الشعار والتطبيق"، قال في مقدمته: "ثم يأتي دور هذا الكتاب الذي يقدم الحلول الإسلامية بين الشعار والتطبيق، فقد لاحظت كَمُفَكِّر مستقل، لا أنتمي إلى أي تيار أو جماعة أو مؤسسة فكرية، وإنما شاهدت كغيري شعار "الإسلام هو الحل"، ورأيت من يهاجمونه في حالة من الذعر المخيف، فهم يتساءلون: أي إسلام تقصدون؟ وأي حل تطرحون؟ ورأيت برامج هنا وهناك، ولاحظت أن الصورة غير واضحة المعالم.

ومن واقع إدراكي أن شعار الإسلام هو الحل لا تملكه مؤسسة أو جهة معينة، إنما هو جوهر حياة المسلم على الأرض مندرج تحت القرآن والسنة، فكان لزامًا عليَّ أن أعرض تصوُّري عن الحلول الإسلامية التي أراها صالحة للتطبيق، وتُقَدِّم الوصفات العملية لأمراض الأمة، هذه الرؤية التي أُقَدِّمُها من واقع إدراكي بأهمية اللحظة التاريخية التي تعيشها أمتنا، والتي نرغب بعدها أن تتوجه جميعًا صوب صلاح الدنيا والآخرة".

لكن أحدًا من دعاة المشروع الإسلامي للنهضة لم يَدَّعِ لمحاولته الكمال والعصمة وعدم الحاجة لنظر غيرهم وإضافاتهم، وها هو د. حمدي شاهين يصف محاولته ـ التي سبق ذكرها ـ بقوله: "وهي محاولة لا تزعم الاكتمال، ولا تدَّعي التمام، ولا تطمح إلى تقديم مشروع وافٍ للإصلاح والنهوض، فذلك ما ينبغي أن تشارك فيه كل فعاليات الأمة وقواها الحية؛

---

١. نحو مشروع حضاري للنهضة، د. حمدي شاهين، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٦: ٨.

وصولًا إلى رؤية شاملة تستجمع أكبر نصيب من مؤهلات النجاح والتمكين، ويتحرر فيه منطلقها وغايتها ومَرْجِعِيَّتها؛ ليتوافق مع هُوِيَّة الأمة، وما أراده الله تبارك وتعالى لها من مكانة الرِّيادة والخَيْرِيَّة والشهادة والنفع للعالمين: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الرعد: ١٧)[١][٢].

رابعًا. رفض هؤلاء المدعين لأصل التوجه الإسلامي:

إن حقيقة الأمر في خفايا نفوس كثير من المغرضين ليست قصة انعدام التفاصيل أو شُحِّها في المشروع الإسلامي؛ إنما هي الكراهية البغيضة لهذا التوجه الإسلامي بِرُمَّته من الأساس، مع التعلل في الظاهر ـ استحياء أحيانًا ـ بهذا السبب أو ذاك من قبيل مسألة شُحِّ هذه التفاصيل، يقول الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله: "ربما استطاعت أمم أخرى أن تعيش قصيرًا أو طويلًا وَفْقَ فلسفات مادية أو خُلُقِيَّة لا صلة لها بالسماء، لكن أمتنا تَحَوَّل مِزاجها وكيانها إلى جهاز فريد لا يدور فيه إلا مفتاح واحد هو الإسلام. وستذهب جميع المحاولات الأخرى سُدىً لا محالة.

ثم مَنْ مِنْ أهل المِلَل والنِّحَل ترك دينه؟ لقد أقبل اليهود في موكب تُظِلُّه صحائف التوراة والتلمود، ويتقدمه صخب من مزامير آل داود، ورأى الناس بين القطبين الشمالي والجنوبي هذا الولاء الديني العاصف فما أنكروا له صيحة، مع أنها صيحات جَزَّارين، ودِيسَتْ مُدُنُنا وقُرانا فما رقَّ لنا أحد"[٣].

وإنه لأمر واقع أن الكثرة المطلقة من النقد الموجَّه إلى المنهج الإسلامي وإلى دعاة إحيائه في مجالات الحياة العامة، إنما تأتي من قِبَل أناس لا يُظْهِرون ولاءً للتدين الإسلامي في الجملة، ولا يُعرف عنهم التزام بالآداب الإسلامية في حياتهم الخاصة؛ فلذلك تُظَنُّ فيهم وفي مقاصدهم ظنون كثيرة حين يعادون إعمال المنهج في الحياة العامة، بل منهم من يَنْتَقد مسائل شرعية مُقَرَّرة يعزوها إلى فكر المتطرفين والغلاة، ثم يستبيح التهجم عليها.

أو كما يقول الشيخ محمد الغزالي أيضًا: "أعرف أناسًا ما عرفوا طريقًا إلى المسجد يومًا، ولا غضوا أبصارهم عن الدنس لحظة، انتهزوا الفرصة العارضة وشرعوا يهاجمون الإسلام نفسه بدعوى مهاجمة التطرف، أي أن تحريم الخمر والخَنا، وقطع دابر اللصوصية والفوضى أمور هي من التطرف المعيب، وليست من أركان التقوى، ومعالم الوحي الحق!"[٤].

لقد كان الجدل يومًا حول الدين والدولة، فإذا هو ـ بعد دخول العلمانية العربية طَوْرَ الغُلُوِّ ـ جَدَلٌ حول الدين والتربية، والدين والأخلاق، والدين والإبداع الأدبي، والدين والفن، فهي ـ إذن ـ علمانية شاملة لم تَعُدْ تستبقي للدين شيئًا يُؤَدِّيه في الحياة، ولا في الضمير، ولا في التشريع العام، ولا في التهذيب الفردي، وهو تطور يكشف عن مدى عمق مفكري الإسلام المحدثين

١. الزَّبَد: ما يعلو الماء أو اللبن ونحوهما من الرَّغْوَة. وذهب الزبد جُفاءً: أي باطلًا مدفوعًا مَرْمِيًّا به، قد دفعه الوادي إلى جنباته.

٢. نحو مشروع حضاري للنهضة، د. حمدي شاهين، مرجع سابق، ص٨، ٩.

٣. مائة سؤال عن الإسلام، الشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق، ص١١٠.

٤. الحق المر، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٣م، ج١، ص٣٥.

والمعاصرين الذين تنبَّئوا من قبل بهذا المصير، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ (الصف).

الخلاصة:

- إن تفصيلات أي منهج إنما تعني معالجة جزئيات وفروع، وهذه من توابع تطبيقه في الحياة العامة، لا تسبقه، ولا يطالب بها المنهج وهو - بعد - بمعزل عن التأثير الإداري أو السياسي؛ فلذلك يُعَدّ الاشتغال بهذه التفصيلات في هذا الظرف الزمني جهدًا ضائعًا في أمر غير واقع.
- إن المنهج الإسلامي قد أثبت جدارته في إدارة المجتمعات، ولقد سارت على هديه الخلقي والتشريعي حضارة ممدودة الأطراف لعدة قرون، وهذا التاريخ أورث دعاة الحل الإسلامي تراثًا تشريعيًّا واجتهاديًّا واسعًا، يُيسِّر لهم أمر الدعوة الواثقة إلى إعمال هذا المنهج في الحياة الحديثة، ولا سيَّما أنه لم يُقدَّر للحلول المستوردة من شرق أو غرب ألا تفلح في الشعوب المسلمة.
- أقدم بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين على تحديد تصوُّر يُعْنَى ببيان جانب من تفاصيل المشروع الإسلامي للنهضة على وجه لا يقتحم التفريعات الدقيقة، التي ينبغي أن تظل معلقة على ما يلابس تمكين المنهج الإسلامي من مستجدات.
- متابعة ما يقال عن قصور الحل الإسلامي جديرة بأن تكشف حقيقة أن هؤلاء المدَّعين يردُّون هدي الإسلام في كل مجالات الحياة، ومن ثَمَّ يصير مسلكًا مفهومًا أن يُتَّهَمَ هؤلاء في موقفهم من أصل التوجه الإسلامي عامة، وأن هذا هو مثار الجدل لا إعمال المنهج الإسلامي في هذا الجانب دون ذاك، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ (الصف).

الشبهة السابعة

دعوى تعارض الدين والعلم(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن الدين الإسلامي بمنأى عن العلم، ولعجزه عن مجاراته وتناقضه معه أغفله في أحيان، ونفر منه في أحيان أخرى، واستنادًا إلى ما ادّعوه من عجز وما توهموه من تعارض؛ يَدْعون إلى فصل هذا عن ذاك. ويرمون من وراء ذلك إلى اتهام الإسلام بالجهل والرجعية؛ لتزهيد الناس فيه، وذلك من خلال وصمه بما ليس فيه.

وجها إبطال الشبهة:

١) الفصل بين الدين والعلم من قضايا الفكر المسيحي التي نشأت في بيئة وظروف خاصة، ولا علاقة للإسلام بها، وإذا جاز عند هؤلاء الفصل بين الدين والعلم؛ فإنه لا يستقيم لدى المسلمين؛ لأنه أعلى من

(*) ظلام من الغرب، الشيخ محمد الغزالي، مرجع سابق.

® في "**أهمية العلم في القرآن والسنة**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة العاشرة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي "**الإبداع الفكري والعلمي لدى المسلمين**" طالع: الشبهة الحادية عشرة، من هذا الجزء.

مثال العلم ورفع قدره.

٢) لـمَّا كان الدين الإسلامي شديد الاهتمام بالعلم من جهة، وكان العلم وثيق الاتصال بالعقل من جهة ثانية؛ أمرنا القرآن في غير موضع بالتفكر والتعقُّل؛ حتى صار العقل أعظم مَزِيَّة في الإسلام.

التفصيل:

أولا. الفصل بين العلم والدين من قضايا الفكر المسيحي ولا علاقة له بالإسلام:

حول هذا الموضوع يحدثنا فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود فيقارن التجربة الإسلامية في هذا الصدد بتجربة الكنيسة، فيقول: "إنه لتقليد ببغاوات أن ننقل الفكرة التي نشأت في التعارض بين الدين والعلم من بيئتها الجزئية ومن ظروفها الخاصة إلى مجال الدين عامة أينما كان، وفي أي زمان وُجِدَ.

وإنه لمن السخف الواضح، وسوء النية الـمُبَيَّتة أن ننقل الفكرة من جو المسيحية إلى جو الإسلام، الذي كانت أول كلمة في وَحْيِه "اقرأ"، والذي يصل بالعلماء إلى أن يشهدوا التوحيد مع الله والملائكة"[1].

ثم يتحدث فضيلته عن تجليات هذا الموقف الإسلامي، المتصالح مع العلم وآثاره الحضارية، فيقول: " لقد أحدث الإسلام في الدنيا - بموقفه هذا من العلم - نهضة علمية كان من ثمارها الحضارة الإسلامية، والتي كانت تُسَمِّي البحث في الطبيعة وفي الكون هذه التسمية الجميلة: (العلم بسنن الله الكونية).

فعلم الطبيعة في الصورة الإسلامية هو العلم بسنن الله الكونية، وقد قُيِّدت منذ البداية مباشرة بأن تكون (باسم ربك). والعلم في الإسلام - بالدين وبالمادة - لا شرط له إلا أن يكون في اتجاه رباني.

إن الإسلام يوجب أن تكون أسس العلم مُتَّسِمَة بالخير، ويوجب أن تكون غاياته منغمسة في الخير، ويجعل من العلم قُرْبَى إلى الله ويجعل منه عبادة لله، إنه سبحانه يجعله باسمه الكريم. ومن الملاحظات الدقيقة في هذه الكلمات التي كانت في افتتاح الوحي أن الله ﷻ لم يقل: اقرأ باسم الله، وإنما قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ (العلق)، أي: اقرأ باسم المربي، أي: اقرأ في إطار التربية الإلهية.

ومنذ اللحظات الأولى في الإسلام اتَّسم العلم بالخير، وابتغى الخير، فلم يَبْتَغِ العلم الإسلامي في يوم من الأيام التنكيل بالإنسانية أو الاستعلاء أو التسابق من أجل إيجاد وسائل التدمير والتخريب، كلا، وإنما هو باسم المربِّي، وكان العلم الإسلامي من أجل ذلك ضرورةً لا ترفًا.

وقد يتساءل إنسان أيضًا عما إذا كانت هذه النهضة العلمية التي دوَّتْ في أرجاء العالم - منطلقة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة - لها أثر في النهضة الأوربية أم لا؟

وعن ذلك يقول العالم الإنجليزي الأستاذ بريفولت صاحب كتاب "بناء الإنسان"، وهو ممن أنصفوا الحضارة الإسلامية بعد أن ظلمها الغربيون قرونًا متعددة، يقول هذا العالم: "إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة أكسفورد، على يد معلميه العرب في الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا

---

١. موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، د. عبد الحليم محمود، دار الرشاد، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣م، ص١٢٧.

لِسَمِيِّه الذي جاء بعده ـ يقصد فرنسيس بيكون، وهما المنسوب إليهما في الحضارة الغربية ابتكار المنهج التجريبي ـ الحق في أن يُنْسَبَ إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي.

فلم يكن روجر بيكون إلا رسولًا من رسل العلم الإسلامي والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية، وهو لم يَمَلّ قط من التصريح بأن تَعَلُّمَ معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة. والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرق من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية. وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشارًا واسعًا. وانكبَّ الناس ـ في لَهَفٍ ـ على تحصيله في ربوع أوربا".

ويقول: "لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج. إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في إسبانيا لم تنهض ـ في عنفوانها ـ إلا بعد مُضِي وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام. ولم يكن العلم العربي وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أَشِعَّتها إلى الحياة الأوربية".

ويقول: "بالرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، ؛ فإن هذه المؤثرات توجد ـ أوضح ما تكون ـ في نشأة الطاقة التي تكوِّن ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره، أي في العلوم الطبيعية، وفي روح البحث العلمي".

ويقول: "إن ما يدين به عالمنا لعلماء العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العالم لهم بوجوده نفسه؛ فالعالم القديم ـ كما رأينا ـ لم يكن للعلم فيه وجود، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علومًا أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم، ولم تتأَقْلم في يوم من الأيام فتمتزج كليًّا بالثقافة اليونانية".

وقد نظَّم أهل اليونان المذاهب وعممَّوا الأحكام ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريبًا تمامًا عن المزاج اليوناني، ولم يُقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في عهدها الهلينستي.

أما ما ندعوه "العلم" فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدَثة، ولطرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها أهل اليونان. وهذه الروح، وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربي"[1].

الإسلام يؤاخي بين العلم والدين:

لم تعرف البشرية دينًا ـ سماويًّا كان أم وضعيًّا ـ حض على العلم والتعلم، وقرن بينهما وبين العبادة ـ مثل الإسلام.

وقد تتابعت الدراسات والبحوث في مسألة "تحرير العلاقة بين الدين والعلم في الإسلام"، حتى صارت

١. المرجع السابق، ٧٥:٨٧.

وثاقة هذه العلاقة أمرًا بدهيًّا مستقرًّا في الأذهان، ومن هذه الدراسات فصل رائع عقده المستشرق الألماني المسلم السفير مراد هوفمان في كتابه "الإسلام كبديل" تحت عنوان "الإيمان والعلم"، يقول: "... فطلبُ العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. والقرآن يَحُثُّ المسلمين في آيات متعددة على ضرورة طلب العلم مستعينين بالله ليزدادوا علمًا، متوسلين بما منحهم من بَصَر وبصيرة وقلوب وألباب، ونُهًى ووسائل إدراك، فيقول ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (طه)، ويقول ﷻ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (آل عمران)، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ (لقمان)، ويقول ﷻ: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ (الأنعام). وللمرء أن يرى في الآيات الخمس الأول من سورة العلق أول ما أوحي إلى النبي ﷺ - أذانًا ينادي الإنسان إلى طلب العلم، وأقل مراتبه محو الأمية بتعلم القراءة والكتابة، فيقول أصدق القائلين: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق).

إن المسلم العاقل يُفَكِّرُ في خلق الله ﷻ، فترى المسلمين من ذوي الألباب يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، يسعون إلى الموضوعية سعيًا، لا يميلون إلى الهوى بغيًا، يدفعون الشك بالدليل واليقين، ولا يركنون أو يأخذون بمجرَّد الظنون والتخمين، كما وصفهم رب العالمين.

في ضوء هذا نتفهَّم طلب الرسول ﷺ إلى كل مسلم ومسلمة السعي الحثيث للتعلُّم، والأحاديث الصحيحة تبين أن طلب العلم فريضة على كل مسلم، مهما بَعُدَت الشُّقة[1]، حتى قيل: ولو بالصين[2]، وهو الأمر الذي يقاس اليوم من حيث بُعد الشُّقَّة والعناء الذي يحيط بها - على العربي آنذاك قبل ألف وأربعمائة عام برحلات الفضاء إلى القمر مثلًا.

ولقد بلغ من تقدير الرسول ﷺ للعلم والتعلم أنه قال: "من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة"[3]. وفي رواية: "وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في جوف الماء"[4].

ولقد وعي الصحابة طلب الرسول ﷺ، وعملوا به، خاصة الخلفاء الأربعة ﷺ، وما أحسن رد علي بن أبي طالب على سؤال سُئِلَه عن مصدر علمه: أهو القرآن فحسب؟ أم صحائف أخرى إلى جانبه؟ حيث قال لسائله: كتاب الله، وبصيرة نافذة، وصحيفة بها بيان من الرسول ﷺ لثلاثة أمور. جاء عن أبي جُحَيْفَة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله، أو فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رجلٌ مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت:

١. الشُّقَّة: السفر البعيد، وهي بُعْدُ مَسيرٍ إلى الأرض البعيدة.
٢. ليس ثمة حديث بهذا اللفظ، بيد أن هناك ما يدعو إلى قطع المسافات في طلب العلم وثواب ذلك عند الله.
٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٧٠٢٨).
٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، باقي حديث أبي الدرداء ﷺ (٢١٧٦٣)، وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤٣)، وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (١١٢٤٣).

فما في هذه الصحيفة؟ قال: العَقْل[1]، وفِكاك الأسير[2]، ولا يُقْتَل مسلم بكافر[3].

كان هذا الظمأ إلى العلم مقترنًا باستعداد المسلم لاستخدام عقله؛ فَشَكَّلا القاعدة المنبسطة لازدهار العلوم الإسلامية مع مُسْتَهَلِّ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري)، وكان ينبغي أن نجتزئ في هذا المضمار بذكر أربعة عشر معلمًا عالميًّا؛ كابن فِرْناس والخَوارِزْمي والرَّازي وابن سينا والبَيْرُوني وابن الهَيْثَم وابن رُشْد وابن النَّفِيس وابن بَطُّوطة وابن خلدون.

وبعد أن يُوْرِد مراد هوفمان تعريفًا بهؤلاء الأعلام المسلمين يُبين أثر هذه الحضارة التي تأسَّست على تلك المرجعية الإسلامية، ومنها انطلقت إلى الحضارة الغربية، فيقول: "ويدل هذا البيان الموجز بأسماء الأعلام الأربعة عشر وحده على أن الغرب لم يرث الحضارة الهلينية (الحضارة الأوربية القديمة)، وإنما الشرق الإسلامي هو الذي وَرِثَها وبعثها وطوَّرها.

ونظرًا لتدفُّق العلوم والتكنولوجيا الناهضة في تلك الحضارة الإسلامية آنذاك، كان من المفهوم أن يسير التبادل الحضاري في العصور الوسطى في طريق ذي اتجاه واحد بأخذ الغرب عن المسلمين وليس العكس، أو على حد تعبير مارشال هدجسون: "لم يجد المسلمون لدى الغرب شيئًا يُذْكَر يستحقّ أن يبذلوا جهدًا ليتعلموه". وهكذا كان الغرب في تلك العلاقة مستوردًا بحتًا فحسب، سواء على الصعيد المادي أو المعنوي... هذا الغزو الحضاري الإسلامي العالمي، أو بلُغَة العصر الاستعمار الفكري، كما يحلو لبعضهم أن يُسَمِّيَه، تَرَكَ بَصَماته التي تحكي الكثير، في شكل رواسب لغوية وتعابير، وَلَمْ نَزَلْ حتى اليوم نتوسل بألفاظ عربيةِ الأصلِ، من مثل: أميرال (أمير البحر)، ألجبرا (الجبر)، والكحول، والعود، والقيثارة"[4].

ويؤصِّل د. القرضاوي القضية نفسها بقوله: "نحن ـ المسلمين ـ إذن لا نخاف من العقل، بالعكس نحن نرحب بالعقل، وليس في الدنيا كتاب أشاد بالعقل وَنَوَّهَ به مثل القرآن الكريم... ست عشرة آية في القرآن الكريم تتكلم عن أولي الألباب، ومادة: عقل، يعقل، يعقلون، موجودة في القرآن بكثرة. ثم إنّ الحديث عن الحجة وعن السلطان، وعن البرهان في القرآن الكريم، فالقرآن حافل بمثل هذا: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة)، أي: إن أي قضية لا تُقْبَل بغير برهان.

ولذلك نجد القرآن يُنْشِئُ العقلية العلمية، ويحارب العقلية الخرافية التي تصدق أي دعوى تقال لها.. العقلية العلمية التي ترفض الجمود على ما كان عليه الآباء، العقلية المقلِّدة، عقلية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الزخرف). هذا التقليد يرفضه القرآن، سواء أكان تقليد الآباء، أم تقليد السادة والكبراء: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ (الأحزاب)، أم تقليد العوام من الناس، قال تعالى:

١. العَقْل: الدِّيَة، وسُمِّيَتْ الدِّيَةُ عَقْلًا لوجهين؛ أحدهما: أن الإبل كانت تُعْقَلُ بفناء وَلِي المقتول، فَسُمِّيَت الديات كلها بذلك وإن كانت دراهم أو دنانير. والثاني : أنها تَعْقِلُ الدِّمَاءَ عن السفْك،أي تمسك.

٢. فِكاك الأسير: ما يُفْتَدى به من مال ونحوه.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كتابة العلم (١١١)، وفي مواضع أخرى.

٤. الإسلام كبديل، مراد هوفمان، مرجع سابق، ص٦٥: ٦٩.

﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنعام: ١١٦).

إنما يريد من الإنسان أن يفكر وأن يستخدم عقله لا عقل غيره، فالدعوة إلى التفكر، وإلى النظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء - متواترة في القرآن: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ (الأعراف: ١٨٥)، ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ (يونس: ١٠١)، عملية النظر والتفكر، دعوة إلى النظر والفكر، الحملة على التقليد بكل أنواعه، على الجمود بكل صوره"[1].

وحول العلاقة بين النقل والعقل يقول: "لم ير علماؤنا إطلاقًا أي تعارضٍ أو تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول. وقد ألف في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كتابًا ظهر في عشرة أجزاء، اسمه "درء تعارض العقل والنقل"، فلا يمكن أن يتعارض عقل صريح مع نقل صحيح، وإذا رأيت تعارضًا فلا بد أن ما ظننته نقلًا ليس صحيحًا، أو ما ظننته عقلًا ليس صريحًا؛ لأن العقل أثر من آثار رحمة الله بالإنسان وفضله عليه، والنقل هو وحي الله للإنسان. فكيف تتعارض آثار الله بعضها مع بعض، لا يمكن أن يتعارض العقل مع النقل؛ لن يحدث التعارض إلا من الناحية الظاهرية الشكلية. لكن عند التأمل لا يمكن أن يوجد تعارض، ولا بد أن يكون هناك توفيق بين ما يُظَنُّ من التعارض، أو أن أحدهما ليس صحيحًا.

فلذلك ليس عندنا مشكلة الدين والعلم.. الدين عندنا علم والعلم عندنا دين. الدين عندنا يقوم على أساس من العلم، وأول آيات نزلت في كتابنا: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (٥) ﴾ (العلق)، وكون أول ما نزل على قلب محمد ﷺ مادة القراءة والعلم، والتعلم، والقلم، يؤكد أن الدين عندنا علم، والعلم عندنا دين. وطلب العلم فريضة، سواء أكان علمَ دين أم علمَ دنيا، وقد اعتبر الإسلام تعلم علوم الدنيا فريضة كفائية إذا كان المسلمون يحتاجون إليها.

لا نعاني - نحن المسلمين - من مشكلة عانتها النصرانية في المجتمع الغربي، وهي مسألة التعارض بين العلم والدين، وقامت من أجل ذلك محاكم التفتيش، وحرق العلماء، وحدث ما حدث، ليس عندنا شيء من هذا"[2].

ولكنه يُحَذِّر في النهاية من اللعب بالألفاظ، داعيًا إلى تحرير المقصود بالعقلانية[3]، فيقول: "فإذا كانت العقلانية هي هذه فنحن - كما قلنا - دعاة عقلانية. أما إذا كانت العقلانية أن نرفض وحي الله ﷻ أو نغَلِّب باستمرارٍ العقلَ على النص، ولو كان النص قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فهذا ليس من العقلانية في شيء؛ لأنه كما يقول الإمام الغزالي:

إذا ثبت وجود الله بالعقل، أو أثبتنا النبوة بالعقل، وأثبتنا نبوة محمد ﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى، وأن القرآن كتاب من عند الله، إذا ثبت ذلك كله بالعقل.. عند ذلك يَعْزِلُ العقل نفسه ويتلقى من الوحي.. وقد

---

١. حول الإسلام وقضايا العصر، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٢٤، ١٢٥ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص١٢٧، ١٢٨.

٣. العقلانيَّة: مذهب فلسفي يقول: إن العقل مصدر كل معرفة وليس للتجربة دور فيها، وخلافه المذهب التجريبي.

يأتي الدين بشيء فوق مستوى العقل، ولكنه لا يأتي بما يستحيله العقل، فلا يأتي الدين بما يستحيل عقلًا، وإنما بما يستحيل عادة، والاستحالة العادية أمر يتغير. وكم من أشياء كانت مستحيلة في عادات الناس تغيرت، فلو ذكرنا لأجدادنا منذ عشرات السنين ما يحدث الآن لقالوا: هذا جنون. وكلها أشياء كانت مستحيلة عادة وأصبحت عادية نعايشها يوميًّا"[1].

ثانيًا. العقل أعظم مَزِيَّة في الإسلام:

عن علاقة الإسلام بالعقل استحسن الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ أن يختم بكلام مقتبس، ونحن نستحسن بدورنا أن نختم به، قال: "وفي علاقة الإسلام بالعقل يسرنا أن نُضمِّن كتابنا هذا بحثًا نفيسًا للأستاذ الشيخ "نديم الجسر" مفتي لبنان الشمالي قال فيه: نوطّئ للبحث بطرح السؤال الآتي: ما هي أعظم مزيّة يمتاز بها دين الإسلام عن الأديان السماوية الأخرى؟

لا ريب عند المسلم في أن الأديان السماوية كلها من عند الله، ولا ريب عند العاقل أن هذه الأديان السماوية الثلاثة القائمة اليوم على الأرض هي في أصلها، الذي أنزله الله، تتلاقى جميعًا على كل معاني الحق والخير بلا أدنى خلاف. فالتفاضل بين دين سماوي ودين سماوي آخر هو تفاضل في الكمِّ والكَيْف لا في الجوهر، وهو كالتَّفاضُل الذي يكون بين قانونين أَرْضِيَّيْنِ وضَعَتْهما الدولة في فترتين مختلفتين، وكان أولهما مختصرًا قليل المواد، وكان الثاني مطوَّلًا كثير المواد.

بل الأصح أن نقول: كان أولهما بسيطًا يسرد المواد من غير أن يتبسط بذكر المبادئ والأساسيات التي يُركِّز عليها القانون، والثاني يضع إلى جانب المواد الأساسية التي يركز عليها القانون جملًا مفصلة، ويفتح الفهم العميق لكل مادة من هذا القانون، كما يفتح باب الاستنباط لكل مادة إضافية تقضي الحاجة أو الضرورة بوضعها في المستقبل. هكذا كان شأن الإسلام بين الأديان السماوية الأخرى، وبهذا قضت حكمة الله حين أنزل هذه الشريعة الخاتمة الكاملة التي أكد ﷻ كمالها بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

ذلك أن الإنسان قد خُلق بحكمة الله البالغة، وهو يحمل في باطنه رغبتين؛ رغبة الغرائز التي خلقها فيه ليعيش وينتصر في معركة البقاء، ورغبة العقل الذي خلقه الله فيه ليدرك الحق إدراكًا واضحًا يتم به الإيمان بالله وعبادته، ويُتَاح له به أن يتحكم في تلك الغرائز ويُلجمها حتى لا تَجْمح وتتعدَّى حدود الحق والخير.

ذلك أن هذه الغرائز التي سُلِّحَ بها الفرد لخيره وخير المجتمع تنقلب إلى شر مستطير على الفرد والجماعة، وذلك حين تُتْرَك مطلقة جامحة لا يقيدها العقل بقيد الحكمة، فتصبح غريزة البحث عن الطعام شَرَهًا وبِطْنَةً، وغريزة الإنسال ـ التناسل والتكاثر ـ زنًا وفسقًا وعدوانًا، وغريزة الادخار والاقتناء طمعًا وشُحًّا وسرقةً، وغريزة حب الظهور والسيطرة خُيَلاء وكِبْرًا واستبدادًا، وغريزة الغضب جنونًا وسفكًا للدماء، بدلًا من الدفاع عن النفس والحق والوطن، وغريزة حب الاستطلاع تجسُّسًا وبحثًا دَنِيًّا عن عيوب الناس!

ولكن العقل في معركته مع الغرائز لم يكن دائمًا هو

1. حول الإسلام وقضايا العصر، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص١٢٨، ١٢٩.

الظافر؛ لأن الغرائز تُخلق في الإنسان كاملة بكل قوتها، ومتساوية في الأفراد، بينما العقل يتكامل تدريجيًّا مع التجارب الطويلة التي يمر بها الفرد وتمر بها المجتمعات، ولذلك لا تتحقق فيه المساواة بين الأفراد والأجيال، فكان لا بد من اختلاف العقول قوة وضعفًا. ولا بد من اختلاف الآراء سدادًا وأفنًا ـ نقصًا ـ وكان لا بد من عون السماء.

ولما كانت الإنسانية في عصورها الأولى غير مستعدة بعقولها وتجاربها لإدراك حدود الحق والخير إدراكًا كاملًا، كان الوحي يتولى هذا التحديد بأوامره ونواهيه على لسان الرسل فترة بعد أخرى.

ولما بلغ عقل الإنسانية في التصوُّر والتكامل الحد الذي تستطيع معه أن تعتمد على فكرها في معرفة الحق والخير، أنزل الله آخر كتبه على آخر رسله، بشريعة كاملة، لا من حيث إنها وضعت لكل جزئية من جزئيات الحياة حكما خاصًّا، فهذا لا يمكن؛ إذ إن أحداث الحياة في تجدُّد مستمر، والله سبحانه أحكم من أن يخاطِب الناس بحكم في أمور لا يعرفونها، ولكنها شريعة كاملة من حيث إنها تنطوي على أُسُس ومبادئ أصلية تَصْلُح أن تكون منبعًا للأحكام التي يمكن استنباطها في المستقبل، وتقدرنا على مواجهة وقائع جديدة لم ينزل بها أي نص صريح.

والآن نعود إلى السؤال: ما هي أعظم مَزِيَّة يمتاز بها دين الإسلام عن غيره من الأديان السماوية الأخرى؟

رُبَّ مجيب منكم أن هذا الذي ذكرناه ـ من وضع المبادئ الأساسية التي تتفرع عنها الأحكام الجزئية المنصوص عليها وغير المنصوص عليها ـ هو المزية العظمى لدين الإسلام. ولكن هذه المزية ـ مع كونها من أعظم مزايا الإسلام ـ ليست أعظمها على الإطلاق.

ففي القانون الروماني فتاوى بمثابة قواعد وإن لم تكن شاملة أو جامعة، أو محيطة بكل أمر كما هي المبادئ الأساسية في الإسلام، إلا أنها ـ أي الرومانية ـ على كلٍّ قواعد كانوا يرجعون إليها في تفسير بعض المواد وزيادة بعض المواد الجديدة. ورب قائل يرى أعظم مزية في الإسلام هي التوحيد المطلق المبرَّأ من كل شوائب الشرك الخفي والجلي، وجواب هذا أن الأديان السماوية الصحيحة كلها مَبْنِيَّة في أصلها على التوحيد بداهة؛ لأنها من عند الله، والله واحد أحد فرد صمد.

ورُبَّما يأخذ أحدٌ بظاهر قوله ﷺ: "إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق"[1] فيقول: إن المزية العظمى للإسلام أنه أَكْمَل وَأَتَمَّ مكارم الأخلاق، ولكن هذا الإتمام ـ على جلالة قدره ـ ليس أعظم المزايا، فمكارم الأخلاق موجودة في كل الأديان، والإسلام قد أتمها. وقوله ﷺ: "إنما" لا يراد به الحصر الحقيقي؛ لأن من أعظم غايات الرسالة المحمدية تطهير الوحدانية من أدران الشرك، وهذا التطهير هو الأساس لمكارم الأخلاق.

فإن قيل: إن مزية الإسلام العظمى هي أنه جمع في الحكم بين الدين والدولة، ولكن ما هذا الجمع بمزية خاصة بالإسلام؛ فالمسيحية الأصلية إن لم تكن جمعت في الحكم بين الدين والدولة؛ لأن ظهورها كان في

١. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ومن كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوة (٤٢٢١)، والقضاعي في مسند الشهاب، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق (١١٦٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٥).

وسط دولة قائمة قوية متسلِّطة، فإن اليهودية في عهد سليمان وداود، كانت تجمع بين الدين والدولة.

إذن ما هي أعظم مزية يمتاز بها الإسلام؟

إنها المزية الآتية:

إن الله في شريعة الإسلام جعل للعقل السلطان الأعلى في فهم أحكام النصوص المُنَزَّلة، وفي استنباط أحكامِ ما لم يَنْزِل به نص خاص، لا في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ. وهذا العقل الذي أمرنا الله في آيات كثيرة أن نحتكم إليه عند جدلنا بين أنفسنا في معركة الشك واليقين، وفي جدلنا مع غيرنا من المخالفين ـ يشمل بسلطانه كل معنى في الوجود ابتداء من أَتْفَهِ الأشياء، كإماطة الأذى عن الطريق، إلى أعظم معنى في الوجود وهو الألوهية والوحدانية.

وقبل أن يعترض معترض نُبادر إلى تفصيل هذا السلطان العقلي الذي أمرنا الله أن نحتكم إليه وبيان مداه، ونؤكد في هذا المقام على خمس حقائق لا يجوز أن تغيب عن ذهن عاقل طرفة عين:

الحقيقة الأولى: أن هذا العقل الذي خلقه الله لنا، وأمرنا أن نحتكم إليه ـ له سلطانان؛ سلطان مطلق: ليس له قيود سوى قيود العقل السليم وحده، وسلطان نِسْبي: مقيد بقيود المبادئ الأساسية التي قررها الإسلام.

فكما أن المبادئ الأساسية المنصوص عليها بالآيات المحكمات أو المستنبطة من الآيات المحكمات، نحن مأمورون أن نحتكم فيها إلى سلطان العقل مع أنفسنا في عقائدنا، ومع غيرنا، من أصحاب العقائد المخالفة، فإن الأحكام الجزئية التي يمكن أن نفسِّرها أو نستنبطها ضمن حدود تلك المبادئ الأساسية، تقع بالتالي تحت سلطان العقل الذي سميناه سلطان العقل النسبي المقيد؛ لأن ما بني على المعقول فهو معقول.

الحقيقة الثانية: أن السلطان العقلي المطلق الذي أمرنا الله أن نحتكم إليه ـ حتى الآيات اللواتي هن أم الكتاب ـ ليس معناه أن يحتكم كل فرد إلى عقله، فالعقول تختلف قوة وضعفًا، فتصيب وتخطئ، ولكن معناه أن نحتكم إلى الأحكام العقلية القاطعة التي تتفق عليها العقول السليمة، كل العقول السليمة، اتفاقًا عامًّا لا خلاف فيه.

الحقيقة الثالثة: كل نص قطعي واضح لا يسبب تناقضًا عقليًّا في الذهن ـ وهذا شأن الآيات المحكمات كلها بلا استثناء ـ فمن الواجب الإيمان به ولو كان تصور معناه عسيرًا على الذهن، فمن الواجب تأويله تأويلًا يرتفع به التناقض العقلي.

الحقيقة الرابعة: إن الآيات المتشابهات التي تعجز عقولنا عن تأويلها يجب أن نردها إلى (أم الكتاب).

وما دامت ـ المحكمات أم الكتاب ـ غير متناقضة مع العقل؛ فإن التشابهات التي تهيمن عليها ـ المحكمات أم الكتاب ـ تكون ولا بد معقولة وإن عجزنا عن تأويلها. (فالمحكمات) من عند الله، و (المتشابهات) من عند الله، ولكنها ـ المحكمات أم الكتاب ـ هي الأصول التي تسيطر على المتشابهات. وما دامت الأصول معقولة، نستطيع فهمها وإدراك حكمتها، فلا بد أن تكون المتشابهات الواقعة تحت سيطرتها معقولة، وإن لم نستطع تأويلها، وهذا معنى قوله ﷻ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ (آل عمران).

الحقيقة الخامسة: التي يحسن ذكرها للمبتدئين - هي أنه يوجد فرق كبير جدًّا بين المستحيل العقلي والمستحيل العادي. فالمستحيل العقلي هو الذي يوجب تصور وجوده أو تصور عدمه تناقضًا عقليًّا في الذهن. أما المستحيل العادي فلا يُوْجِبُ تصور حصوله أو عدم حصوله تناقضًا عقليًّا في الذهن أبدًا، ولكن جرت عادتنا - نحن البشر - أن نعدَّ ضدَّه مستحيلًا في العادة كخرق النواميس الكونية بالمعجزات.

فإذا كان النص الديني يتناول هذا النوع من المستحيلات العادية فلا مجال لإنكاره أو لتأويله أبدًا، حتى ولا لتعليله على أساس نواميس كونية أخرى كما يفعل العلماء عن حسن نية، بل يجب التصديق به؛ لأن القول باستحالته عقليًّا هو القول الذي يوجب تناقضًا عقليًّا، فالنواميس والطبائع في الأشياء من خلق الله، والذي خلقها قادر على خَرْقها، والقول بغير هذا هو الذي يوجب تناقضًا عقليًّا.

هذه هي الحقائق الخمس التي نحن في نطاقها مأمورون من الله بالاحتكام إلى العقل، بين أنفسنا في عقائدنا ومع غيرنا من المخالفين عند تعقُّلنا لمعنى الإيمان بالله، ووحدانيته وصفات كماله، فضلًا عن الجزئيات الأخرى.

وبعد أن يضرب أمثلة على ذلك مثل قضية وجود خالق لهذا الكون التي ورد بها النص والعقل يُقِرُّها أيضا ويُنْكِر نقيضها. وعلى نسق هذا يَعْقِلُ العقل قضايا؛ كالوحدانية والبعث والمعجزات، يقول: "وإذا تأملنا فواصل الآيات العديدة التي تحثُّ على استخدام؛ العقل كقوله ﷻ: (لعلكم تعقلون، لقوم يعقلون، لقوم يفقهون، لقوم يتفكرون)؛ يظهر بجلاء لا مجال للشك فيه أن الله هو الذي أمرنا بالاحتكام إلى العقل في إدراك وجوده ووحدانيته وصفات كماله، فضلًا عن إدراك ما هو أقل أهمية وخطرًا من ذلك من شتى الجزئيات.

فإنكار الاحتكام إلى العقل في نطاق الحقائق الخمس التي ذكرناها لا يجوز أن يُسمَّى خطأً، بل هو إنكار للنصوص الصريحة، ويدخل عند الإصرار في باب الكفر؛ لأنه إنكار وإعراض عن البراهين العقلية التي خاطبنا الله بها".

إن عقولنا التي خلقها الله لنا مفطورة فطرةً على قانون العِلِّيَّة (أو قانون السببيَّة) كما نسميه نحن البشر بالنسبة للمخلوقات، وهو الشيء الذي نسميه الحكمة إلى خلق الله وأوامره ونواهيه.

قد يقول الملحدون المنكرون للصانع: إن عقولنا اكتسبت هذا القانون بحكم العادة؛ لأنها كانت ترى الظاهرة تحدث عقب الظاهرة فتربط بينها برباط السببية فتسمِّي الأولى عِلَّة أو سببًا، وَتُسَمِّي الثانية معلولًا أو مسبَّبًا، وَيَرُدُّ عليهم المؤمنون بأن الفطرة من صنع الله تعالى.

والذي يهمنا على كل حال باعتبارنا مسلمين أن نقرر أن قانون العِلِّيَّة موجود في عقولنا، وأن الله ﷻ قد أكد هذا القانون، وهذا التأكيد من قِبَلِ الله لقانون السببية (فيما يقع من أحداث الكون، وهو ما نسميه حكمة الله، لما يقع من أفعال الله وأحكامه في الخلق والتدبير والتكليف والعقاب والمثوبة) أَمْره ظاهر في آيات كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحصى. ويكفي لإثبات هذا القانون الذي اتخذه الله ﷻ برهانًا على وجوده، وخلقه للعالم وللإنسان قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ

﴿ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ (الطور).

فالبرهان الذي يسوقه الله للعقول من صميم فطرتها بقوله تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ (الطور) هو بِذاته دليل على اعتبار السببية في دين الإسلام. فالكون حادث، والإنسان الذي أتى عليه: ﴿حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ (الإنسان) حادث، فلا بد لوجوده من سبب وعلة، وفاعل خالق هو الله سبحانه.

كذلك يقال عن حكمة إرادته القديمة في خلق الجن والإنس ليعبدوه؛ فالله ﷻ كتب على نفسه الحكمة، وهي التي نسميها نحن: داعيًا وسببًا وعلة. وقد يصرِّح الله بحكمة أفعاله وأحكامه وأوامره ونواهيه فيذكر سبب الحُكْم وعلته وحكمته، وقد لا يصرح ويترك لنا أن نستنبطها من خلال الأحكام بعقولنا على قدر ما نستطيع، بدون أن نتحكم على الله أن ما استنبطناه هو الحكمة، أو هو وحده الحكمة والسبب والعلة.

يقول: "وخلاصة القول أن أفعال الله وأحكامه ﷻ مبنيَّة على حِكَم وأسباب، منها ما هو صريح، ومنها ما هو باطن، ولكن ليس بمحظور علينا نحن أن نستنبط وجوه الحكمة من طريق العقل، قد يكون هناك ما يعجز العقل عن استنباط علته وسببه وحكمته، فنتوقف دون أن نزعم أنه بلا حكمة، بل نقول: خَفِيَتْ علينا حكمته. ومن يدري؟ فقد يكشف الغد عن هذه الحكمة فتظهر لنا كما ظهرت في كثير من أفعال الله، في مخلوقاته، وفي أحكامه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣). والقول بأن أحكام الله لا يجب أن تُعَلَّل صحيح، على معنى أننا نَتبعُها، ولو لم نفهم علتها وحكمتها، ولكن لا يجوز أن نعتقد أنها بدون حكمة!

فإذا تقرر هذا قلنا: إنه ليس لعالم عاقل أن ينكر على المسلمين أنهم يستطيعون ضمن نطاق المبادئ الأساسية للإسلام وهي الآيات المحكَمات أن يستعملوا عقولهم في استنباط بعض وجوه الحكمة في الأحكام الموجودة، وفي استنباط الأحكام الجديدة للحوادث المستجدِّة من طريق القياس أو الاستحسان؛ لأن القول بعدم وجود حكمة للأحكام الإلهية يتناقض مع العقل، كما أن الجمود عن استنباط الأحكام للأحداث المستجدّة هو تعطيل للدين وحُكْم بنقصانه، وهو الدين الكامل بشهادة الله نفسه.

وهكذا نرى أن أعظم مَزِيَّة يمتاز بها الإسلام ـ على غيره من الأديان السماوية ـ أنه يجعل للعقل السلطانَ الأعلى في إدراك كل معنى في الوجود، ويأمرنا أن نحتكم إليه حتى في الإيمان بالله ووحدانيَّته والإيمان بالرسل، وما كانت هذه المزية أعظم المزايا إلا لأنها هي الأصل لكل برهان ذكره الله لإثبات وجوده ووحدانيَّته وصدق رسله.

فلولا العقل لَمَا عرفنا الله، ولَمَا استطعنا أن نفهم أدِلته التي كرَّرها في كتابه ليبرهن على وجوده ووحدانيَّته، وطلب منا أن نتفكر فيها وندركها وَنَعْقِلَهَا، ومن ثَمَّ لَمَا استطعنا أن نؤمن بأحقية الأحكام التي بلَّغنا إياها الرسول ﷺ وما فيها من الهدى والخير، وَلَمَا استطعنا أن نستنبط الأحكام المستجدَّة بطريق القياس، ولتعطَّلت

أحكام الدين في الوقائع التي لم يرد فيها نص. وهذا ما لا يقول به عاقل من العوام فضلًا عن العاقل من العلماء الأعلام. فالله تبارك وتعالى يقول لنا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة:٣)، وهو يعلم أن هناك على كل الدهور القادمة وقائع وأحداثًا ستأتي، ولم يُنْزل سبحانه حكمًا خاصًّا؛ فلا بد - عقلًا - أن يكون قد أجاز أن نستنبط الأحكام على أساس العقل من طريق قانون العِلِّيَّة الذي ندرك به علة الحكم، وحكمة الله فيه ضمن دائرة المبادئ الأساسية التي أنزلها الله في الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب.

ليس عندنا في الإسلام شيء يُسَمَّى تفكيرًا روحيًّا، أو إيمانًا روحيًّا لا يعتمد على العقل، وليس عندنا أسرار، وليس عندنا خرافات، بل عندنا عقل، ولنا رَبٌّ حكيم عليم خاطبنا بأدلة العقل وحدها؛ لأن الإيمان تصديق، والتصديق يسبقه تصوّر، والتصور والتصديق والاستنتاج والحكم كلها من أعمال العقل وحده.

وما ذلك الإيمان الروحاني الذي يُسَمُّونه "إيمان العجائز" إلا نوع من الطمأنينة القلبية والسكينة النفسية اللتين يتمتع بهما المؤمن إذا امتلأ عقله الباطن بالإيمان بالله والخشوع أمام قدرته العُظْمى، والإدراك لحكمته البالغة، والفرح برحمته الواسعة.

فإذا لم يكن الإيمان مستندًا في الأصل إلى الاستنتاج العقلي، وكان عبارة عن استهواء روحاني خيالي تظلُّله الأسرار ويتعثَّر في ظلمته العقل، ذهب ذلك الإيمان الروحي مع الريح عند أول أزمة من أزمات النفس، أو شدَّة من شدائد الحياة. وهو بَعْدُ ليس بالإيمان الذي يرضاه الإسلام من قوم يتفكرون، ويقرءون البراهين العقلية البدهية التي ذكرها الله في كتابه، وصاغها بأسلوب يفهمه البدوي الساذج في القرن السابع، والعالم الفيلسوف في القرن العشرين"[1].

الخلاصة:

- إنه لَغَبْنٌ للإسلام أن يُحْكَم عليه بما ليس فيه، وأن تعمَّم أحكام كالفصل بينه وبين العلم، ثم تُسقَط عليه، وهي إن صح إسقاطها على غيره - في ظروف معينة - لا يصحُّ أن تُسقَط عليه بحال.
- لم تعرف البشرية دينًا - سماويًّا كان أو وضعيًّا - حضَّ على العلم والتعلُّم، وقَرَنَ بينهما وبين العبادة؛ تحقيقًا لغاية استخلاف الإنسان على وجه الأرض - وهي العبادة وعمارة الأرض - مثل دين الإسلام.
- لا يوجد في التراث الإسلامي تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول ألبتة. وعلى هذا قامت الأدلة - نقلية وعقلية - وأنَّى يكون ثمة تعارض بينهما وأول لفظة نزلت من القرآن هي "اقرأ"؟!
- إن أعظم مَزِيَّة يتميز بها الإسلام - على غيره من الأديان السماوية - أنه يجعل للعقل السلطان الأعلى في إدراك كل معنى في الوجود، ويأمرنا أن نحتكم إليه حتى في الإيمان بوجود الله ووحدانيته والإيمان برُسله.

---

1. ظلام من الغرب، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٤٩:٦١ بتصرف يسير.

الشبهة الثامنة

ادعاء أن الاهتمام بدراسة تعاليم الإسلام في مجتمع المدينة كان محصورًا في أضيق نطاق(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض الواهمين أن الاهتمام بدراسة تعاليم الإسلام في مجتمع المدينة كان محصورًا في أضيق نطاق؛ إذ كان عدد الذين يقومون بذلك ضئيلًا للغاية، كما أن نشاطهم لم يتعدَّ حدود المسجد، ويزعمون أنه قد ترتب على هذا أن كَثُرَت حوادث الاغتصاب والزنا، والوقوع في المحرمات. هادفين من وراء ذلك الطعن في صلاح المجتمع الإسلامي في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين.

وجها إبطال الشبهة:

١) كان الاهتمام بدراسة تعاليم الإسلام على نطاق واسع شمل الرجال والنساء، والكبار والصغار، وحرص الصحابة على الاستفتاء في كل شيء حتى الأمور الشخصية.

٢) لا دليل على كثرة الفواحش والمحرمات في المجتمع الإسلامي الأول، لا في عصر النبي ﷺ ولا في عصور الخلفاء الراشدين من بعده.

التفصيل:

أولا. كان الاهتمام بدراسة تعاليم الإسلام على نطاق واسع شمل جميع المسلمين:

لقد كان الصحابة أحرص الناس على حفظ كتاب الله ﷻ، وتحصيل السنة والتفقه فيها، وكانت مجالستهم لرسول الله ﷺ أحب إليهم من كل عزيز عليهم، حتى كان الاثنان منهم يتفقان على أن يتناوبا العمل وصحبة النبي ﷺ فيذهب أحدهما لعمله في يوم، ويبقى الآخر في صحبة النبي ﷺ يلازمه خلال ذلك اليوم، فإذا جاء الليل التقى الصاحبان، فَيُحَدِّث مَنْ لَازَمَ الرسول ﷺ صاحبه بكل ما سمع ورأى من رسول الله ﷺ، وفي اليوم التالي يتبادلان فيلازم الرسول ﷺ من كان في عمله أمس، ويذهب إلى العمل من كان في صحبة الرسول ﷺ، وهكذا[1].

لقد كان تجاوب نفوس الصحابة مع الوحي هو غاية التأنق وقمة الحق، وكان رسول الله ﷺ يربط أصحابه بالوحي النازل عليه من السماء ربطًا موثقًا، يقرؤه عليهم ويقرءونه عليه؛ لتكون هذه المدارسة إشعارًا بها على الصحاب من حقوق الدعوة بالرسالة، فضلًا عن تَبِعَات التدبر والفهم[2]. وكان بعضهم يقيم عند رسول الله ﷺ يتعلم أمور دينه، ويحفظ سنن نبيه ﷺ؛ ليعود إلى قومه فيعلمهم كما تعلم.

وقد تفرغ من الصحابة جماعة لسماع الحديث من رسول الله ﷺ وتبليغه للناس، مُكْتَفِينَ من الدنيا بما يقيم أَوَدَهم، وَسُمِّي هؤلاء بـ "أهل الصُّفَّة"، وكان من أعلامهم الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ، وكان يقول عن نفسه معللًا إكثاره من الحديث: "إنكم تقولون إن أبا هريرة يُكْثِر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما

(*) اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١. السنة النبوية بين كيد الأعداء وجهل الأدعياء، حمدي عبد الله الصعيدي، مكتبة أولاد الشيخ، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٨٥.
٢. فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٢٠٦ بتصرف.

بال المهاجرين لا يُحَدِّثُونَ بمثل حديث أبي هريرة؟ وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْق[1] بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وكان يشغل إخواني من الأنصار عمل أموالهم، وكنت امرأً مسكينًا من مساكين الصُّفَّة"[2].

ولم يكن نساء الصحابة أقل حرصًا من الرجال على طلب العلم وسماع السنة النبوية، بل شاركن في حفظها وروايتها، فهذه كُتُب رُواة الحديث تضمُّ في صفحاتها عددًا كثيرًا من الصحابيَّات اللاتي سَمِعْنَ الحديث النبوي ورَوَيْنَه، وقد جاء النساء إلى النبي ﷺ يطلبن منه أن يُخَصِّصَ لهن من نفسه يومًا يُعَلِّمَهن مما علمه الله.

وكان لأطفال الصحابة أيضًا شرف رواية الحديث، فقد جاء عن سَمُرَة بن جُنْدُب أنه قال: "لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلامًا، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول إلا أن ههنا رجالًا هم أَسَنُّ مني، وقد صليت خلف رسول الله ﷺ على امرأة ماتت في نفاسها، فقام عليها رسول الله في الصلاة عندوسطها"[3][4].

وقد حرص الصحابة ﷺ على سؤال الرسول ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، فيُفْتيهم ويُجِيبهم، مُبَيِّنًا حكم ما سألوا عنه، ومن هذه الحوادث ما يتناول خصوصيات السائل نفسه، ومنها ما يتعلق بغيره، وجميعها من الوقائع التي تعرض للإنسان في حياته، فنرى الصحابة لا يخجلون في ذلك كله، بل يسرعون إلى المعلم الأول؛ ليقفوا على حقيقة تطمئن قلوبهم إليها، وتَثْلَجُ صدورهم بها.

فقد جاء عن عمر بن أبي سلمة أنه سأل رسول الله ﷺ: أَيُقَبِّل الصائم ؟ فقال رسول الله ﷺ: "سل هذه" ـ يعني أم سلمة ـ، فأخبرته أن رسول الله ﷺ يصنع ذلك، فقال: يا رسول الله ﷺ، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال رسول الله ﷺ: "أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له"[5].

وقد يخجل الصحابي من الرسول ﷺ فيكلف غيره عبء السؤال، من ذلك ما يرويه علي بن أبي طالب ﷺ قال: كنت رجلًا مذَّاءً[6]، فكنت أستحيي أن أسأل رسول الله ﷺ لمكان ابنته، فأمرت المقداد بن الأسود فسأله، فقال: "يغسل ذَكَره ويتوضأ"[7][8].

وبهذا يتبين لنا أن الاهتمام بدراسة تعاليم الإسلام في

---

١. الصَّفْقُ: الضرب الذي يُسْمَعُ له صوت، والتَّصْفيقُ باليد: التَّصويتُ بها، وصَفَقْتُ له بالبيع والبَيعةِ صَفْقًا:أي ضربت يدي على يده. ويقال: ربحت صفقتك للشراء، وصفقة رابحة وصفقة خاسرة. وتَصافَقَ القومُ عند البَيْعَةِ.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ﴾ (الجمعة: ١٠) (١٩٠٦)، وفي مواضع أخرى بنحوه، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي (٦٥٥٥) بنحوه.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الصلاة على النفساء إذا ماتت في نفاسها (١٢٦٦) مختصرًا، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب أين يقوم الإمام من الميت للصلاة عليه (٢٢٨١) واللفظ له.

٤. السنة النبوية بين كيد الأعداء وجهل الأدعياء، حمدي عبد الله الصعيدي ، مرجع سابق، ص٧٢: ٧٦ بتصرف.

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب بيان أن القُبْلَة في الصوم ليست محرَّمة على من لم تحرك (٢٦٤٤).

٦. المَذْي : ما يخرج عند الملاعبة والتَّقْبِيل، وفيه الوضوء ورَجُلٌ مذَّاء:أي كثير المَذْي .

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من استحيا غيره بالسؤال (١٣٢) بنحوه، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب المذي (٧٢١) واللفظ له.

٨. السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٦٠، ٦١ بتصرف.

المجتمع الإسلامي الأول لم يكن محصورًا في نطاق عدد ضئيل كما يزعمون؛ إذ قد عمَّ هذا الاهتمامُ الرجالَ والنساء، والشيوخ والصبيان؛ حرصًا منهم على تلمُّس السبيل الصائبة، بل كان بعض الصحابة يقطعون المسافات الواسعة ليسألوا عن حكم شرعي ثم يرجع لا يلوي على شيء، فقد أخرج البخاري عن عقبة بن الحارث ـ أنه أخبرته امرأة بأنها أرضعته هو وزوجه، فركب من فوره ـ وكان بمكة ـ قاصدًا المدينة حتى بلغ رسول الله ﷺ، فسأله عن حكم الله فيمن تزوج امرأة لا يعلم أنها أخته من الرضاع، ثم أخبرته بذلك من أرضعتها، فقال له النبي ﷺ: "كيف وقد قيل"؟ ففارق زوجته لِوَقْتِه وتزوَّجت بغيره.

كما كانت النساء تذهب إلى زوجات النبي ﷺ فأحيانًا يسألن رسول الله ما يَشْأَنَ السؤال عنه من أمورهن، فإذا كان هنالك ما يمنع من التصريح للمرأة بالحكم الشرعي، أَمَرَ إحدى زوجاته أن تُفْهِمَهَا إياه، كما جاء في حديث المرأة التي كانت تسأل عن كيفية تَطَهُّرِهَا من الحيض، فأجابها الرسول ولم تفهم، فأشار إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ فأفهمتها جواب النبي ﷺ[1].

لقد أحدث الإسلام الحنيف انقلابات حقيقية، وكيف لا وهو الذي أشاد بذكر العلم حتى جعله مناط السعادة ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت)، وقال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٥)، وقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (طه).

وقال النبي ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[2]. وقال: "من سُئِلَ عن علمٍ فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة"[3]. فهل من عجيب بعد هذا، إذ اندفع المسلمون وراء تحصيل العلم اندفاعًا لا يُوجَد في تاريخ الجماعات ما يُشْبِهُهُ، حتى أصبحت عواصمهم بعد رَدَحٍ من الزمان عواصم للعلوم والفنون، ورجالهم أئمة للآراء والمذاهب[4].

ثم ماذا تنتظر من دين جعل فداء الأسير في بدر تعليمه لعشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة؟! فكان أول من وضع حجر الأساس لإزالة الأمية وإشاعة القراءة والكتابة، ثم ماذا نسمي تفريق النبي ﷺ للصحابة في الأمصار لتعليم الناس، وكان أولهم مصعب بن عمير حين بعثه إلى المدينة قبل الهجرة لتعليم أهلها؟!

ثانيًا. المجتمع الإسلامي الأول كان أطهر مجتمع عرفه التاريخ:

إن الزعم بكثرة حوادث الاغتصاب والزنا، والوقوع في المحرمات في المجتمع الإسلامي الأول

---

١. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٦٥ بتصرف.

٢. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٤)، وأبو يعلى في مسنده، محمد بن سيرين عن أنس (٢٨٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٢).

٣. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه (٨٥١٤)، وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب كراهية منع العلم (٣٦٦٠) بنحوه، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٢٣).

٤. الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص١٨٨، ١٨٩ بتصرف.

- زعم باطل لا دليل عليه؛ بل إن هذا المجتمع في عصر النبي ﷺ وخلفائه الراشدين كان أطهر مجتمع عرفه التاريخ، فقد أحدثت دعوة محمد ﷺ تغييرات مذهلة في هذا المجتمع، تشهد بهذا الأخلاق العظيمة التي ارتفع ﷺ بأتباعه إلى أَوْجِهَا، وجعل منهم خير أمة أُخْرِجَتْ للناس، ولو لم يكونوا كذلك لَمَا استطاعوا بهذا الدين الجديد - دين التوحيد والطهارة والعفة والاستقامة - أن يفتحوا قلوب العرب والفرس وأهل الشام والمصريين والأفارقة وغيرهم، ويقيموا بعد ذلك هذه الحضارة العجيبة.

ونعود فنقول: إن المجتمع الذي لا يقع أفراده في أي خطأ - هو مجتمع لا وجود له في دنيا البشر، ولكن المجتمعات رغم ذلك درجات[1].

ولا شك أن جريمة الزنا من أقذر الجرائم حتى أنكرها كل دين، بل أنكرها العقلاء والراشدون من الناس، كما أنكرها أصحاب المدنية الغربية جهرًا وإن قبلوها سرًّا، وذلك لِمَا فيها من عدوان على حقوق الأزواج، ومن اختلاط للأنساب، وحل لروابط الأسرة، وقتل لما في قلوب الآباء من عطف وحنان على الأبناء، ورعاية وبذل سَخِيٍّ لهم بما يبلغ حد التضحية بالراحة والنفس، الأمر الذي لا يكون إلا إذا مَلأَتْ عاطفة الأبوة قلوب الآباء، وذلك لا يكون إلا إذا وقعت في قلوب الآباء وقوعًا محققًا أن هؤلاء الأبناء من أصلابهم.

ثم لعلك لا تعجب لما تقرأ عن قتل أحد من الآباء - في أمريكا وأوربا - لأسرته وأبنائه شفاء لما في نفسه من شكوك في صحة نسب هؤلاء الأبناء إليه، وهيهات أن يخلو شعور أوربي من الشك في نسبة أبنائه إليه مع هذه الإباحية المطلقة للجمع بين النساء والرجال في أي مكان وأي زمان[2].

ولقد حرَّم الإسلام الزنا وجعله في عداد الجرائم الكبرى، بل إن القرآن الكريم قرنه بالشرك بالله، فقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)﴾ (الفرقان)، وقد جعل الله التعفف عنه من صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥)﴾ (المؤمنون).

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله: "ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله"[3]. وقد وضع الإسلام للزنا أشد الحدود، وهو الرجم حتى الموت للمحصن، وجلد مائة وتغريب عام لغير المحصن[4].

وإذا كان الثابت - كما بينا - سَعْي الصحابة ﷺ إلى التَّعَلُّم من النبي ﷺ الأحكام والحدود؛ فإنهم قد علموا حدَّ الزنا، وإذا علمنا سرعة استجابتهم لما يتعلمون، ولما يكون من أوامر فكيف يقال بعدُ بوقوعهم في أشد جريمة توجب الحد وهي الزنا؟! ومن أين أتى المدعي

١. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص٨٧، ٨٨.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٥٤٨ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين (١٣٥٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة (٢٤٢٧).

٤. لمزيد من التفصيل انظر: أدلة الحجاب، د. محمد أحمد إسماعيل المقدم، دار الإيمان، مصر، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، الفصل الثاني من الباب الأول.

بهذه الادعاءات؟! ثم إن هذا المغالط يربطها بعدم اهتمامهم بالتعليم وحصره في أضيق نطاق، وقد أثبتنا خطأ زعمهم هذا وتهافته، فضلًا عن انشغالهم بالفتوحات، ونشر الإسلام والعلم أيضًا، أيُصَوَّر مثل هؤلاء بأنهم لا همَّ لهم سوى الزنا والاغتصاب للنساء، فماذا نسمي مجتمع الغرب إذن؟!

إن الحدود التي وضعها الإسلام لهي دعوة صريحة للتخلق بالأخلاق الحسنة التي هي من مقاصد الدين، وهي أيضًا طريق التوبة إلى الله، ويكفي ارتداع المسلم عن الجريمة ودخوله في رحمة ربه ـ معرفته بأن ربه هو الذي شرع له هذا الحكم[1].

ومن صور الضمائر الحية ما جاء عن الرجل يقدر على الفاحشة، ولكنه يدوس مغرياتها، ويستبقي نفسه طاهرًا وصلته بالله زكية[2].

لقد ربط الإسلام الناس بمُثُلهم العالية والضمير الإنساني اليقظ الحي؛ ولهذا لم تقع خطايا الزنا في المجتمع في العهد النبوي كله إلا في القليل النادر الذي لا يسوغ أن يُؤَسَّس عليه حكم عام، وربما كانت الحكمة من وقوعها أن الله ﷻ شاء أن تقع وأن يقام فيها الحد الشرعي؛ ليسترشد بها المجتمع في مستقبل الأيام كتشريع تم تطبيقه في حالات محددة يكون هاديًا ودليلًا في القضاء والحكم[3].

وجدير بالذكر أن ما ورد من حوادث في هذا الصدد نادر جدًّا، ثم إنه بمجرد حدوثه يستيقظ الضمير فورًا ويصحو، وفي مثال ماعز الأسلمي والمرأة الغامدية وإقرارهما للنبي بذلك لإقامة الحد ـ خير دليل على هذا.

لقد كانت هذه حوادث نادرة، ومن ادعى غير ذلك فليأتنا بالدليل، ونعود إلى ما قلناه سابقًا ـ من أن المجتمع الذي لا يقع أفراده في أي خطأ لا وجود له في دنيا البشر. حدثت حالات زنا، ولكنها تُعَدُّ على أصابع اليد الواحدة، أمَّا أن يُعَدَّ المجتمع بتلك الندرة مجتمعًا شهوانيًّا ومجتمع زنا ووقوع في المحرمات، فهذا مما لا يقول به منصف، ولا يقبله عقل، ولا يتسق مع البحث المنهجي والنظرة العادلة المنصفة.

وقد ظل المجتمع الإسلامي نقيًّا طاهرًا في عهد الخلفاء الراشدين، وظل الضمير الحي متربعًا في قلوب المؤمنين. ويكفينا أن ندلل على هذا بهذا النموذج من هذا المجتمع في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وهو نموذج يُبيِّن مدى حرص القيادة الإسلامية على نقاء هذا المجتمع وطهارته من الأدناس.

خرج عمر رضي الله عنه ذات ليلة يطوف في المدينة، فسمع امرأة تقول في ضيق شديد:

تَطَاوَلَ هَذا اللَّيْلُ تَسْرِي كَواكِبُهْ
وَأَرَّقَنِي أَنْ لا ضَجِيْعَ أُلَاعِبُهْ
أُلَاعِبُه طَوْرًا وَطَوْرًا كَأَنَّما
بَدَا قَمَرًا في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ حاجِبُه
يُسَرُّ بِه مَنْ كان يَلْهُو بِقُرْبِهِ
لَطِيْفُ الحَشَا لا تَجْتَوِيْه أَقَارِبُه
فَوَاللهِ لَوْلَا الله لا شَيء غَيْرُه
لَنُقِّضَ مِنْ هَذا السَّرِيْرِ جَوانِبُه

---

1. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٥٤٢.
2. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص١٢٠.
3. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٣٤٨.

وَلكِنَّنِي أَخْشَى رَقِيْبًا مُوَكَّلًا
بِأَنْفُسِنَا لا يَفْتُرُ الدَّهَرَ كَاتِبُه

فقال عمر: يرحمك الله. ثم أرسل إليها بكسوة ونفقة، وكتب في أن يقدم عليها زوجها. وجاء في رواية: ثم خرج فضرب الباب على حفصة ابنته -رضي الله عنها- فقالت: يا أمير المؤمنين، ما جاء بك في هذه الساعة؟ فقال: أي بنية، كم تصبر المرأة على زوجها؟ قالت: تصبر الشهر والشهرين والثلاثة، وفي أربعة ينفد الصبر، فكتب عمر ألا تُحْبَسَ الجيوش فوق أربعة أشهر[1].

ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس هَمُّهَا أن تعيش بأي أسلوب، أو تَخُطُّ طريقها في الحياة إلى أي وجهة، وما دامت تجد القوت واللذة فقد أراحت واستراحت، كلا، فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله، وتوضح نظرتهم إلى الحياة، وتنظم شئونهم في الداخل على أنحاء خاصة، وتسوق صِلَاتِهم بالخارج إلى غايات معينة، والمهاجرون إلى المدينة لم يتحولوا عن بلدهم ابتغاء ثراء أو استعلاء أو قضاء شهوات، والأنصار الذين استقبلوهم وناصبوا قومهم العداء لم يفعلوا ذلك ليعيشوا كيفما اتفق... إنهم جميعًا يستضيئون بالوحي، ويريدون أن يحصلوا على رضوان الله، وأن يحققوا الحكمة العليا التي من أجلها خُلِقَ الناس وقامت الحياة.

وهل الإنسان إذا جحد ربه وتبع هواه إلا حيوان ذميم أو شيطان رجيم[2]؟!

آخر ما نقول في هذا الصدد سؤال نوجهه لكل من زعم شهوانية الصحابة وَوَصَفَهم بالزناة؛ إذا كان الصحابة يريدون الزنا وفعل المنكرات، لماذا اتبعوا محمدًا ﷺ وتحملوا مشاق الدعوة وعبء تبليغها، مع أن المجتمع الجاهلي يبيح ذلك ولا ينكره؟!

الواقع إذن أن مجتمع المدينة في عهد النبي ﷺ والخلفاء الأربعة هو أشرف وأطهر وأفضل مجتمع، وإن وجدت حالات فردية قليلة جدًّا لا تمثل نسبة تذكر بالقياس إلى عدد الناس في ذلك الوقت، فالزعم أن المجتمع مجتمع زنا ووقوع في المحرمات زعم باطل لا يتفق مع عقل أو منطق، ولا تؤيده أي حقيقة تاريخية موثقة.

الخلاصة:

- لقد اهتم الإسلام بالعلم اهتمامًا عظيمًا، فكان أول ما جاء في دستوره "اقرأ" وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن يسأل ربه أن يزيده علمًا، وجعل الرسول طلب العلم فريضة على كل مسلم، وقد كان الرسول أول من وضع حجر الأساس لإزالة الأمية والجهل من المجتمع حين جعل فداء الأسير في بدر تعليمه عشرة غلمان من المسلمين.
- انطلاقًا مما سبق كان الرسول ﷺ يقرأ الوحي على الصحابة ويقرءونه عليه، ومن هنا فَرَّق الرسول الصحابة في الأمصار لتعليم الناس القرآن والسنة والأحكام والفقه.
- المطالِعُ لتاريخ الصحابة وحياتهم يجد اهتمامًا

---

١. فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص٢٢٧، ٢٢٨ بتصرف.

٢. فقه السيرة، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص١٩٠ بتصرف.

كبيرًا منهم بالعلم، فقد كانوا يتناوبون حضور مجالس الرسول، وكانوا يقطعون إليه المسافات للتعلم، وقد شمل التعليم النساء، فقد سألن الرسول ﷺ أن يجعل لهن يومًا يعلمهن فيه، وكانوا يذهبون للنبي ﷺ يسألونه ويجيبهن، وإذا لم يفهمن جوابه، جعل الرسول زوجاته يُفْهِمْنَهُنَّ، وقد كانت الصحابيات يسألن أزواج الرسول ويتعلمن منهن.

- كان المجتمع الإسلامي الأول أطهر مجتمع عرفته البشرية، ولقد حدَّ الإسلام له حدودًا فما تعداها، وإلا لما اتبع أبناء هذا المجتمع الرسول ﷺ، ولظلوا في مجتمع الجاهلية الذي لا يجعل الزنا محرمًا محظورًا، فلو كانوا أصحاب شهوات ما تركوا بلادهم، وعادى الأنصار قومهم، وتحملوا عبء الدعوة والرسالة.
- لا شك أن وجود مجتمع بلا أخطاء لا وجود له في حياة البشر، ومن هنا وجدت حالات زنا في مجتمع المسلمين، بيد أنها لم تتعد أصابع اليد الواحدة، وكلها استيقظ فيها الضمير الإنساني الذي رباه الإسلام في أتباعه، فهل نحكم من خلال هذه الندرة النادرة من الحالات بأن المجتمع مجتمع زنا واغتصاب، إذن فماذا نسمي مجتمع الغرب؟ لا شك أن هذا لا يتوافق مع منهجية البحث العلمي.

الشبهة التاسعة

ادِّعاء أنّ المسلمين لا يحترمون الحضارات القديمة، ولذلك أحرقوا مكتبة الإسكندرية (*)

مضمون الشبهة:

يزعم أعداء الإسلام أن المسلمين شعوب لا تحترم الحضارات القديمة، وقد امتلأت قلوبهم بالحقد والكراهية على أصحاب هذه الحضارات، حتى وصل بهم هذا الحقد إلى أن أحرقوا مكتبة الإسكندرية؛ لأنها من تراث اليونان القديم الذي يرفضه المسلمون. ويرمون من وراء ذلك إلى اتهام المسلمين بالهمجية، وبأنهم أعداء للعلم والحضارة.

وجها إبطال الشبهة:

١) كان المسلمون أهل حضارة، وما كان لهم أن يُقْدِموا على إحراق تراث علمي للسابقين، بل أفاد المسلمون من كتب السابقين كما أفاد منهم غيرهم.

٢) إحراق المسلمين لمكتبة الإسكندرية فرية باطلة، ولا وجود لها في كتب التاريخ الصحيحة المعتمدة. كما أن الروايات التي ذكرت ذلك فيها من الاضطرابات والأوهام ما يكفي لإثبات اختلاقها وبهتانها.

التفصيل:

أولا. كان المسلمون أهل حضارة وفكر، وما كان لهم أن يُقْدِموا على إحراق تراث علمي للسابقين، بل لقد أفاد المسلمون من كتب السابقين، كما أفاد منهم اللاحقون:

ليس لدى المسلمين ما يمنعهم من اقتباس ما

(*) القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٢م. الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، مرجع سابق.

يفيدهم من الآخرين؛ فالحكمة ضالة المؤمن، وهم مأمورون بذلك، ومُدْركون أن تاريخ البشرية سلسلة من حلقات التأثير والتأثر بين الحضارات المختلفة، ومكانة الترجمة من تراث الأمم السابقة ومنزلتها - والاهتمام بها - أمرٌ معروف مشهور في تاريخ الحضارة الإسلامية.

قال "درابر" المدرس بجامعة نيويورك في كتابه "المنازعة بين العلم والدين": "لقد كان تفوق العرب في العلوم ناشئًا من الأسلوب الذي توخوه في بحوثهم، وهو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونان الأوربيين، فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلي لا يؤدي إلى التقدم، وأن الأمل في الوقوف على الحقيقة يجب أن يكون معقودًا بمشاهدة الحوادث ذاتها، ومن هنا كان شعارهم في بحوثهم - الأسلوب التجريبي والدستور العملي..."، إلى أن قال: "وهذا الأسلوب هو الذي حقق لهم التقدم الباهر في الهندسة وحساب المثلثات، وهو أيضًا الذي مكنهم من وضع قواعد علم الجبر ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية.... إلخ. ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفةٍ مُنَظَّمَةٍ وتكوين المكتبات، وقد قيل: إن المأمون نقل إلى بغداد مائة حِمْل بَعِير من الكتب.

وقد كان أحد شروط الصلح بينه وبين ميشيل الثالث - أن يعطيه إحدى مكتبات القسطنطينية التي كان فيها من الذخائر الثمينة الأخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السماوية، فأمر المأمون بترجمته إلى العربية وأسماه "المجسطي".

ثم قال عن همة المسلمين الأولين في ترجمة الكتب العلمية: "لقد كان في كل مكتبة كبيرة مكان خاص للنسخ والترجمة، وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك، فإن هونيان الطبيب النّسْطُوري كان له مكان من هذا القبيل ببغداد سنة (٨٠٥م)، ترجم فيه كتبًا لأرسطو، وأفلاطون، وأبوقراط، وجالينوس.... إلخ".

وقال: "وكانت قيادة المدارس تُسْنَدُ إلى ذوي المدارك الواسعة، فكانت إما بِيَدِ النسطوريين أو اليهود؛ لأن المسلمين لم يكونوا يَتَحَرَّون عن جنس العالِم وديانته، وما كانوا يَرَوْن قَدْرَه إلا بأعماله".

وقال: "وإننا لندهش حينما نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم في هذا العصر"[1].

ونستعرض مع "جارودي" هذه الحقائق التي أشار إليها "درابر"، إذ يعلق على هذه الحقائق التاريخية فيقول: "إن المسلمين أسسوا نهضة بالمعنى الكامل، شملت الصناعات، والبحث العلمي والعلاقات الاجتماعية والثقافة، وهم أول من طبق سياسة الانفتاح على العالم، فأخذوا من القديم والحديث، ومن الشرق والغرب، وتفاعلوا مع الحضارات والثقافات التي كانت قائمة في تلك العصور، وكان أهمها حضارة اليونان القديمة وحضارة الهند والصين المعاصرتين. هذا في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تحكم بالإعدام على العلماء الذين قالوا: إن الأرض كروية، وإنها تدور حول نفسها، وكانت محاكم التفتيش في إسبانيا تحكم بالحرق على المسلمين وعلى الكتب في القرن السادس عشر بعد طردهم المسلمين منها".

---

١. الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي ، مرجع سابق، ص٦٢، ٦٣ بتصرف.

ثم يذكر جارودي أسماء جحافل من علماء العرب الذين أسسوا العلوم وأبدعوا في الطب والرياضيات والكيمياء والجغرافيا.

ويشير جارودي إلى الظلم الذي يلحق بالإسلام حين يقال: إنه السبب في تخلف الدول الإسلامية في مجالات البحث العلمي في العصر الحديث، ويذكر أن الجامع الذي كان يُعَلِّمُ الدين كان جامعة للعلوم الطبيعية، مثل جامعة القرويين في فاس، وجامعة الزيتونة في تونس، والأزهر في مصر، وجامعة سمرقند، وجامعة قرطبة، فقد كانت مراكز للعلوم وللتعليم الديني في نفس الوقت، ويذكر جارودي لِقُرَّائِه في الغرب أن أول مرصد فلكي في العالم أنشأه الخليفة الأموي عبد الملك في دمشق عام ٧١٧م، وهو أيضًا أول من أنشأ المستشفيات وجعلها كليات الطب، في حين أنشئت كليات للطب في أوربا بعد ذلك نقلًا عن العالم الإسلامي، وكانت تَدْرُس المناهج والعلوم التي تدرسها الكليات الإسلامية. وكان منها كلية (ساليرن) في إيطاليا، وكلية (مونبلييه) في فرنسا. وحتى أعرق الجامعات الأوربية أنشئت على النموذج الإسلامي بعد ثلاثة قرون من نشأة الجامعات الإسلامية، وهذا ينطبق على جامعة باريس وجامعة أكسفورد، وهما أقدم الجامعات الأوربية.

ويذكر جارودي كيف تعلم الغرب من علم العلماء المسلمين؛ فقد كان الخوارزمي مؤسس علم الرياضيات الذي نقله الغرب، و مؤسس علم حساب التكامل، وأول من ربط الهندسة بالجبر.

وكان علماء العرب: الطوسي، والبيروني، والبوزجاني أسبق من كوبرنيكوس في الغرب بعدة قرون. وكان مرصد بغداد سباقًا في دراسة الكواكب واكتشافها ورصد حركتها بصورة منهجية، وتعددت المراصد في جُنْدِ يسابور وبجوار دمشق. وكان من دوافع التقدم العلمي حِرْص المسلمين على التدقيق في معرفة الاتجاه إلى مكة لتحديد القبلة للصلاة، وتحديد مواقيت الصلاة بدقة، كما كان الحرص على أداء فريضة الصيام يوجب ملاحظة دقيقة للشمس ومعرفة ساعة شروقها وغروبها، وكان تحديد بداية شهر رمضان ونهايته دافعًا للتعمق في دراسة علوم الفلك وإنشاء المراصد العلمية. وبنفس الروح تفوق البيروني في علم الجغرافيا، وما زال كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) شاهدًا على ما بَلَغَهُ علماء المسلمين من تقدم في مناهج البحث العلمي.

لقد كان المَلَّاحون المسلمون يَجُوبون المحيط الهندي منذ القرن التاسع الميلادي، وفي القرن العاشر قَدَّم التاجر العربي سليمان أَوَّل وصف للصين قبل ماركوبولو (١٢٥٤ـ ١٣٢٤م) بثلاثة قرون. وكان ابن بطوطة (١٣٠٤ـ ١٣٥٦م) الرحالة العظيم أول من دل العلماء على وصف جميع البلدان العربية حتى أفغانستان والهند وسيلان والصين. وكان الجغرافي المسلم العظيم الإدريسي أول من قام بتأليف كتب مزودة بخرائط للعالم في القرون الوسطى، وقدم مساهمة رئيسة في الطرق الملاحية، واستندت خرائطه على تحديد دقيق لخطوط الطول والعرض، ورسم الشواطئ ومجاري الأنهار، والإنسانية مدينة للعالم المسلم ابن ماجد، الذي ولد عام ١٤٣٠م، صاحب أهم كتاب في الملاحة (الفوائد في أصول علم البحر)، وكان بحَّارًا عظيمًا أطلق عليه اسم (أسد العواصف)، ويحاول الباحثون

الغربيون أن يغفلوا أنه هو الذي قاد أسطول فاسكو دي جاما البرتغالي من الشاطئ الإفريقي إلى كالكوتا في الهند عام ١٤٩٨م، وكان فاسكو دي جاما يعتبره (كنزًا عظيمًا).

ويستمر جارودي في ذكر فضل الإسلام والمسلمين على الحضارة الغربية إلى أن يصل إلى أن المسلمين هم أول من أنشأ الحدائق الجميلة كما في أصفهان وشيراز وقصر الحمراء وجنة العريف في غرناطة.

وفي علم الجيولوجيا كان علماء المسلمين أسبق من علماء أوربا بقرون، ودرسوا الجبال والسهول، والمحيطات والأنهار، والمياه الجوفية، وقد تعلم المهندس الإيطالي (جيرا نيللو توريانو) من المسلمين أصول الهيدروليكا في طليطلة، كما درس كيفية صنع المهندسين المسلمين للنافورات ونضاخات الماء المستخدمة للري وطواحين الهواء والآلات الموسيقية، وكانت اكتشافات المسلمين واختراعاتهم الأساس الذي بدأ منه (توريشلي) في إيطاليا في القرن الرابع عشر اختراع مقياس الضغط الجوي (البارومتر)، كما كان لعلوم المسلمين الفضل في نشأة علوم الميكانيكا في أوربا.

ويتوقف جارودي بإعجاب شديد عند ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م)، ويرى أنه رجل يندر أن يكون له مثيل، فهو ذو فكر شامل، فنان، ورجل دولة، وفقيه، ورجل قانون، وفيلسوف.. كل ذلك في رجل واحد، وسيظل مذكورًا في التاريخ بمؤلفه العظيم " العِبَر" الذي وضعه في القرن الرابع عشر الميلادي والمقدمة التي أودعها أُسُس علم التاريخ وعلم الاجتماع، وكان أول من وضع نظرية علمية لارتقاء الحضارات وانهيارها، ونظرية في أصول الحكم، ووضع المنهج العلمي للبحث التاريخي الذي يقوم على التفسير والتعليل ولا يكتفي بسرد الأحداث، وكان ابن خلدون على وعي بأنه يؤسس علمًا جديدًا ولذلك كتب في المقدمة الشهيرة:

"أبدأ بذكر الأسباب العامة في دراسة الأحداث الخاصة.. وسأتناول التاريخ بالتفسير والتعليل مرجعًا الأحداث إلى أسبابها وأصولها.. وطريقتنا في معالجة هذا الموضوع تشكل علمًا جديدًا قائمًا بذاته".

وهو - أيضًا - أول من ربط بين الملاحظة الشخصية والتفكير النظري، وأول من لفت الأنظار إلى أثر المناخ والجغرافيا والاقتصاد على حياة الشعوب، وأول من درس بنية المجتمعات وتقسيم العمل، وأول من قال بأن (ما نلاحظه من اختلافات في عادات الشعوب وأفكارها مَرَدُّه إلى الطريقة التي تتدبر بها قوتها)، وربط بذلك بين الاقتصاد والظواهر والعلاقات الاجتماعية، وهو أول من وجه النقد إلى المؤرخين الذين اكتفوا بتسجيل وقائع التاريخ دون بحث عن الأسباب الظاهرة أو الخفية وراء الأحداث التاريخية.

ويطالب جارودي علماء الغرب بالاعتراف بأن علماء الطب المسلمين هم أول من اكتشف العلاقة بين الحالة النفسية والحالة الجسمية التي اكتشفت حديثًا باسم (السيكوسوماتيك). ويقول: إن الكنيسة وقفت في وجه نمو الطب وتطوره، وفي عام ١٢١٥م أصدر البابا أنوسنت الثالث القرار التالي: (يحظر - تحت طائلة الحرمان - على كل طبيب العناية بمريض إذا لم يعترف ويقر بذنوبه؛ لأن المرض ينجم عن الخطيئة).

ويعلق رجاء جارودي على ذلك بأنه نتيجةً لهذا

التفكير فإن كلية الطب في باريس لم تكن تملك ـ منذ ٦٠٠ عام ـ سوى مجلد واحد في كل العلوم الطبية في العالم، وكان هذا المجلد للرازي العالم المسلم، الذي ما زال تمثاله قائمًا في هذه الكلية إلى جانب تمثال ابن سينا حتى اليوم. وموسوعة الرازي الطبية هي المؤلف العلمي الوحيد الذي استمر تأثيره يشع في الغرب عشرة قرون. وقد طبع بحث الرازي أكثر من أربعين طبعة، وقد كتبه في مطلع القرن العاشر الميلادي، وظل من المراجع الطبية الأساسية في أوربا نحو ألف عام.

أما ابن سينا فكان تأثيره في الغرب يفوق التصور، فقد ظل كتابه (القانون) الذي ترجمه إلى اللاتينية (جيرارد دي كريمون) هو موسوعة الطب التي تدرس في أوربا حتى عصر النهضة وتميز بوضوح تصنيف الأمراض، والدراسة المنهجية لأعراض كل منها، وطريقة تشخيص الأمراض وبخاصة أمراض الكُلَى والرئة وَخُرَّاج الكَبِد، وغيرها من الحالات الدقيقة. وكان ابن سينا ـ مثل الرازي ـ عبقرية شاملة.. كان طبيبًا، وعالـمًا في الفيزياء، وفيلسوفًا، وعالـمًا دينيًّا، وشاعرًا.

وكذلك كان الحسن بن الهيثم المولود في البصرة عام ٩٦٥م والمتَوَفَّى في القاهرة عام ١٠٣٩م عالـمًا عظيمًا في الرياضيات والفلك والهندسة وعلم البصريات، ونقل روجر بيكون مؤسس المنهج العلمي الحديث كتاب ابن الهيثم عن تشريح العين وكيفية الإبصار، وكتب روجر بيكون: (إن الفلسفة مستخلصة من العربية)، كما كان ابن الهيثم أول من قَدَّم وصفًا تشريحيًّا للعين. وكان أبو القاسم الموصلي أول من يعالج العتامة في عدسة العين بإجراء جراحة دقيقة بواسطة الامتصاص بإبرة مجوفة، وذلك في عام ١٠٠٠م، ولم ينجح الغرب في إجراء مثل هذه العملية إلا في عام ١٨٤٦م أي بعد ثمانية قرون!

وكان العالم المسلم ابن النفيس المتَوَفَّى عام ١٢٨٨م أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل هارفي بأربعمائة سنة، وقبل ميشيل سيرفيت بثلاثمائة سنة. ووصف أحد تلاميذ ابن الهيثم الأوعية الشعرية في العين التي لم يتعرف إليها أول عالم غربي (مالبيجي) إلا عام ١٦٦٠م بالميكرسكوب بعد ثلاثمائة سنة.

وقد استخدم المسلمون المصل الواقي من الجدري قبل اكتشاف أول عالم غربي لهذا المصل (جينر) بألف سنة.

ودرس العالم الجراح الأندلسي أبو القاسم المتوفى عام١٠١٣م مرض السل الذي يصيب الفقرات قبل أول عالم غربي (بيرسيفال بوت ١٧١٣ــ ١٧٨٨م) بسبعمائة وخمسين سنة، واخترع طريقة لربط الشرايين بعد بتر الأعضاء قبل أول عالم غربي(امبرواز باريه ١٥١٧ـ ١٥٩٠م) بتسعمائة سنة، وكان له الفضل في اختراع أدوات جراحية لم تكن معروفة، وبعضها ما زال يستخدم إلى اليوم بعد تطويرها بالتكنولوجيا الحديثة[1].

ولا ريب أن العقل حاكم بعد استقراء تاريخ هؤلاء العظماء، الذين طالما نبغوا في العلم وتفوقوا في كثير من المجالات، سابقين بذلك بلاد الغرب وغيرها ـ لا شك أن العقل حاكم بأنه لا يمكن في حق هؤلاء أن يقعوا على تراث تَجَمَّع في مكتبة جامعة ثم لا يكون موقفهم من هذا التراث إلا حرقه! وكيف يستقيم هذا مع

١. المنصفون للإسلام في الغرب، رجب البنا، دار المعارف، القاهرة، ص٢٢٧: ٢٣٠.

بحثهم عن تراث غيرهم وترجمته والاستفادة منه؟!

ثانيًا. قصة إحراق المسلمين لمكتبة الإسكندرية فرية لا أساس لها من الصحة ولا وجود لها في كتب التاريخ الصحيحة المعتمدة:

أما نسبة حرق مكتبة الإسكندرية إلى المسلمين فقد أثبت كثير من المحققين أنه ما نسب إلى المسلمين إلا زورًا وبهتانًا، وأثبت المنصفون من المستشرقين أنها أُحْرِقَتْ قبل الفتح الإسلامي لمصر بحوالي قرنين من الزمان.

ويشير د. عبد الرحيم محمد عبد الحميد إلى أننا: "لم نعثر على نص أو إشارة إلى أن عمرو بن العاص حرق مكتبة الإسكندرية، وجُلُّ ما في الأمر أن هناك نصًّا لابن القفطي (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٢٧م) ينقله ابن العبري (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) مفاده أن عمرًا أرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستشيره في أمر المكتبة، فورد كتاب عمر يقول: أما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها، فتقدم بإعدامها.

فشرع عمرو بن العاص في توزيعها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقد، وذكر لي عدة الحمامات يومئذ وأُنْسِيتُها، فذكروا أنها استنفدت في ستة أشهر، فاسمع ما جرى واعْجَبْ. إلا أن قصة الحرق هذه وردت قبل ابن القفطي وقبل ابن العبري، فهذا عبد اللطيف البغدادي (ت ٦٤٩هـ/ ١٢٣١م) قال: "... وعمود السواري عليه قُبَّة هو حاملها، وأرى أنه الرُّواق الذي كان يُدرِّس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده، وأنه دار العلم التي بناها الإسكندر حيث بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر بن الخطاب ﷺ".

وعند دراسة هذه الروايات نرى أنه لا بد من إبداء الملاحظات الآتية:

١. لا يوجد أي إسناد يرجع إليه في هذه الروايات، وإنما هي افتراضات افترضها أصحابها.

٢. أنها وجدت في فترة بعيدة عن زمن فتح عمرو بن العاص لمصر، ويمكن القول: إنَّ هذه القصة مختلقة اختلاقًا واضحًا، ويمكن الطعن فيها من النواحي الآتية:

- لم يذكر قصة حرق مكتبة الإسكندرية من أرخ لتاريخ مصر وفتحها، ممن عاش قبل من ذكروا هذه القصة بعدة قرون.
- لم تذكر هذه القصة عند الواقدي ولا الطبري، ولم يتفق عليها ابن الأثير ولا ذكرها ابن خلدون، فضلًا عن ابن عبد الحكم، ولم يشر إليها ياقوت الحموي عند وصف الإسكندرية.
- يمكن إرجاع هذه القصة إلى فترة الحروب الصليبية، من جهة البغدادي، وربما وضعها تحت ضغط معين، أو ربما انتحلت عليه فيما بعد.
- إذا وجدت هذه المكتبة المزعومة، فيمكن القول: إنَّ الروم الذين غادروا الإسكندرية كان بإمكانهم إخراجها معهم، أو ربما فعلوا ذلك.
- لقد كان بإمكان عمرو إلقاؤها في البحر في فترة قصيرة بدلًا من حرقها الذي استغرق ستة أشهر، مما يدل على القصد في تزييف هذه القصة وتأليفها، ويمكن القول بلا وجل: إن عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ بريئان مما نسب إليهما في هذه

القصة المصطنعة التي كانت من تخيلات أناس أحبوا التهويل، فتخيلوا وجود ما لم يكن موجودًا[1].

كما أن رواية ابن العبري "أشبه بالخرافة؛ فقد ذكر فيها ابن العبري أن كتب المكتبة كَفَتْ أربعة آلاف حمام ـ وهي عدد حمامات الإسكندرية كما ذكرها ابن العبري ـ لمدة ستة أشهر، وهذا غير معقول؛ لأن المخطوطات التي ادعى أنها أُحْرِقت ٧٠٠ ألف مخطوط، أُحْرِقَتْ في ٤٠٠٠ حمام عام، فيكون نصيب كل حمام ١٧٥ مخطوطًا، وهذا يكفي لعدة أيام لا لستة أشهر كما تَدَّعي رواية ابن العبري. علمًا بأن تلك المخطوطات كُتِبَتْ على ورق البردي والرق، وهاتان المادتان تعطيان حرارة منخفضة جدًّا لا تكفي لتسخين الماء ولا لأيام، فضلًا عن ستة أشهر.

ثم إن عمرو بن العاص لو قصد تدمير المكتبة لأحرقها في الحال ولم يتركها تحت تأثير أصحاب الحمامات، وإلَّا لَتَمَكَّنَ يوحنا النحوي الذي بنى ابن العبري روايته عليه مِن أَخْذِ ما يلزم مِنْ هذه الكتب بثمن بخس، ولَتَسَرَّب قسم كبير من الكتب لِيَظْهر فيما بعد، وهذا ما لم يحدث.

كما أن ثمة أمرًا جديرًا بالذكر هنا، وقد ذكره "بتلر" حين ذكر أن يوحنا هذا مات قبل الفتح الإسلامي لمصر بثلاثين أو أربعين سنة.

ولو فرضنا أن هذه المكتبة بقيت إلى الفتح الإسلامي، فلم يكن هناك ما يمنع من نقلها إلى القسطنطينية على أيدي الروم في أثناء الهدنة التي عقدت مع المسلمين، وقد أجاز لهم عمرو في عهد الصلح أن يحملوا كل ما يقدرون عليه، وكان لديهم من الوقت ما يُمَكِّنُهُمْ من نقل مكتبات لا مكتبة واحدة.

كما أن هذا مخالف للتعاليم الإسلامية التي تحترم الحضارات والكتب الدينية ـ اليهودية والمسيحية ـ وكذا غيرها؛ لأنه يجوز أن ينتفع المسلمون بها. كما أن سماحة المسلمين التي عُرِفوا بها وعهودهم ومواثيقهم مع الآخرين تنفي أن يحرقوا شيئًا خاصًّا بهم فضلًا عن أن يكون هذا الشيء تراثًا تنتفع به البشرية فضلًا عن انتفاع المسلمين أنفسهم به.

إن إسناد حرق مكتبة الإسكندرية إلى المسلمين لهو محض افتراء وخرافة بيِّنة، وقد جزم د. غوستاف لوبون بخرافة القصة في كتابه "حضارة العرب"؛ إذ يقول: وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم فمن الأعمال الهمجية التي تأباها عادات العرب المسلمين؛ ولا شيء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين في الإسكندرية قبل الفتح العربي الإسلامي". وكذلك اعتبر جاك. س. ريسلر أن حريق الإسكندرية أسطورة[2].

الخلاصة:

- إن العطاء الإسلامي في نواحي العلم المختلفة جديرٌ بأن يُثْبِتَ وحده حقيقة موقف المسلمين من

---

١. عمر بن الخطاب ﷺ، د. علي الصلابي، مرجع سابق، ص٦٨٦، ٦٨٧. موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٨٢م، ج٥، ص٤٢ وما بعدها. الخلافة العباسية والمشرق الإسلامي، د. محمد عبد الحميد الرفاعي، مكتبة النصر، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٧ وما بعدها.

٢. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢١٦: ٢٢١ بتصرف.

الثقافات الأخرى؛ فمنذ عهد بني أمية ابتدأ المسلمون حركة الترجمة لعلوم الأوائل، ثم لم تزل تتسع حتى بلغت أوْجَها أيام المأمون الذي لم يجد بأسًا في تعريب التراث الفلسفي اليوناني إلى جوار قسم من تراث الفرس والهنود، ثم لم يلبث المسلمون أن استوعبوا ذلك كله وشرعوا يقدمون للفكر والعلم من إبداعهم ما اعترف بفضله كثير من المنصفين الغربيين.

- رواية إحراق عمرو بن العاص لمكتبة الإسكندرية أثبت كثير من المحققين كذبها وزورها على المسلمين؛ فلقد فرغ الباحثون من مسلمين ومستشرقين من إثبات اختلاقها، وأنها لم تكن معروفة عند أحد من المؤرخين قبل القرن السابع الهجري حتى ظهرت عند مثل ابن القفطي (ت ٦٤٦هـ) وعبد اللطيف البغدادي (ت٦٤٩هـ)، وابن العبري(ت ٦٨٥هـ). وقد صار أمرًا مقررًا اليوم أن مكتبة الإسكندرية لم يكن لها ذكر قبل الفتح الإسلامي بنحو قرنين من الزمان.
- جزم د. غوستاف لوبون بخرافة حرق المسلمين مكتبة الإسكندرية، واعتبر جاك. س. ريسلر حريق المسلمين للإسكندرية أسطورة. كما أن العقول حاكمة باستحالة صدور مثل هذا الفعل من المسلمين الذين يحترمون الحضارات ويقدِّرون العلم. كما أن عهودهم ومواثيقهم ومعاملتهم مع الآخر تنفي أن يحرقوا تراثهم، أو تراث غيرهم.

الشبهة العاشرة

ادعاء أن الإسلام أخمد النشاط العلمي في الشعوب التي فتحها (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن الإسلام قد أخمد جذوة الفكر والتحضر وقوة الإدراك وروح الابتكار لدى شعوب البلاد التي فتحها - على عكس اليونان والرومان من قبله - وأن الجمود الذي أصاب العالم الإسلامي في الآونة الأخيرة سببه الإسلام. ويرمون من وراء ذلك إلى اتهام الإسلام بالتخلف والرجعية، وأنه لا يصلح لمواكبة هذا التطور العصري؛ إذ هو سبب تخلف المسلمين عن ركب الحضارة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إنها دعوى مناقضة للحقيقة تخفي القهر الروماني في الحكم، فإن حقبة الإدراك العقلي وروح الابتكار كانت في ظل الإسلام، هذا في الوقت الذي عانى فيه أهل المستعمرات الرومانية واليونانية الاضطهاد الشديد، ومصَّ دماء هذه المستعمرات.

٢) التقدم الحضاري والثقافي الذي ساد العالم كله - في ظل الحكم الإسلامي - خير شاهد على مدى اهتمام الإسلام بكافة مجالات الحياة الإنسانية.

٣) حال الأمة الإسلامية في جمودها يختلف في أسبابه عن حال أوربا في العصور الوسطى، فالإسلام هو الذي بعثها وصنع حضارتها، فلا يمكن أن يكون

(*) قضية التنوير في العالم الإسلامي، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٠م. مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق.

هو سبب جمودها.

٤) تجمد الفكر عند المسلمين في الآونة الأخيرة ليس سببه الدين، بل السبب هو البعد عن الدين.

التفصيل:

أولا. دعوى مناقضة للحقيقة:

هذه دعوى مناقضة للبدهيات مناقضة صريحة صارخة؛ إذ من المعروف أن البلاد التي فتحها المسلمون، وقد كانت تسودها آثار المدنية اليونانية والرومانية، هي سوريا ومصر، وشمال إفريقيا كله والأندلس، وهي بلاد نالت الكثير من جَرَّاء هذا الاحتلال فكانت تعاني مثلًا من تَعَنُّتِ الرومانيين في الحكم، ومن اضطهادهم لها في الدين، وهو ما أُفْرِدَتْ له صحف سوداء في التاريخ.

أليس من غرائب التعصب أن ينكر المدَّعون كل هذه الآثار الناطقة، ويدّعون أن سيادة المسلمين قد أخمدت نشاط الشعوب في البلاد التي فتحوها؟! ألم يروا أن الشرق الإسلامي لبث متفوقًا على الغرب في كل مجال رَدَحًا كبيرًا من الزمن، بلغوا خلاله قمة المجد، وصارت إليهم زعامة الأرض في السياسة والعلم والفنون والأدب، أيظن هؤلاء أن المسلمين كانوا يَبْلُغون هذه المكانة، وهم يُخْمِدون نشاط الشعوب وروح الابتكار عندهم؟!

إن مؤدَّى هذا القول أنه كان للشعوب التي أخضعها اليونانيون والرومانيون نشاط وقوة إدراك وروح ابتكار جرَّدتها منها السيادة الإسلامية، فكيف يُعْقَلُ هذا الكلام وهذه الصفات لم تكن لليونانيين والرومانيين أنفسهم في العهد الذي ظهر فيه الإسلام؟

فهل يُعْقَلُ أن يكون شيء منها لمستعمراتهم التي امتصوا دَمَها وتركوها جُثَّة هامدة، ولا سيما أن إجماع المؤرخين منعقد على أن أوربا كانت تعيش في ظلام حالك من القرن الرابع إلى القرن الخامس عشر، حتى لم ينبغ فيها على مدى هذه القرون العشرة عالم واحد؟

فليدلنا المدَّعون على النشاط وقوة الإدراك وروح الابتكار التي ينسبونها كذبًا إلى الرومان واليونان؛ لنرى أين كانت ثاوية في ثنايا هذه الغَيَاهِب المتلبِّدة.

ويكفي هؤلاء تدليلًا على أن الإسلام قد شجع أتباعه على النشاط وقوة الإدراك وروح الابتكار أن يرجعوا - إن أرادوا الإنصاف - إلى القرآن الكريم ليعلموا إلى أي مدى كان هذا الدين حريصًا على هذه المبادئ السامية[1].

وهذه بعض شهادات من تاريخ العلم تنطق بفضل المسلمين على البلاد التي فتحوها، وبفضل حضارتهم على العالم وأثرها في التقدم العلمي، قال المؤرخ الإنجليزي الكبير جيبون: " كان من أثر تنشيط الأمراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمي في المسافة الشاسعة التي بين سمرقند وبُخَارَى إلى فارس وقرطبة".

وقال الأستاذ الكبير درابر ***Draper*** المدرس بجامعة نيويورك في كتابه "المنازعة بين العلم والدين": "لقد كتب العرب في كل فن وفي كل علم، كالتاريخ والشريعة والسياسة والفلسفة، وتراجم الرجال وتراجم الخيول والإبل، وكل هذه المؤلفات كانت تُنْشَر

---

١. مناقشات وردود، د. محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص١١٧: ١٢٠ بتصرف.

بدون رَقَابة ولا حَجْر، وما يُعْلَم من المراقبة على الكتب اللاهوتية، فقد حدث فيما بعد هذا التاريخ، وقد كانت الكتب الزاخرة بالمعلومات التي تصلح لأن تتخذ مادة كثيرة جدًّا في الجغرافيا، والإحصاءات، والطب، والتاريخ، وقواميس اللغة، وكانت لديهم دائرة معارف علمية".

إلى أن قال: "كان المُلْك الإسلامي يَغَصُّ بالمدارس والمكتبات، وكانت بلاد المغول والتتار ومراكش والأندلس حاصلة على عديد منها... ولو أردنا أن نستقصي كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى، لخرجنا عن حدود هذا الكتاب (يقصد كتابه المشار إليه) فإنهم ـ أي العرب ـ قد رَقَّوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدًّا وأوجدوا علومًا جديدة لم تكن معروفة قبلهم... وإننا لندهش حين نرى في مؤلفات العرب من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم في هذا العصر..."[1].

ثانيًا. التقدم الحضاري والثقافي الذي ساد العالم ـ في ظل الحكم الإسلامي ـ خير شاهد على مدى اهتمام الإسلام بكافة مجالات الحياة الإنسانية:

لقد ضرب النموذج الإسلامي الرائع للحضارة المتوازنة خير مثال تؤيده تجارب الخبرة الإنسانية، وحقائق الواقع المعيش، على أن المجتمع القادر على تحقيق التوافق والانسجام بين حركة الحياة الواقعية وبين التنسيق الفكري السليم الذي يوجه هذه الحركة في الوقت نفسه مجتمعٌ قادر على احتضان الفكرة الصائبة، واستثمارها حضاريًّا، بما يحقق التقدم والنماء، سواء كانت هذه الفكرة علمية، أو تقنية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو غير ذلك مما يتعلق بمختلف مجالات النشاط الإنساني.

ولقد حققت الحضارة الإسلامية انتشارًا ودوامًا مُتَلازِمَيْنِ لم تحققهما أي حضارة أخرى بفضل الترابط الوثيق بين حركة الواقع والفكر الذي يغذيها، ومن المؤسف أن الغرب أخذ من هذا الأصل الحضاري جانبه المادي فقط بِمَعْزِلٍ عن القيم الإيمانية الهادية، ففشل في إدارة حضارته إلى الحد الذي أصبحت فيه هذه الحضارة نفسها مصدر تهديد لحياته.

وكان هذا المنهج العملي السليم ـ الذي يحمل فكرة التقدم العلمي والحضاري على أساس الملاحظة والتجربة والاستقراء ـ هو خير هَدِيَّة قدمتها الحضارة الإسلامية للفكر الغربي باعتراف العديد من المؤرخين والمفكرين المنصفين للدور الإسلامي، ويكفي هنا أن نشير إلى ما كتبه حديثًا "ريتشارد باورز" حول أحسن فكرة خلال الألفية الماضية" موضحًا أن أفكار العظماء أمثال أينشتين ونيوتن، وماكسويل، وديكارت، وبيكون، وغيرهم لم تكن لِتُولَدَ لولا العالم العربي الحسن بن الهيثم، الذي أرشد إلى كلمة السِّرِّ ومفتاح التقدم بتأسيس المنهج العلمي السليم للبحث في العلوم الطبيعية.

وكان المسلمون أينما حَلُّوا ينشرون معالم هذا المنتج العلمي، وعنهم انتقل إلى أوربا فَحَوَّلَهَا من عصورها الوسطى إلى العصر الحديث، وما يعنينا هنا على أية حال، هو ثمرة اختلاط العرب بالأمم اللاتينية في القرون الوسطى، واللقاء بين ثقافة يانعة براقة، وثقافة ناشئة اجتذبها البريق الأخَّاذ، وكان الإخصاب الذي

1. المرجع السابق، ص١٣٠، ١٣١.

أسفر عنه هذا اللقاء فذًّا رائعًا لا يَنْضُب مَعِينه ولا ينقطع مَدَده. ولولاه لتأخرت مسيرة المدنية عدة قرون، وَلَمَا وصلنا إلى حضارة اليوم بكل شموها وأبعادها وآثارها.

وقد تمت عملية الإخصاب هذه ـ في جانبها الفكري والعلمي ـ بصورة رئيسة عن طريق ترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية في:

١. صقلية وجنوب إيطاليا من ناحية.

٢. في الأندلس ومدينة طليطلة من ناحية أخرى.

وكان المترجمون غالبًا من اليهود أو المستعربين وفي بعض الأحيان من العرب الذين كانت لديهم معرفة واسعة، ومباشرة بالعالم الإسلامي.

أما صقلية: التي فتحت سنة ٨٢٧م، فقد شهدت تأسيس أول مدرسة في الطب في عاصمتها "بالرمو"، وأدخل العرب في الجزيرة صناعات وزراعات لم تكن معروفة لأهلها، منها صناعة الورق والمنسوجات الحريرية، وأساليب الفن المعمارية، والصناعات الدقيقة، وكان "أوجين" البالرمي من أشهر المترجمين عن العربية، حيث ترجم كتابي "المجسطي" و "أوبتيكا" و"البصريات"، وكذلك اشتهر الجغرافي العربي الشريف الإدريسي "استرابون العرب" بكتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" عام ١١٤٥م، والذي جمع فيه بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الرياضية الفلكية.

وفي مجال الرياضيات والفلك أخذ الراهب "جيربرت الأوريلاكي" عن العلماء المسلمين الأرقام العربية والأسطرلاب ونشرها في أوربا، وبعد ذلك انتشرت الأرقام العربية وإجراء العمليَّات الحسابية وفقًا لطريقة المِعْداد الذي أخذه عن العرب.

وعلى غرار ما حدث في الرياضيات والفلك، كانت بداية دخول الطب العربي إلى أوربا عن طريق مدرسة "سالرنو". وكان الراهب العربي قسطنطين الإفريقي (ت ١٠٨٧م) رائدًا لفريق الترجمة في هذه المدرسة، وقد ترجم أربعة وعشرين كتابًا عن العلماء العرب في مجال الطب منها: "الكتاب الملكي" أو "كامل الصناعة الطبية" لعلي بن عباس المجوسي، وألَّف قسطنطين على مِنْواله "كتاب الكليات"، ومنها كتاب "زاد المسافرين" لابن الجزار القيرواني، و "طب العيون" لحنين بن إسحق، وعدة رسائل أخرى لإسحق الإسرائيلي في البول والحُمِّيَّات والأدوية.

وكانت هذه الكتب التي ترجمها قسطنطين تدرس في مدرسة "سالرنو" وامتد تأثيرها إلى أنحاء أوربا بأكملها.

ومن صقلية وإيطاليا تدفق سيل الترجمة تدفقًا متواصلًا، وظلت حركة الترجمة على أشدها حتى القرن السادس عشر الميلادي.

وأما إسبانيا: فقد أصبحت المركز الثقافي المتميز الذي يأتيه مثقفو أوربا كلها طلبًا للعلم من المصادر العربية، وكان "آديلار الباثي" من رواد هذه النهضة، وكتب "المسائل الطبيعية" في مختلف المسائل البيولوجية والمسائل المتعلقة بالطبيعيات، وحاول من خلال ذلك أن يرسم بداية منهج علمي يؤكِّد على أهمية البحث عن الأسباب الطبيعية.

ومن أهم ترجمات "آديلار الباثي" كتاب الخوارزمي في الحساب بعنوان "الجمع والتفريق بحساب الهند"، وهو أول كتاب من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة العلمية، كما أنه أول كتاب دخل أوربا وبقي

المصدر المعتمد في البحوث الحسابية، وبقي علم الحساب عدة قرون معروفًا باسم "الجورتمي" نسبة إلى الخوارزمي وكذلك ترجم "زيج الخوارزمي".

ولا بد هنا من التنويه بالدور الذي أداه "ريموند" أسقف طليطلة وكبير مستشاري ملوك قشتالة آنذاك في تشجيع حركة الترجمة، وكذلك خلفاؤه من بعده ومنهم الأسقف "دومينكوس جونديسالفي" من كبار المترجمين الذي شاركه يوحنا ابن داود، فَنَقَلَا بعض مؤلفات ابن سينا مثل: "النفس" و "الطبيعة" و "ما وراء الطبيعة" وبعض آثار الغزالي مثل كتاب "مَقاصِد الفَلاسِفة".

كما اشتهر في حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية "جيرار الكريموني" الذي ترجم نحو سبعة وثمانين كتابًا عن العربية في الفلسفة والمنطق والرياضيات، وفي الفلك والطبيعيات والميكانيكا (علم الحِيَل)، مع شرح الكندي وثابت بن قرة، وابن ماسويه، وأبي بكر الرازي، وأبي القاسم الزهراوي، وابن سينا وغيرهم.

وهناك أيضًا روبرت الشستري الذي يؤثر عنه اهتمامه الكبير بمآثر الشرق في الرياضيات، حيث ذهب إلى أسبانيا ودرس في برشلونة، وكانت ترجمته لكتاب الخوارزمي "الجبر والمقابلة" أساسًا لدراسة كبار العلماء فيما بعد أمثال "ليونارد البيزي" و "كردان" و "تارتا جليا" و"فيراري" وغيرهم من الذين تقدمت على بحوثهم موضوعات الجبر العالي.

ونذكر من أمثلة الكتب العربية ذات التأثير الواضح في النهضة العلمية الأوربية، كتاب "الزيج الصابي" للبتاني، الذي ترجمه أفلاطون التيفولي في القرن السادس عشر الميلادي بعنوان "علم النجوم". وكتاب "غاية الحكيم" للمجريطي، وكتاب "الحاوي" و "المنصوري" في الطب للرازي، وكتاب "القانون" و "الشفاء" و "النجاة" لابن سينا، وكتاب "المناظر" لابن الهيثم، وكتاب "التيسير" لابن زهر، وكتاب "التصريف" للزهراوي، وكتاب "الكليات" لابن رشد، وكتاب "الأقاربازين" لابن الجزار.

ومهما يكن من أمر، فقد نشطت حركة الترجمة والنقل في صقلية وإيطاليا وأسبانيا، وتسابق الرجال من ذوي العقول النيرة إلى "بالرمو" و "سالرنو" و "طليطلة" لِتَعَلُّم اللغة العربية، ودراسة العلوم العربية، ولم يظهر في أوربا آنذاك كتاب واحد تقريبًا إلا وقد ارتوت صفحاته بالينابيع العربية، وظهرت فيه بصمات الفكر العربي واضحة جلية، سواء من حيث اللفظ والكلم، أو من حيث المعنى والمضمون[١].

وبعد هذا العرض الموجز للتأثير الفعَّال الذي كانت تُحدِثه حركات الفتوحات الإسلامية في البلاد التي يفتحها المسلمون من النشاط العلمي، والتقدم الفكري والرُّقي الحضاري، هل بعد هذا ينكر الجاحدون أثر تلك الحضارة العظيمة في تقدم الإنسانية والتي لولاها لتأخرت الحضارة الأوربية قرونًا عديدة؟!

وهل بعد هذا الفضل العظيم والمآثر الجليلة للمسلمين يتطاول الجاحدون ويفترون الكذب ويغالطون في الحقائق التاريخية والعلمية الناطقة بفضل المسلمين وحضارتهم في تقدم الإنسانية، ويقولون

١. أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية، مقال د. أحمد فؤاد باشا، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، تحت عنوان "إنسانية الحضارة الإسلامية" القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٣٦٩: ٣٧٧ بتصرف.

زورًا: إن المسلمين أخمدوا النشاط العلمي وروح البحث في البلاد التي فتحوها؟! إذا كان هذا يصح في حق ديانات أخرى كانت رجالاتها تقتل العلماء وتحرق كُتُب العلم، فلا يصح في حق الإسلام دين العلم والحضارة.

ثالثًا. حال الأمة الإسلامية في جمودها يختلف في أسبابه عن حال أوربا في العصور الوسطى، فالإسلام هو الذي بعثها وصنع حضارتها فلا يمكن أن يكون هو سبب جمودها:

لما زحف التغيير على العالم الإسلامي زحفًا عنيفًا مع الموجة الاستعمارية الحديثة، التي تحمل - بالنسبة للعالم الإسلامي - جديدًا في كل شيء: جديدًا في العلم، جديدًا في أدوات الحرب، جديدًا في عمارة الأرض، جديدًا في أحوال المرأة، وجديدًا في عالم الفكر - كان أمرًا طبيعيًّا أن يحدث الصدام.

وكان متوقعًا كذلك أن ينهزم الجمود أمام الحركة الموَّارة، وينهزم الانحسار أمام المد الجارف، ورأى المنهزمون - في رؤيتهم الانهزامية - أن الذي انهزم هو (الدين)! وأن الذي انتصر هو (الفكر الحرُّ) وأن الدين جدير بأن ينهزم، بينما الفكر الحر جدير بالانتصار.

ليست هذه كتلك:

ثم قالوا - أو قيل لهم: إنه هكذا كان حال أوربا في عصورها الوسطى المظلمة، أيام أن كان الدين هو المسيطر على فِكْر الناس، فكان جمودًا أو ظلامًا وانغلاقًا وتقليدًا ورجعية... ثم لما حطَّم الناس نفوذ الكنيسة وتمَرَّدوا على سلطانها تحرروا وانطلقوا، وجددوا وأبدعوا، وصارت لهم القوة والسلطان.

ومِنْ ثَمَّ قالوا - أو قيل لهم: اصنعوا مثل ما صنعت أوربا.. حطِّموا الدين وأغلاله، لكي تتحرَّروا وتنطلقوا، وتُجدِّدوا وتُبْدِعوا، وتصير لكم القوة والسلطان، ونسي المنهزمون - في غمرة انبهارهم - حقائق كثيرة.

نسوا أن الذي أخرج أوربا من جمودها وانغلاقها كان هو الإسلام! فإن احتكاك أوربا بالإسلام، سواء في الحروب الصليبية أو العلاقات التجارية أو التأثير الثقافي، هو الذي جعلها تشعر بما في حياتها من ظلام وجمود وتأخر، وتسعى إلى الخروج منه.

ونسوا أن الجمود الذي أصاب الأمة في عهدها الأخير - لم يكن سببه الإسلام؛ إذ لا يمكن - بداهة - أن يكون الإسلام هو الذي بعث هذه الأمة ذات يوم، وحثها على التفكير في كل اتجاه، فأنتجت فكرًا متفتحًا صنع حضارة فائقة، عاشت عدة قرون تنمو وتزدهر، وتبدع في كل مجال، ثم يكون هو ذاته السبب في الجمود والركود الحضاري، والقعود عن التفكير والقعود عن الإبداع، إنما لا بد أن يكون شيء آخر هو الذي أفضى إلى ذلك الجمود.

لا بد أن يكون هذا السبب هو البعد عن مصدر الطاقة المشعة في هذا الدين، وإن حافظ الناس عليه فهو تقاليد خاوية من الروح، وَنَسُوا أن حال الأمة الإسلامية في جمودها يختلف في أسبابه عن حال أوربا في عصورها الوسطى المظلمة، وإن تشابهت الصورة في بعض جوانبها.

فقد كان السبب في الجمود الفكري في أوربا أن الكنيسة حَجَرَتْ على العقل أن يفكر، ورفعت ذلك الشعار الذي يقول: "آمِنْ ولا تُنَاقِش"، وأن السبب في

موقف الكنيسة هذا كان كامنًا في طبيعة الدين الذي آمنت به الكنيسة الأوربية وقامت على نشره، وهو الدين المحرَّف الذي أقرَّ بعض مؤرخيهم ومُفكِّريهم بمخالفته الصريحة لدين عيسى عليه السلام، والذي يحوي أمورًا يَعْجِزُ العقل عن إدراكها، فزعمت الكنيسة أنها أسرار، وادَّعَتْ أنه لا يعلم تأويل هذه الأسرار إلا آباء الكنيسة، وهم وحدهم المفوَّضون بتفسيرها، ولا يحق لأحد أن يناقشهم فيما يقولون، وإلا اعْتُبِرَ مُهَرْطِقًا، وَحُكِمَ عليه بالحرمان (أي الحرمان من رحمة الله)، إن لم يُحْكَم عليه بإهدار دمه، أو حرقه حيًّا في النار.. هذا هو الذي أشاع الجمود والظلام في الفكر الأوربي في العصور الوسطى، وليس الدين من حيث هو.

فالدين الحقيقي الذي ارتضاه الله للناس، وقال فيه سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة:٣) بسيط غاية البساطة، واضح غاية الوضوح، إله واحد لا شريك له، الكل مخلوقاته، والكل عبيده، وهو المتفرد بالألوهية وحده، ومن ثم لم يكن محتاجًا إلى الحَجْر على العقول ليؤمن به الناس بلا نقاش، بل دعا الناس إلى التفكير، بل إلى إمعان التفكير، وندَّد بالذين لا يفكرون، ولا يعقلون، ولا يتذكرون، ولا يتدبرون، واعتبرهم مُعطِّلين لِقُواهم العقلية، التي وهبها الله لهم لتعمل لا لتكف عن العمل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف).

رابعًا. السبب هو البعد عن الدين:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج)، ومن ثم فإنه لـمَّا تَجَمَّدَ الفكر عند المسلمين، لم يكن الدين هو سبب الجمود، بل كان السبب هو البعد عن حقيقة الدين، وإن ظل الناس متمسكين بقشور أو بتقاليد يحسبونها حقيقة الدين.

كذلك فإن الحل الأوربي للقضية لم يكن لِيَحُلَّ قضية المسلمين، ولا ينبغي لهم أن يتخذوه؛ لأن طريقهم غير طريقهم، وظروفهم غير ظروفهم، ودينهم غير دينهم، فالحل الأوربي أولًا لم يكن حلًّا سليمًا حتى لمشكلتهم الخاصة، فهم بدلًا من تصحيح الدين نبذوا الدين كله وخاصموه، وهذا الحل الأعوج هو الذي أدى إلى ما نراه اليوم في عالم الغرب من انتشار الأمراض النفسية والعصبية، والخمر، والمخدرات، والجريمة، والانحلال الخلقي البالغ حد البشاعة، والشذوذ، وزنا المحارم، وغيره من المُوبِقات التي تَشْمَئِزُّ منها كل فطرة سليمة، والتي تُؤْذِنُ بانهيار تلك المجتمعات حسب سُنَّة الله.

ثم إنهم لم يَكْتَفُوا بنبذ الدين، بل هاجموه بضراوة انتقامًا من قرون الظلام التي كبَّلهم فيها دين الكنيسة، ومنعهم من الانطلاق والبناء والتعمير، وكان جزءًا من هجومهم عليه توجيه النقد إلى النص الديني ذاته لتوهينه أو بيان عِوَجه وضعفه، أو نَفْي حُجِّيَّته، أو عدم أخذه مأخذ الجِدِّ.

وقال التَّنْوِيرِيُّون: هذا هو التحرر الحق، فَلْنَصْنَعْ نحن فيما بيننا ما فعلوه هم في دينهم لكي نكون متحررين مثلهم! ولنضع النصوص المقدسة على محكِّ النقد، كما فعلوا هم بنصوصهم المقدسة!

يخطر في بالي دائمًا صورة رجل يَعْرُج؛ لأن في قدمه شوكة تؤلمه إذا ضغط عليها، فيجيء رجل آخر سليم

القدمين، فيقول: إنني أحب أن أعرج مثل هذا الرجل؛ لأن عرجته تعجبني!

إن النص الذي كان مقدسًا عند هؤلاء ظهر لهم ـ حين أعملوا عقولهم ـ أنه من أقوال البشر وليس من كلام الله، فزادهم ذلك حقدًا على كنيستهم التي كانت تستذلُّهم وتَحْجُر على عقولهم بنصوص تزعم أنها مقدسة، وهي غير مقدسة، وتزعم أنها من عند الله، وهي ليست من عند الله، وتزعم أنها وحدها هي الحق، بينما الزيف فيها أكثر من الحق: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (آل عمران).

ولم يجعلهم ذلك يزدادون حقدًا على الكنيسة ورجالها فحسب، بل دفعهم الغيظ والحَنَق أن ينبذوا دينهم كله، ما كان فيه من حق وما كان فيه من باطل، ويستبدلوا بالدين العقل، على أنه الأداة التي لا تخطئ، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وأن العقل هو الذي يجب أن يكون مُحكَّمًا في كل شيء، وأول شيء يحكم فيه هو الدين! ولا يحكم فيه لِيُقِرَّهُ، ولكن لِيُثْبِتَ زيفه وعدم معقوليته!

وَلْتَقُل أوربا في دينها ما تشاء، ولكن ما بال التنويريين المسلمين؟!

إن النصَّ الذي أرادوا وضعه على محك النقد، ليس كذلك النص الذي تبين زيفه، إنه النص المحفوظ بحفظ الله، الثابت المتواتر، الذي لم يتغير منه حرف واحد خلال القرون: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر)، فهل يستويان مثلًا؟!

وإن النص الذي أرادوا وضعه على محك النقد ليزيفوه، أو يُوهِنُوه، أو ينفوا حجيته، أو يُسَوِّغوا الانصراف عنه وعدم أخذه مأخذ الجد، مفتوحٌ للعقل منذ أربعة عشر قرنًا ونيِّفٍ، فما وجد العقل السليم سبيلًا إلى تزييفه، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء)، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ (محمد).

وكان عند نزوله مفتوحًا لمعارضة عنيفة من قريش ـ وغيرها من القبائل المشركة ـ فما استطاعوا أن يقفوا له، أو يوقفوا تأثيره في سامعيه، أو يأتوا بمثله، أو يزعموا أن في طوق بشر أن يأتي بمثله.

فماذا تَمْلِكُ إزاءه عقلانية الغرب، غير ما قاله المعارضون الأولون؟

ساحر أو مجنون! بل افتراه! بل هو شاعر، إنما يعلمه بشر، إن هي إلا أساطير الأولين اكتتبها، إن تتبعون إلا رجلًا مسحورًا!

ولكن مشركي الأمس غلبوا على أمرهم وانقلبوا صاغرين وباءوا بالخزي والخذلان فصمتوا، أما تَنْوِيرِيُّو اليوم فقد وجدوا (خواجات) ـ من المستشرقين ـ يبسطون ألسنتهم في الإسلام وفي كتاب الله، فنقلوا عنهم أفكارهم، وظنوا أنهم قد أتوا بما لم يأت به الأولون! ولو تدبروا بعقولهم ما يقوله هؤلاء وهؤلاء لأدركوا ما فيه من أباطيل. ولكنها شهوة التقليد وفقدان الموقف الذاتي وأصالة التفكير.

وحين بدأت أوربا تتمرد على دينها وعلى كنيستها، كان الشعور الشعبي في مبدأ الأمر مع الكنيسة، بتأثير

النزعة الدينية الفطرية عند الناس، التي ترى في الدين شيئًا مقدسًا لا يجوز مهاجمته في ذاته ولا التمرد عليه.

فسمَّت الكنيسة الخارجين عليها ملاحدة ومهرطقين، وسموا هم أنفسهم (أحرار الفكر) وكان موقف الجماهير من (أحرار الفكر) هو المعارضة والاستنكار والرفض، فأصبحت لهم قضية.. قضية السماح (للآخر) أن يُعَبِّر عن رأيه، ولو كان مخالفًا لرأي المجموع.

وتدخلت عوامل كثيرة في تقرير هذا الحق، المعارضة المتنامية للكنيسة.. الثورة الفرنسية.. الديموقراطية.. وبصرف النظر عن دور الماسونية[1] في ذلك كله، لتحقيق أهدافها الخاصة من وراء التنظيمات والأنظمة، فإننا سنفترض أن الأمور سارت سيرًا طبيعيًّا لا دخل فيه لأحد من شياطين الأرض.

لقد كانت القضية في أوربا واضحة المعالم، مفهومة الأدوار، منطقية التسلسل، كانت الكنيسة في الموقف الخاطئ، سواء بعقيدتها المحرَّفة وَحَجْرِهَا على العقل لمنع الناس من كشف ما في عقيدتها من تحريف، أو بطغيانها في جميع المجالات طغيانًا روحيًّا وماليًّا وسياسيًّا وعلميًّا، أو بما وقع من الفساد بين رجال الدين، أو بفضائح الأديرة، أو بمهزلة صكوك الغفران، أو بمحاكم التفتيش، أو بوقوف الكنيسة ضد حركات الإصلاح التي تطالب برفع الظلم السياسي والاجتماعي عن كاهل الناس. وكان (أحرار الفكر) أقرب إلى الصواب في معارضتهم للكنيسة ومقولاتها على الأقل، وإن لم يكونوا على صواب في محاربة الدين كله من حيث المبدأ، والمناداة باستخدام العقل بديلًا عن الدين، وقد منح الله الناس العقل ليعرفوه به، لا لينكروه ويتمردوا عليه! وكانت المطالبة بحق (الآخر) في إبداء رأيه، ولو كان مخالفًا للمجموع، تستند في الحقيقة إلى ذلك الواقع، وهو أن المجموع المتبع للكنيسة هو المخطئ، وهو الذي يجب أن يستمع إلى (الآخر) ليصحِّح فكره، وكان منع هذا (الآخر) من إبداء رأيه معناه الاستمرار في الخطأ، ورفض الاستماع إلى حركة التصحيح. وأخيرًا بعد جهاد طويل تقرر عندهم هذا الحق، وصار جزءًا من ديموقراطيتهم، لا في السياسة وحدها، ولكن في الفكر من حيث هو فكر، وفي السلوك من حيث هو سلوك.

وبصرف النظر مرة أخرى عن دور الماسونية العالمية في توصيل القضية إلى هذه الصورة، التي يختلط فيها الحابل بالنابل، والحق بالباطل، تحقيقًا لأهداف الرأسمالية اليهودية في حرية استغلال رأس المال بجميع الوسائل من أجل الحصول على أكبر قدر من الربح، تحت شعار: دعه يفعل ما يشاء. دعه يعبر من حيث يشاء، وهو الشعار الذي رفعته الثورة الفرنسية.

بصرف النظر عن ذلك، فقد كان الموقف منطقيًّا حيث يكون كل من القولين، وكل من وجهتي النظر بشريًّا بحتًا،أي فكر بشر مقابل فكر بشر، وقول بشر مقابل قول بشر. ولكن كيف إذا كان الأمر قول بشر مقابل قول الله، ووجهة نظر بشرية إزاء أمر رباني؟! ماذا يقول التنويريون في هذا المنكر الذي لا يوجد منكر

---

١. الماسونيّة: التعاليم والممارسات الخاصّة بالطريقة الأخويّة السِّريَّة للبنائين الأحرار والمقبولين من غير الماسون، وهي أكبر جمعية سرية في العالم، ولها علاقة بالصهيونية العالمية وتنقسم إلى محافل، وقد تأسَّس أول مَحْفل كبير لها عام ١٧١٧م، وقد انضم لها عدد كبير من مشاهير وزعماء العالم، ويتعارفون فيما بينهم بإرشادات وشعارات رمزيّة.

أكبر منه؟ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ (مريم).

إن من حق أي بشر - ابتداء - أن يبدي رأيه حين يكون المعروض أمامه رأيًا بشريًّا، وليس من حق بشر أن يقول من عند نفسه: أنا وحدي على صواب، ومن خالفني فهو مخطئ. وكان علماؤنا يقولون - بتواضع العلم الحق -: قولنا صواب يحتمل الخطأ، وقول غيرنا خطأ يحتمل الصواب.

ولكن حين يكون المعروض أمرًا منزلًا في الكتاب أو مُوحًى به في السنة، فمن ذا الذي يحق له أن يقول: أنا على صواب، وما يقوله الله خطأ؟ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. من الذي يبلغ به التبجح أن يَدَّعي أنه أعلم من الله، وأحكم من الله وأحق أن يُتَّبعَ من الله؟

إن الله ﷻ جعل الحكم لنفسه في الأمور كلها على إطلاقها، سواء في الكون المادي أو في حياة البشر: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (يوسف:٤٠)، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (القصص).

وجعل الله ﷻ هذا الأمر - أمر حاكميته تبارك وتعالى في الأمور كلها على إطلاقها - مبنيًّا على حقيقتين، الأولى: أن الله هو الخالق، والثانية: أن الله هو العليم الحكيم: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (الأعراف: ٥٤)، ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ (البقرة)، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (البقرة)، فمن ذا الذي يبلغ به التبجح أن يزعم أنه خالق، فضلًا عن أن يكون هو الخالق؟ ومن ذا الذي يبلغ به التبجح أن يزعم أن علمه أكثر إحاطة من علم الله، وحكمته أعمق من حكمة الله؟

وبناءً على هذين الأصلين الكبيرين: أن الله هو الخلاق الرزاق، ذو القوة المتين، وأن الله هو العليم الحكيم - أمر الله البشر بعبادته وحده، وطاعته فيما أمر به، وأنه لا خيار للبشر حين يقضي الله ورسوله بأمر: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب:٣٦)، فماذا يقول التنويريون في هذا كله؟!

إن "أحرار الفكر" في أوربا لما تناولوا النصوص الدينية عندهم وفنَّدوها، وأباحوا لأنفسهم نقدها، كانت ركيزتهم في ذلك أنها نصوص بشرية لا قداسة لها في واقع الأمر، وإنما رجال الدين هم الذين أحاطوها بالقداسة على زعم أنها من كلام الله، وكان تفنيد تلك النصوص أمرًا محمودًا بالنسبة لأقوال الكنيسة، ولو عَرَفُوا ما أنتج الفكر الإسلامي لأَرَاحَهُم من طغيان الكنيسة، وَحَجْرِهَا على العقول، وَلَوَفَّرُوا على أنفسهم حملتهم - مدفوعين بالغلِّ الذي كان في قلوبهم تجاه الكنيسة ورجالها - فهاجموا الدين في ذاته، والنص الديني على إطلاقه، ولو كان صحيحًا، ونفوا عالم الغيب كله، ونفوا الوحي والنبوة، وكانوا في ذلك شاطحين لا يرتكزون على شيء من الحق، وأصبح موقفهم لا يقل سوءًا عن الموقف الذي تمردوا عليه أول مرة، وإن كانوا يقفون في الطرف المقابل.

جناية أحرار الفكر على الفكر السليم في الغرب:

فإن كانت جريمة الكنيسة أنها جعلت الدين عدوًّا للعقل، فقد كانت جريمة هؤلاء أنهم جعلوا العقل عدوًّا للدين، وكلا الموقفين انحراف لا يؤدي إلى خير، وتشطير للإنسان إلى شطرين مُتَعَادِيَيْنِ، بدلًا من حقيقته

المتكاملة المتوازنة التي خلقه الله عليها، والتي يؤدي بها مهمة الخلافة الراشدة في الأرض. وكانت النهاية التي انتهت إليها حرية الفكر هي الانسلاخ من الدين - صحيحًا كان أو غير صحيح - وإزالة قداسته من النفوس، وما ترتب على ذلك من انصراف الناس عن اليوم الآخر، وانكبابهم على متاع الأرض، والانغماس في الشهوات، وما تلا ذلك من شيوع الجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية والمخدرات والخمر والجريمة. فماذا يريد التنويريون في بلادنا على وجه التحديد، وهم لا يملكون، حتى الـمُسَوِّغ الأول الذي سَوَّغ به "أحرار الفكر" في أوربا هجومهم على الدين[1] ®.

الخلاصة:

- دعوى أن الإسلام أخمد النشاط العلمي في الشعوب التي افتتحها لا تقوم على علم صحيح بأحوال هذه الشعوب أيام الفتح؛ فلم يكن لها ولا لليونان أو الرومان الذين يسيطرون عليها وقتذاك شيء من دلائل النشاط العلمي، وهذا واقع تاريخي لا سبيل إلى جحده أو التشكيك فيه.

- ظل المسلمون مدى قرون روّاد المنهج العلمي ينشرون معالمه أينما وجدوا، وعنهم انتقل إلى أوربا فأخرجها من تدهور عصورها الوسطى إلى نهضة عصرها الحديث، وهذه آثار العلم الإسلامي لا تزال قائمة إلى اليوم في صورة الأسماء العربية لبعض الأدوات والعلوم، أو الحقائق العلمية التي توصلت إليها العقول العربية.

- إن ما شهدته أوربا في ختام عصرها الوسيط من معاداة للدين ورجاله، لا يعدو أن يكون حالة خاصة بها؛ فقد لابستها أوضاع زمنية وثقافية تمنع تحاكمه إلى تراث النصرانية ومشكلاتها التي لا يعرفها المسلمون.

- إن الدعوة إلى الإصلاح الإسلامي تعدَّت اليوم أن تكون دعوة إلى منهج صالح، فصارت ضرورة بعد أن أخفقت المناهج الأخرى حين أُعْطِيَتْ فرصة القيادة، لا سيَّما والتراث الإسلامي هو تراثٌ حافزٌ لا عِبْءٌ، ولم يتخلف المسلمون عن الريادة العلمية إلا بعد أن تحولوا عن مبادئه وتعاليمه.

الشبهة الحادية عشرة

ادعاء افتقاد تاريخ المسلمين الإبداع العلمي والفكري(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أنه لم يكن ثمة أثر للحياة الثقافية أو العلمية أو الفكرية في قرون الإسلام الأولى، والأخيرة أيضًا، كما يزعمون أن اللغة في ثقافة العرب لم تكن أداة للثقافة، بل كانت هي الثقافة نفسها، فأنت مثقف بلغت القمة إذا أنت ألممت باللغة: مفرداتها

1. قضية التنوير في العالم الإسلامي، محمد قطب، مرجع سابق.

® في "أسباب تخلُّف المسلمين" طالع: الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

(*) الغارة على العالم الإسلامي، شاتليه، ترجمة: محب الدين الخطيب، مساعد اليافي، القاهرة، سنة ١٣٨٥هـ.

® في "ارتباط الدين بالعلم في الإسلام" طالع: الشبهة السابعة، من هذا الجزء.

ومترادفاتها ونحوها وصرفها ونثرها وشعرها، فلم يكن العالم الإسلامي في العهود السابقة يبلغ حَدًّا من الثقافة يجاوز إجادته القراءة والكتابة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الثقافة - في أشهر تعريفاتها - ضرب من السلوك،أي: كيف تُعَامِلُ مَنْ حولك وما حولك، وكيف تعامل ربك ونفسك، وقد كان المسلمون - لا سيما في القرون الأولى - آية عظمى في السلوك السَّوِي في جميع مناحي حياتهم.

٢) إن أول ما نزل من القرآن أمر بالقراءة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ (العلق)، والقراءة - كما هو معلوم - مفتاح كل ثقافة وأداتها.

٣) لقد نبغ من المسلمين الأوائل كثيرٌ من العلماء في مختلف المجالات النظرية والتطبيقية، وهذا وحده يكفي لدحض هذه الفرية.

٤) لقد كان المسلمون حلقة وصل في تاريخ الحضارة الإنسانية.

التفصيل:

أولا. الثقافة - في أشهر تعريفاتها - ضرب من السلوك، أي كيف تُعَامِلُ مَنْ حولك وما حولك، وكيف تعامل ربك ونفسك:

كان المسلمون آية عظمى في السلوك السَّوِي في جميع مناحي حياتهم. وإليك بعضًا من تلك الجوانب المشرقة التي أفاد الإسلام الثقافة الإنسانية بها:

إن الإسلام نشر بين العرب كثيرًا من التعاليم التي حفظت للإنسان كرامته، ووفرت له أسباب السعادة والطمأنينة، ونشر كذلك كثيرًا من أحوال الأمم السابقة، فَقَصَّ القرآن الكريم مثلًا قصة آدم ونوح وإبراهيم ويوسف، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، فكان في ذلك كله نوع من الثقافة أفاد المسلمين ووسع مداركهم، كما شرح الإسلام بالإضافة إلى أحكام العقيدة أحكام المعاملات، والأخلاق والآداب، وما ينظم أمور المسلمين في شتى المجالات.

قال أبو الحسن علي الندوي: "بهذا الإيمان الواسع العميق، والتعليم النبوي المتقن، وبهذه التربية الحكيمة الدقيقة، وبشخصيته الفذة، وبفضل الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تَخْلَق جِدَّتُه، بعث رسول الله ﷺ في الإنسانية المتحضرة حياة جديدة. عمد إلى الذخائر البشرية، وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غناءها، ولا يعرف محلها، وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاد إلى الأرض، فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله، فكأنما خُلِقَ له، وكأنما كان المكان شاغرًا لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جمادًا فتحول جسمًا ناميًا وإنسانًا متصرفًا، وكأنما كان ميتًا لا يتحرك، فعاد حيًّا يُمْلِي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق، فأصبح قائدًا بصيرًا يقود الأمم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٢٢﴾ (الأنعام)"[1].

فالإسلام قد ارتقى بسلوك العرب، وهذّب

١. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن علي الندوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٨٠.

أخلاقهم، ورفع منزلتهم، وأعزهم وحضَّرهم وعلَّمهم، ويلخِّص عمر بن الخطاب أثر الإسلام على العرب بصفة خاصة فيقول: "إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نبتغي العزة بغيره"[1].

وجعل النبي ﷺ السلوك الحسن والأخلاق الرفيعة سببًا للقرب وعلوِّ المنزلة، فقال: "أقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا"[2].

من هنا يتبين أن المسلمين كانوا على قدر واسع من الثقافة والمعرفة، وأبرز مظاهر هذه الثقافة كانت تتجلى في سلوكهم وأخلاقهم التي هَذَّبها القرآن وقوَّمها.

ثانيًا. إن أول ما نزل من القرآن الكريم أمر بالقراءة ﴿اقْرَأْ﴾، والقراءة كما هو معلوم هي مفتاح كل ثقافة وأداتها:

وقد كرَّم الله ﷻ العلم وكرَّم القراءة، وكرَّم القلم.. وإذا تأملت أول آيات نزلت من كتاب الله ﷻ على قلب رسول الله ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ (العلق). أدركت أن منهج الإسلام يدعو إلى التحضر والتقدم، وأن أفكاره لا تناقض العقل ولا التطور العلمي.

إنها نَقْلة إسلامية وتحوُّل معرفي، وعمل في صميم العقل من أجل تشكيله بالصِّبغة التي تُمَكِّنه من التعامل مع الكون والعالم والوجود، بالحجم نفسه، والطموح نفسه، الذي جاء الإسلام لكي يمنحها الإنسان.

إنها حركة تَحَوُّلٍ معرفي بدأت منذ الكلمة الأولى للوحي "اقرأ"، واستمرت عَبْر المسيرة الطويلة، مسيرة الاثنين والعشرين سنة؛ إذ كانت آيات تتنزل بين الحين والحين، وقد استمر التأكيد نفسه لتعميق الاتجاه، وتعزيز هذه النقلة المعرفية وتحويلها إلى واقع يَوْمِي مَعِيش.

إن نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكير، والتعقل والتفقُّه والتَّدَبُّر في نسيج كتاب الله، لم تُخَفِّف نبرتها أبدًا هناك في العصر المكي أو هنا في العصر المدني.

وليس عبثًا أن تكون كلمة "اقرأ" هي الكلمة الأولى التي نزلت من كتاب الله، وليس عبثًا أن تتكرر في آيات ثلاث.. وليس عبثًا - كذلك - أن ترد كلمة "علَّم" ثلاث مرات، وأن يُشار بالحرف إلى القلم: الأداة التي يتعلم بها الإنسان.

وبعدها، وعبر المدى الزمني لِتَنَزُّل القرآن، ينهمر السيل ويتعالى النداء المرة تِلْو المرة: اقرأْ، تفكر، اعقلْ، تدبَّرْ، تفقَّهْ، انظرْ، تبصَّرْ... إلخ.

ويجد العقل المسلم نفسه مُلْزَمًا، بمنطق الإيمان نفسه، بأن يتحول؛ ليتلاءم مع هذا التوجُّه المعرفي الذي أراده الدين الجديد"[3].

والله ﷻ قد قرن الإيمان بالعلم، إشارة إلى أن العلماء

١. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب التاريخ، باب في توجيه عمر إلى الشام (٣٣٨٤٧)، والحاكم في مستدركه، كتاب الإيمان (٢٠٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥١).

٢. صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الأدب، باب ما ذُكر في حسن الخلق وكراهية الفحش (٢٥٣٢٠)، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب معالي الأخلاق (٢٠١٨)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢٠١٨).

٣. مدخل إلى الحضارة الإسلامية، د. عماد الدين خليل، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٢، ٢٣ بتصرف يسير.

أعلى مقامًا، وأرفع منزلة من غيرهم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (المجادلة).

والرسول ﷺ جعل طالب العلم في منزلة المجاهدين لإعلاء كلمة الله من حيث المنزلة والأجر، قال ﷺ: "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع"[1].

والرسول ﷺ عدّ الطريق الذي يسلكه طالب العلم في تحصيله سبيلًا مؤدية إلى الجنة، فقال ﷺ: "من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة"[2].

والعلم في الإسلام يشمل كل علم نافع، سواء أكان دينيًّا أم دنيويًّا، نظريًّا أو تجريبيًّا، فَرْضَ عَيْن أم فرض كِفاية، ما دام في خدمة الدين والدنيا، وما دام لرفع منار المدنية والحضارة، وما دام لصالح الحياة والإنسانية، فالله ﷻ حين يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ (طه)، لم يُقَيِّد ذلك بعلم الدين، ولا بعلم الدنيا، وإنما أطلق اللفظ ليشمل الأمرين معًا، ليشمل كل علم نافع في الحياة.

والمتأمل في كتاب الله العظيم يجد كثيرًا من الآيات القرآنية التي تَحُضُّ على التأمل والتفكر في خلق السماوات والأرض، وهي في حقيقتها حَضٌّ على العلم التجريبي في كل صوره وأنواعه، وذلك أن المسلم حينما يتأمل في أسرار الطبيعة، ويتعمق في خفايا الكون، ويبحث عن نواميس الحياة؛ يزداد إيمانًا بعظمة هذا الخالق العظيم، وبإبداعه الرائع وبقدرته الفائقة.

وبهذا يتضح أن العلم في الإسلام هو مفتاح كبير من مفاتيح الحضارة عبر الزمان والمكان، وهو يواكب ويساير حركة الحضارة الإسلامية بمعناها الواسع حيثما حَلَّتْ.

ثالثًا. لقد نبغ من المسلمين كثيرٌ من العلماء في مختلف المجالات النظرية والتطبيقية، وقد شهد لهم التاريخ وسجل مآثرهم. فمنهم الفلاسفة، والعباقرة المفكرون المتَبَحِّرون في مختلف العلوم والفنون:

وسوف نذكر هنا أمثلة لبعض هؤلاء العلماء، وأول من يقابلنا في حقل الفلاسفة "الكندي"، وهو أول المتفلسفين من المسلمين والعرب، وقد بلغت مؤلفاته مائتين وواحدًا وأربعين مُؤَلَّفًا في الفلسفة والرياضيات والفلك، والهندسة، والطب، والسياسة وغيرها، والفارابي لا يُنْكَرُ أثره في البحوث النفسية والسياسية والفلسفية والطبعية والمنطقية، وقد لُقِّب بالمعلم الثاني بسبب نجاحه في توضيح منطق أرسطوطاليس، والرازي في الفلسفة والطب والكيمياء، وابن سينا في الفلسفة والطب وعلم النفس. وغيرهم كثيرون.

أما في العلوم والفنون، فنذكر هنا: جابر بن حيان، وأبا الريحان البيروني، الذي يقول عنه ديورانت:"إن البيروني هو مثال العالم المسلم في أرقى مراتبه". وكذلك الخوارزمي الذي كان عالمًا رياضيًّا، وفلكيًّا جغرافيًّا، كان له فضل السبق في نقل نظام الأعداد إلى أوربا، وَعُرِفَ علم الحساب عدة قرون باسمه. وابن خلدون صاحب علم الاجتماع، الذي يقول عنه نيكلسون: "لم

---

١. حسن لغيره: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب فضل طلب العلم (٢٦٤٧)، والطبراني في المعجم الصغير، حرف الحاء، باب الحاء، من اسمه الحسن (٣٨٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٧٠٢٨).

يسبقه أحد إلى اكتشاف الأسباب الخفية للوقائع، أو إلى عرض الأسباب الخلقية والروحية التي تكمن خلف سطح الوقائع.

هذه بعض أمثلة للكثيرين من نوابغ المسلمين، وحسبك أن تعرف أن ما ترجم من كتب الطب عن المسلمين، ظل العمدة في دراسة هذا الفن في جامعات أوربا، حتى أواسط القرن السابع عشر.

رابعًا. لقد كان المسلمون بثقافتهم وعلمهم حلقة وصل في تاريخ الحضارة الإنسانية:

ويُبْرِزُ هذا الأمر "التأثر والتأثير" في العصر العباسي، وهو عصر النضج والارتقاء؛ حيث اكتملت الحضارة الإسلامية واتسعت رقعتها، ومن المعروف بداهة أن الحضارة البشرية أدوار متتابعة يؤثِّر السابق في اللاحق، وهذا بدوره يؤثر فيمن يليه، والمسلمون لم يكونوا انعزاليين منغلقين متقوقعين على أنفسهم، بل الحكمة ضالَّتهم يَنْشُدونها أَنَّى وُجِدَت، وقد استفادوا من الحضارات السابقة عليهم: صِينيَّة وهندية، وفارسية ورُومية، عبر ترجمة تراث هذه الأمم، وهو ما بلغ الأوْج في العصر العباسي.

ولكنهم لم يتوقَّفوا عند حدِّ اقتباس ما لدى الآخرين، بل استوعبوه وهضموه وشكَّلوا منه ومن مقومات الحضارة الأصيلة لديهم طابعًا حضاريًّا خاصًّا بهم أثَّر فيمن بعدهم تأثيرًا بالغًا، وخاصة في الغرب في مطالع نهضته الحديثة، فكانت لهم شخصيتهم الحضارية الأصيلة ذات الملامح المتفرِّدة، والكتابات في هذه مشهورة معروفة، منها على سبيل المثال: جوستاف لوبون في كتاباته عن حضارة العرب والمسلمين، وزيغريد هونكه في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب"... إلخ.

فالحضارات الحيَّة كالكائنات الحيَّة، لا أحد منها يولد كاملًا مستقلًّا عن غيره، ولا أحد منها يَفْنَى دون أن يُضيف شيئًا أو يترك تأثيرًا ما في المحيط الذي عاش فيه.

الخلاصة:

- الثقافة سلوك، أي: كيف تُعَامِلُ نفسك وَمَنْ حولك وما حولك، وقد كان المسلمون ـ لا سيما في القرون الأولى ـ آية عظمى في السلوك السَّوِيِّ في جميع مناحي حياتهم، وحسبك بها من ثقافة عالية.
- إن أول ما أمر به الله في القرآن: ﴿اقْرَأْ﴾، والقراءة ـ كما هو معلوم ـ مفتاح الثقافة والعلوم، والأداة الرئيسة في تحصيلها.
- نبغ من المسلمين كثير من العلماء في مختلف المجالات النظرية والتطبيقية، وهذا وحده كاف لدحض هذه الفرية؛ إذ انكبَّ المسلمون على العلوم يعبُّون منها ويضيفون إليها حتى أصبحوا أعلامًا في جميع المجالات.
- المسلمون بثقافتهم الأصيلة وعلمهم كانوا بمثابة حلقة الوصل في تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا يمكن لمنصف أن يتجاهل أثر المسلمين والعرب وفضلهم على الحضارة الغربية الحديثة.

الشبهة الثانية عشرة

دعوى ظلم الإسلام للعلماء والمفكرين غير المسلمين في الجزاء الأخروي (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن الإسلام ظلم العلماء غير المسلمين الذين ابتكروا الأشياء النافعة للحياة والبشرية، إذ قرّر أنه لا نصيب لهم ولا جزاء عند الله على علومهم وابتكاراتهم، ويرمون من وراء ذلك إلى اتهام الإسلام بالظلمُ والتَّجنّي على العلماء.

وجوه إبطال الشبهة:

1) غير المسلم لا يؤمن بمبدأ الجزاء الأخروي ولا يقصد الله بعمله، فكيف يُطلب له جزاء لا يؤمن هو به؟! وكيف يعطيه الله أجرًا عليه؟!

2) إن غير المسلم أراد الدنيا فجزاؤه دنيوي، فهو حين يَخْدِمُ البشرية يتقاضى مالًا على ذلك تقديرًا وتكريمًا له، وهذا جزاؤه. فهاذا أدّى لخالق البشرية من شروط هذا الجزاء الأخروي لكي يناله، إذا كان لا يؤمن بهذا الجزاء أصلًا؟

3) هناك فرق بين المؤمن والكافر حتى على مستوى العمل في حد ذاته، فالكافر بالله يعمل لذاته، والمؤمن يعمل ابتغاء وجه الله تعالى.

التفصيل:

أولا. غير المسلم لا يؤمن بمبدأ الجزاء الأخروي، فكيف يُطْلَبُ له جزاء لا يؤمن هو به؟!

إن الذي يكفر بالله لا يعمل - حينها يعمل - لله، بل يعمل لماله وشهوته، وجاهه وعلوِّه، فهل يستحق ثواب الله له، وهو لم يكن يريده ولا يقصده في عمله؟! والله تعالى اشترط ألا يثيب إلا من أخلص العمل له، أي: عمل عملًا صالحًا ابتغاء مرضاة الله ﷻ وليس لأي غرض آخر.

ويُوَضِّح ذلك الشيخ الشعراوي في مَعْرِضِ رَدِّهِ على زعم التعارض بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ (الكهف)، والآيات التي أبانت عن مصير أعمال الكافرين بالله، وتشبيهها مرة بالرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف، ومرة بالسَّراب[1] الذي هو بِقِيْعَة[2] يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، فهذا في نظرهم يتعارض مع كون غير المسلم قد يخدم البشرية بعلم أو غيره.

يقال: إن أحدًا لا يكافئ أحدًا من غيره إلا بموافقة من ستؤخذ المكافأة منه، ولا بد من سؤاله عن شرطه لقبول إعطاء المكافأة لمن تحققت الشروط فيه، فلا تعطى جائزة إلا إذا تحققت شروطه فيمن يُرَشَّحُ.

فالله ﷻ قد اشترط الإخلاص في العمل له فلا بد من نية، واشترط أن يأتي العمل على طريقة النبي ﷺ، فهذان شَرْطَا قبول العمل لتحدث المكافأة عليه.

والغريب الذي ينبغي أن يُفطن إليه أن من لم يحقق شروط القبول فلن يُكَافَأَ أو يُجَازَى ولو كان مسلمًا. أبَعْد هذا يُسْأَلُ عن مجازاة كافر قد يَعْمَدُ إلى معاندة الله ورسوله؟!

(*) شبهات وأباطيل حول الإسلام والرد عليها، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.

1. السَّراب: بَرِيْقٌ يجري على وجه الأرض يُخَيَّل للناظر من بعيد أنه الماء.
2. القِيعةُ: ما انبسط من الأرض، وفيها يكون السَّرابُ نصف النهار.

إن غير المسلم ليس له في الآخرة مطلب، بل هو نَاسٍ لها، مُنْكِرٌ إياها، غافل عنها، فلا يفكر إلا في أغراضه الدنيوية، وليست له هِمَّة إلا بأن يحصل أسبابها كلها[1]، دون التقيد بأوامر الله وحدوده، أو مراعاة لما يحبه ويرضاه مما يبغضه ويكرهه، فهو لا يؤمن به، بل هو كافر أو شَاكٌّ أو تارك لأوامر ربه وراء ظهره. ولو كان يظن أنه محتاج إلى خالقه ويريد رضاه لأطاع أوامره، فهو مُسْتَغْنٍ عن الله لا يريد منه جزاءً ولا شكورًا، فَلِمَ يَأْسَى هؤلاء عليه وهو لا يأسى على نفسه أصلًا، أهؤلاء أرحم به من نفسه، لو كانوا فعلًا به رحماء لأرشدوه إلى الإيمان؛ حتى ينال الجزاء الأخروي، أَمَا وإنه لا يؤمن أصلًا بمبدأ الجزاء الأخروي، فهل من حقه أن يحزن أو يغضب إن فاته هذا الجزاء؟! وهل القضية كلها تُهِمُّه؟! ولو كانت تشغل أدنى حيز من عقله، فلماذا لم يفكر فيها، ويُولِيها اهتمامه كما أَوْلَى العلوم التي برع فيها حتى صار من النافعين للبشرية المفيدين للحياة بعلمه؟

إن العلم الحقيقي هو الذي يُوَصِّل إلى الإيمان بالله كما حدث مع كثير من العلماء قديمًا وحديثًا.

قد يقول قائل: وما ذنب هذا العالم الكافر وقد نشأ في بيئة لا يوجد فيها إلا الأديان الباطلة، فآمن بها كما آمن الناس جميعًا حوله؟! نقول له: وأين كان عقله الذي اخترع للعالم به أشياء نافعة، ألم يتفكر ويتدبر هل هذا الدين حق أم باطل؟ ولماذا لم يفعل ذلك ويُعْمِل عقله حتى يصل إلى الصواب كما فعل في العلوم الدنيوية ووصل إلى ما نفع به البشرية؟!

والجواب: لأن الأمر لم يكن يُهِمُّه، ولا يُؤَرِّق له مضجعًا، فهل كان يُهِمُّه ويقلق منامه أمر الناس حين اخترع لهم المفيد، ولم يكن يُهِمُّه أمر نفسه؟!

وقد يقول قائل: وما ذنب من نشأ في مكان وزمان لم يسمع فيه عن دين، ولم يعلم عن المرسلين شيئًا؟!

نقول له: فهذا يُعْذَر بجهله وفطرته، ولكنه يُمتحن يوم القيامة؛ إذ إرسال الرسل وإنزال الكتب شرط للحساب والجزاء، فمن لم تَبْلُغه دعوة نبي فسيُعْرَض للامتحان في الآخرة، وهو أيسر وأسهل؛ لأن الأمور أمامه واضحة، وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وإن الله لا يظلم أحدًا شيئًا ولا يُحابِي أحدًا، فميزانه العدل والقِسْط.

على أن هناك حقيقة ينبغي ألا تُغْفَل وإن كانت معلومة من بدهيات ديننا، وهي أن كون غير المسلم ليس له ثواب عند الله يوم القيامة، لا يعني ظلمه أو اضطهاده، فهذا منافٍ لمبادئ الإسلام وتعاليمه.

ويضيف الشيخ الشعراوي قائلًا: "ومع ذلك يبقى لغير المسلم حقه، فلا يجوز لأحد من المؤمنين أن يظلمه أو يعتدي عليه، وفي الحديث: إن الله ينادي يوم القيامة: أنا الملك، أنا الدَّيَّان، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصَّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة لأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصَّه منه، حتى اللطمة"[2][3].

---

1. الإسلام، سعيد حوى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٤٠ بتصرف.

2. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ج١٥، ص٩٠٠١ بتصرف.

3. حسن لغيره: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين، حديث عبد الله بن أنيس ﷺ (١٦٠٨٥)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة حم المؤمن (٣٦٣٨)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٠٨).

ثانيًا. الكافر أراد الدنيا، فجزاؤه دنيوي، فهو حين يخدم البشرية يتقاضى مالا على ذلك؛ تقديرًا وتكريمًا له، وهذا جزاؤه، فأين ما قدَّمه لينال الجزاء الأخروي؟!

في البداية نقرر أنه إذا كان التفكير هو أساس الرقي الحضاري، وناتجه العمران والتقدم؛ فإن الإسلام قد حرص على الاهتمام بالإنسان ككائن مفكر، وقد دعا الإسلام إلى تفكير الإنسان في أمر نفسه وتكوينه وتركيبه، كما دعا إلى التفكير في الكون أجمع، لأن ناتج الفكر المجرد هو الاهتداء إلى خالق لهذا الكون: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣).

وقد حرَّك الإسلام العقل نحو التفكير بطرح الأسئلة والإجابة عليها، وأحيانًا يطرح الأسئلة ولا يجيب عنها تاركًا للعقل الإجابة، وقد يذكر المقدمات دون النتائج، وأحيانًا يذكر النتائج دون المقدمات، كل ذلك لتحريك العقل نحو التفكير.

بل إن الإسلام قد حرَّم كل شيء يَضُرُّ بآلة التفكير "العقل"؛ كالمسكرات والخمور والمُفَتِّرات، قَلَّ المشروب أو كَثُر.

وقد حرر الإسلام الفكر من كافة المؤثرات الخارجية مثل الهوى والظن وموروثات الآباء؛ لأن هذه المؤثرات تصرف العقل عن النتيجة الصحيحة[1].

وإذا كان هذا هو التفكير في الإسلام؛ فإن من رحمة الله ﷻ أنه لم يَحْرِم أحدًا من التفكير، ولم يجعله حكرًا وحجرًا وقسرًا على أحد، وكان من عدل الله أنه لم يُضِع أجْرَ من أحسن عملًا، ولم يُضِع مجهود أحد. وعلى ذلك فإنه لما تفكر كثير من غير المسلمين وابتكروا أشياء، جعلهم الله متفوقين في مجالهم، وعليه، أثنى عليهم الناس، وهذا جزاء ما صنعوا، ومن هنا نجد أن الله لم يمنعهم من التفكير، ولم يُضع أجرهم في الدنيا ولا يظلم ربك أحدًا.

أما الجزاء الأخروي فإنه لم يستخدم عقله ليتعرف على خالقه، مع أن ذلك هو الأصل، فالأصل هو الاهتداء لخالق الكون ومن ثم عبادته والاعتراف بألوهيته، وتنفيذ أوامره، فَلَمّا لم يكن ذلك كذلك من هؤلاء الكافرين لم يستحقوا ثوابًا أخرويًّا لعدم تحقق شروط هذا الثواب، فأين الظلم هنا؟!

ولذا فأعمال الكفار النافعة تنفعهم في الدنيا فقط، ويأخذون جزاءهم عليها في الدنيا، أما في الآخرة فلا، على اعتبار أنها لم تنبع كأثر عن الاعتراف بالله ورسوله؛ وذلك شرط أعمال الإسلام؛ إذ الإسلام والإيمان تصديق واستسلام، وهذه ليس فيها طابع التصديق ولا الاستسلام، ولذلك فلا قيمة لها عند الله ﷻ في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الفرقان)[2]. أي: وكأنه لا شيء، أو مثل السراب كما صوَّرهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (النور).

---

١. الإنسان: منزلته ومدى الاهتمام به في الإسلام، مقال د. بكر زكي إبراهيم عوض، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق، ص١٨٢، ١٨٣ بتصرف.

٢. الإسلام، سعيد حوى، مرجع سابق، ص٣٨ بتصرف.

وهؤلاء لا يبخسهم الله حقوقهم، ولا يمنعهم الأجر؛ لأنهم أحسنوا الأسباب، لكن هذا الجزاء يكون في الدنيا؛ لأنهم لما عملوا وأحسنوا الأسباب عملوا للدنيا ولا نصيب لهم في الآخرة.

إن علوم الدنيا كلها لا تفيد صاحبها شيئًا في الآخرة إذا لم يستشعر قلبه في تعظيم وخشية رقابة الله تعالى، وما العلوم التي نتعلمها، والأفكار التي ندرسها، والمناهج التي نُبْدِعها أو نُنَظِّمها، بدون تحقيق هذا الأساس - إلا كمفاتيح لأبواب مغلقة، لم تجد من يستعملها على وجهها الصحيح، فبقيت الأبواب مُوْصَدة، وبقيت المفاتيح أدوات عبث.

ولو كانت العلوم والأبحاث الفكرية وحدها حلًّا لمشكلة الفضيلة والسلوك، إذن لبطل أن تكون هذه الدنيا دار ابتلاء كما قضى الله.

إن العلم - بعد استكمال أسبابه ووسائله - عملية اضطرارية لا خِيَرة لعاقل فيها. أما السلوك فيظل عملية إرادية مهما تهيأت من حوله دلائل الحق وأسباب الوضوح.

والعلم في ذاته أقدس حقيقة في الوجود، ولكنه يفقد قداسته كلها، وينقلب وبالًا على صاحبه والآخرين، عندما يحمل أثقالًا من شهوات النفس وأهوائها[1]. وقد أوضح الحق ﷻ هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الشورى).

وفي تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الفرقان) يوضح الشيخ الشعراوي هذه المسألة توضيحًا شافيًا؛ إذ يقول: "حين ننظر إلى غير المؤمنين نجد من بينهم أهلًا للخير عَمِلَ المعروف، ومنهم أصحاب مَلَكات طيِّبة، كالذين اجتمعوا في حِلْف الفضول[2] لنُصْرة المظلوم، وكأهل الكرم وإطعام الطعام، ومنهم من كانت له مكانة عظيمة استظل رسول الله ﷺ في ظلها في يوم حرٍ قائظ، وهذا يعني أنها كانت كبيرة واسعة منصوبة وثابتة كالبناء، كان يُطعم منها الفقراء والمساكين، وحتى الطير والوحوش، وما زلنا حتى الآن نضرب المثل في الكرم بحاتم الطائي، وكان منهم مَنْ يَصِلُ الرَّحِم ويُغِيْثُ الملهوف... إلخ.

لكن هؤلاء وأمثالهم عملوا لجاه الدنيا، ولم يكن في بالهم إله يبتغون مرضاته، والعامل يأخذ أجره ممن عمل له، كما جاء في الحديث القدسي: "فَعَلْتَ ليُقَال، وقد قِيْلَ"[3].

والحق تعالى يوضح هذه المسألة في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (النور)، وقال تعالى: ﴿ أَعْمَٰلُهُمْ

---

1. الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية: لماذا..؟ وكيف..؟ د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٥٠: ٢٥٣ بتصرف.

2. حِلْف الفضول: هو حلف عُقِد بمكة قبل الإسلام على التَّناصف والأخْذ للضعيف من القوي والغريب من القاطِن، وسُمِّي حِلْف الفُضُول لأنه قام به رجال من جُرْهُم كلهم يُسَمَّى الفَضْل بن الحارث والفضل بن وَدَاعة والفضل بن فَضَالة، فقِيْل: حِلْف الفُضُول جمعًا لأسماء هؤلاء.

3. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (٥٠٣٢).

﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ (إبراهيم: ١٨).

فقد عمل هؤلاء أعمالَ خيرٍ كثيرة، ولكن لم يكن في بالهم الله، إنما عملوا للإنسانية وللشهرة، لذلك نراهم في رفاهية من العيش وسَعة مُمَتَّعِينَ بألوان النعيم، لماذا؟ لأنهم أخذوا الأسباب المخلوقة لله تعالى ونفذوها بدقة، والله ﷻ لا يَحْرِم عبده ثمرة مجهوده وإن كان كافرًا، فإن ترك العبد الأسباب وتكاسل حرمه الله وإن كان مؤمنًا، وفرق بين عطاءات الربوبية التي تشمل المؤمن والكافر، والطائع والعاصي، وبين عطاءات الألوهية.

فمن الكفار من أحسن الأخذ بالأسباب، فاخترعوا أشياء نفعت الإنسانية، وأدوية عالجت كثيرًا من الأمراض، ولا بد من أن يكون لهم جزاء على هذا الخير، وجزاؤهم أخذوه في الدنيا ذِكْرًا وتكريمًا وتخليدًا لذكراهم، وصُنِعَت لهم التماثيل، وأُعْطُوا النياشين وَأُلِّفَتْ في سيرتهم الكتب، كأن الله ﷻ لم يجحدهم عملهم، ولم يبخسهم حقهم.

ومن العجيب أن هؤلاء يَقِفون عند صناعات البشر التي لا تعدو أن تكون تَرَفًا في الحياة، فيؤرِّخون لها ولأصحابها، وينسون خالق الضروريات التي أعانتهم على الرقي في كماليات الحياة وترفها"[1].

وهذه هي العدالة، فهو اجتهد من أجل شيء ما: شهرة، مال، علو، علم... إلخ، فنال هذا الجزاء على اجتهاده، ولكنه لم يجتهد من أجل الله؛ لكُفْره به أولًا، ولم يُرِد منه الجزاء ولم يقدمه على نفسه، بل لا يؤمن به أصلًا، فجزاه الله بنفس عمله، فالكفر بالله يمحو كل الأعمال الخَيِّرة، ولا يجعل لها أثرًا، ويقاس الكافر بالله بالمرائي الذي عمل من أجل كذا وكذا، فلم ينل أيضًا شيئًا. فلا تعارض - هنا - بين هذا وبين الآية: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ (الكهف). وإذا كان الجزاء من جنس العمل؛ فعمل هذا دنيوي؛ وعليه فجزاؤه دنيوي، ولم يعمل عملًا أخرويًّا فلا يستحق جزاء أخرويًّا.

ثالثًا. هناك فرق بين المؤمن والكافر حتى على مستوى العمل في حد ذاته، فالكافر بالله يعمل لذاته، والمؤمن يعمل ابتغاء وجه الله تعالى:

إن المسلم الحق إنسان متميز تَمَيُّزًا تامًّا عن غيره في كل شيء، فهو متميز منذ البداية في عقائده وعبادته ومناهج حياته، وفي هدفه النهائي وهدفه القريب، فإذا كان هدف غير المسلم النهائي هو الحياة الدنيا في لهوها ولعبها وزينتها وتفاخرها وتكاثرها وذهبها وفضتها ولذَّاتها؛ فإن هدف المسلم النهائي هو الآخرة، وهو من الدنيا على حذر.

وإذا كان هدف الكافر في الحياة الدنيا من عمله الاجتماعي أو السياسي أو الإصلاحي - في زعمه - هو تحقيق تقدم مادي، أو تعميم شهوة، فإن الهدف العام للمسلم في عمله العام أن تخضع الدنيا كلها لكلمة الله تبارك وتعالى.

وإذا كان هدف الكافر الشخصي هو تحقيق أكبر قدر ممكن من اللذة والمنفعة؛ فهدف المسلم الشخصي أن يكون الله راضيًا عنه، وهذا مفترق الطريق بين سعادة المسلم وسعادة الكافر. إن سعادة المسلم في قيامه بأمر الله، وألمه في انحرافه عن ذلك، وسعادة الكافر في

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٥، ص١٠٤١٣: ١٠٤١٥ بتصرف.

التَّفَلُّتِ من كل قيد[1].

الخلاصة:

- النية مطلوبة في كل عمل في الإسلام، فإنما الأعمال بالنيات.
- هل غير المسلم يريد جزاءً أخرويًّا من الله وهو لا يؤمن بمبدأ الجزاء الأخروي أصلًا؟! وإذا كان لا يريد، فلماذا يأسى هؤلاء عليه وهو لا يأسى على نفسه؟!
- هل كان غير المسلم يقصد وجه الله بعمله وقت عمله؟ بالطبع لا، وعليه فلا يستحق أجرًا أو ثوابًا أخرويًّا من الله ﷻ؛ إذ الجزاء في الآخرة مشروط بشروط لم يحققها غير المسلم.
- غير المسلم حين يخدم أحدًا من الأفراد أو البشرية، إنما يتقاضى مالًا على ذلك تقديرًا وتكريمًا له من الذي حقق له هذه الخدمة، فكيف يعطيه الله أجرًا ولم يكن في باله؟ وهناك فرق بين المؤمن والكافر حتى في العمل ذاته، فغير المؤمن يعمل لذاته، والمؤمن يعمل ابتغاء مرضاة الله ﷻ.
- إذا عمل المسلم عملًا لله غير مخلص فيه فلا يستحق الجزاء عليه، فما بالنا بغير المسلم الذي لا يعمل إلا لشهرته وجاهه، وقد كافأه الله على ذلك بما جعل من ثناء البشر عليه؟! وإذا كان قد حقق شروط ما نال به جزاء الدنيا فنال مكافأتها، فإنه لم يقدم شروط جزاء الآخرة فليس له فيها جزاء. وصدق الله إذ يقول: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الشورى). وصدق رسول الله ﷺ حين قال: "ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة"[2].

الشبهة الثالثة عشرة

ادعاء أن الإسلام لا يتفاعل مع الحضارة الحديثة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الإسلام دين جامد لا يتفاعل مع الحضارة الحديثة، فلا مَناص من نَبْذه إذا أردنا أن نَلْحَق بِرَكْب الحضارة المندفع. ويرمون من وراء ذلك إلى إقصاء الإسلام بعيدًا عن الحياة والتطور الحضاري.

وجوه إبطال الشبهة:

1) جاء الإسلام إلى العالم برسالة حضارية متميزة عن غيرها، مما يثبت أنه لا يعادي الحضارة بمفهومها الصحيح.

2) إن معرفة ماهية الإسلام وأصوله تؤكد أنه دين المدنية والتقدم العلمي، ولا يقف في وجه التطور والتجديد المحمود النافع، وينهى عن التَّحَجُّر والجمود، ويذم التقليد والاتباع الأعمى.

---

1. الإسلام، سعيد حوى، مرجع سابق، ص٤٢ بتصرف.

2. صحيح: أخرجه عبد بن حميد في مسنده، من مسند أبي هريرة ﷺ (١٤٦٠)، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه (٢٤٥٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٣٥).

(*) شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٢٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٣) دعا الإسلام إلى الانفتاح على الآخر، وقد طبق المسلمون ذلك، فلم يقفوا في وجه حضارة نافعة للناس، وموقف الإسلام من الحضارة الغربية السائدة اليوم هو موقفه من كل حضارة سابقة.

التفصيل:

أولا. الرسالة الحضارية للإسلام بالمفهوم الصحيح للحضارة:

بداية لا بد من تحديد المقصود بالحضارة عند هؤلاء الزاعمين، وما إذا كان للإسلام حضارة أم لا.

فإذا قصد هؤلاء بالحضارة العبَّ من الشهوات، ونشر الفواحش والرذائل، والاعتداء على حقوق الغير وحرياته، ونسيان الجانب الروحي في الإنسان، وعدم التقيد بأية ضوابط أخلاقية أو دينية، فإن الإسلام قطعًا يقف في وجه هذه الحضارة، ويجمد معها فلا يتفاعل.

ذلك أن "الحضارة تتركب من النظرة المتوازنة للروح والجسد، والكم والكيف، والغاية والوسيلة، فإذا اختل التوازن في جانب واحد اختلَّت الحضارة، وقد سقطت الحضارة الغربية حين فقدت معنى الروح، فهي تجد نفسها بدورها على حافة الهاوية"[1].

وقد تميزت الرسالة الحضارية للإسلام بأنها تستطيع أن تقدم للإنسان الإيمان، ولا تَسْلبه العلم، وتعطيه الدين ولا تُحَرِّم عليه الدنيا، وتصله بالسماء، ولا تمنعه من عمارة الأرض، وتمنحه نور الوحي ولا تحرمه نور العقل، وتقوى صلته بالخالق ولا تقطعه عن الخلق.

فلهذه الرسالة الحضارية مقومات ـ كما يذكر د. يوسف القرضاوي ـ هي أنها:

- رسالة العقيدة الموافقة للفطرة.
- رسالة العبادة الدافعة للعمارة.
- رسالة العقل المهتدي بالوحي.
- رسالة العلم المرتبط بالإيمان.
- رسالة الإيمان المقترن بالعمل.
- رسالة العمل الملتزم بالدعوة.
- رسالة الدنيا المعدة للآخرة.
- رسالة الجسم الممدود بالروح.
- رسالة القوة المدافعة عن الحق.
- رسالة المال الصالح للمرء الصالح.
- رسالة الحقوق المتوازنة مع الواجبات.
- رسالة الحرية الخادمة للفضيلة.
- رسالة الأخلاق المرتقية بالإنسان.
- رسالة الفرد المنتظم في أسرة ومجتمع.
- رسالة المجتمع الذي لا يطغى على الأفراد.
- رسالة الأمة المنفتحة على العالم.
- رسالة الدولة المقيمة للدين.
- رسالة التشريع المحقِّق للمصالح.
- رسالة العدل المؤَيَّد بالإحسان.
- رسالة الفن الملتزم بالقيم.

وإذا كان لهذه الرسالة مُقَوِّمات تُشخِّصها، فلا ريب أن لها خصائص تميزها، ونكتفي هنا بخصيصتين:

- **رسالة التوازن والوسطية:**

فهذه الرسالة هي الرسالة الوحيدة التي تقدم للبشرية منهجًا يتميز بالتوازن والتكامل، ونعني بالتوازن: التوسط بين طرفي الغُلُوِّ والتفريط، اللذين لم

---

١. مظاهر التجديد في فكر مالك بن نبي، مقال د. عائشة يوسف المناعي، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر الثالث عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق، ص٦٥٨.

يَسْلَم منها منهج بشري صِرْف، أو منهج ديني دخله تحريف البشر.

ففي هذا المنهج تلتقي المتقابلات التي يحسب كثير من الناس التقاءها ضربًا من المحال؛ لأنها في نظرهم متضادة، ولكنها في الإسلام تلتقي في صورة من الاتساق المبدع.. لا طغيان ولا إخسار.

فهو يضع الموازين القسط بين الربانية والإنسانية، والوحي والعقل، والروحية والمادية، والأخروية والدنيوية، والمثالية والواقعية، والماضوية والمستقبلية، والمسئولية والحرية، والاتباع والابتداع، والواجبات والحقوق، والثبات والتغير®.

- **رسالة التكامل:**

وأما التكامل فلا نعني به التوسط بين طرفين متقابلين، وإنما نعني به اجتماع مَعَانٍ، وأمور يكمل بعضها بعضًا، ولا يستغني بأحدها عن الآخر.

ومثال ذلك: العلم والإيمان، والحق والقوة، والعقيدة والعمل، والدعوة والدولة، والتربية والتشريع، ووازع الإيمان ووازع السلطان، والإبداع المادي والسمو الخلقي، والقوة العسكرية والروح المعنوية.

وعيب المناهج والأنظمة البشرية، أنها تهتم ببعض الجوانب دون بعض، وتركِّز على بعض القيم دون بعض، فنراها تُعنَى ـ مثلًا ـ بالاقتصاد والإنتاج، أي بإشباع البطون دون إشباع العقول، وقد تُعْنَى بإشباع العقول بالعلم المادي، ولكنها لا تُعْنَى بإشباع القلوب والأرواح برحيق الإيمان، وقد تهتم بتيسير المواصلات بين البلدان، على حين تَغْفُل الاهتمام بالصِّلات الاجتماعية، والنفسية بين الناس، وأعظم من ذلك الصلة بين الإنسان وربه.

ومن أظهر ما يتجلى فيه التكامل الإسلامي: تكامل العلم والإيمان، فمن فضل الله علينا نحن المسلمين أن ديننا لا يَضِيق بالدعوة إلى العلم والتقدم، كما قد توهم الذين لا يعرفون الإسلام، ويريدون أن يُجْرُوا عليه ما جرى على الأديان الأخرى.

نحن نعتبر التقدم العلمي وما يثمره في الحياة من استخدامات تكنولوجية نافعة ـ تُيَسِّر على الإنسان حياته، وتوفر عليه جهده البدني والعقلي ـ عبادة بالنسبة للفرد المسلم، يتقرب بمعرفتها وإتقانها إلى ربه، كما يتقرب بالصلاة والصيام[1].

هذه هي الرسالة الحضارية التي جاء بها الإسلام، وكُلِّف بتبليغها المسلمون، تثبت أن الإسلام لا يعادي الحضارة بمفهومها الصحيح، بل يدعو إليها إذا كانت هي العلم والتقدم، والرقي بالإنسان: جسمه وروحه، وتتميز على سائر الحضارات بالتوازن والوسطية والتكامل.

ثانيًا. إن معرفة ماهية الإسلام وأصوله تؤكد أنه دين يدعو إلى التطور والتجديد، وينهى عن التَّحَجُّر والجمود:

كان على هؤلاء الزاعمين أن يعرفوا ماهية الإسلام، وكُنْه الأصول التي يقوم عليها، وحقيقة الغرض الذي

® في **"وسطية الإسلام"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

١. حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٧٢: ٧٩ بتصرف.

يرمي إليه من قيادة النفوس في معمعة التطورات العقلية والاجتماعية.

فالإسلام لا يفرض على الناس فلسفة كلاميَّة غير قابلة للتطور، تتحجر وتتحلُّ بمرور الزمن وتغير الأحوال، ولم يُعْن بوضع هذه الفلسفة طائفة تستأثر بالسلطان الروحي على النفوس، وتجمع بينه وبين السلطان المادي، أو تنزل عنه لبعض المتَغَلِّبين، وتقوم حِيَالَهُم على قدم التصارع والنزاع، ولكن الإسلام فرض على الناس كافة أصولًا خلقية وآدابًا نفسية ومبادئ حيوية، هي أقصى ما يمكن أن يتخيله العقل من الإطلاق والسمو، ومُثُلًا عليا لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، تأخذ الآخذين بها إلى السمو المادي والأدبي معًا، تاركًا لهم حرية التَّكَيُّف معها مُخْلِيًا الطريق في وجوههم لجميع التطورات والانتقالات المعنوية والصورية.

هذه قضية يتسع فيها مجال القول، ولا يقبلها العقل إلا بسلطان، فإليك هذا السلطان في مثال محسوس:

تأمَّل جماعة المسلمين الأوائل في أول نشوئها، وانظر إلى الحال التي قامت عليها، وإلى العوامل التي دفعتها للحركة، وإلى ما تطورت إليه بالانقياد لها، فإن هذا النظر يكشف عن معنى الإسلام، واتجاه الأصول التي أقام جماعته عليها، والأغراض التي تؤدي إليها تأدية طبعيَّة لا تَكَلُّف فيها، ما لا تكشفه البحوث المستفيضة والمناقشات المطولة.

لقد ترك النبي ﷺ الجماعة التي أَلَّفها، وليس فيها شريعة مدونة، ولا شكل حكومي مقرر، ولا طائفة مختارة، ولا هيئات مسَطَّرة، بل لم يُعَيِّن من يقوم بالأمر من بعده، غير أنه وَكَلَهَا إلى تأثير الأصول الأولية، والمبادئ الحيوية التي نشرها فيها وعاهدها على أن تعمل بها، فانظر ماذا كان أثر ذلك:

كان أول ما فَكَّرت فيه هذه الجماعة أن تؤلِّف لنفسها حكومة، وكان أول ما شعرت به أن تستكمل وجودها كأُمَّة، فدفعها هذا الشعور لاسترداد أطراف بلادها شمالًا وجنوبًا وشرقًا من المتحكِّمين فيها، فوقعت في حرب مع الرومانيين والفرس في آن واحد، وكانت نتيجة هذه الحرب استرداد شمال بلاد العرب، والسيطرة على الشام ومصر وشمال إفريقيا واسترجاع اليمن والعراق، وحلّ دولة الفرس، كل هذا ولم يمض عليها بعد انتقال رسولها عشر سنين.

وكانت هذه الفتوح سببًا في احتكاك الجماعة بأمم أخرى فأفادت مما لديها من علوم وصنائع وفنون، وما زالت على هذه الحال حتى أتى عليها قرنان، فإذا بها زعيمة العالم كله، في كل ناحية من نواحي النشاط العلمي والعملي والسياسي.

هذا التطور المحيِّر للعقل من جماعة كان يبدو عليها أنها ساذجة - لم يكن لديها سطور مكتوبة غير آيات كتابها المقدس - إلى دولة لم تبلغ شَأْوَهَا في سعة المُلْك أُمَّة إلى اليوم، كانت غاصَّة بالعلماء والفلاسفة والمشرِّعين، والسياسيين... إلخ في مدى أقل من قرنين - يرينا مِنْ ماهية الإسلام وتأثير مبادئه ما لا تُرينا إياه أيَّة دراسة علمية أخرى.

فلو كان للإسلام فلسفة معينة غير قابلة للتطور على مثال ما هو موجود منها في كل الأديان المعروفة، لبقيت جماعته الأولى على ما كانت عليه عهد مؤسسها الأول، ولبادت تحت تأثير الظروف المختلفة، وهي في حالة

تحجر لا مخلص لها منه[1].

ثالثًا. دعا الإسلام إلى الانفتاح على الآخر، فلم يقف المسلمون في وجه حضارة نافعة للناس:

لقد انطوى الإسلام - فيما انطوى عليه من مبادئ - على مبدأ الانفتاح والتعارف، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ (الحجرات). ومما يؤكد هذا التعارف والانفتاح: الإحسان والبر والقسط للذين لم يقاتلونا في ديننا، ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يتآمروا على بلادنا، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٨) ﴾ (الممتحنة).

ومن المؤيدات لذلك أيضًا جواز أكل ذبائح أهل الكتاب، وجواز نكاح نسائهم، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٥) ﴾ (المائدة).

فبناء على النصوص التي سبق ذكرها، انفتح المسلمون على غيرهم، وتعارفوا مع شعوب كثيرة من غير ملتهم، وكان من نتيجة هذا الانفتاح والتعارف أن استفادوا من مدنيَّات متعددة، وحضارات متنوعة، كحضارة الإغريق، وحضارة اليونان، وحضارة الفرس، وحضارة الهند، وغيرها من الحضارات التي عاصروها، وأخذوا عنها، فتكونت لدى المسلمين خبرات واسعة في شتى المجالات الصناعية والتجارية والزراعية والعمرانية والعلمية والفنية، فَصَهَرُوهَا في بَوْتَقَةِ الإسلام، فجاءت الحضارة فيما بعد مطبوعة بطابعه وممهورة بخاتمه[2].

لقد أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ما خلَّفه الفرس من حِكَم وآداب وخبرات سياسية، وما خلفه اليونان الإغريق من علوم فلسفية وعقلية، وما كان لدى مختلف الأمم التي التقت مع المسلمين لقاء مودة، أو لقاء خصام.

لقد قام المسلمون بتحرير هذه العلوم وتنقيتها من الشوائب، وتطويرها، وصقلها، وإصلاح فاسدها، مسترشدين بالمنهج العلمي العام الذي رسمه للمسلمين مصدرا التشريع الإسلامي العظيمان: القرآن والسنة.. كل ذلك فيما لم يكن من خصائص الشريعة الإسلامية بيانه وتحديد أصوله وفروعه، كأصول الاعتقاد، وأحكام العبادات، وأحكام المعاملات، ونظم الحياة الفردية والاجتماعية، التي رسم الإسلام للناس طريقها، وأوضح لهم الصراط المستقيم.

إن العلماء المسلمين وهم يستوعبون نتاج الحضارات القديمة، والمذاهب والأفكار، ويستعينون بها في عملية البناء، كان رائدهم في ذلك البحث عن الحقيقة لذاتها، و"الحكمة ضالَّة المؤمن، أينما وجدها الْتَقَطَها".

لقد كان المسلمون ينظرون في كل شيء، ويبحثون في

---

١. مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص٣٩٥: ٣٩٧ بتصرف.

٢. معالم الحضارة في الإسلام: وأثرها في النهضة الأوربية، عبد الله ناصح علوان، دار السلام، القاهرة، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٦: ٢٨ بتصرف يسير.

كل فج، ويستفيدون بكل حديث وقديم، يُنَقِّبُون عن كل علم، ويسيرون وراء كل حكمة، ويأخذون العبرة من الماضي، وينطلقون للمستقبل، يستفيدون من القديم ويبنون الجديد.

وكانت لهم صولات وجولات في كل ناحية من نواحي الحياة في العلم، وفي الحكمة، وفي الأخلاق، وفي الفلسفة، وفي الطب، وفي الهندسة، وفي الجغرافيا، وفي الفلك، وفي الصناعة، وفي الكيمياء، وفي الصيدلة، وفي الزراعة، وفي التاريخ، وفي القصص، وفي اللغة، وفي الحيوان، وفي الفيزياء، وفي الأحجار، وفي البحار، والمعادن.

ولم يدخر المسلمون جهدًا في البحث عن تراث الأمم السابقة، واضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بالتعرف على اليونانية القديمة، والفارسية والهندية، وغيرها من الثقافات التي نما إلى علمهم أنها موجودة في أي قطر[1].

وبذلك فإن الحضارة العربية الإسلامية قد قدمت نموذجًا رائدًا لتفاعل الثقافات، وحوار الحضارات عن طريق حركة ترجمة واسعة النطاق عميقة المضمون، حين بدأت نهضتها العلمية بنقل معارف السابقين، وانكب العلماء على ترجمة المؤلفات اليونانية والسريانية والقبطية والفارسية والهندية وغيرها، وانتقلت الحركة العلمية من طور الترجمة واستيعاب العلوم القديمة إلى مرحلة الابتكار الأصيل، وإنتاج معارف جديدة عن طريق البحث وَفْق منهج علمي سليم، يؤدي إلى الأحكام الصائبة والنتائج الواثقة.

أيضًا، جسدت حضارة الإسلام معنى عالمية المعرفة عندما انفتحت على العوالم المجاورة، وأثبتت أن الثقافة الإنسانية ذات موارد متعددة بين شرقية وغربية، يغذي بعضها بعضًا، دون أن تقام بينهما حواجز منيعة لا تسمح باتصال أو تبادل، فحافظت على شجرة العلوم والمعارف خضراء يانعة، وارفة الظل وغزيرة الثمار. وأثبتت اللغة العربية أيضًا عالميتها وصلاحيتها لأن تكون لغة العالمية، وصلاح الإسلام لأن يكون دينًا للعالمين[2].

فمتى إذن وقف الإسلام في وجه حضارة نافعة؟!

وموقف الإسلام من الحضارة الغربية السائدة اليوم هو موقفه من كل حضارة سابقة، يتقبل كل ما يستطيع أن تمنحه من خير، ويرفض ما فيها من شرور، فهو لا يدعو إلى عزلة علمية أو مادية، ولا يعادي الحضارات الأخرى معاداة شخصية؛ لإيمانه بوحدة البشرية واتصال الوشائج بين البشر من جميع الأجناس والاتجاهات.

إذن فلا خوف من أن تقف الدعوة الإسلامية دون استخدام ثمار الحضارة الحديثة، كما يفهم بعض البلهاء من المثقفين، ولن يشترط المسلمون أن تكون الأدوات والآلات مكتوبًا عليها "بسم الله الرحمن الرحيم" حتى يقبلوا استخدامها، وإنما يكفي أن يستخدموها هم باسم الله وفي سبيل الله.

وكذلك لن تقف الدعوة الإسلامية دون التفاعل

---

١. المسلمون والتفاعل الحضاري، مقال د. أحمد عبد الرحيم السايح، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق، ص٥٠٨، ٥٠٩ بتصرف.

٢. أثر الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية، مقال د. أحمد فؤاد باشا، مرجع سابق، ص٣٦٩، ٣٧٠ بتصرف.

مع التجارب العلمية التي تنتجها البشرية في أي مكان على الأرض، فكل تجربة بشرية صالحة هي غذاء يجب أن يجربه المسلمون، وقد قال رسول الله ﷺ: "طلب العلم فريضة"[1]. والعلم حين يطلق هكذا يشمل كل علم، وقد كانت دعوة الرسول ﷺ إلى العلم كافة، ومن كل سبيل.

كلا! لا خوف من وقوف الإسلام في وجه الحضارة ما دامت نفعًا للبشرية، أما إذا كانت الحضارة هي الخمر والميسر، والدعارة الخلقية، والاستعمار الدنيء، واستعباد البشر، فحينذاك يقف الإسلام حقًّا في وجه هذه "الحضارة" المزعومة، ويقيم نفسه حاجزًا بين الناس، وبين التردي في مهاوي الهلاك[2] ®.

الخلاصة:

- جاء الإسلام برسالة حضارية إلى العالم، تميزت بأنها تستطيع أن تقدم للإنسان الإيمان ولا تسلبه العلم، وتعطيه الدين ولا تُحَرِّم عليه الدنيا، وتصله بالسماء ولا تمنعه من عمارة الأرض، وتمنحه نور الوحي ولا تحرمه نور العقل، وتقوي صلته بالخالق ولا تقطعه عن الخلق.
- تميزت هذه الرسالة الحضارية بالتوازن والوسطية والتكامل، وهي الخصائص التي لم توجد في أية حضارة أخرى.
- إن معرفة ماهية الإسلام وأصوله تؤكد أنه دين يدعو إلى التطور والتجديد، ولو كان يحثُّ على التحجر والجمود؛ لظلت جماعة المسلمين على حالتها الأولى حال نشأتها وَلَمَا تطورت وسادت العالم بثقافتها.
- انطوى الإسلام على مبدأ الانفتاح والتعارف، وقد مارس المسلمون هذا المبدأ فتعارفوا على شعوب كثيرة من غير ملتهم، ونهلوا من تراثهم وثقافتهم، وعلومهم في كل المجالات، فلم يقفوا في وجه حضارة نافعة للناس.
- موقف الإسلام من الحضارة الحديثة كموقفه من كل حضارة سابقة، لا يقف في وجهها ما دامت نفعًا للبشرية.

الشبهة الرابعة عشرة

دعوى أن الإسلام دينٌ رجعي، تجاوزته الحضارة العصريَّة (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن الإسلام دين التواكل والسلبية، وأن تعاليمه لم تعد صالحة لعصرنا الحاضر، وهي عاجزة عن النهوض بالبشرية، وقد صارت رجعية تجاوَزَها الزمن، محمِّلين بذلك الإسلام أخطاء المسلمين، ويرمون من وراء ذلك إلى الصد عن الإسلام ووصمه بالرجعية والتخلف.

---

1. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم (٢٢٤)، وأبو يعلى في مسنده، محمد بن سيرين عن أنس (٢٨٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٧٢).
2. شبهات حول الإسلام، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٥٨، ١٥٩ بتصرف يسير.

® في **"انفتاح الإسلام على الثقافات الأخرى"** طالع: الشبهة الثالثة والعشرين، من هذا الجزء.

(*) القرآن وعلومه في مصر، عبد الله خورشيد، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإسلام دين سماوي لا يأتيه الباطل بأي سبيل.

٢) حَمَّل هؤلاء المغالطون الإسلام أخطاء بعض المسلمين الناتجة عن فهمهم السقيم، وبَنَوا على هذه الأخطاء نتائج خاطئة عن الإسلام وصلاحيته لمواكبة التطورات.

٣) للنصوص الإسلامية خصوصية الصلاحية الدائمة لكل زمان ومكان.

التفصيل:

أولا. الإسلام دين سماوي صحيح لا يأتيه الباطل بأي سبيل:

تم الوحي واكتملت رسالة الإسلام في حياة النبي محمد ﷺ، وذلك ما نصَّت عليه آيات القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة:٣)، وهو دين سماوي صحيح لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل من لَدُن حكيم خبير.

وهذا الإسلام هداية كاملة للإنسان والناس، فإن الله ﷻ جعله كاملًا وشاملًا بحيث لا تَبْقَى قضية من قضايا الوجود إلا وقد بيَّن حكمها... سواء في ذلك شئون العقيدة أو العبادة أو السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الحرب أو السلم أو التشريع... إلخ، قال ﷻ واصفًا كتابه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل:٨٩)، وقال ﷻ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨)، وما لا يعرف من الكتاب والسنة صراحة يعرفه مجتهد الأمة بالاستنباط والقياس[1].

إن رسالة الإسلام ليست رسالة لعقل الإنسان دون روحه، ولا لروحه دون جسمه، ولا لأفكارِه دون عواطفه، بل إنها رسالة الإنسان كله: روحه وعقله، وجسمه وضميره، وإرادته ووجدانه. فالإنسان ليس مجزوءًا؛ إنه كلٌّ متكامل وكيان واحد، لا تنفصل فيه روح عن مادة ولا مادة عن روح، ولا عقل عن عاطفة ولا عاطفة عن عقل، إنه وحدة لا تتجزأ من الجسم والروح والعقل والضمير.

إنه رسالة للإنسان في كل مجالات حياته، وفي كل ميادين النشاط البشري؛ فلا يدع جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية إلا كان له فيها موقف: قد يتمثل في الإقرار والتأييد، أو في التصحيح والتعديل، أو في الإتمام والتكميل، أو في التغيير والتبديل، وقد يتدخل بالإرشاد والتوجيه، أو بالتشريع والتقنين، قد يسلك سبيل الموعظة الحسنة، وقد يتخذ أسلوب العقوبة الرادعة ـ كل موضعه، وكان الله عزيزًا حكيمًا®.

وإذا كان الإسلام شاملًا لجميع نواحي الحياة الإنسانية؛ فأي سلبية هذه التي يرجف بها المدَّعون ويصمون المسلمين بالتواكل والسلبية، وأن الإسلام هو الذي أدى بهم إلى هذا؟ وأين هذه السلبية في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: ١٠)؟ وأين هذه السلبية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)؟

---

١. الإسلام، سعيد حوَّى، مرجع سابق، المقدمة ص٦ بتصرف.

® في "**شمولية الإسلام لجميع جوانب الحياة**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي). والوجه الأول، من الشبهة السادسة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء.

بل أين هذا التواكل في شعوب أقامت حضارة شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء؟ وأين هذه السلبية في دين دعا إلى الانفتاح على كل حضارة نافعة؟ ومن هنا انفتح المسلمون على الآخر، وتعرفوا على حضارة الشعوب الأخرى، وعملوا على تنقية العلوم من الشوائب، وأصلحوا مفاسدها، ومزجوها بما عندهم بعد التنقيح والجمع، حتى أصبحت لهم حضارة إسلامية خاصة، يستقي منها الآخرون، وتنتشر في ربوع المعمورة، ويعمل بها لقرون عديدة وأزمان عديدة. ألا خَسَأ المبطلون.

فَكُـلُّ إِفْـكٍ وَبُهْتَـانٍ يُـرَادُ بِـهِ

مَحْوُ الحَقِيقَـةِ لا يَنْجُـو مِـن العَطَـبِ

كَنَـاطِحٍ صَـخْرَةً يَوْمًـا لِيُوْهِنَهَـا

مِن البَلاهَةِ قَطْعُ الـصَّلْبِ بِالخَشَبِ

ثانيًا. الفهم السقيم هو سبب الأزمة:

لقد آمن المسلمون بهذا الدين الصحيح، والتزموا تعاليمه، فازدهرت أحوالهم باقترابهم من هذه التعاليم وتطبيقهم لها وتفاعلهم معها، وانحطت هذه الأحوال ـ بالمقابل ـ بتباعدهم عنها وتَنَكُّبِهم إياها وتَنَكُّرِهِم لها.

ومن هنا نشأت المفارقة بين التعاليم السامية، وبين الفهم السقيم لها، أو التطبيق الخاطئ أو التفلت منها. ولكن المغرضين والجاهلين خلطوا ـ إما عمدًا وإما جهلًا ـ بين الأمرين، فحملوا أخطاء المسلمين، وتأخرهم، وعدم أخذهم بأسباب التقدم على تعاليم الإسلام؛ فاتهموها بأنها السبب فيما وقع فيه المسلمون من أخطاء وأوضاع اتسمت بالرجعية والتخلف، وَمِنْ ثَمَّ قفزوا إلى النتيجة المرجوة وهي اتهام الإسلام بفقدان الفاعلية، وعجزه عن الاستمرار في النهوض بالبشرية وتجاوز الحضارة الحديثة والمدنية العصرية له.

في هذا المعنى يقول الشيخ محمد الغزالي: "هناك أفكار وتقاليد ومسالك خاصة وعامة تنتشر بين المسلمين، وتتقيد جمهرتهم بها على أساس أنها تعاليم إسلامية أو نضح هذه التعاليم ومقتضاها، والحق أن الإسلام بعيد عنها، أو لعله يُنْكِرُهَا ويعترض مسارها.

وقال حذيفة بن اليمان: كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد ذلك الخير من شر؟ كان متوجسًا يتساءل في نفسه: هل سيبقى هذا الخير أم ينهزم، تُرى كم يطول أمده؟ وأجابه الرسول: "نعم" سيقع بعد هذا الخير شر. هكذا الدنيا، الحرب فيها سجال بين الحق والباطل، والنور والظلام. وعاد حذيفة يسأل: هل بعد هذا الشر خير؟ وجاء جواب الرسول الجدير بالتأمل: "نعم، وفيه دَخَنٌ"، أي: غش، إنه خير مَشُوب، قال حذيفة: وما دخنه؟ فقال ﷺ: "قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر"[1].

وهذه الإجابة تعني أمرين: أولهما: أن خليطًا من أهواء الناس وشرورهم سيلتصق بالحق، وكأنه منه... ولكن أولي الألباب أو أهل الذكر أو فقهاء الأمة يستطيعون مَيْز هذا الغش والتحذير منه.

والمحزن أنه في غيبة الفقه الذكي، انتشر الدَّخَنُ

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (٦٦٧٣)، وفي موضع آخر بنحوه، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن (٤٨٩٠).

المَخُوف، وامتد أذاه وأصاب الإسلام الصحيح منه شر مستطير، وقد نظرت إلى خصال بعض الناس من علماء الدين فوجدتها لا تتجاوز هذا الدخن. إنهم يلقون أحاديث، ويصدرون فتاوى، ويخوضون باسم الإسلام معارك، والإسلام بعيد عما يقولون وعما يفعلون، وإن كان يَصْلَى نارَهم ويحمل عارهم، وهو مظلوم مظلوم.

الإسلام الصحيح يقدم لأتباعه الخير، ويهب لهم النصر، وهذا التدين المغشوش يقدم الهزيمة، ويصنع التخلف ويُحِسُّ الناس معه بالحرج. وكان يجب على المسلمين أن يغربلوا مواريثهم التي أثقلت كواهلهم، وقذفت بهم في ذيل القافلة البشرية، وأن يحاكموا أعمالهم وأحوالهم إلى الوحي الأعلى فيمحو ما يخالفه وهو كثير، بيد أنهم لم يفعلوا.

فلما هجم الاستعمار العالمي على بلادهم أحرجهم إحراجًا شديدًا، وأرغمهم على ترك كثير مما لديهم، حتى قال بعض الجهلة: انهزمت التعاليم الإسلامية. فقلت: بل انهزم الدَّخَنُ الذي حرصتم عليه وتشبثتم به وزعمتمونه دينًا، وما هو بدين. كيف يُهْزَم الإسلام في معركة لم يدخلها؟ إن الهزيمة لَحِقَتْ بالبدع الذميمة والأفهام السقيمة، والأوضاع الجامدة والعادات الفاسدة التي أتى الناس بها من عند أنفسهم، وأوهنوا بها الفرد والمجتمع والدولة، وَشَوَّهُوا بها وجه الحق، وأضاعوا بها الكتاب والسنة.

هناك تصاريح تهتف وتدعو إلى العودة إلى الإسلام، فإذا ذَهَبْتَ تبحث في هذا الإسلام الذي تعود إليه لم تجد أمرًا ذا بال، إنها عودة إلى منابع الدَّخَن في ثقافتنا التقليدية، وتكرار لأخطاء سابقة. وهل يتصور عاقل أن تقوم نهضة بعيدًا عن الاكتمال الثقافي والخلقي، بعيدًا عن الرشد الاجتماعي والسياسي؛ لأن اهتمامها البالغ بأحكام فقهية فرعية، ومجادلات كلامية نظرية، وصور ساذجة عن الملابس والهيئات.

إن الغزو الثقافي ـ بشقيه الشيوعي والصليبي ـ لا يجد أفضل من هذا الجو لينطلق وينتصر، من أجل ذلك قلت: إن الغزو الثقافي يمتد في فراغنا! هناك فراغ حقيقي في النفس الإسلامية المعاصرة؛ لأن تصورها للإسلام طفولي وسطحي يُستقى من عهود الاضمحلال العقلي في تاريخنا، وكأن بينه وبين عهود الازدهار تُرَّه.

إنني ـ من منطلق إسلامي ـ أرفض التبعية النفسية للآخرين، ولكنني من هذا المنطلق نفسه أرفض التصورات الإسلامية للحياة، أعني التصورات التي ينسبها بعض الناس للإسلام، وهي عند التأمل خيالات مرضى وقاصرين.

إن الإسلام يُظْلَمُ باسم الإسلام، يظلمه علماء يخدمون السلطة، وشبان عديمو الفقه، وغوغاء حَيَارَى. إنني أنذر بأن أوضاعًا إسلامية شتى تواجه مستقبلًا كالحًا، وقد تقع للمسلمين كوارث جديدة.. ولن تحمينا أبدًا إلا عودة حقيقية إلى الإسلام الحقيقي"[1].

أما أن الإسلام دين التواكل والدعة، والوحشية والقبح، فنقيضه هو الصحيح الثابت الظاهر لكل ذي بصر وبصيرة من أنه دين التوكل ـ بعد الأخذ بالأسباب ـ والنشاط والرفق والسلم والحسن، وقد تفرق مثل هذا الكلام في ردود سابقة فضلًا عن أنه من

١. الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، الشيخ محمد الغزالي، مؤسسة الشرق، عمان، ط١، ١٩٨٥م، ص٥: ٨.

بدهيات الفكر مما لا يُحوِج إلى الوقوف عنده طويلًا.

نتائج خاطئة انْبَنَتْ على مقدمات فاسدة:

أما ما قد يستحق الانتباه له فهو النتيجة التي بناها المغالطون على تلك المقدمات - أقصد الاتهامات سابقة الإشارة إليها - وهي قولهم بأن هذا الدين صار تحفة تراثية تاريخية لا علاقة لها بالعصرية والشئون الحداثية، وما يرتبط بهذا من نفي أو إنكار صحة القاعدة المشهورة القائلة بأن "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" في الأحكام الشرعية.

يعني هذا من ناحية أخرى - في نظر أصحاب هذا الفكر - أن نصوص هذا الدين وتعاليمه ناسبت الأمة الأُمية التي وُجِّهَتْ إليها فقط.

وفي تفنيد هذا الزعم يقول د. إبراهيم عوض ردًّا على أحد القائلين به: "يردد بعضهم هنا نغمة غريبة هي أنه يؤمن بتاريخية النصوص وربطها بأسباب ورودها والزمن والمجتمع والبيئة التي انبعثت منها، وكذلك الظروف الجغرافية ودرجة التحضر التي كان عليها المسلمون في عصر النبي ﷺ ومستواهم الثقافي، وبخاصة أن النصوص ذاتها قد ذَكَرَتْ صراحة - كما يقول - أنها موجهة إلى أمة أمية، وكلامه عن البيئة التي انبعثت منها هذه النصوص معناه فيما هو بَيِّن أن هذه النصوص لم تَنْزل من السماء، بل نبتت من الأرض.

وهذا الكلام فيه احتقار لجيل الرسول ﷺ والصحابة ﷺ، وللنصوص التي كانت تلائمهم، ولكنها لا تَصْلُح لنا، ولا تُلَبِّي حاجات حياتنا، ولا تنسجم مع أوضاعنا وظروفنا؛ لأننا نفوق الرسول ﷺ وصحابته ﷺ حضارة وثقافة وبيئة.. أما قوله: إن العبرة في النصوص التشريعية بخصوص السبب لا بعموم اللفظ فهو قول لا يقوله من له أدنى مُسْكَة من منطق، ذلك أنه ليس لهذا القول من معنى إلا أن الآيات التي من هذا النوع في القرآن هي عبث محض؛ إذ لن يكون لها حينئذ من حكمة ما دامت لا تمثل حكمًا بل مجرد (سد خانة والسلام)، تعالى الله عن ذلك العبث! ثم إن معنى هذا أيضًا أن القرآن الكريم والحديث النبوي كانا يذكران لكل حالة حكمًا مغايرًا لأمثالها من الحالات السابقة، وهذا غير صحيح ألبتة. وفضلًا عن ذلك فإن هذه التشريعات ما هي إلا قوانين، والقانون - كما نعرف جميعًا - يقوم على الاطراد سواء كان قانونًا علميًّا أو قانونًا تشريعيًّا، هذه هي طبيعة القوانين، فما الذي يجعل هذه الطبيعة تتخلف في حالة القوانين الشرعية الإسلامية بالذات؟ والدول المتخلفة التي يسود أنظمتها الاضطراب والفوضى هي التي تكون قوانينها عُرْضَة للتغيير كل حين مما يدل على التخبط والفشل وشيوع الفساد وعدم الاستقرار.. فليدلنا الكاتب المفضال على نص واحد منها يذكر صراحة أو ضمنًا أو يفهم منه ولو على سبيل الرمز والتلميح، أن التشريعات المذكورة في كتاب الله أو أحاديث رسول الله ﷺ هي تشريعات وقتية لا تتمتع بصفة الدوام والاستمرار"[1] ®.

---

1. اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص٢٨: ٣٣.

® في **"صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي). وفي **"انتفاء التعارض بين الاجتهاد وتمام التشريع وكماله"** طالع: الشبهة الأولى، من الجزء السابع عشر (مرونة التشريع الإسلامي).

ثالثًا. خصوصية النص الإسلامي والتجربة الإسلامية:

يزيد الأستاذ العقاد هذا الأمر وضوحًا، مؤكدًا صلاحية أصول هذا الشرع الحنيف لكل عصر ومصر، مستغربًا الزَّعم القائل بحدودية هذه الأصول والنصوص الشرعية في الزمان والمكان، فيقول: "ولقد كانت الشريعة الإسلامية ضرورة لا محيد عنها في إبَّان الدعوة الإسلامية، فلم يكن من الميسور ولا من المعقول أن تلبث الأمة الإسلامية حقبة من الزمن على شريعة الجاهلية، أو تمضي في حياتها العامة هملًا بغير شريعة يدين بها الحاكم والمحكوم، ونزلت شريعتها في حينها على مثال لا تفضله شريعة عاصرتها في جملتها ولا في تفصيلها، وتعاقبت بعدها العصور، وما في عارض من عوارضها حالة لم تقدر لها الشريعة كفايتها من التصرف والتوفيق"[1].

ويقول أيضًا: "وعلى هذه السنة من المساواة بين حق الدين في نشر العقائد، وحقه في فرض الشرائع والمعاملات ننظر إلى معاملات الدين الإسلامي كما ننظر إلى عقائده، فلا نرى فيها ما يعوقه عن أداء رسالته العالمية الإنسانية، التي توافرت له بدعوته إلى إله واحد هو رب العالمين أجمعين، وخالق الأمم بلا تمييز بينها في الحَظْوة عنده غير مَزِيَّة التقوى والصلاح، ربُّ المشرقين والمغربين يُصَلِّي له المرء حيث شاء، وأينما تكونوا فثم وَجْه الله.

فما منع الإسلام قط معاملة بين الناس تنفعهم وتخلو من الضرر بهم والغبن لفريق منهم، وأساس التحريم كله في الإسلام أن يكون في العمل المحرم ضرر أو إجحاف، أو حِطَّة في العقل والخلق، وما فرض الإسلام من جزاء قط إلا وهو بحدود مُقَدَّرَة بشروطها وقيودها، صالحة على تلك الشروط والقيود للزمان الذي شرعت فيه، ولكل زمان يأتي من بعده؛ لأنها لا تجمد ولا تتحجر ولا تتحرى شيئًا غير مصلحة الفرد والجماعة، وكفى باسم الحدود تنبيهًا إلى حقائق الجزاء والعقاب في الإسلام، فإنها حدود بَيِّنَة واضحة تقوم حيث قامت أركانها ومقاصدها، وتحققت حكمتها وموجباتها. وإلا فهي حدود لا يقربها حاكم ولا محكوم إلا حاقت به لعنة الله"[2].

وهذا ما يُبيِّنُه الأستاذ عبد العزيز جاويش موضحًا فكرة صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان ومؤكدًا عليها بقوله: "فترى من جميع ما تقدم أن الإسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة في اعتبار ما سبق من الشرائع والأخذ بما تقرر من النواميس العادلة سواء ورد بها دين إبراهيم، أو دين عيسى بن مريم عليه السلام أو غيرهما. نعم إن الإسلام نسخ بعض ما فرض الله على الماضين من التكاليف الشاقة، التي جلبها عليهم عنادهم وظلمهم، كما قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ (النساء)، فإنهم لم يزالوا كذلك، حتى جاء النبي المصطفى الخاتم محمد ﷺ حريصًا على المؤمنين رءوفًا بهم رحيمًا بهم، فأباح الطيبات من الرزق، ولم يكلف نفسًا إلا وسعها،

---

١. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، طبعة المؤتمر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، ص١٣٨.

٢. المرجع السابق، ص١٢٢.

فكان دينه بذلك أكثر الأديان ملاءمة للطباع والعادات والقوى البشرية على اختلافها.

ربما قيل: كيف ذلك مع أن أكثر الأحكام النظامية والنواميس التعاملية قد وضعها بعد النبي ﷺ الفقهاء والخلفاء والأمراء، فلم يُحِط الإسلام في بدء نشأته بكل ما يلزم البشر من القوانين والأحكام، فنقول: إن جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام، إنما بَنَوه على ما أباح لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس، كما قدروه واعتبروه بالأحكام العامة، التي قررها لهم الشرع، فكل ما جاء مبنيًّا على قواعد الدين فهو دين، سواء نص عليه الشارع نفسه، أو استنبطه أهل الفكر والنظر الصحيح، وهذا هو كون الدين الإسلامي دين الأبد وختام الأديان"[1].

وقد أجمل د. محمد عمارة القضية من مختلف جوانبها تحت عنوان "حول تاريخية أو خلود أحكام القرآن الكريم" فأشار إلى أن هذه الدعوى ليست جديدة؛ فقد سبق أن تَبَنَّاها فلاسفة التنوير الغربي العلماني بالنسبة للتوراة والإنجيل زاعمين أن الدين والتدين مرحلة غابرة من عمر التطور الإنساني هي مرحلة طفولة العقل البشري، وهو يرى أنه إن جاز هذا القول ـ بتاريخية النصوص الدينية ـ ووجدت له بعض المُسَوِّغات في الغرب بالنسبة لرسالات نزلت لزمان معين وبتفاصيل وتشريعات ـ خاصة في التوراة ـ تجاوزها تطور الواقع، فإن هذا لا يجوز ولا ضرورة تستدعيه بالنسبة للقرآن الكريم؛ لأنه كتاب الشريعة الخاتمة.

ثم يقول: "إن التاريخية لا يقول بها أحد في أحكام العبادات، وإنما يقول بها أصحابها في آيات وأحكام المعاملات، وهم يخطئون إذا ظنوا أن هناك حاجة إليها في أحكام المعاملات التي جاء بها القرآن، ذلك أن القرآن ـ في المعاملات ـ قد وقف عند فلسفة وقواعد ونظريات التشريع، أكثر مما فَصَّلَ في تشريع المعاملات.

فهو قد فَصَّلَ في الأمور الثابتة، التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان، مثل منظومة القيم والأخلاق، والقواعد الشرعية التي تستنبط منها الأحكام التفصيلية والحدود المتعلقة بالحفاظ على المقاصد الكلية للشريعة. ونزل تفصيل أحكام المعاملات لعلم الفقه الذي هو اجتهاد محكوم بثوابت الشريعة الإلهية، ذلك حتى يظل هذا الفقه ـ فقه المعاملات ـ متطورًا دائمًا وأبدًا، عبر الزمان والمكان؛ ليواكب تغير الواقع ومستجدات الأحداث، في إطار كليات الشريعة وقواعدها ومبادئها، التي تحفظ على أحكامها المتطورة إسلاميتها دائمًا أبدًا"[2].

وبعد أن يناقش أمثلة تفصيلية لقضايا مثيرة لشبهة "التاريخية" هذه، وأحكام تجاوزها الزمن من وجهة نظر القائلين بها، مثل ميراث المرأة وكونه إلى النصف من ميراث الرجل، فيخلص إلى أن هذا في حالات معينة، وأن الجداول الإسلامية تجعل المرأة ترث مثل الرجل أو أكثر من الرجل، أو ترث ولا يرث الرجل في أكثر من ثلاثين حالة من حالات الميراث الإسلامي، بينما هي ترث نصف ما يرث الذكر في أربع حالات فقط. وكذلك مثل شهادة المرأة وكونها نصف شهادة الرجل

---

١. الإسلام دين الفطرة والحرية، عبد العزيز جاويش، دار الهلال، القاهرة، ص٦٩.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٣٠٨، ٣٠٩.

فبيَّن أن هذا في الأمور التي تقل فيها خبرة المرأة عن الرجل، أما الميادين التي تختص بالمرأة والتي تكون خبرتها فيها أكثر، فإن شهادتها تكون أحيانًا ضعف شهادة الرجل، بل إن شهادتها تُعْتَمَدُ ولا تُعتمد شهادة الرجل في بعض الميادين.

ثم يعقب إجمالًا بقوله: "ولو فَقِه الداعون إلى تاريخية آيات الأحكام في القرآن حقيقة هذه الأحكام التي توهموا الحاجة إلى تجاوزها - فقالوا بتاريخية ووقتية معاني نصوصها القرآنية - لأدركوا أن وقوف النص القرآني عند كليات وفلسفات وقواعد ونظريات التشريع، مع ترك تفصيلات التشريع لاجتهادات الفقهاء، هو الذي جعل أحكام القرآن الكريم في المعاملات - فضلًا عن العبادات والقيم والأخلاق - صالحة لكل زمان ومكان، فكانت شريعة الإسلام آخر الشرائع السماوية وخاتمتها، دونما حاجة إلى هذه التاريخية التي استعاروها من الفكر الغربي، دونما إدراك لخصوصية النص الإسلامي، وتميز مسيرة الفقه الإسلامي والحضارة الإسلامية، ولو أنهم فقهوا حقيقة الأمثلة التي توهموها دواعي لهذه التاريخية - من مثل ميراث المرأة وشهادتها - لَكَفَوْنَا مئونة هذا الجهد في كشف هذه الشبهات"[1].

الخلاصة:

- الدافع وراء مثل هذه الشبهات هو جهل القائلين بها بطبيعة الإسلام من ناحية، ومجانبة سلوك بعض المسلمين لتعاليم دينهم من ناحية أخرى؛ فالإسلام دين التوكُّل - بعد الأخذ بالأسباب - لا التواكل.
- الإسلام دين يملك طاقة حيوية واستمرارية، مردُّها إلى أنه وضع الأسس وأصَّل الأصول، وقعَّد القواعد وَهَيْكَلَ الإطار العام، ثم ترك لأهل كل عصر ومصر أن يملئوا الفراغات والتفاصيل بما يوائم ظروفهم ويواكب مستجدات حياتهم.
- جهل هؤلاء المغالطين أو تجاهلهم لخصوصية صلاحية النصوص الإسلامية لكل زمان ومكان، حَدَا بهم إلى القول بجمودها وَمِنْ ثَمَّ عدم صلاحيتها ومناسبة أحكامها لظروف عصرنا، فقد صارت ماضيًا تراثيًّا متحجرًا جامدًا - على حد زعمهم - عاجزًا عن مجاراة ظروف العصر ومستجداته.

الشبهة الخامسة عشرة

دعوى أن الإسلام ليس له وجود حقيقي بعد عصر النبوة والخلافة الراشدة إلى اليوم(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغرضين أن الإسلام لم يعش إلا مدة قصيرة، هي أيام الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، ثم اضمحلّ بعد ذلك ولم يَعُد له وجود حقيقي.

وجوه إبطال الشبهة:

1) كان للحضارة الإسلامية وجودها القوي وأثرها الضخم على مسيرة التاريخ الإنساني، برغم ما كان يصيب علاقة المسلمين بدينهم في كثير من الأحيان

1. المرجع السابق، ص٣١٤.

(*) شبهات حول الإسلام، محمد قطب، مرجع سابق.

من فتور وضعف، أو تراوح بين مَدٍّ وجَزْرٍ.

٢) لقد دخل صياغة التاريخ الإسلامي كثير من النقص، وشابها كثير من التشويه وعدم التوازن في العرض، وهو ما أعطى انطباعًا سيئًا مغلوطًا عن كثير من العصور الإسلامية، وصوَّرها على أنها سلسلة من الحروب والصراعات والأطماع والفتن.

٣) غياب الدور الحضاري القوي والفاعل للأمة الإسلامية في بعض فترات التاريخ، إنما مرده استهداف الآخرين لها، واستحكام حقدهم ومعاداتهم للإسلام والمسلمين.

٤) يظل الإسلام - برغم ما يُثار ضدّه من الكيد والحقد - نافذة الأمل الوحيدة للإنسانية، وسبيلها الفرد إلى مستقبل سَوِي مُشْرِق.

التفصيل:

أولا. كان للحضارة الإسلامية وجودها القوي وأثرها الضخم على مسيرة التاريخ الإنساني، برغم ما كان يصيب علاقة المسلمين بدينهم من فتور وضعف، أو تراوحٍ بين مد وجزر:

تَناغَمَ التطبيق البشري العملي الإسلامي مع تعاليم السماء زمن النبوة، وفي عصر الراشدين - في أغلبه - فقدمت هذه الحقبة من تاريخ المسلمين الأُنموذج المثالي لتأثير رسالة سماوية توحيدية صحيحة في حياة معتنقيها أفرادًا وجماعاتٍ، وصهرهم في بوتقة حضارة فريدة لا مثيل لها في إيمانها ووسطيتها واعتدالها، وتسامحها وإنصافها.

وبمرور الزمن وتوالي الأحداث، تباعد المستوى السياسي والنخبة الحاكمة - في الغالب - عن الالتزام بتعاليم دينها خصوصًا في مجال الشورى والعدل، ولكن المجتمعات ظلت إسلامية الطابع والمكونات - إلى حد كبير - والتزم المسلمون بتعاليم شرعهم، قربًا أو بعدًا، ولكنهم لم ينصرفوا عنها كاملة، ولم يتنكّبوا طريقها بالكلية، حتى نسلم بهذه المقولة المُجملة - في غير دقة - المعممة - في غير موضوعية - والتي مفادها أن الإسلام قد انمحى من الوجود ولا دور حقيقي له من نهاية زمن الراشدين إلى اليوم، وحول هذا الموضوع يقول د. حسين مؤنس: "فقد يمكن القول أن قافلة الأمة ضلت الطريق واعتسفت سكة بعيدة عن سكة الإسلام، وانتهت - تبعًا لذلك - إلى غاية لم يقصد إليها الإسلام، فالإسلام صراط أو طريق مستقيم يؤدي رأسًا إلى مجتمع العدل والأمن والأمان والرخاء، وكل ما تضعه عادة تحت عبارة: "سعادة البشر"، فإذا لم تصل الأمة إلى هذه الغاية، فمعنى هذا أنها خرجت عن هذا الطريق، فوصلت إلى غاية غير تلك الغاية.

وفي موضوع خطير كهذا لا يجوز أن نرد الانتكاس الخطير الذي أوجزنا وصفه آنفًا إلى نسيان الأمة دينها، وانصرافها عن عبادتها من صلاة وصوم وزكاة. فليس صحيحًا أن الناس في عصرنا هذا أو حتى في عصور الظلام الماضية - كانوا أبعد عن الدين وأقل حرصًا عليه ممن سبقهم، إنما هي أجيال من البشر يتوالى بعضها في أثر بعض، وفي كل جيل صالح وطالح، وفي كل جيل ناس أهل تقىً ودينٍ ومكارمَ وأخلاق، ونَاسٌ أهل فساد وإفساد، وأهل جور وعدوان، وبين هذين الطرفين عرفنا اليوم والأمس وقبل الأمس، جميع ألوان الطيف من فوق البنفسجي إلى تحت الأحمر. وهناك دائمًا طوائف تعتدي على الدين، وتقارف الإثم، جرأة على الله ﷻ أو طمعًا في عفوه، وسبحانه غفور رءوف

بعباده، وهو غافر الذنب وقابل التوب.

وهذا حق حتى في أيام الرسول ﷺ وأمامنا سورة براءة، وهي أيضًا سورة التوبة، وهي التاسعة في ترتيب المصحف، ولكنها في الحقيقة من أواخر ما أنزل على رسول الله ﷺ من سور القرآن، بل الغالب أنها آخر ما أنزل، فقد نزلت على أثر غزوة تبوك، وتبوك بدأت في أواخر رجب عام ٩ للهجرة، وانتهت أوائل رمضان (أكتوبر ـ ديسمبر ٦٣٠م)، ولم تكن على الحقيقة غزوةً بل محنة وامتحانًا للأمة، ولهذا تُسَمَّى "غزوة العُسْرَة"، والعسرة نار تصهر معادن الناس فيتبين المعدن من الخبث.

ثم جاءت سورة براءة بنتيجة الامتحان، فبدأت آياتها تنزل على الرسول عقب العودة من الغزوة أي بعد الامتحان، وظل المسلمون يترقبون نزول آياتها كما يترقب الطلاب نتيجة الامتحان، وقلوبهم وَجِلَة أشد الوَجَل، وكل منهم يخشى أن تنزلَ آياتٌ تكشف نَفْسَهُ وما كان يخفيه عن الناس، ولهذا قال حذيفة: إنكم تُسَمُّونَهَا سورة التوبة، إنما هي سورة العذاب، وتُسَمَّى أيضًا الباحثةَ والفاحصةَ والفاضحة والمتكلمة؛ لأنها كانت على الحقيقة أشعَّة سينية نفذت في كيان مجتمع المدينة أواخر أيام الرسول ﷺ وكشفت حقيقته كاملةً"[1].

بالطبع يمكن الاستدراكُ على بعض مضمون هذا الكلام بالقول: إن مسألةَ الصالح والطالح، والخير والشر نسبية، لكنْ إجمالًا، فالثابت عن الرسول ﷺ أن خير القرون قرنه ثم الذين يلونهم... إلخ، لكن خلاصة كلام د. مؤنس ـ رحمه الله ـ تفيد أن الأمة ـ وإن انحرفت عن جادة الطريق ـ لم تنس دينها وتنبذه بالكلية، بل ما زالت تلتزم تعاليمه بنسبة أو بأخرى على مر عصورها، أي أن الإسلام لم يُمْحَ من الوجود كما زعم الزاعمون والمشتهون لذلك®.

وصعوبة موقف الأمة الإسلامية ووضعها أنها أمة ذات رسالة، وأن تَدَيُّنَهَا ليس فرديًّا شخصيًّا، ولا انتقائيًّا مزاجيًّا، وإنما يقع على كاهل مجموعها أداء رسالة الإصلاح التي تَضَمَّنَتْهَا تعاليم دينها وحَمَّلَتْهَا إياها، إذ لا يصلح في عرف هذه الأمة الديني أن تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فقيصر نفسه وما يملك لله مالك الملك.

في هذا أيضًا يقول د. مؤنس: "وهذه الأمة لا ينبغي أن تكون كيانًا سياسيًّا يخدم غايات سياسية؛ بل لا بد أن تكون بناء دينيًّا اجتماعيًّا خلقيًّا يخدم غايات إنسانية نابعة من هذا الدين القيم القائم الدائم؛ لتكون هي آخر أمة قيمة تدوم دوام الدهر وَتَسَعُ لبني آدم أجمعين، وتلك كانت الغاية التي أنفق محمد رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة من عمره ليحققها في مكة.

ولو أن محمدًا ﷺ اكتفى كغيره من أنبياء الله بتبليغ الرسالة لَمَا كانت به حاجة إلى جَهْد ولا نَصَب؛ لأنه خلال العام الأول من الرسالة، وقبل دخوله دار الأرقم كان قد أبلغ الرسالة، وجمع حوله طائفة طيبة من الأتباع، لم يُوَفَّقْ إلى مثلها نبي مرسل قبله، فعيسى عليه السلام مضى إلى ربه مخلفًا وراءه ثُلّة من الحواريين، لا يَبْلُغُون نصف الجماعة التي كسبها محمد ﷺ للإسلام قبل أن

[1] . دستور أمة الإسلام، د. حسين مؤنس، مرجع سابق، ص٢٥: ٢٧ بتصرف.

® في **"عدم التعارض بين طهارة المجتمع ووقوع الجريمة فيه"** طالع: الوجه الثاني ، الشبهة الثامنة، من هذا الجزء.

يدخل دار الأرقم ويدعو فيها. وموسى عليه السلام لم يصبر حتى يكسب فرعون وآله لرسالته، بل اكتفى بقومه من بني إسرائيل، ومضى خارجًا من مصر. وإبراهيم عليه السلام لم يكسب لدعوته إلا فئة قليلة من الناس، ومضى إلى ربه فتفرقت أتباعه من بعده بَدَدًا. بينما كان تميُّز محمد ﷺ أنه لم يكتف بالتبليغ، وإنما أصر على البلاغ.

والبلاغ عنده كان تحويل قريش كلها إلى جماعة الإسلام، وتوجيه الجماعة القرشية المسلمة إلى كسب العرب جميعًا، وكان رسول الله ﷺ يرى في قريش من المواهب والملكات والخصائص ما هو قَمِين بأن يُعِينَه على البلاغ الأكبر، وهو إدخال البشر جميعًا في دين الله"[1].

إذن الدين باقٍ في هذه الأمة، وهي باقية به مبقيةٌ عليه بشكل أو بآخر، لكن عوامل عديدة أضعفت دوره وأثرت فيه، وفي صورته وصيرورته عبر تاريخ هذه الأمة، منها ـ كما أسلفنا ـ تحول النخبة السياسية ـ في الغالب ـ عن التزام تعاليمه خصوصًا في شئون السياسة والحكم، ومنها عدم التوازن في العرض التاريخي لتاريخ الأمة، والتركيز على جوانب دون أخرى مما يستوجب محاولة إعادة كتابة هذا التاريخ، والتصويب في كثير من جوانبه.

هل حقق هذا الدين مبتغاه؟

انطلاقًا مما سبق، يثير الشيخ محمد الغزالي سؤالًا: هل نجح الإسلام في تحقيق أهدافه خلال تاريخه الطويل؟ أو لعل الرجل قد وُجِه بهذا السؤال من بين ما يُثَار حول الإسلام ودوره التاريخي، فأجاب بقوله: "لماذا لا يُوَجَّه هذا السؤال إلى الدِّينَيْنِ السابقين عليه من الناحية التاريخية؟ هل أحدهما أو كلاهما حقق أهدافه، وفرض على العالم صيغته؟! سكان العالم الآن أربعة مليارات ونصف تقريبًا، فيهم مليار مسلم، ومليار نصراني، ومليار وثني، والباقي شيوعيون، ذلكم هو الانتماء الظاهر الذي يمكن حصره، غير أني أنظر في الإجابة ـ من ناحية أخرى ـ أن الإسلام لا يمثل نفسه عندما يفشل في سَوْق الأحياء جميعًا تحت لوائه! إنه يمثل الأديان كلها في الحقيقة، فمعنى أني مسلم ـ أني أؤمن بموسى كأحد أتباعه الذين عاصروه وأيَّدُوه تمامًا، وأؤمن كذلك بعيسى كواحد من حوارييه الذين يحبونه وينصرونه، كل ما هُنالِك أني أضم إلى الإيمان بهذين الرجلين الصالحين إيمانًا برجل آخر هو أخ لهما ومُحيٍ لتعاليمهما، رجل تلقى عن ربه هذه العبارة: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ (فصلت: ٤٣)، فإذا لم ينجح أتباع محمد في بسط دعوته على الناس، فمعنى ذلك فشل الدين كله والرسل جميعًا.

هذا عندما يكون الرفض لحقائق الرسالة المعروضة، أما إذا كان الرفض لسوء خلق العارض، وفقدانه الوعي الصحيح، فإن اللوم أو التساؤل لا يُوَجَّهُ إلى الإسلام، بل إلى الأمة التي أساءت البلاغ، وشانت المبادئ التي تحملها، ويبدو أن ذلك هو المقصود من السؤال، وإذا كان الأمر كذلك، فإن السؤال يجب أن يُصاغ على هذا النحو: هل نجح المسلمون في خدمة رسالتهم خلال القرون الأربعة عشر أم كان فشلهم أغلب؟

---

١ . دستور أمة الإسلام، د. حسين مؤنس، مرجع سابق، ص٣٣، ٣٤ بتصرف.

ومع أني شديد اللوم لأمتي دائم التقريع لها، فإني لا أستطيع أبدًا الزَّعم أن اليهود والنصارى كانوا خيرًا منها حالًا، ولا تخدعني الهزائم السياسية المعاصرة عن تقرير الحقيقة، فلا يزال المسلمون برغم جِراحاتِهم الخطيرة أولى بالله، وأعرف برسالاته، وأملكَ لأسباب العافية، وأحقَّ بالبقاء، وما قدموه للعالم وما يُنْتَظَر منهم تقديمه، يُرجِّح كِفَّتهم، ويُعْلِي حُجَّتهم. إن الإسلام انتقل بالحياة البشرية نَقْلَة حاسمة في عدة مجالات:

- تنقية عقيدة الوحدانية من كل شوائب الشرك.
- رفض أي عنصر في الإيمان يناقض العقل.
- إقرار المساواة في الحقوق والواجبات على اختلاف الألوان والأديان.
- التخفيف من ويلات الحروب، وتحريم الدمار الشامل.

ومع ما تعَّرض له التاريخ الإسلامي من مد وجزر، وازدهار، وذبول، فإن الأمة الإسلامية فرضت طابعها المتميز على الفكر البشري، وجعلت خصومها يراجعون أنفسهم، ويجمدون بعض مواريثهم أو يتخلون عنها. كانت صورة الألوهية ـ قبلُ ـ مفزعة في كلمات بعض المتحدثين عن الله في الديانات السابقة على الإسلام، إذ يبدو رب العالمين وكأنه شخص حاسد ذاهل يخطئ ويندم، ويجهل ويتراجع، ويفتقر إلى من يرشده ويصحح له عمله، تأمل في هذه العبارات: لَمَّا قرر الله الانتقام من بني إسرائيل بعد عبادتهم للعجل، قال موسى له: ارجع عن حمو غضبك، واندم على الشر بشعبك! فندم الرب على الشر الذي قال: إنه يفعله بشعبه!. وفي مكان آخر: فندم الرب واغتاظ لما أغضبه بنوه وبناته..

فندم الرب على أنه ملَّك شاول على إسرائيل... الرب كجبار يبرز، كرجل قتال يُثِير غيرته، ويهتف ويصرخ ويظفر على أعدائه. سطع دخان من أنفه ومِنْ فِيهِ نار آكلة، جَمْر مُتَّقِد، طأطأ السماوات والضباب، تحت قدميه، ركب على كروب وطار، وخُطِف على أجنحة الرماح... إلخ.

وقد يعجب المرء عندما يرى أن الله أخرج آدم من الجنة غيرة منه أو خوفًا من مزاحمته له، والنص الوارد أنه حظر على آدم الأكل من شجرة المعرفة خشية أن يكون مثله.

إن عقيدة الوحدانية والكمال المطلق لله ﷻ كما عرضها المسلمون، قهرت، وبهرت، وجعلت العالمين يستكينون إليها، ويتجاهلون ما عداها أو يذكرونه بحياء وإغماض، وهذا أثر إسلامي لا مثيل له، وقد غالى المسلمون بالحكم العقلي، وقرروا أن ما يرفضه العقل يستحيل أن يكون دينًا، بل هو أهواء البشر، وهذه النزعة الإسلامية شَقَّتْ طريقها إلى مستقبل الإنسانية، وتخاذلت أمامها الملل والنحل.

ويسوؤنا أن نتهم الحضارة الحديثة بأنها لا تزال تحترم التفرقة العنصرية، وتتعامل مع الأجناس الملونة، ومع معتنقي الإسلام خاصة بمشاعر الضِّغْن والزِّراية. إن القوانين ـ من الناحية النظرية ـ تلغي هذه التفرقة، أما من الناحية العملية، فالحيف ينزل بالضعاف من المسلمين والزنوج دون حرج، وقد أصدرت هيئة الأمم المتحدة مائتين وخمسين قرارًا لمصلحة أهل فلسطين، لم يُنَفَّذْ منها قرار واحد، ولم يعرف المسلمون ألبتة حروب الإبادة الجماعية، ولم يعرف العالم فاتحًا أرحم من العرب، بل إن الأكراد والأتراك المسلمين كانوا أَعَفَّ

ألف مرة من الدول الغربية الغابرة والحاضرة على سواء.

إن سماحة المسلمين إلى حد الغفلة المعيبة هي التي تجعلهم يَنْسَون ما حلَّ بآبائهم وإخوانهم في أيام نَحِسَات، لقد غزا نابليون مصر والشام، فقتل في الشام أربعة آلاف أسير بعدما أمَّنَهُم على حياتهم، واستحرّ القتل بسكان مصر في الوجهين البحري والقبلي والعاصمة نفسها، حتى اهتز عدد السكان، ولا يريد أن يذكر هذا أحد، ويظهر أن اغتيال الأسرى - على كثرتهم - داء قديم، فإن صلاح الدين الأيوبي أرسل إلى ريتشارد ملك إنجلترا - وكان على رأس حملة صليبية تقاتل المسلمين في الشرق - أرسل إليه بفِدْيَة كبيرة ليفُكَّ قيود هؤلاء الأسرى فماذا حدث؟

إليك ما كتبه ستيفن رنسيمان في الجزء الثالث من "تاريخ الحروب الصليبية" بعدما شرح مراوغات ريتشارد وَتَعَنُّت مُفَاوِضِيه قال: "أضحى ريتشارد حريصًا على أن يغادر عكا، وأن يزحف على بيت المقدس، وصار الأسرى المسلمون مصدر حيرة له، ثم انشرح صدره للخلاص منهم بعدما دبَّر اعتذارًا رآه مقبولًا، قال: إن صلاح الدين نقض عهده معه، ومن أجل ذلك فقد أمر بالإجهاز على ألفين وسبعمائة أسير من الذين بَقَوا على قيد الحياة من حامية عكا". قال المؤلف: "واشتد حماس عساكره للقيام بهذه المجزرة، وحمدوا الله في جذلٍ وسرور، حسبما يروي المدافعون عن ريتشارد، فقد هيأ لهم فرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة أثناء الهجوم عليها، ولقي زوجات الأسرى وأطفالهم مصارعهم إلى جوار رجالهم.ولم يُبق الصليبيون إلا على بعض رجال يستفيدون منهم في أعمال السُّخْرة، وبعض الأعيان، أما الباقون فقد فَنَوا جميعًا، وشهد المسلمون المرابطون في أقرب المعاقل إلى عكا ما قد حدث، فاندفعوا لإنقاذ إخوانهم وأهليهم، وعلى الرغم من أنهم ظلوا يقاتلون حتى حلول الظلام، فقد عجزوا عن الوصول إليهم.

ولَمَّا انتهت المذبحة غادر الإنجليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوَّهة، وأضحى بوسع المسلمين أن يُقدِموا للتعرف على أصدقائهم الذين استُشْهِدُوا.

لندع هذا المشهد الكئيب، ولنترك دلالته البَيِّنَة، ولننتقل مع ستيفن رانسيمان، إلى مشهد آخر ذكره في الجزء الثاني من كتابه، بعدما انتصر صلاح الدين في حطين قال: "وقَبِلَ صلاح الدين أن يضع شروط الصلح، فعرض بأن بوسع كل مسيحي أن يفتدي نفسه على أساس عشرة دنانير للرجل، وخمسة دنانير للمرأة، ودينار للطفل، وعندئذ أشار باليان إلى أن بالمدينة حوالي عشرين ألفًا من الفقراء، ليس بوسعهم أن يؤدوا هذا المبلغ، أفلا يجوز للسلطات المسيحية أن تدفع مبلغًا إجماليًّا لافتدائهم، ووافق صلاح الدين على أن يقبل مائة ألف دينار عن جميع العشرين ألف، غير أن باليان أدرك أنه ليس من المستطاع تحصيل هذا المبلغ الضخم، فتقرر إطلاق سراح سبعة آلاف مقابل دفع ثلاثين ألف دينار، وبناء على أوامر باليان ألقى العسكر السلاح، وفي يوم الجمعة أكتوبر سنة ١١٨٧م، دخل صلاح الدين بيت المقدس، ويوافق هذا التاريخ السابع والعشرين من رجب، الذي يجري فيه الاحتفال بعيد الإسراء، حين أسري بالنبى ﷺ إلى بيت المقدس، ثم ارتقى إلى السماء.

والواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة

والإنسانية، فبينما كان الفرنج يخوضون في دماء ضحاياهم، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه؛ إذ صار رجال الشرطة بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحيين، وفي تلك الأثناء حرص كل مسيحي على أن يلتمس المال اللازم لافتدائه، وأخذ باليان كل ما في بيت المال من الأموال لدفع ما وعد به من أموال الافتداء، وَقَدْرُهَا ثلاثون ألف دينار، ولم يخرج الإسبتارية والداوية عن شيء من أموالهم إلا بصعوبة، ولم يحفِل البطريرك وهيئة الكنيسة إلا بأنفسهم، ودُهِشَ المسلمون حينما رأوا البطريرك هرقل يؤدي عشرة دنانير، مقدار الفدية المطلوبة منه، ويغادر المدينة، وقد انحنت قامته لثِقَل ما يحمله من الذهب، وقد تَبِعَتْه العربات التي تحمل ما بحوزته من الطنافس والأواني المصنوعة من المعادن النفيسة. وبفضل ما تبقى من منحة الملك هنري الثاني، تقرر إطلاق سراح سبعة آلاف من الفقراء، وقد كان يصح أن ينجو من الاسترقاق ألوف عديدة من المسيحيين لو أن الإسبتارية والداوية والكنسية كانوا أكثر سخاء. ولم يلبث أن تدفق من أبواب المدينة طابوران من المسيحيين، تألف الأول من أولئك الذين افتدوا أنفسهم، أو تم افتداؤهم بفضل جهود باليان، أما الطابور الثاني فشمل أولئك الذين لم يستطيعوا افتداء أنفسهم، ولذا تَوَجَّهوا إلى الأَسْر.

ومن المناظر التي تدعو للأسى والحزن، ما حدث من التفات العادل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه إطلاق سراح ألف أسير، على سبيل المكافأة عن خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين فأطلق العادل على الفور سراحهم، وإذ ابتهج البطريرك هرقل لأن يلتمس هذه الوسيلة الرخيصة لفعل الخير، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يهبه بعض الأرقاء ليعتقهم، فبذل له صلاح الدين سبعمائة أسير، كما جعل صلاح الدين لباليان خمسمائة أسير، ثم أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ، وكل امرأة عجوز، ولما أقبل نساء الفرنج اللائي افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، فسألن صلاح الدين، أين يكون مصيرهن، بعد أن لقي أزواجهن أو آباؤهن مصرعهم، أو وقعوا في الأسر؟ أجاب بأنه وعد بإطلاق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، وبذل للأرامل واليتامى من خزائنه العطايا كُلٌّ بحسب حالته، والواقع أن رحمته وعطفه كان على نقيض أفعال الغزاة في الحملة الصليبية الأولى.

إن الأمة الإسلامية ـ برغم تعاسة الظروف التي أَلَمَّت بها ـ أرست قواعد خير كثير في هذه الحياة، وما يبقى لها ـ بعد معادلات الحذف والإضافة ـ يَزِيْنُها ولا يَشِينُها. وأعرف أن خصمها أَصْفَقُ وجهًا وَأَقْدَرُ على فعل المناكر، ودَفْنِهَا فلا تُعْرَف، وأجرأ على تلمُّس العيوب للبُرَءاء، والإصرار عليها حتى تثبت. وفي عصرنا هذا أَمَر رجلُ دِينٍ أحمق في غيانا بأمريكا الوسطى ألف شاب بالانتحار الجماعي، فماتوا كلهم في صمت، ولو فعل شيخ مسلم واحدًا في المائة من هذه المأساة لرُمِيَت الأمة الإسلامية بعار لا تقدر على الإفلات منه، ولنسب للإسلام شر!

وما ننكر أن هناك منصفين صرحوا بفضل الأمة الإسلامية على العالم، مثل كتاب "شمس العرب تسطع على الغرب" لأستاذة ألمانية طاهرة الذمة. صحيح أن

المسلمين في أوضاع بالغة السوء، وصحيح أن فساد الحكم حقبًا طويلة من وراء هذا الانحدار، بيد أن الأمة الجريحة لا تزال أنبل من قاتليها، ولا تزال ثروتها الروحية أجدر بالتقدير وأحق بالتقديم.

إن الذكاء الأناني في أوربا وأمريكا سَيَجُرُّ الويل على أصحابه، وقد يَجُرُّه على العالم كله، ما لم يرحمنا الله"[1].

ثانيًا. صياغة التاريخ الإسلامي وما شابها من نقص وتشويه وأثر ذلك:

إن من أشد ما تعرض له الإسلام من ظلم هو محاولات بعض المغرضين وتدخلهم في صياغة تاريخه، وهو ما أعطى انطباعًا سيئًا مغلوطًا عن كثير من العصور الإسلامية، وصورها على أنها سلسلة من الحروب والصراعات والأطماع والفتن، وهذا ما يرصده د. حسين مؤنس في كتابه "تنقيةُ أصولِ التاريخ الإسلامي" تحت عنوان "لا بد من التنبيه إلى السلبيات والإيجابيات"؛ إذ يقول: "والحق أن تاريخنا فَقَدَ شخصيته وروحه منذ أصبح مجرد نزاع على السلطان في ذاته".

ثم يقدم مثالًا واضحًا على عدم التوازن في العرض التاريخي وإغفال جوانب لحساب أخرى، مما أظهر هذا التاريخ - في طابعه العام - سوداويًّا باهتًا، تسوده الصراعات والفتن والمآسي الداخلية، فيقول عن مثال من أمثلة عديدة من تاريخنا في وجهه الإيجابي الجهادي الرائع: أُغفلت، ونسيناها أو حُجبت عنا، وتمددت على حسابها أخبار حوادث تافهة ونزاعات مريرة سلبية، وليس أدل على ذلك من خبر الأُطْرُوشي، وهو الحسن بن محمد بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فهذا الرجل العلوي رأى أنه لا معنى لأن ينافس في طلب الدولة الإسلامية، ويحاول انتزاعها من بني العباس، ففعل ما فعله ابن عمه إدريس ابن محمد بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عندما ذهب إلى بلاد البربر، وأنشأ الدولة الإدريسية خارج نطاق الدولة العباسية، وخارج نطاق دولة بني أمية في الأندلس أيضًا.

وأخبار هذا الأطروشي قليلة؛ لأن مُؤَرِّخِينَا يُشْغَلُون في العادة بأخبار نزاع الترك والمغاربة والأشروسية على الخلافة، وهو نزاع مرير وفارغ وبلا معنى، ولكنَّ الأطروشي تَنَبَّه إلى أن بني العباس أهملوا نشر الإسلام في نواحي طبرستان والبلاد الواسعة الواقعة بين نهر جيحون وبحر قزوين، هناك بلاد واسعة دون إسلام مع أنها في صميم بلد الإسلام، فذهب في سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م إلى بلاد الديلم والجبل، وهي التي نسميها اليوم ببلاد خوارزم، وهي بلاد واسعة وخصبة وغنية يسكنها ملايين الناس، فرأى أن ينشر الإسلام فيها؛ لأنهم كانوا أهل جاهلية، بل كان فيهم مجوس يعبدون النار. فاجتهد في نشر الإسلام في هذه النواحي، وأنشأ دولةً كبيرةً تعتبر من أعاظم دول الإسلام، ولا تُقَارن إلا بالدولة الإدريسية، وأخبار هذه الدولة قليلة؛ لأنها قامت في بلاد واسعة، ولكن ليس فيها شعب قائم بنفسه يُؤَرِّخُ لبلاده"[2].

---

١. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٤٥٩: ٤٦٤ بتصرف.

٢. تنقية أصول التاريخ الإسلامي، د. حسين مؤنس، دار الرشاد، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٣٨: ٢٤٠ بتصرف.

ويسترسل في تفاصيل هذا الخبر إلى أن يقول: "ويكفي هذا القدر من ذلك الخبر المهم؛ لأنه طويل، وهو مثال مهم من أخبار مهمة ورئيسة، ونحن لا نعرف عنها شيئًا؛ لأن الحقيقة أننا لا نعرف الكثير من حقائق تاريخ الإسلام، فهذا تاريخ دولة إسلامية كبرى أَدْخَلَتْ في الإسلام ملايين البشر، ومساحة ضخمة من هذه الأرض، وقد أنشأها وقام عليها رجل واحد من الطالبيين، وهو الأطروشي هذا، وقد لقب بالأطروشي؛ لأنه كان قليل السمع، أي أنه كان يعاني من ضعف سمعه، ولكنَّه مع هذا استطاع أن يكمل مساحة الإسلام من هذه الناحية التي يقع فيها اليوم جزء كبير من بلاد ما وراء النهر وروسيا الإسلامية، وهي بلاد خوارزم وطبرستان.

بهذه المناسبة أحب أن أنبِّه إلى أن الإسلام باق في تلك البلاد إلى يومنا هذا؛ لأن الإسلام إذا دخل بلدًا لم يخرج منه أبدًا. الإسبان والكاثوليك لكي يتخلصوا من المسلمين أبادوهم بصورة بشعة، وهذه فضيحة من فضائح التاريخ، وما زال البشر يذكرونها إلى اليوم للإسبان أو قل للكنيسة الكاثوليكية؛ لأن تلك الكنيسة هي ـ دون شك ـ ألد أعداء الإسلام، وما زالت؛ لأنها زائفة والإسلام حقيقة، ولكن زيفَها مرتب منظم، أما نحن فعلى الرغم من أننا على الحق إلا أننا في فوضى دائمًا، وفي اليوم الذي نتخلص فيه من الفوضى سنسود الدنيا؛ أقصد أن الإسلام دين الله، ولا بد أن يعم الدنيا مهما كانت العقبات في طريقه"[1].

وتأكيدًا لتحكم منطق الانتقائية والغائية في التعامل مع أحداث ورموز تاريخ المسلمين ـ في أحيان كثيرة ـ يقول الشيخ محمد الغزالي: "والحكم في الإسلام عبادة رفيعة الثواب، والحكام العدول أول ظافر بالرضوان الأعلى، وأول مستظل بعرش الرحمن يوم الزحام.

لكن هذا النوع في تاريخنا قليل؛ لأن الرياسة شهوة عند كثيرين يسعون لتحقيقها بالعرق والدم، فإذا ظفروا بمجدهم الشخصي حافظوا عليه بالنفس والنفيس، وأظن هؤلاء هم الذين عَنَتْهُم الآية: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (القصص). والقلة الصالحة من الحكام هي التي أَجْدَت على الإسلام، ووسعت رقعته في العالمين، وطليعة أولئك الساسة الكبار الخلفاء الراشدون الأربعة، وهناك ملوك ورؤساء على امتداد تاريخنا كله ابتذلوا أنفسهم لله وللأمة، وذهبوا إلى الله راضين مرضيين.

وحماة الإسلام الكبار لم يلقوا الترجمة الصحيحة لأعمالهم، بل تناثرت هنا وهناك دون ضابط، وأحيانًا أرمق ما كتب عن دولة الخلافة، فأجد إبرازًا للسلبيات وإخفاءً للمحامد والأمجاد، وكأنما كان التأريخ للفتن وحدها، الذي أَجَلُّ ما كان حقه أن يوضع في الهامش، كُتب بالثُلُث وجُعل عنوانًا ومُنح الصدارة، أما الخير الكثير لسلفنا الأول فكأنما وُضِعَت فوقه حُجُب.

عندما كنت أقرأ أنباء المسلمين في آذربيجان ـ والكلام للغزالي ـ وهم يقاومون الضغط الروسي، ويحاولون النجاة بدينهم، ذكرت أن هذه البقاع تم فتحها أيام الخليفة الثالث هي وأقطار أخرى، تكوّن منها جنوب الاتحاد السوفيتي.

---

1. المرجع السابق، ص٢٤٢، ٢٤٣ بتصرف يسير.

إن تلامذتنا لا يعرفون هذا، ولا رُسِمت لهم خريطة تجلو أمامهم هذه الأعمال، وإنما الذي دُرِّسَ لهم بعضُ الأكاذيب المفتراة على عثمان ﷺ، ومحاباته لنفر من عشيرته، وكان المفروض في تدريس رسالة ضخمة كهذه، أن نذكر المبادئ والتطبيقات التي نهض بها جيل الصحابة الأوائل، وغيَّر بها وجه الأرض، وخرج بها العربُ من أكوام الجاهلية الأولى يحملون كتابًا أشرقت به الظلمات، ونشأت عنه حضارة ازدانت بها الأرض أكثر من ألف سنة.

لقد كان ذلك عمل الخلفاء الأربعة الكبار، وإن معرفة هذا العمل بتفصيل أجدى - في ميدان السياسة والتربية - من حديث الجَمَلِ وصِفِّين، وبقية السلبيات التي رَسَبَتْ في الأذهان، واختفى غيرها مما كان يجب أن يشرح ويخلد!. لا أريد إنكار أخطائنا، وإنما أريد ألا تعدو وضعها الثانوي بعد بيان ما أَدَّينا للدين والدنيا، إذ لحساب من يتم هذا الغَمْط؟"[1].

كل ما سبق يوجزه د. القرضاوي فيقول: "فيجب أن نكون عدولًا في نظرنا إلى هذا التاريخ، فلا يجوز أن نُضَخِّمَ ناحية من النواحي السلبية على حساب النواحي الإيجابية، فإذا أخذت كتابًا كالأغاني وأردت أن تأخذ منه صورة المجتمع في العصر العباسي، فلقد ظلمت هذا العصر؛ فكتاب الأغاني يمثل شريحة من المجتمع ليست هي المجتمع الحقيقي ولا أغلبه، كذلك ينبغي أن نكون عدولًا عند تقييم الأشخاص، فإذا أردنا أن نُقَيِّم شخصية كشخصية هارون الرشيد فعلينا أن نتذكر أمرين:

١. أن نميز بين الصحيح وغير الصحيح من الروايات التي تتحدث عن الرشيد، وما أكثر التزييف في هذه الأشياء وخاصة من الذين يَهْوُون المبالغات.

٢. أن نُقَيِّم الشخص بمجموع أعماله ومواقفه وآثاره، فرجل كالرشيد كان يغزو عامًا ويحج عامًا، وكان يستنصح الوعاظ ويبكي عند الموعظة، ويقوم الليل، ويكرم العلماء، فمثل هذا لا يتصور أن يكون بالصورة التي يأخذها كثير من الناس من "ألف ليلة وليلة"، ويُسَمُّون ذلك تاريخًا!

ويجب أيضًا عند كتابة تاريخنا الإسلامي ألا نُخضعه للأهواء والتيارات الأيديولوجية المختلفة، فالليبرالي يريد أن ينظر إلى تاريخنا من وجهة نظر ليبرالية[2] أو رأسمالية، والاشتراكي أو الماركسي يريد أن يكتب التاريخ الإسلامي ويفسره في ضوء التفسير المادي، كما أن المتطرفين من القوميين يريدون أن يكتبوا تاريخنا الإسلامي من وجهة نظر قومية بحتة، ينصرون فيها العروبة على الإسلام، ويقيمون بينهما حربًا لا مُسَوِّغ لها، مع أن الإسلام هو صانع أمجاد العروبة ومُخَلِّد ذكرها، وباعث أمتها وصاحب رسالتها، والعروبة هي وعاء الإسلام، ولغتها هي لسانه، وأرضها هي حَرَمُه، ولكن قومًا يريدون أن يحذفوا الإسلام ويبقوا العروبة وحدها.

وينبغي أن نراعي عند إعادة كتابة تاريخنا الإسلامي أن التاريخ ليس هو التاريخ السياسي فقط، أعني أن التاريخ ليس هو تاريخ الملوك والحكام وحدهم، وإنما

١. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م، ص١١٤، ١١٥.

٢. اللِّيبراليَّة: مذهب يقوم على الاعتقاد في أهمية حرية الفرد ورفاهيته وإمكانيّة التقدم الاجتماعي من خلال تغيير التنظيم الاجتماعي وتجديده.

يجب أن يكون تاريخ الشعوب والمجتمعات أيضًا.

وكذلك فإن تضخيم الجانب العسكري في تاريخنا ـ ابتداءً من السيرة النبوية وما بعدها ـ أعطى انطباعًا لدى الناشئة وغيرهم بأن الإسلام دين سيف وحرب، وأنه معركة مستعرة الأُوار مستمرة اللهيب، فالسيرة النبوية غزوات، وعهد أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ فتوح، وعصر عثمان وعلي ـ رضي الله عنهما ـ حرب أهلية، وعصر الأمويين عصبيات وحروب، مغفلين جانب الرسالة، وجانب الدعوة، وجانب الحضارة في هذا التاريخ.

وهذا كله يجب أن يُصَحَّحَ، وأن يُنْظَرَ إلى التاريخ نظرة شاملة متكاملة، وكذلك يجب أن ننبه إلى أن كثيرًا ممن يكتبون في تاريخنا الإسلامي يقعون ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ أسرى لما كتبه المستشرقون في هذا الجانب، ولا نُنْكِرُ أن للمستشرقين جهودًا في كتابة تاريخنا وغيره من نواحي تراثنا الرحب، منهم منصفون إلى حد كبير، ولكن قَلَّمَا تخلو كتاباتهم من ثغرات وآفات بعضها يرجع إلى طبيعة تكوينهم الفكري والعقائدي، فهم ينظرون إلى العالم كله وإلى التاريخ كله من زاوية الغرب الذي يرى أن أوربا هي أم الدنيا، وأن الحضارة منها بدأت وإليها انتهت. كما أن نظرتهم للإسلام تحكمها عُقَد موروثة منذ الحرب الصليبية، قد تَكْمُنُ ولكنها لا تزول، وتختفي ولكنها لا تموت، وقد اعترف كثير منهم بهذه العقدة حين كتبوا عن الإسلام والمسلمين.

ومن هنا ينبغي ألا تُؤْخَذَ النتائج التي وصلوا إليها قضايا مُسَلَّمة، وإنما ينبغي أن تُنَاقَشَ في ضوء منهج النقد والتمحيص للروايات.

ويستنكر د. يوسف القرضاوي وصف بعضهم لتاريخنا الإسلامي بأنه ظلمات بعضها فوق بعض، وبأن الغالبية العظمى من حكامنا المسلمين بعد الراشدين، كانوا حكام ظلم، فيقول: "إن في ذلك ظلمًا أي ظلم، وتحاملًا أي تحامل على تاريخنا"[1].

ثالثًا. أسباب غياب الدور الحضاري القوي والفاعل للأمة الإسلامية في بعض فترات التاريخ:

وفي جانب آخر يلفت الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ النظر إلى عامل مهم من عوامل انحلال قوة هذه الأمة، والتأثير في دورها التاريخي وإصابته بالعقم ـ في كثير من عصوره وأحداثه ـ والضبابية، فَشَحَبَتْ صورته، وقل بهاؤه، وغاض رونقه، واستيأس كثيرون من جدواه؛ مما سمح للمغالطين بالزعم أن هذا الدين قد انسحب من التاريخ ومن الحياة. هذا العامل الذي التفت إليه الشيخ هو العداء التاريخي المستحكم من قِبَل الآخرين تجاه المسلمين، يقول: "أوربا وأمريكا تكرهان الإسلام، ما قصرت إحداهما في هَضْمِ قضاياه وتجاوز حقوقه! وفي سباق الأحقاد التي يواجهها ديننا الصامد نرى فرنسا تمتاز بتبشير واسع الحيلة، واستشراق خبيث القصد، وسياسة شديدة الفتك.

في الحرب العالمية الأولى سُلِخَ لواء الإسكندرونَة من سوريا، ومُنِحَتْها تركيا الحديثة مكافأة على عَلْمَانِيَّتها، وسلخت محافظتان أخريان من الجنوب مُنِحَهُمَا جبل لبنان الصغير؛ ليتكون لبنانٌ كبير تحت سلطة اختِيَرت بعناية كي تمحو العروبة والإسلام، وتجعل الكثرة

١. حول الإسلام وقضايا العصر، د. يوسف القرضاوي، مرجع سابق، ص٦٠: ٦٣ بتصرف.

الإسلامية تافهة ضائعة، وقد استقلت الجزائر المسلمة بعد حرب زُهِقَتْ فيها أرواح مليون ونصف من البشر، وقناطير من الأموال التي ضاعت في قتال قذر، ومع ذلك فَإِنَّ ناسًا كثيرين في فرنسا يريدون استئناف المعارك واستبقاء الإجرام، ويمهدون لذلك نفسيًّا واجتماعيًّا.

وقد انفجر الغضب على الإسلام وأتباعه يوم ارْتَدَتْ ثلاثُ فتيات زيًّا إسلاميًّا محتشمًا، وقال كثير من المسئولين: هذا تحدٍّ للحضارة الفرنسية، وكان غليان الرأي العام مثيرًا للعجب، يصفه رجاء جارودي قائلًا: إن ما حدث هو ـ في رأيي ـ لحظةُ جنون جماعي! لو رآها أحد سكان المريخ لشعر بالدهشة! بل إن فيليب جونزاليس رئيس وزراء إسبانيا صرح في التلفاز بأنه مندهش لما يجري في فرنسا حول مشكلة ارتداء الحجاب الإسلامي؛ إذ كيف تستطيع ثلاث فتيات يرتدين هذا الحجاب أن يُعَرِّضْنَ الهوية الثقافية الفرنسية للخطر، والحقيقة ـ والكلام لجارودي فيما نظن ـ أن الهوية الثقافية لفرنسا تتعرض للخطر من الأفلام الهابطة التي تُسْتَوْرَد من الولايات المتحدة.

أنا شخصيًّا ـ الغزالي ـ أتساءل: إن الشَّبَهَ قريب جدًّا بين الحجاب الإسلامي وملابس الراهبات المسيحيات، فما الذي أثار الذُّعْر والتوجس؛ لأن تلميذات آثرن الاحتشام والتقوى، وارتدين ما يَرُدُّ عنهن الأعين الجريئة والخائنة. لا ريب أن هناك حساسيةً بالغةً ضِدَّ كل ما يقترب من الإسلام أو يُقرِّب من معالمه وشعائره، ولفرنسا عدة إذاعات تشتغل بالتبشير، وتغزو أجواء المغرب الكبير، وتبذل جهود الجبابرة لضرب الإسلام في مقاتله، والغزو الثقافي الجديد يقوم على شعبتين: إحياء النزعة البربرية؛ كي تقاوم الإسلام وتمنع صحوته، وكذلك إنشاء نزعة جديدة عنوانها: ثقافة البحر المتوسط؛ كي تقتطع الشعوب المطلة على هذا البحر من عالمها الإسلامي الرحب إلى عالم آخر تَهِي روابطه بالإسلام تاريخيًّا واجتماعيًّا، لعله في نهاية المطاف يرتد على عَقِبَيْه، وينسى رسالته وحضارته.

ذلك ما يقع في غرب البحر المتوسط، أما في شرقه فثَمّ أمر آخر هو قاصمة الظهر، وكارثة الدهر، هو الاستعداد الحار الجارف لإقامة إسرائيل الكبرى، وإسرائيل الكبرى غاية دينية مقررة لدى اليهود والنصارى على سواء. اليهود ينتظرون مسيحهم ليحكم بهم العالم، ويقيم دولة الشعب المختار، والنصارى ينتظرون نزولَ عيسى ابنِ مريم بعد تجميع اليهود في فلسطين؛ لِيُدِينَ المسكونة كلها، وينصر اليهود طوعًا أو كرهًا، ويحكم العالم وهو جالس على يمين الرب، ومعنى إقامة إسرائيل الكبرى ضياع ست دول تقع في المجال الحيوي لإسرائيل بين الفرات والنيل هي: مصر، والعراق، والسعودية، والأردن، وسوريا، ولبنان، بعد التهام فلسطين كلها بداهة.

والأصوليون المسيحيون يعتنقون هذه العقيدة وبينهم ريجان، وكارتر، وبوش الذي أعلن سعادته ببدء الخروج الكبير، خروج اليهود الروس، وتوطينهم هناك في فلسطين، إن هذا المسلك ـ عندهم بالطبع ـ دلالة تَقْوَى وإيمان واستجابة لأمر الله. ومنذ زحف اليهود إلى أرض الميعاد والإسلاميون يلاحظون أن إسرائيل تحاربنا بجنود من الدول الشيوعية، وأسلحة من الدول الرأسمالية، ولا يزال الوضع كما كان، مستودعات الرجال تفتح من روسيا وأوربا الشرقية، وخزائن

للسلاح والمال تتدفق من الغرب الصليبي.

إن الكل اصطلح علينا؛ كي يقيم مُلْكَه على أنقاضنا، لم ينس موشي ديان التاريخ الذي مضى عندما قال عشية انتصاره على عبد الناصر سنة ١٩٦٧م: لقد ثأرنا ليهود المدينة وخيبر، ولم ينس مارشال اللنبي التَّاريخَ الذي مضى عندما دخل القدس سنة ١٩١٨م فقال: الآن انتهت الحروب الصليبية، وقد لخص وليم جيفور بلجراف الهدف من هذه الحروب كلِّها عندما قال: عندما يختفي القرآن وتختفي مكة من بلاد العرب ـ يعني الكعبة ـ عندئذ يستطيع العربي أن يتدرج في طريق الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمدٌ وكتابه.

أي حضارة يريد؟! حضارة الإيدز والشذوذ والضغائن؟! إنني لا أخاف هؤلاء جميعًا، إنني أخاف أن يذكر الآخرون باطلهم، وننسى نحن حقنا وتاريخنا ورسالتنا، ونشتغل برفع مستوى المعيشة على حين يشتغل غيرنا بتغليب كنهه وإعلاء ملته"[1] ®.

رابعًا. يظل الإسلام ـ مع كل ما يُثار ضدّه من الكيد والحقد ـ نافذة الأمل الوحيدة للإنسانية، وسبيلها الفرد إلى مستقبل سَوِي مُشرق:

الآن، بعد أن وضح أن الدين ما يزال قائمًا في النفوس والقلوب، وأن آثاره ما تزال تعمل عملها ـ بشكل أو بآخر ـ في مضمار الحياة، وأنه ليس صحيحًا أن الإسلام لم يعد له وجود على ظهر البسيطة، ربما جاز أن نتساءل: هل لهذا الدين مستقبل؟ وهل له دور يمكن أن يؤديه في عالم الغد؟.

تحت عنوان "المسلمون ـ على عِلَّاتِهم ـ مَوْئِل الإنسانية وأمة المستقبل" يجيب الشيخ أبو الحسن الندوي عن هذا التساؤل قائلًا: "ولكن على الرغم من كل ما أُصيب به المسلمون من عِلَّة وضعف، فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تُعَدُّ خصيم الأمم الغربية، وغريمتها ومنافستها في قيادة الأمم، ومزاحمتها في وَضْع العالم، والتي يعزم عليها دينها أن تُراقِب سَيْر العالم، وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها، وأن تقودها إلى الفضيلة والتَّرَقِّي، وإلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وتَحُول بينها وبين جهنم بما استطاعت من القوة، والتي يُحَرِّم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها أن تَتَحَوَّلَ أمة جاهلية، هذه الأمة التي يمكن أن تعود في حين من الأحيان خطرًا على النظام الجاهلي الذي بسطته أوربا في الشرق والغرب، وأن تحبط مساعيها.

وقد وصف هذا الخطر شاعر الإسلام الحكيم محمد إقبال في قصيدته البديعة: "برلمان إبليس" على لسان إبليس، ذكر فيها أن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شورى، وتباحثوا في سير العالم، وأخطار الغد وفِتَنه، وما يتوجَّسون منه خِيْفَة على نظامهم الإبليسي ومهمتهم الشيطانية، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أَحْدَقَتْ بهم وَهَدَّدَتْ نظامهم، وجلّلوا خطبها وتناذروا شرها، فذكر أحدهم الجمهورية ـ أي النظام الجمهوري ـ وحسب لها حسابًا كبيرًا، فقال الثاني: لا يَهُوْلَنَّك أمرها؛ فإنها ليست إلا غطاء للملوكية، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس

---

١. تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص١١٨: ١٢١.

® في **"ارتباط التخلُّف الحضاري للمسلمين بتخلّيهم عن الإسلام"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة العاشرة، من هذا الجزء.

الجمهوري؛ إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته، وخفنا من ثورة على نظامنا قد لا تُحْمَدُ عاقبتها، فألهيناه بلُعْبَة الجمهورية، وليس الشأن في الأمير والملك، إن الملوكية لا تنحصر في وجود شخص ترتكز فيه الملوكية، وفرد يستبد بالسلطان، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالًا على غيره، مستشرفًا إلى متاع غيره، سواء في ذلك الشعب والفرد، أَمَا رأيت نظام الغرب الجمهوري وجهه مشرق وضَّاح، وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان؟

فقال الآخر: لا بأس إذا بقيت روح الملوكية، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدهماء التي أثارها هذا اليهودي الذي يُدْعَى كارل ماركس، ذلك الذي ليس نبيًّا، ولكنه يحمل عند أتباعه كتابًا مقدسًا، هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعده، وأثار العبيد على السادة حتى تزعزعت مباني الإمارة والسيادة.

فقال آخر مخاطبًا رئيس المجلس: يا صاحب الفخامة، إن سحرة أوربا، وإن كانوا مريديك المخلصين، ولكني لم أعد أثق بفراستهم، ها هو السامري اليهودي، الذي هو نسخة من مَزْدَك (الزعيم الفارسي الاشتراكي) قد كاد يأتي على العالم بقواعده، فاستنسر البُغَاث، وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ويدفعونهم بالراح، (أعلام أرض جعلت بطائحَ). إنا اسْتَهَنَّا بخَطْب هذه الحركة الاشتراكية، وها هي قد استفحلت، وتفاقم شرها، وها هي الأرض ترجف بهَوْل فِتْنَة الغد.

يا سيدي، إن العالم الذي تحكمه سينقض عليك؛ إذ ينقلب نظام العالم ظهرًا لبطن. فتكلم رئيس المجلس إبليس وقال: إني أملك زمام العالم وأتصرف به كيف أشاء، وسيرى العالم عجبًا إذا حرشتُ بين الأمم الأوربية، وافترس بعضها بعضًا، فعل الذئاب، وإذا همستُ في آذان القادة السياسيين وأساقف الكنائس الروحانيين، فقدوا رُشْدَهم وجُنَّ جُنُونهم.

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية، فكونوا على ثقة أن الخَرْق الذي أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يَرْفَؤه المنطق المَزْدَكي (الفلسفة الاشتراكية)، لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون والصعاليك السفهاء. إن كنت خائفًا فإني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في رمادها، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وتسيل دموعهم على خدودهم سَحَرًا، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد، وداهية المستقبل ليست الاشتراكية، أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجورًا، وأنها فُتِنَتْ بالمال وشُغِفَتْ بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم.

أنا خبير أن ليل الشرق داجٍ مُكْفَهِرٌّ، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات، ويضيء لها العالم. ولكنِّي أخاف أن قوارع هذا العصر وهزته سَتَقُضُّ مضجعها، وتوقظ هذه الأمة، وتوجهها إلى شريعة محمد ﷺ، إني أحذركم وأنذركم من دين محمد ﷺ حامي الذمار، حارس الذمم والأعراض، دين الكرامة والشرف، دين الأمانة والعفاف، دين المروءة والبطولة، دين الكفاح والجهاد، يلغي كل نوع من أنواع الرق، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان، لا يفرق بين مالك ومملوك، ولا يؤثر سلطانًا على صعلوك، يُزَكِّي المال من كل دَنَس ورِجْس، ويجعله نقيًّا صافيًا، ويجعل أصحاب الثروة والملاك

مُسْتَخْلَفين في أموالهم، أُمَناء لله، وُكَلاء على المال، وأي ثروة أعظم وأي انقلاب أشد خطرًا مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل، يوم صرخ أن الأرض لله، لا للملوك والسلاطين.

فابْذُلُوا جهدكم أن يظل هذا الدين متواريًا عن أعين الناس، وليَهْنِكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه، فخير لنا أن يبقى مشتغلًا بمسائل علم الكلام، والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات، اضربوا على آذان المسلم، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ويبطل سِحْرَنَا بأذانه وتكبيره، واجتهدوا أن يطول ليله ويَبْطُؤ سَحَره، اشغلوه يا إخواني عن الجد والعمل، حتى يخسر الرهان في العالم، خير لنا أن يبقى المسلم عبدًا لغيره، ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره زهدًا فيه، واستخفافًا لخطره، ياويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتَعِسَّه"[1][2].

إذن ما يزال الأمل باقيًا في هذه الأمة أن ترفع شأن دينها، وشأنها به في قابل الأيام، ولكن تَحَقُّق هذا الأمل منوط بشروط، يقول الشيخ محمد الغزالي: "حال المسلمين يقبض الصدر، وقد يبعث على التشاؤم، ولكني واثق من أن هذه المحنة ستنجلي كما انجلت محن أخرى في أيام مضت، على أن انجلاء المحن لا يشبه انقشاع السحب، نرقبه ونحن مكتوفو الأيدي، كلا، لا بد من عمل جاد وسعي لاغب، أو كما قلت في موضع آخر: لا بد أن يعتنق المسلمون الإسلام يقينًا وخلقًا ونشاطًا وفكرًا. أمّا مع النقائص الموجودة فيستحيل أن يكسب المسلمون خيرًا"[3].

ومادام "أمل يلوح في الأفق" تحت هذا العنوان، ودحضًا لهذه الشبهة القائلة بزوال كل أثر للإسلام من على ظهر الأرض - باستقراء الواقع وتوقع مجريات الأمور في المستقبل - كتب الأستاذ محمود المراكبي يقول: "لقد علمتنا دراسة تاريخ الحضارات أنها تمر بموجات تبدأ وليدة، ثم يشتد عودها وتزداد قوتها وأثرها رويدًا رويدًا، حتى ترتقي تلك الحضارة قمة الرقي، وتظل فوقها سنوات، أو قرون على قدر استقرارها وقوتها، ثم تفارق القمة وتهبط إلى القاع، فهل تعاود الحضارات الصعود مرة أخرى، أو تستقر في قاع التاريخ؟

والجواب: إن معظم الحضارات التي هبطت بعد الصعود غالبًا ما ذهبت ريحها، ولم تقم لها قائمة، فحضارة الفراعنة بلغت أَوْجًا، وتربعت على القمة قرونًا، وحين استشرى فيها الظلم والجبروت هَوَتْ وامتَطَتْ سُلَّم الانهيار، وتلك السنة مستمرة وتكررت مع الفرس والرومان، كما هوت الإمبراطوريات الإسبانية والبرتغالية والإنجليزية والفرنسية، وها هي الولايات المتحدة تتربع على قمة العالم. ولقد تنبأ العديد من المفكرين بانهيار الحضارة الأمريكية، لدرجة أن رجل حلف الناتو الأول د. مراد هوفمان ألف كتابًا أسماه: "الإسلام في الألفية الثالثة - ديانة في صعود": تأمل فيه ما تُخَبِّئُه الأيام للحضارة الأمريكية، وتوصل

1. عسَّ يَعُسُّ عَسَسًا وعَسًّا: أي طاف بالليل يحرس الناسَ ويكشف أهل الرِّيبَة.
2. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مرجع سابق، ص١٩٧ : ١٩٩.
3. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٤٦٥.

إلى أن الإسلام سيعود إلى مكانه الطبيعي ليقود الإنسانية، وذلك في الألفية الثالثة، بمشيئة الله تبارك وتعالى.

ونحن نرى رؤية البصر والبصيرة المدعومة بالقرائن والنصوص القرآنية والهدي النبوي - أنه على الرغم من أن الأمة تمر بأصعب أيام حياتها منذ بُعِثَ النبي ﷺ؛ فأمتنا اليوم تتحرك بأقدام متثاقلة، وبخطًى مُكَبَّلة، وتردٍّ في ظلام دامس، وأعداؤنا يتربصون بنا من كل صوب وحدب، ولهم طابور خامس يَحْيا بيننا، ويتكلم بلساننا، يرتدون ثياب العلمانية تارة وعباءة الثقافة تارة أخرى، ورغم كل ذلك فإنني أؤكد على حقيقة لا مراء فيها، وهي أن أمتنا لم تَمُتْ، وما أظنها تموت وفيها من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

والحقيقة التي لا مِرْيَة فيها أن كثرة الخبث يعادلها ثقل الإيمان في قلوب أعداد يسيرة، وكما قَلَّتْ أعدادهم تضاعف نور الإيمان في أعينهم وبصائرهم، وأزيد على ذلك زاعمًا أن الأمة بدأت في رحلة الصعود بعد أن وصلنا إلى قاع الانحدار، وبراهيني على ذلك متعددة أسوقها في نسق واحد، من مثل: أن الشعوب الإسلامية قد ضاقت بمناهج الإصلاح البشرية شرقية كانت أم غربية.

وأن هذه الشعوب قد تيقنت من حقيقة عدوها اللَّدُود الحقود، وأن رد الفعل المقابل يتمثل في صحوة إسلامية حقيقية وليست وهمية، صارت أقوى من محاولات تحطيمها، وقد تجلى ذلك في مظاهر عديدة منها:

١. بزوغ فجر الاقتصاد الإسلامي:

ظهرت خلال العقود السابقة ظاهرة البنوك الإسلامية، ونزلت تمارس مهامها على أرض الواقع، وقامت بتأصيل العديد من الدراسات عن المقابل الإسلامي للتعاملات الاقتصادية، وبدأت حصتها في التعامل تزداد، وتطبيقاتها تتكاثر، ورغم أن بعض الأنظمة العربية حاربت ظاهرة المشاركة وما يعرف بشركات الأموال الإسلامية، فانْقَضَّتْ عليها مُضَيِّعَةً على المسلمين ملايين الجنيهات، إلا أنها كانت تجربة مفيدة، وكادت تَبْنِي صناعات إسلامية لولا ضربات الإجهاض، وأعتقد أنها ستعود مرة أخرى إذا تغير المناخ العام.

٢. بزوغ فجر الإعلام الإسلامي:

تنبَّه المسلمون إلى أهمية الإعلام الإسلامي ومازالت مبادرات فردية، منها ما يقصد به الربح، ولا حرج عليهم في استثمارهم أموالهم فيما ينفع العباد ويصلح البلاد، ومنهم من يعتبرها رسالة لا دخل لمال فيها. والسبب الحقيقي الذي دفعنا إلى الدعوة إلى الإعلام الإسلامي هو طغيان الإعلام الغربي وأدواته التي يستخدمها، فهل آن للناس أن تلغي عشرات القنوات التي تبث طوال ساعات النهار وأغلب ساعات الليل، ونركز على القنوات الإعلامية الإسلامية التي ينبغي أن تتاح لها ميزانيات كبرى للتصدي لمحاولات تشويه ديننا هنا أو هناك"[1]؟

كل هذه الشواهد تدل على أن هذه العَقَبَة ما تزال - إلى حد كبير - حية في النفوس وعلى أرض الواقع، رغم أماني الشانئين القائلين بأن هذا الدين صار أثرًا بعد عين.

---

١. الحلول الإسلامية بين الشعار والتطبيق، محمود المراكبي، طبعة خاصة، ص١٧ وما بعدها.

الخلاصة:

• انسجم التطبيق البشري للإسلام على وجه الأرض مع تعاليم السماء منذ زمن النبوة والخلفاء الراشدين، فقدم المسلمون أُنموذجًا حضاريًّا مثاليًّا لتأثير رسالة سماوية توحيدية صحيحة في حياة معتنقيها أفرادًا أو جماعات. ثم تباعدت النخبة السياسية الحاكمة في عصور لاحقة عن الالتزام بتعاليم دينها، خصوصًا في مجال الشورى والعدل، وهذا أثّر سلبيًّا في صورة تاريخ الأمة في الأذهان. لكن الأمة التزمت شرع دينها، بشكل أو بآخر، ولم ترتد عنه كلية.

• عَرْض تاريخ الأمة الإسلامية يشوبه عدم التوازن في أحيان كثيرة؛ إذ تُغْفَل كثير من المحامد والإيجابيات لحساب المفاسد والسلبيات. ونحن في حاجة إلى قراءة شاملة مستوعبة لتاريخ أمتنا الإسلامية يُبْرِزُ محاسنها ومآثرها التي دفنتها يد الإهمال والتشويه.

• العداء التاريخي المستحكم من قِبَلِ الآخرين تجاه المسلمين - الذي تمثل في الصراع العسكري والسياسي وحتى الثقافي عبر التاريخ - أَثَّرَ في مسيرة تاريخ المسلمين ودورهم، واستنفد كثيرًا من طاقاتهم. وقد كان المسلمون أهل تسامح وعفو مع أعداء لم يعرفوا قطُّ للتسامح والعفو معنى، ولهذا ظُلم المسلمون كثيرًا، وحجبوا عن أداء رسالتهم العالمية .

• الإسلام على طول مسيرته قد أنجز كثيرًا من الإنجازات في مختلف الميادين، نظرية وعملية، وعلى المستويين الإنساني والحضاري، بما لا يدانيه قط الديانتان السماويتان السابقتان عليه. ورغم كل المثَبِّطَات، فإن تأثير هذا الدين ما يزال فاعلًا في النفوس والسلوك، والشواهد والإرهاصات مُنبئِة بأن المستقبل له.

الشبهة السادسة عشرة

ادعاء أن الإسلام ضد التقدم والمدنية(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المُغالِطين أن الإسلام ضد التقدم والمدنية، وأنه يقف في طريق التقدم الفكري والحضاري، ويَدَّعون أنه تقليد مُشَوَّه لحضارة اليونان والرومان التي أخذها العرب من الكتب السُّرْيانية التي بين أيديهم، وأن المسلمين لا قدرة لهم على البحث والتفكير والإبداع؛ فلذلك لم يتقنوا من العلوم إلا التي لا تحتاج إلى عناء في البحث والتفكير، ويرمون من وراء ذلك إلى اتهام الإسلام بالبعد عن ركب الحضارة العالمي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإسلام ليس تقليدًا مُشوَّهًا لحضارة اليونان والرومان، بل إن للإسلام مجموعة من المبادئ والأسس التي تُمَيِّزُ حضارته عن غيرها من الحضارات، كما أنه من الطبيعي أن تعتمد بعض الحضارات البشرية على

(*) قضايا إسلامية، محمد رجب البيومي، الوفاء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٤م. معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية الحديثة، عبد الله ناصح علوان، مرجع سابق. الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت محمد عليَّان، مرجع سابق، حقيقة الإسلام في عالم متغير، أبحاث ووقائع المؤتمر السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق.

بعض، لكي يظل طريق التقدم موصولًا بلا انقطاع.

٢) برع المسلمون في العديد من مجالات العلم التجريبي على وجه الخصوص، بل تُنْسَب إليهم مجموعة من المخترعات التي بَهَرَت العالم، وهذا ما شهدت به العديد من آيات القرآن الكريم.

٣) شهد العديد من علماء الغرب المنصفين للحضارة الإسلامية بالسبق في الكثير من المجالات العملية، وليس أدل على أفضلية الحضارة الإسلامية من شهادة غير المسلمين لها، بما يدحض مقولة أن مرجعيتها الإسلامية تقف تعاليمها في وجه التقدم والمدنية.

التفصيل:

أولا. للإسلام مجموعة من المبادئ والأسس التي تميزه عن غيره من الحضارات:

من الثابت أن لكل حضارة في العالم جسمًا وروحًا كالإنسان تمامًا، وجسم الحضارة يتمثل في منجزاتها المادية في وجوه الإعمار واستحداث الآلات والمخترعات، وكل ما يُنْبِئ عن رفاهية العيش ومتاع الحياة الدنيا وزينتها، أما روح الحضارة فهي مجموعة العقائد والمفاهيم والآداب والتقاليد التي تتجسد في سلوك الأفراد والجماعات، وعلاقات بعضهم ببعض، ونظرتهم إلى الدين والحياة، والكون والإنسان، والفرد والمجتمع، ومن تلك العناصر تتشكل خصائص الحضارة الإسلامية.

ويحدد د. عبد العزيز بن عثمان التويجري مجموعة من الخصائص التي تميز الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات الأخرى، وهي:

١. **أنها حضارة إيمانية**: فهي نابعة من العقيدة الإسلامية، فاستوعبت مضامينها وتشربت مبادئها، وهي حضارة توحيدية انطلقت من الإيمان بالله، خالق الإنسان والمخلوقات جميعًا، فهي حضارة من صنع البشر، لكنها ذات منطلقات إيمانية ومرجعية دينية، وكان الدين من أقوى الدوافع إلى قيامها وازدهارها.

٢. **أنها حضارة إنسانية المبدأ وعالمية الآفاق**: فهي لا ترتبط بإقليم جغرافي، ولا بجنس بشري، ولا بمرحلة تاريخية، بل إنها تحتوي جميع الشعوب والأمم، فهي حضارة يستظل بظلالها البشر جميعًا في كل أرجاء الأرض، ويجني ثمارها كل من يصل إليه عطاؤها، فالإنسان هو أهم مخلوقات الله تعالى، وجميع الأنشطة لا بد أن تؤدي إلى سعادته ورفاهيته.

٣. **أنها حضارة مِعْطاءة**: أخذت من الحضارات والثقافات السابقة عليها، وأعطت عطاءً زاخرًا في كافة ميادين الحياة، وكان عطاؤها لفائدة الإنسانية جميعًا، فلا فرق بين عربي وأعجمي، أو أبيض وأسود، أو مسلم وغير مسلم، فالكل سواء.

٤. **أنها حضارة متوازنة**: فهي تُوازِنُ بين الجانب الروحي والجانب الجسدي المادي، فلا تفريط ولا إفراط في جانب على حساب الجانب الآخر، وإنما هو اعتدالٌ يُرْسِي قاعدة للعدالة التي تقام في ظلها موازين القسط.

٥. **أنها حضارة باقية ببقاء الإنسان على وجه الأرض**: فهي تستمد بقاءها من بقاء الإسلام الذي قامت على أساس مبادئه، وقد تكفل الله عز وجل بحفظ الدين الحنيف، فهذه الحضارة لا تشيخ - كما يدعي هؤلاء - لأنها ليست حضارة قومية ولا عنصرية،

ولا هي ضد الفطرة السليمة للبشر، وهي بذلك حضارة دائمة الإشعاع، تتعاقب أطوارها وتتجدد دوراتها.

هذه هي أهم الخصائص التي تَفْصِلُ الحضارة الإسلامية عن غيرها من حضارات العالم السابقة عليها، أو التالية لها، وتلك الخصائص تكسب الحضارة الإسلامية الديمومة والبقاء.

وفي الجانب الآخر نجد أن الحضارة الغربية لها مجموعة من الخصائص التي تَفْصِلُهَا عن حضارة الإسلام فصلًا تامًّا، وهي:

١. **عدم وضوح الجانب الإلهي**: فليست الرؤية الفكرية للحضارة الغربية رؤية صافية، تقدر الله ﷻ حق قدره، بل إنها رؤية مضطربة.

٢. **النزعة المادية**: فهذه الحضارة تؤمن بالمادة فقط لتفسير الكون والمعرفة والسلوك، وتنكر الغيبيات وما وراء الحس.

٣. **النزعة العلمانية**: وهي ثمار الخاصيتين السابقتين، وهي تلك النزعة التي تفصل بين الدين والحياة الاجتماعية.

٤. **الصراع**: فهي حضارة تقوم على الصراع، ولا تعرف السلام ولا الطمأنينة ولا الحب، إنه صراع بين الإنسان ونفسه، وصراع بين الإنسان والطبيعة، وصراع بين الإنسان والإنسان، وصراع بين الإنسان وربه.

٥. **الاستعلاء على الآخرين**: وهي نزعة تتحكم في عقول الغربيين كافة، فهم يزعمون أنهم أفضل من غيرهم، وأن الحضارة الغربية هي الحضارة الإنسانية ولا يعترفون بحضارة سواها.

هذه هي أهم خصائص الحضارة الغربية ـ ومنها حضارة اليونان والرومان ـ في القديم والحديث، فأين تشويه الإسلام لحضارة اليونان والرومان، الذي يدَّعيه هؤلاء؟! غير أنه من الإنصاف ألا نغفل الجوانب الإيجابية في الحضارة الغربية، ومن أهم هذه الجوانب أنها حضارة لا تقف جامدة، بل تنتقل من طور إلى طور، ومن حالة إلى أخرى، مما أعطى الإنسان قدرة على الابتكار والإبداع، وصنعت المناخ النفسي والعقلي الذي يشجع الإنسان على المضي قدمًا في سبيل التطور[1].

غير أنه يجب التأكيد على حقيقة لا شك فيها وهي: أنه لا توجد حضارة من حضارات العالم بدأت من الصفر، بحيث يمكن أن تعتبر البداية الأولى للحضارات التي تليها في الظهور، كما يدعي بعض مؤرخي الفكر الإنساني، وهذا غير صحيح، فأين الحضارة المصرية والحضارة الصينية وغيرهما من الحضارات القديمة، ومن الطبيعي أن هذه الحضارات اعتمدت على حضارات أخرى سابقة عليها، فالحضارات ـ تبعًا لهذا التصور ـ ذات طبيعة تكاملية لا تصادمية، ترتبط كل منها بغيرها مرة متأثرة وأخرى مؤثرة[2].

وبناءً على هذا، فقد استفاد المسلمون من تراث اليونانيين والرومانيين، ولا يوجد أي عيب في ذلك،

١. خصائص الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارات الأخرى وآفاق المستقبل، مقال د. عبد العزيز بن عثمان التويجري ، مرجع سابق، ص٩٧٦: ٩٨٢ بتصرف.

٢. صلة التأثير والتأثر بين الحضارة الإسلامية وغيرها، مقال د. السيد محمد الشاهد، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق، ص٦٤٣، ٦٤٤ بتصرف.

فلو لم يحدث هذا التأثير والتأثر بين الحضارات لبدأت كل حضارة من الصفر، ولم يحدث أي تطور في الحضارات، ولظلت البشرية على حالة واحدة لا تتخطاها إلى حالة أخرى، والذي يفصل بين الحضارات المختلفة هو ما تختص به كل حضارة من خصائص تميزها عن غيرها.

ثانيًا. تقدم المسلمين في العديد من مجالات العلم التجريبي:

لقد برع المسلمون في كافة العلوم، سواء أكانت علومًا نظرية كالفلسفة والمنطق والكلام، أم علومًا تجريبية كالطب والكيمياء والفلك، وليس صحيحًا ما يدعيه بعض المغرضين من أن المسلمين لم يبدعوا أي علم من العلوم التجريبية، وأن جهدهم اقتصر على البحث في العلوم النظرية فقط، فهذه النظرة تصف حال المسلمين في الوقت الحالي، وتُغْفِل ما كان عليه المسلمون في عصور ازدهارهم العلمي، وسبب الحالة التي يعيشها المسلمون اليوم من تخلف علمي هو البعد عن الدين، وتقليد كل ما هو غربي دون تفكير في عواقبه.

ومن يطالع آيات القرآن الكريم يجد فيها العديد من الحقائق العلمية التجريبية التي لم يعرفها العالم - وخاصة العالم الغربي - إلا بعد نزول القرآن بعشرات السنين، ومن هذه الحقائق ما يأتي:

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ (الرعد:٣)، يرى العلم الحديث أن أزهار النباتات تنقسم من حيث الجنس إلى ثلاثة أقسام:

- أزهار مذكرة.
- أزهار مؤنثة.
- أزهار تجمع بين التذكير والتأنيث.

فالنخيل مثلًا فيه نوع مذكر وآخر مؤنث. أما حبة الفول فهي تجمع في زهرتها بين عضوي التذكير والتأنيث، وهذه الحقيقة كان القرآن سابقًا إلى بيانها غيره.

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (الحجر)، التلقيح في النبات عبارة عن نقل حبوب اللقاح من عضو التذكير إلى عضو التأنيث في النبات أو في نبات آخر من النوع ذاته، ويعتبر الهواء أهم عوامل التلقيح؛ إذ قد كشف العلم أنه يُلَقِّحُ أهم النباتات البرية، كما يُلَقِّحُ كثيرًا من النباتات المائية، وهذا هو السر الذي من أجله خصّه القرآن الكريم بالذكر دون غيره من العوامل.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (الأنعام:١٢٥)، وفي هذه الآية إشارة إلى ما قرره العلماء من أن الذي يرتفع عن سطح الأرض يَقِلّ الضغط الجوي الذي يحيط بجسمه، ويضيق صدره كأنه سيختنق، وهذا ما يجعل رواد الفضاء يحتاطون لذلك، فيضعون كمامات الأوكسجين على أنوفهم ليستنشقوه أثناء طيرانهم[1].

كل هذه الآيات - وغيرها كثير - يدل دلالة واضحة على مدى اهتمام الإسلام ببيان أسرار الكون العلمية، هذه الآثار التي لم يتوصل إليها علماء الغرب إلا في العصر الحديث رغم وجودها في القرآن منذ أكثر من

١. الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت محمد عليّان، مرجع سابق، ص١٧٦ : ١٧٩ بتصرف.

أربعة عشر قرنًا.

وإذا تركنا الآيات القرآنية التي تحدثت عن خفايا العلم التجريبي، ونظرنا إلى واقع المسلمين العلمي في عصور النهضة، نجد العديد من الأدلة العلمية التي ترد على من يدعي عدم قدرة المسلمين على الإبداع والتفكير. فمن الثابت أن المسلمين أحدثوا طفرة كبيرة في مجالات علمية متعددة منها: الطب، والفلك، والكيمياء، والفيزياء، والهندسة، وغيرها من العلوم، كل ذلك حدث في المدة التي كانت فيها أوربا تعيش في ظلام دامس، وهي المدة التي أطلق عليها اسم "العصور الوسطى".

ونذكر فيما يلي بعض المجالات العلمية التي أحدث فيها المسلمون تطورًا عظيمًا:

١. الطب:

برع العديد من علماء المسلمين في مجال الطب، ووصف الأمراض وعلاجاتها، ومن أشهر علماء المسلمين في هذا المجال:

- **أبو بكر الرازي**: الذي أجمع المستشرقون على أنه من أعظم علماء الطب المسلمين، فهو أول من ابتكر الخيوط الجراحية، وأول من عمل مراهم الزئبق، وأول من تحدث في أمراض الأطفال، وكان واسع الاطلاع في علم التشريح[١]، وله العديد من المؤلفات الطبية منها: "الحاوي" و "رسالة في الجدري والحصبة"، و "الكتاب المنصوري" و "الأسرار" وغيرها، وَتُرْجِمَتْ العديد من مؤلفاته إلى اللغات الأجنبية[٢].

- **ابن سينا**: وهو من أشهر أطباء المسلمين إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق، أَثَّرَتْ كتبه الطبية في أوربا تأثيرًا كبيرًا استمر لعدة قرون، وَتُرْجِمَتْ كتبه إلى العديد من اللغات الأجنبية، ومن أشهر كتبه ـ كتاب "القانون" الذي يحتوي على مجموعة من العلوم الطبية منها: علم وظائف الأعضاء، علم الصحة، علم الأمراض، علم المعالجة... إلخ، وكان هذا الكتاب هو المرجع الطبي الأول لجامعات أوربا لعدة قرون[٣].

٢. الرياضيات:

استفاد المسلمون من معارف الحضارات السابقة عليهم في مجال الرياضيات، إلا أنهم أضافوا إليها العديد من النظريات والتغييرات النافعة، وكان للعرب الفضل في اختراع الصفر الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في حل العديد من المسائل الرياضية المعقدة، ومن أشهر علماء الرياضيات العرب:

- **الخوارزمي**: الذي برع في الجبر، وهو من أول من أَلَّفَ في هذا العلم بصورة علمية منظمة، واعتمد عليه علماء أوربا بشكل كبير، وانتشرت نظرياته انتشارًا واسعًا، ويمكن أن يُقَال: إن الخوارزمي هو واضع علم الجبر وعلم الحساب.

- ويلي الخوارزمي في الشهرة عمر الخيام، الذي طَوَّر علم الجبر بعد الخوارزمي تطويرًا واضحًا، فلم يقتصر على المعادلات الرباعية، بل جاوزها إلى المعادلات التكعيبية، ولا يَقِلُّ نصير الدين الطوسي من بعد والكندي من قبل عن الخوارزمي والخيام شهرة في

---

١. المرجع السابق، ص١٨٥.

٢. معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية، عبد الله ناصح علوان، مرجع سابق، ص٧٥.

٣. الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت محمد عُلَيَّان، مرجع سابق، ص١٨٦.

مجال الرياضيات[1].

٣. **الكيمياء:**

لقد أسهم علماء الإسلام في علم الكيمياء إسهامًا فعالًا، فإليهم يرجع الفضل في اكتشاف العديد من الأسس الكيميائية، ومن أهمها "التقطير"، ومما يدل على أثرهم البالغ في هذا العلم هو انتقاله بأسمائه العربية إلى أوربا، وقد اشتهر العديد من العلماء المسلمين في هذا العلم، ومن أشهرهم: **جابر بن حيان** الذي يُعَدُّ مؤسس علم الكيمياء في التراث الإسلامي، فعمليات مثل: التبخر، والترشيح، والتصعيد، والتذويب، والتقطير، والتبلور، والتكليس، والتحويل، ومواد مثل: ملح البارود، وسلفيد الزئبق، وأوكسيد الزرنيخ، والماء الملكي، والزاج النقي، والألوم وغيرها من المواد، كل ذلك ينسب لابن حيان، الذي تُرْجِمَتْ كتبه إلى العديد من اللغات؛ لأن كتبه تعد موسوعة علمية جمعت خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره[2].

وما يُقَال في علم الطب والرياضيات والكيمياء يقال في بقية العلوم التجريبية الأخرى، التي لا يتسع المجال لحصر منجزات المسلمين فيها، هذا فضلًا عن العلوم النظرية التي تمكن منها المسلمون تمكنًا يشهد لهم به كثير من الباحثين الغربيين المنصفين.

أَبَعْدَ هذا الإنجاز والتقدم، والدور الفعَّال الذي قام به المسلمون في العلوم التجريبية، يقال: إن المسلمين لا قدرة لهم على البحث في العلوم التجريبية التي تحتاج إلى مشقة في التفكير وعناء في البحث؟!

ثالثًا. شهد العديد من علماء الغرب المنصفين للحضارة الإسلامية بالسبق في كثير من المجالات العلمية:

لقد قُدِّرَ للحضارة الإسلامية أن تحمل راية العلم في العالم عدة قرون، وأن تَصُونَ تراث الثقافات الأخرى وتضيف إليه ما ليس فيه مما بلغته عقول علمائها، وبذلك تحدد دورها في التاريخ وشهد لها العديد من علماء الغرب بالفضل والسبق، واعترفوا بدورها البارز في النهضة الأوربية الحديثة التي قامت على أكتاف الحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها.

وينقل لنا د. عبد الله ناصح علوان بعض هذه الاعترافات الغربية المنصفة فيقول: لو استقرأنا أقوال من شهد لعظمة الإسلام الحضارية لوجدناها أكثر من أن تحصى، وها نحن أولاء سنقتطف مجموعة من أقوال أولئك العلماء المختصين من الغربيين، ليعرف من يريد أن يعرف أن الفضل كلَّ الفضل هو ما شهد به المنصفون المختصون العالمون، نسوق هذا من قبيل أنه لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه، ومن أجل أناس لا يؤمنون بالفكرة إلا إذا هبت ريحها من الغرب.

ومن بين هذه الشهادات ما يأتي:

- يقول دويبر في كتابه "المنازعة بين العلم والدين": ولما آلت الخلافة إلى المأمون سنة ٨١٣م، صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الأرض، فجمع الخليفة إليها كتبًا لا تُحْصَى، وقَرَّبَ إليه العلماء وبالغ في الحفاوة بهم.
- وبعد أن عَدَّد مآثر المسلمين في العلوم الطبيعية قال: فإنهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدًّا، وأوجدوا علومًا جديدة لم تكن معروفة قبلهم... إن

---

١. المرجع السابق، ص١٨٨: ١٩١ بتصرف.
٢. المرجع السابق، ص١٩٧ بتصرف.

جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين، الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم، وكان ملوك أوربا وأمراؤها يَفِدُون إلى بلاد المسلمين ليُعَالَجوا فيها".

- وقال غوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب": "ولا نرى في التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب، فجميع الأمم التي كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ولو حينًا من الزمن".
- وقال أيضًا: "ولم يتجلَّ تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها، بل كان لهم الأثر البالغ في ثقافتهم العلمية أيضًا".
- وقال سيديلوت في كتابه "تاريخ العرب": "كان المسلمون في القرون الوسطى مُتَفَرِّدِين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلَّت أقدامهم، وتسربت عنهم إلى أوربا، فكانوا سببًا لنهضتها وارتقائها".
- وقال لين بول في كتابه "العرب في إسبانيا": "فكانت أوربا الأمية تزخر بالجهل والحرمان، بينما كانت الأندلس تحمل إمامة العلم وراية الثقافة في العالم".
- ويقول بريفولت في كتابه "تكوين الإنسانية: "العلم هو أعظم ما قدمت الحضارة العربية إلى العالم الحديث، ومع أنه لا توجد ناحية واحدة من نواحي النموّ الأوربي إلا ويلحظ فيها أثر الثقافة الإسلامية النافذة، فإن أعظم أثر وأخطره هو ذلك الذي أوجد القوة التي تؤلف العامل البارز الدائم في العالم الحديث والمصدر الأعلى لانتصاره، أعني العلم الطبيعي والروح العلمية، وهذه الحقائق مُؤَدَّاهَا أن الإسلام دين بناء حضاري"[1].

وشهادات العلماء الغربيين المنصفين في هذا المجال أكثر بكثير مما ذكرناه، ويكفي ما سبق للتدليل على ما ذهبنا إليه من أن الحضارة الإسلامية حضارة تدعو إلى العلم والتقدم، وأنها حضارة مدنية®.

الخلاصة:

- لم تكن الحضارة الإسلامية تقليدًا لحضارة اليونان أو الرومان أو غيرهم، لا لأن الإسلام الذي أُسِّست على مبادئه لا يشبه الأصول الفكرية التي قامت عليها الحضارات السابقة فحسب، بل فوق ذلك أن من الممتنع - في نظر العقل وفي واقع التاريخ - أن تجيء حضارة ما طبقًا لحضارة سابقة أو لاحقة، بل يتعين أن تمتاز بجملة من الخصائص والسمات لا تتهيأ لغيرها.
- أسهم العلماء المسلمون إسهامًا لافتًا في جميع العلوم التجريبية التي نقلت إليهم عن الأمم السابقة، فأضافوا إليها وصَوَّبُوا ما بها من أخطاء، كما استحدثوا علومًا برأسها لم تكن معروفة قبلهم، ومن الحق أن هذه الجهود هي أمر واقع يكفي أن نشير إليه وَنُجْلِيه لنكون قد فعلنا كل شيء في رَدِّ هذا الادِّعاء الذي ينكر أمرًا واقعًا في تاريخ العلم بزعم مجرد.
- شهد العديد من علماء الغرب المنصفين بأسبقية المسلمين في المجالات العلمية المختلفة، وخاصة في جانب العلوم التجريبية، وأكدوا أن الحضارة الإسلامية

---

١. معالم الحضارة الإسلامية وأثرها في النهضة الأوربية، د. عبد الله ناصح علوان، مرجع سابق، ص١٠٥: ١٠٧ بتصرف.

® في **"شهادات الغربيين على فضل الحضارة الإسلامية"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة، من هذا الجزء.

في عصور ازدهارها كانت هي العامل الأول في الازدهار الحضاري الذي شهده الغرب في العصر الحديث، فلولا الإسلام لتأخر هذا التقدم العلمي الغربي عدة قرون.

الشبهة السابعة عشرة

ادعاء أن الدين لا علاقة له بالفن(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن الدين الإسلامي لا علاقة له بالفن، وأن الدين ـ بناء على هذا ـ لا تؤثر فيه الصور شبه العارية، ولا الأغاني الهابطة، ولا خوف عليه من الأطباق الهوائية ـ الدش ـ التي تنقل العُري والشذوذ ليل نهار، فكل هذه الأمور بسيطة في نظر هؤلاء ولا تتهدد مسيرة الإسلام، ويستدلون على ذلك بأن مثل هذه المشاهد موجودة في تراث المسلمين الحافل بالكتابات والقصائد التي تتحدث عن الخلاعة والمجون، ككتاب "ألف ليلة وليلة" و "الأغاني" و "طوق الحمامة"، ويهدفون من وراء ذلك إلى ضرورة الفصل بين الدين والفن.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يطرأ ما يغير هذا الحكم، فهذا مبدأ إسلامي أصيل، والفن ـ كغيره من المعارف ـ مهارة من المهارات التي تنطبق عليها هذه القاعدة، فإن كان موافقًا للأخلاق فهو مباح، وإن خالفها فهو محرم، وهذا ما تشهد به الفطرة والعقل، والقرآن والسنة وسيرة الصحابة؛ ولذا فإن في الإسلام فنًّا رفيعًا ذا طابع خاص وواضح مباين لمفهوم الفن في الحضارت الأخرى.

٢) هناك فرق شاسع بين الفساد الذي يخلع عليه أصحابه صفة الفن، وينزلونه منزلة الفن الأخلاقي، وبين الفن الصحيح الذي يهدف إلى تهذيب الأخلاق وتوسيع الحياة الشعورية لدى الإنسان.

التفصيل:

أولا. الفن ـ كأي لون من ألوان النشاط الإنساني ـ حلاله حلال وحرامه حرام، وهو في الإسلام ذو طابع خاص واضح:

الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يطرأ ما يقيد هذا الأصل، ولن يُشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، والفن بأنواعه ـ كأي لون من ألوان النشاط الإنساني ـ حلاله حلال وحرامه حرام.

وهذا ما يرصده د. محمد عمارة؛ إذ كتب تحت عنوان "المسلم والجمال" يقول: "من الناس من يحسب أن هناك خصومة بين الإسلام وبين الجمال، تدعو المسلمين إلى التَّجهم في النظر إلى الحياة، وإدارة الظهر إلى ما في الكون من آيات البهجة والزينة والجمال، يحسبون ذلك فيقولونه، أو يعبرون عنه بالسلوك المتجهم إزاء آيات الجمال والفنون والإبداعات الجمالية في هذه الحياة.

ولو كان هذا المسلك الخشن والغليظ والمتجهم أثرًا من آثار المِحَن التي يُمْتَحن بها المسلمون في مرحلة

(*) المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، د. فهمي هويدي، مرجع سابق. ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق.

الاستضعاف التي يعيشونها، ورد فعل للتحديات المعادية التي تَفْرِض الْهَمَّ والحزن على الوجدان الإسلامي المرهف، أو مظهر الغضبة لحرمات الإسلام المنتهكة، لكان ذلك مسوغًا ومفهومًا.

لكن أن يكون هذا التجهم - في نظر هذا الفريق من الإسلاميين - هو مما يقتضيه المنهج الإسلامي في الحياة، فذلك هو الذي يدعو إلى استجلاء منظومة المنهج الإسلامي ومفهومه إزاء جماليات الحياة.

وجدير بالتنبيه أن هؤلاء الذين يحسبون قيام علاقة التلازم بين التجهم ومخاصمة الأحاسيس الجمالية وبين منهج الإسلام، منهم الإسلاميون الذين يحسبون أن هذا هو الموقف الحق للإسلام الصحيح في هذا الموضوع، ومنهم الخصوم الذين يتخذون من مَسْلَكِ الغِلْظة لبعض الإسلاميين تجاه جماليات الحياة سبيلًا للطعن في الإسلام.

فالقضية - إذن - أكبر من أن تكون خيارًا خشنًا لبعض الإسلاميين هم أحرار في سلوكهم، وإنما هي قد نمَّت واحدة من المطاعن التي يحاول نفر من خصوم المنهج الإسلامي استخدامها - ضمن مطاعن أخرى - لتشويه صورة منهج الإسلام في الفكر والحياة. الأمر الذي يكسب الحديث عن هذه القضية أهمية، ويجعل له مكانه الطبعي في سياق الحديث عن معالم منهج الإسلام"[1].

وفي محاضرة له - د. محمد عمارة - عن الإسلام والفنون الجميلة، قال كلامًا مُؤَدَّاه:

نحن ندرك أن المنهاج الإسلامي يجعل كل عمل الإنسان لونًا من العبادة لله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ (الأنعام)، لكن فقهاءنا وعلماءنا اصطلحوا على تقسيم الشريعة إلى عبادات ومعاملات، وهذا التقسيم مهم عندما ننظر في قضية الفنون الجميلة؛ لأن الأصل في العبادات أن تكون مما جاء به الشرع، فالعبادات توقيفية نقف فيها عند ما جاء به الشرع، لكن المعاملات تتميز بأن الأصل فيها ألا تخالف ما جاء به الشرع، حتى لو لم يأت بها الشرع، هذه قضية محسومة في منهاج النظر الإسلامي، وتحدث عنها كثير من علماء الإسلام عندما تحدثوا عن السياسة، فقالوا: إن السياسة هي التدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، حتى ولو لم ينزل بها وحي، أو ينطق بها رسول، إذن نحن أمام المعاملات، أمام الأمور الحياتية التي لا تدخل في العبادات التوقيفية، لا نبحث عن الحِلِّ والحُرْمَة انطلاقًا من مجيئها في الشرع، وإنما انطلاقًا من مصادمتها للشرع، أو عدم مصادمتها للشرع، هذه قضية أساسية في منهاج النظر إلى قضية الفنون الجميلة، فأنا لا أقول إنها مباحة؛ لأن الشرع جاء بها، وإنما تكون مباحة إذا لم تصادم وتخالف ما جاء به الشرع.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، ما هو الفن؟!

الفن في كلمات موجزة: هو مهارة من المهارات - أي مهارة من المهارات - بصرف النظر عما إذا كانت هذه المهارة جيدة أو غير جيدة، أخلاقية أو غير أخلاقية، المهم إذا كانت هناك مهارة من المهارات تُسَمَّى فنًّا.

الفن - إذن - مهارة، لكن ليست أية مهارة تُسَمَّى فنًّا، وإنما الفن مهارة يحكمها الذوق الجميل والمواهب

---

1. الإسلام والفنون الجميلة، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م، ص١٣، ١٤.

الرشيدة، وهي مهارة تعبر تعبيرًا خارجيًّا عما في نفس الإنسان، فالفن باختصار شديد: هو محاولة الإنسان استشعار ما في هذا الكون من الجمال، وإذا كان الله ﷻ هو خالق هذا الجمال في هذا الكون، فلن يستطيع الإنسان المسلم أن يشكر نعمة الجمال التي أنعم بها الله عليه إلا إذا تعامل مع هذا الجمال، فالذين يقفون موقفًا متجهِّمًا بين الإسلام والفنون، هؤلاء يغلقون قنوات استشعار ما في الكون من الجمال، ومن ثم لا يستطيعون - حتى لو أرادوا - أن يشكروا نعمة الله على هذا الجمال.

إن المجنون عاجز عن أن يشكر الله على نعمة العقل؛ لأنه إذا لم يمارس العقل والعقلانية، ويعرف نعمة العقل لا يستطيع أن يدرك قدر هذه النعمة حتى يشكر الله ﷻ عليها، فالذين يديرون ظهورهم لما في الكون من آيات الجمال، لا يستطيعون أن يقرروا نعمة الله ﷻ التي أنعم بها في هذا الجمال الذي خلقه الله وأفاضه في هذا الكون، إذن الحديث عن موقف الإسلام من الفنون، يتطلب منا أن ندخل من هذا المدخل المنطقي، وهو مدخل ديني في الوقت نفسه.

إذا انتقلنا من هذا المنطق الفطري إلى المنطق القرآني، نجده يتحدث عن الزينة واتخاذها، وأنا أتصور أن كلمة "الزينة" من أرقى الكلمات التي تعبر عن الجمال في اللغة العربية، حتى إنني رأيت بعض محلات ومتاجر المجوهرات تستخدم كلمة الزينة عنوانًا لها.

فالقرآن الكريم يتحدث عن اتخاذ الإنسان الزينة، ليس باعتبارها شيئًا مباحًا، وإنما باعتبارها فريضة، وهذا مستوى أعلى، ويتخذ الإنسان الزينة كفريضة في كل صلاة، فالإنسان يصلي خمس مرات فريضة في اليوم، فلا بد أن يتخذ الزينة سمة لها وسمتًا عند أدائها، وأنتم لو تصورتم الكرة الأرضية وما بين مواقعها من اختلاف في المواقيت تدركون أن المسلمين يقيمون الصلاة، ويعبدون الله ﷻ أبد الدهر؛ كل لحظة من لحظات الليل والنهار هناك مسلمون يقيمون الصلاة ويتوجهون إلى الكعبة، ومعنى هذا أن الإنسان المسلم يقيم الصلاة، ويتخذ الزينة لله ﷻ دائمًا أبدًا آناء الليل وأطراف النهار.

والقرآن الكريم يتحدث عن ضرورة اتخاذ الزينة، والرسول ﷺ في مجتمع بسيط، وكان مجتمعًا فقيرًا، ومع ذلك الرسول ﷺ يُعلم الناس أن يكون للمسلم ثياب لصلاته غير ثياب مهنته، وعندما يتحدث القرآن الكريم عن نعم الله ﷻ على الإنسان في الحياة الدنيا، لا يلفت النظر فقط إلى الجانب النفعي، أو الجانب المادي، أو الجانب الدنيوي الذي يؤدي إلى المقاصد الدنيوية، وإنما يلفت النظر إلى ما في هذه المنافع والنعم من الجماليات، ومن الجانب الجمالي، يقول ﷻ: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ ﴾(النحل)، أي: لا يترك الأمر فقط عند الجانب النفعي والجانب المادي الدنيوي.

فالقرآن كتاب يُعبر عن القضايا الفكرية والعقلية العميقة بالصور، فأنت عندما تقرأ القرآن كأنك ترى لوحات فنية تعبر عن القضايا المجردة، هذا كتاب لا يمكن أن يخاصم الفنون، كتاب يعبر عن معانٍ مجردة بالصور ويعرض فيها لوحات.

إذن هو ينمي الحاسة الفنية عند الذين يتدبرون هذا القرآن ويتفكرونه ويعقلونه، يقول ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦)﴾ (إبراهيم)، وفي الإنفاق يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ (البقرة).

هذا كتاب لا يمكن أن يخاصم الجمال في الكون، وإذا كان هذا هو البلاغ القرآني، فنفس الحال هو حال البيان النبوي للبلاغ القرآني، فرسول الله ﷺ يدعو في دعاء السفر: "يستعيذ بالله من كآبة المنظر"[1]. فيستشعر كل آيات الجمال في الكون، فيستعيذ بالله ﷻ من كآبة المنظر. ويقول ﷺ: "زينوا القرآن بأصواتكم"[2].

والرسول ﷺ عندما تأتي فرقة من الأحباش لتلعب في المسجد يسأل زوجه السيدة عائشة - رضي الله عنها -: هل تريد أن تشاهد؟ فتقول: نعم، فيقف وخدها على كتفه إلى أن ترتوي وتشبع من المشاهدة[3].

فهذا منظر إنساني هو قدوة للعلاقات الإنسانية في بيوتنا ومع زوجاتنا.

وفي الحياة مُلَح وطرائف، والإمام أبو حامد الغزالي جعل كتابًا في موسوعة "إحياء علوم الدين" لنكات ومُلَح وطرائف رسول الله ﷺ؛ لأنه بشر يُوحَى إليه، فإن وَقفْت عند ما يُوحَى إليه فهذا خطأ، وإن وَقَفْتَ عند بَشَرِيَّتِهِ فهذا خطأ أكبر، وهذا هو التكامل في صورة المصطفى ﷺ.

ونحن أحوج ما نكون إلى الفوارق في حياة المؤمن، فَسِرُّ السعادة وَسِرُّ النجاح هو التوازن في الشخصية الإنسانية، ونحن نعيب على الحضارة الغربية أن فيها قسوة الفرعونية، ووفرة القارونية، والخواء الروحي الذي جعلها كما ترون، ونحن لا نريد أن نكون رد فعل؛ فنكون الدراويش والزهاد الذين يديرون ظهورهم لجماليات الحياة الدنيا، وإنما نريد هذا الإنسان الذي يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ولآخرته كأنه يموت غدًا، فارس النهار وراهب الليل، نريد هذا التكامل؛ لأن التوازن هو سر عبقرية الإسلام، وعبقرية الحضارة الإسلامية، والله ﷻ أنزل الكتاب والميزان - أي التوازن في الكون - وبدون التوازن في مكونات جسمك تمرض، فالتوازن بين هذه الطيبات والجماليات وبين الأمور النفعية في الحياة شيء أساسي لا بد أن نحرص عليه[4].

وهذه كانت سنة الخلفاء الراشدين أيضًا: تروي كتب التاريخ أن رجلًا جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له: يا أمير المؤمنين إن لنا إمامًا إذا فرغ من صلاته

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره (٣٣٣٩).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث البراء بن عازب رضي الله عنه (١٨٥٣٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب في حسن الصوت بالقرآن (١٣٤٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٧١).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب المساجد، باب أصحاب الحراب في المسجد (٤٤٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد (٢١٠٥).

٤. الإسلام والفنون الجميلة، د. محمد عمارة، كلية الآداب جامعة السلطان قابوس، ١٩٩٨م.

تغنَّى، فذهب أمير المؤمنين إلى هذا الإمام، وقال له: أتتمجَّن في عبادتك؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، ولكنها عظة أعظ بها نفسي فأغنيها، فقال له عمر ﷺ: قلها، فإن كان كلامًا حسنًا قلته معك، وإن كان كلامًا قبيحًا نهيتك عنه ـ لاحظ تعبير أمير المؤمنين، فإنه لم يقل له: إن كان حسنًا تركتك، بل قال له: قلته معك ـ فقال الإمام القصيدة، وآخر بيت فيها هو:

نَفْسِي لا كُنْتِ وَلا كَانَ الهَوَى

رَاقِبِي المَوْلى، وَخَافي وَارْهَبي

فمضى عمر بن الخطاب مع هذا الرجل إلى المسجد وقال: على هذا فليُغنِّ من غَنَّى، وهذا هو ما قاله الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ: الغناء كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح، فهو نفس كلام عمر بن الخطاب ﷺ، فإذا كان هذا هو موقف الإسلام، فطرة وعقلًا وقرآنًا وسنة وصحابة[1]، فما الخلاصة إذن؟ يقول د. عمارة: "الفن مهارة، لكن، قد تكون هذه المهارة أخلاقية، وقد تكون غير أخلاقية، وأنا لاحظت اتفاق موقف الفيلسوف المسلم ابن سينا مع موقف ناقد روسي توفي عام ١٨٤٨م اسمه "بلينسكي"، اتفقا على أن الشيء لا يكون جميلًا إلا إذا كان أخلاقيًّا، وهذا هو لُبُّ القضية إذا ارتبط الفن بمقاصد أخلاقية في أي مجتمع من المجتمعات، فهذا يرضى عنه الإسلام وتباركه الشريعة الإسلامية.

أما إذا تحول الفن كما هو حادث في بعض المجتمعات إلى ألوان من الخنا والفسق والفجور، وإفساد الفطر السوية، وتحويل الإنسان إلى حيوان وقطع الصلات بين هذا الإنسان والروحانية والمثل العليا، لا يمكن أن يكون هذا فنًّا جميلًا؛ لأنه لا يمكن أن يكون أخلاقيًّا، وحتى نجيب على سؤال مثل: أي الفنون نريد في الواقع العربي والمسلم الذي نعيشه؟ لأنه إذا كان هناك مجتمع لا تهدده مخاطر ولا تحيط به تحديات، سواء كانت هذه التحديات داخلية أو تحديات خارجية، فإني أتصور أن المجتمع المترف الآمن يتحمل من ألوان الترف ما لا تتحمله المجتمعات التي تحيط بها التحديات والمشكلات.

ومن هنا إذا تساءلنا: أية ألوان من الفنون نريد؟ فلا بد كي نجيب أن نسأل سؤالًا آخر: أي إنسان نريد؟ .

في واقع كالواقع الإسلامي الذي نعيش فيه، وأمام المخاطر التي نشهدها ونلمسها، بل تقتحم علينا ديارنا، فإن الذين يبشرون بخمريات أبي نواس أو غزل وتغزل أبي نواس في الشذوذ وفي الغلمان، ويقولون أحيانًا: لماذا تضيقون بهذا رغم أنه موجود في تراثنا؟ وهل أصبحت صدوركم أضيق من صدور السلف في القرون الماضية، وهم لم يضيقوا بأبي نواس وبغير أبي نواس؟

في رأيي أن الدولة الإسلامية التي تحمَّلت مثل أبي نواس وأكثر كانت دولة قوية، ولم تكن تتهددها المخاطر التي تهدد الواقع الذي نعيش فيه الآن، وأيضًا هناك فارق جوهري، فمن كان يقرأ أبا نواس في ذلك التاريخ؟ تعلمون أنه لم تكن هناك مطبعة ولا مِذياع ولا تليفزيون ولا إنترنت، ولا كل هذه الأمور، إنما كان من يريد ويستطيع يذهب ليسمع أبا نواس، أمّا الآن فنحن عندنا أجهزة إعلامية، وثورة في الاتصال تقتحم على الناس غرف نومهم، ومن ثم إذا تحول الفن إلى خنا وفسق وفجور وفحشاء، فإن هذه الأجهزة تشيع هذه

١. المرجع السابق.

الفحشاء في المجتمعات بشكل عام.

إننا مع إقرارنا بأن هناك شرائح في المجتمعات العربية والإسلامية تسلك هذه المسالك، يسوؤنا أن تكون هذه هي السمات الأساسية للفنون التي تفرض على شبابنا ومجتمعاتنا، وليست القضية بالنسبة لنا هي خمريات وغزليات أبي نواس ولا الفن المكشوف أو التجاوزات التي تحدث من بعض من يدعون الفنون ـ على خطورتها ـ، بل القضية تكمن فيما يتعلق بمقدسات هذه الأمة، فنحن لا بد أن نسأل: أي إنسان نريد؟ حتى نجيب عن سؤال: أية فنون نريد؟ نحن نريد إنسانًا قادرًا على مواجهة التحديات الشرسة التي أصبحت تهدد وجود الأمة، حتى هذا الوجود أصبح مهددًا الآن.

إذا ارتبطت الفنون بالأخلاق وكانت جميلة حقًّا، ومثَّلت قنوات لاستشعار ما في هذا الكون من آيات الجمال التي أبدعها الله ﷻ، فإنني لا أتصور عاقلًا ينطلق من منطلقات إسلامية يقيم خصومة بين الإسلام وبين هذه الفنون.

إن المفهوم الإسلامي للفن يقوم على استحالة التناقض مع الفطرة؛ فإذا كانت الفنون من روح الفطرة، وجب ألا تناقض أو تخالف دين الفطرة ـ دين الإسلام ـ في شيء، فإذا خالفت الفنون الدين في أصوله، ودعت صراحة أو ضمنًا إلى رذيلة من أمهات الرذائل فهي فنون باطلة، فنون جانبت الحق وأخطأت الفطرة التي فطر الله عليها الناس والخلق.

ومفهوم الفن في الإسلام يقوم على أساس أنه عنصر من عناصر الفكر، يتكامل مع الأدب والاجتماع والأخلاق والدين والحضارة، وهو في الإسلام له طابعه الخاص الأصيل الواضح، وطابعه التوحيد، يتسامَى بالغرائز، ويرتفع بالنفس والإنسانية إلى الكمال دون أن يبعد عن الواقع.

والفن في نظر الإسلام أداة تجميل الحياة، ووسيلة الإسعاد الروحي والنفسي على الكون والوجود، يَعْرِف بها المسلم قدرة الله وعظمته، ويزداد بها إيمانًا.

وإذا كان الفن اليوناني بطابعه المادي والوثني يجعل الأولوية للتماثيل المجسمة إعجابًا بالأجساد، وعبادة لصور الجمال ومظاهر القوة؛ فإن الفن الإسلامي مستمِدًّا من مقدماته الأساسية يجعل البيان والشعر والأدب في مقدمة فنون الكلمة الموحية، وذلك انتقالًا من عالم المادة إلى عالم الفكر، فالتأمل من أوسع العوالم، والتفكر في خلق الله أعظم معطيات العقل والروح: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾ (القلم)، وبذلك أصبح رائد الفن: البيان الذي يتمثل في أسمى صُوَرِه في القرآن الكريم، وبذلك دفع الإسلام الفن البشري إلى الأمام، انتقالًا من مفهوم الماديات في الفن إلى مفهوم المعنويات، وسلك المعنويات والماديات في إطار جامع متكامل، وبذلك فقد حرَّر البشرية من مفهوم المادية الخالصة التي تقدِّس الجسد والشهوات والغرائز والوثنيات، وتقيم لها المهرجانات والطقوس، ودفع البشرية إلى الانتقال من تجسيد البطولة في صورة مادية إلى تكريم عمل الإنسان نفسه.

كما أن أبرز سمات الفن في الغرب لا تجد في الفكر الإسلامي مجالًا لها؛ فالإسلام لا يقر عبادة الجسد الجميل عبادة وثنية بحيث يقدِّم له القرابين وكل ما يتصل بذلك من أساطير الحب والجمال عند

الإغريق، وهي حافلة بالمباذل لا تجد في أفق المجتمع الإسلامي قبولًا.

كما أن المسلم لا يؤمن بعبادة الطبيعة أو المحسوسات، ومن هنا فإن مفهوم الفن في الإسلام محرر من كثير من هذه القيم التي يقوم عيها الفن الغربي، والتي تتعارض أصلًا مع الإيمان بالله الواحد.

وهكذا حقق الفن الإسلامي مذهبًا جديدًا مستمدًّا من حقائق الإسلامي، فكان فنًّا منطلقًا وتجريدًا معبرًا وليس جامدًا[1].

ثانيًا. هناك فرق شاسع بين الفساد الذي يخلع عليه أصحابه صفة الفن، وبين الفن الصحيح الذي يهدف إلى تهذيب الأخلاق وتوسيع الحياة الشعورية لدى الإنسان:

لا يفوتنا أن ننقل هنا مقتطفات من مبحث نفيس بعنوان "الفن الجميل" ضمنه المفكر الكبير عباس العقاد ـ رحمه الله ـ كتابه "التفكير فريضة إسلامية"، حيث قال: إنما يقاس نصيب الفن الجميل من الدين بنظرة الدين إلى الحياة، فلا يقال عن دين: إنه يحيي الفنون الجميلة أو يتقبل إحياءها، إذا كانت له نظرة زرية إلى الحياة، وكان ينظر إليها كأنها وصمة زرية، وإلى الجسد ومتاعه كأنه رجس مرذول وانحراف بالإنسانية عن عالم الروح والكمال، ولا يقال عن دين: إنه يزدري الفن الجميل إذا كان الجمال من مطالبه، وكانت نعمة الحياة مقبولة في شرعة المتدين به، بل واجبة عليه.

والإسلام بين الأديان قد انفرد بقبول نعمة الحياة وتزكيتها، والحض عليها وحسبانها من نعمة الله التي يحرم على المسلم رفضها ويؤمر بشكرها، وغيره من الأديان بين اثنتين: فإما السكوت عن التحريم والإيجاب معًا، أو التصريح القاطع بالتحريم والتأثيم، أما الإسلام فإنه يحُل الزينة ويزجر من يُحرِّمها، ويصف الله بالجمال، ويحسب الجمال من آيات قدرته وسوابغ نعمته على عباده[2].

أما الدعوة التغريبية الدخيلة على الفن الإسلامي والفكر الإسلامي والثقافة العربية، والتي تقول بأن الأدب فن حر يصوِّر النفس الإنسانية فيه، وليس له أن يعطِّل عمله ليسأل عن قواعد الأخلاق، هذه دعوة غربية ومفهوم غربي خالص، وبعيد كل البعد من الذوق والضمير والمزاج العربي والإسلامي؛ لأن الفن والأدب في الفكر الإسلامي والثقافة العربية والأدب العربي يلتقي مع الدين والأخلاق ولا يتعارض معها؛ ليؤدي دورًا بنَّاءً متساميًا لحياة الجماعة والفرد معًا. فليس هناك تعارض أصلًا بين الأدب والأخلاق، أو الفن والأخلاق، أو الفن والدين، بل هناك تطابق واتفاق مثل ذلك التطابق بين العلم والدين[3].

وهناك بعض المفسدين ممن يحاولون الجمع بين الفساد والفن، على الرغم من الفارق الكبير بينهما، ويناقش الأستاذ محمد قطب أثر الفلسفات والمذاهب الوضعية الحديثة ـ كالعلمانية ـ في تحويل هذه السفاسف إلى أدب يكتسب المشروعية والعلنية، دون مواربة أو خجل، فيقول: "أما أدب الجنس المكشوف ـ إن كان

---

١. الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، أنور الجندي ، دار الاعتصام، القاهرة، ص٣٨، ٣٩ بتصرف يسير.

٢. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، دار القلم، القاهرة، ط١، ص١٠٢، ١٠١.

٣. الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، أنور الجندي ، مرجع سابق، ص١٦٩ بتصرف.

يسمى أدبًا ـ فهو أوضح من أن يحتاج إلى تعليق.

وفي تاريخ البشرية كله آداب تعالج الجنس بقصد الإثارة، أو تعبر عن تجارب هابطة لإنسان شهوان، ولكنها كانت تأخذ في عالم الأدب مكانًا منزويًا، يَتَسَتَّر بها صاحبها في الظلام، ويسقط عمن يتعاطونها رداء التوقير والاحترام، ويُقْبِل عليها المراهقون من أي عمر كانوا، فليست المراهقة مدة معينة من عمر الإنسان، كما هي في اصطلاح علم النفس، إنما هي حالة نفسية غير مستقرة وغير متزنة يمكن أن يُصَاب بها الفتى في إبّان طيشه، ويمكن أن يُصَاب بها ابن السبعين؛ فتخفَّ أحلامه، ويذهب وقاره، وتذهب عنه قدرته على التحكم المتزن في الأشياء.

ولكن الجديد الذي أحدثه التطور العلماني، هو إعطاء الشرعية لهذا الهبوط الحيواني، وكشفه في النور، وإعطاؤه صفة الفن، ووضع منتجيه في قائمة المشاهير، بل في قائمة العظماء من الفنانين، وينشغل النقد الأدبي والنقد الفني بتتبع آثارهم، وكشف العظمة الفنية فيهم، بل يتبجَّح نقادٌ فيبحثون لهم عن عظمات نفسية في وسط الماخور ـ مجمع أهل الفسق ـ الكبير الذي يعيش فيه هؤلاء وهؤلاء من نقاد وفنانين.

لقد سقط الإنسان إلى السراديب وقرر المقام هناك، وأضاء الأنوار على قاذوراتها وعرضها على أنها البضاعة الحاضرة، لم تعد أمرًا يُسْتَخْفَى منه، لم تعد قذارة تُسْتَنْكَر، أرأيت إلى دودة الأرض اللاصقة بالطين؟! إنها تستروح أنسام المستنقع الآسن الذي تعيش فيه وترى أنه بالنسبة لها هو الوضع الطبيعي، هو الأصل الذي ينبغي أن تعيش فيه. أرأيت لو أنك أردت أن ترفعها من الطين وتنظفها؟ إنها تستنكر وترفض وتنفلت من بين أصابعك لتزداد لصوقًا بالطين.

وهكذا لم يعد أدب الجنس المكشوف قذارة يترفع عنها الفن، إنما صار هو الفن الذي يتفنن فيه الكُتَّاب، يعرضون مفاتنه ـ أو بالأحرى مباذله ـ في تفصيل دقيق ومكشوف، ويعرضونه على أنه قاعدة الحياة أو قمة الحياة"[1].

وقد ناقش فضيلة الإمام الشيخ عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ مسألة عدم الاعتبار لأن يكون الفن والأدب هادفًا ـ عند بعض الباحثين والنقاد ـ وهو ما يُطْلِقُ عليه هؤلاء الباحثون "نظرية الأدب للأدب والفن للفن"، أي: أن يكون الفن هدفًا في حد ذاته بغض النظر عن أن يكون هادفًا من عدمه، فَأَبَانَ عن أصول هذه النظرية، إذ قال تحت عنوان "الأدب للأدب": "وَيَعْنُون بذلك: أن الأديب يجب ألا تقيده حدود من تقاليد أو عرف أو دين أو خلق أو فضيلة قومية، وأنه يجب أن يسير في كتابه حرًّا طليقًا من كل تحديد.

هذه البدعة نشأت في الجو اليوناني القديم، وهو جو تَخَلَّى فيه الأدباء عن الدين، ونشأت في بيئة سادها جو السوفسطائيين[2]، إنها نشأت في مجتمع كان فيه أبيقور، وكانت مظاهرها الوثنية تحت بصر الإنسان، وأحاديثها تملأ سمعه، مجتمع آلهته الوثنية شهوانيون مُرْتَشُون، لا يعرفون عدالة ولا إنصافًا، وكل ضلال يجد له من

---

١. مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، مرجع سابق، ص٤٩٢، ٤٩٣.

٢. السُّوفُسْطائيَّة: فِرْقة تنكر الحِسيَّات والبدهيات وغيرها، وتُعْنَى بالجدل والتلاعب بالألفاظ بقصد الإقناع، وهي فرقة يونانية قديمة عارضها سقراط وكشف عن مغالطتها.

يتبعونه، وسادت بدعة الأدب للأدب.

وكتب الأدباء الأدب المكشوف: الأدب الجنسي، أدب الإثارة، أدب الشهوة، الأدب الذي يستثير الغرائز، ويحرض على الخيانة الزوجية، ويدعو إلى التحلُّل، وهذا الأدب يَرُوج عند المراهقين وعند الشباب في بواكير عهدهم بالشباب، وعند الفتيات المراهقات، ومن هُنَّ في بواكير العهد بالشباب، ومن وراء رَوَاج هذا النوع المسِفِّ من الأدب، ثراء لما يكتبون، فلم يتورعوا عن الاندفاع في الكتابة بما يُرْضِي شياطين الإنس والجن من أجل المال.

وفي عصرنا الحاضر طائفة من الكُتَّاب من هذا النوع يلعنهم الله ورسوله، ويلعنهم كل من يُحِبُّ الفضيلة، وكل مؤمن صادق الكمال، وإن كل من يضع لَبِنة في صرح الفضيلة، فإنما يضع لبنة في صرح الكمال، وإن كل من يضع لَبِنَة في صرح الرذيلة، فإنما يضع لَبِنَة في صرح النقص، وإن الأدباء الذين يجرون وراء الاستثارة الجنسية والأدب المكشوف خائنون للوطن، ويعيشون في مقت الله؛ لأنهم مفسدون"[1]

وحول ضرورة أن يكون الأدب هادفًا وفائدة ذلك يقول د. عون الشريف قاسم: "والأدب الحق إن أحسن التعبير والتصوير ـ محاولة جادة لسبر أغوار النفس والسيطرة على جماحها؛ بغرض تنظيم التنافر الداخلي وإحداث الانسجام بين العواطف المتناحرة عن طريق إشباع أكبر قدر منها، بحيث لا يجور جانب منها على جانب.

ولا يفعل ذلك كل أدب، إذ الأدب التافه يثير أتفه العواطف وأكثرها سطحية ويجعلها تَطْغَى على غيرها، ومن هنا كان النجاح الشكلي لأدب الجنس الفاحش وما إليه، أما الأدب الصادق العميق فَيُحَرِّك المشاعر، ويُنَظِّم أكبر قدر من العواطف، فَيَحْدُث الانسجام الداخلي ويتم التوحيد، فكما تُنَظِّم العلوم الطبيعية مظاهر الطبيعة المتنافرة في شكل قوانين ونظريات تُحدِثُ الانسجام في عقل الإنسان، تفعل الآداب هذه الفَعْلَة في روح الإنسان وعاطفته، وبذلك يتم الانسجام بين الطبيعة والإنسان، وبين عنصري الإنسان: عقله وعاطفته.

فالأدب معرفة غايتها توسيع دائرة الحياة الشعورية وإثرائها عن طريق النظر في تجارب الآخرين الشعورية وإنجازاتهم الروحية، بحيث يتمكن الإنسان من مضاعفة تجاربه مئات المرات على قدر اطلاعه وثقافته، ومن هنا كان للآداب دور في معركة الحضارة لا يقل عن دور العلوم، فهما صِنْوان وهما رَافِدَا المعرفة، وهما في نهاية المطاف خلاصة إنجاز الإنسان على الأرض، أي: حضارته"[2]

فإذا قيل: إن الأدب العربي القديم قد عرف الأدب المكشوف، قلنا: إن ذلك لم يكن بدافع الفطرة؛ بل كان غزوًا شعوبيًّا على النحو الذي نواجهه اليوم ونسميه بالغزو التغريبي، وإن هذا اللون إنما دخل على أيدي المتصلين بالثقافة والديانات والفلسفات القديمة السابقة للإسلام، وفي مقدمتها وثنية اليونان ومجوسية

١. موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٣٣:٣٥.

٢. من قضايا البعث الحضاري، د. عون الشريف قاسم، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٩٥، ٩٦.

الفرس وفلسفات الهند[1].

وقد كان هذا من خلال موجة القرن الثالث الهجري خلال العصر العباسي، وقد كشفت عن جوانب من التحلل والإباحة، تمثلت في شعر بعض الشعراء، وقد جاء هذا الطابع من الإباحة متمثلًا في أبي نواس وبشار وغيرهما في ظل تحدّيات خطيرة واجَهَتْهَا الحضارة الإسلامية والمجتمع، وهي تحديات اضطربت فيها معايير الفكر الإسلامي وتطبيق الشريعة الإسلامية حين ظهر طابع الترف العاصف، وطوابع التَّسرِّي وأسواق الجواري وغيرها مما كان مخالفًا في حركته لمفهوم الإسلام نفسه، ومما أدَّى إلى ردِّ فعل قوي من الناحية الأخرى بظهور فلسفات الزَّهَادة والتصوف الفلسفي، إلى جوار مذاهب الباطنية وغيرها.

على أننا نؤكد ثانية أن هذه الدعوات والحركات انبعثت على أيدي رجال كانت لهم صلات سابقة بالديانات الفارسية والفلسفات الدخيلة، ولم يكونوا في حقيقة الأمر منطلقين من مفهوم أصيل للفكر الإسلامي بما غيَّر مفاهيم المجتمع والحياة[2].

لقد كانت دعوة الفلسفة المادية إلى تحرير الفن والأدب الغربي والفن الأوربي إلى حد الإباحة، بمثابة رد فعل على موقف المسيحية والكنيسة والقسيسين في الغرب من مقاومتهم لحرية الفكر، فكانت تلك الاندفاعة التي أخرجت الفنان والأديب من ضوابط الأخلاق وقيم المجتمع، مما فتح الباب لموجة طاغية من موجات الإباحة في المجتمع نفسه، وكان ذلك متصلًا أوثق الاتصال بالحضارة الإغريقية ومفهومها الإباحي المتحلل من مختلف القيم والضوابط الأخلاقية. فالفكر الغربي حين يندفع في موجة الإباحية والتحلل، إنما يجد من مصادره وتاريخه وسوابقه وجذوره ما يُؤصل له هذا الاتجاه، أما الفكر العربي الإسلامي فأمره يختلف اختلافًا كبيرًا؛ ذلك لأن المجتمع العربي الإسلامي كان مرتبطًا طوال حلقات تاريخه بمقومات وقيم ذات طابع خلقي في مختلف مجالات العلاقة بين المرأة والرجل، ومختلف علاقات المجتمع والسياسة والتجارة وغيرها، إلا ما شذ من بعض المسلمين الذي تأثروا بالفلسفات اليونانية والفارسية والمذاهب الخارجة عن الإسلام كما بيَّنَّا سابقًا[3].

ورغم المحاذير إلا أن كثيرين يرون أن الفن يمكن أن يكون وسيلة ناجعة في خدمة الدعوة، بناء على أن حلاله حلال وحرامه حرام.

وأخيرًا، في سبيل تحرير علاقة الإسلام بالفن النبيل، هل نحن بحاجة إلى شهادة الآخرين كي يتأكد الكلام، ويكتسب المصداقية؟ فليكن، هذه شهادة "لاركيه" في كتابه "الفن والتاريخ" يقول فيها: "إن العرب ورثوا - فيما ورثوا عن الأمم التي دخلت في حوزتهم - الفنون والصناعات، وأخذوا يَحْذِقُونَهَا، ويبرعون فيها في مدارس المورثين، إذ لم يكن في استطاعتهم أن يرتجلوا فنًّا كما ارتجلوا لهم ملكًا.

ومع ذلك لم يمض زمن طويل حتى نبغ فيهم البناءون والحفارون والنقاشون، دون أن يروا في شيء من ذلك مخالفة لنصوص كتابهم، أو معارضة لشريعة

١. الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، أنور الجندي، مرجع سابق، ص١٦٩، ١٧٠ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص١٦٨ بتصرف.

٣. المرجع السابق، ص١٦٧، ١٦٨ بتصرف يسير.

نبيهم، ولم يقفوا عند حد الحذق والبراعة، بل تَعَدَّوْه إلى التفنن والإبداع، فَنَقَّحُوا وصَحَّحُوا، وحذفوا وأضافوا، ثم اخترعوا وابتكروا، حتى طبعوا تلك الفنون بالطابع العربي، وصبغوها بالصبغة الإسلامية؛ حرصًا على شخصيتهم أن تَفْنَى، فأصبح الروح العربي بارزًا واضحًا يندمج فيه غيره، ولا يندمج في شيء، ولهذا أوجدت العرب لها فنًّا يوافق ذوقها ويسير مع طبعها ودينها، وسرعان ما انتشر في أرجاء تلك المملكة الواسعة انتشار الكهرباء.

وقد خضعت الفنون الإسلامية لنواميس الطبيعة الإقليمية، فاصطبغت في كل قطر بصبغته الخاصة، وكانت في عادة أحوالها ـ من: أندلسي، ومغربي، وصِقلِّي، ومصري، وشامي، وعراقي، وفارسي، وهندي، ومغولي ـ إسلامية أصيلة كريمة نبيلة، تنطق بها للإسلام من إباء ونجدة، وشهامة ونخوة.

وإذا كان الفن الإسلامي قد تأثر بما وصل إليه من فنون البلدان المجاورة؛ حيث إن الإسلام يتنافى مع الجمود، فإن أيًّا من تلك الفنون لم يَسْلَمْ من تحريف الفنان المسلم الذي أعاد بذلك سمته الخاصة به وبمعتقداته، وَجَرَّدَهَا من كل ما تنطوي عليه من رموز وإشارات لتستحيل إلى فن زخرفي تجريدي بعيد عن كل رمز تاريخي أو أسطوري"[1].

الخلاصة:

- الفن ـ كأي مهارة من المهارات، ونشاط من الأنشطة ـ مباح في الأصل من وجهة نظر الإسلام على قاعدة "الأصل في الأشياء الإباحة" ما لم يطرأ ما يقيِّد هذا الأصل بالكراهة أو التحريم، فإن طرأ هذا الطارئ يكون المعيار: هل هذه المهارة أخلاقية أم غير أخلاقية؟
- والقرآن الكريم في العديد من آياته يلفت الأنظار إلى ما في الكون من تناسق وإبداع وإتقان، وما يتضمنه ذلك من جمال وبهجة وسرور للناظرين، ومن هنا لا يعقل أن يرفض الإسلام الفن إذا كان جميلًا هادفًا.
- إذا ما ارتبط الفن بمقاصد أخلاقية رضي عنه الإسلام، وباركته تعاليمه، أما إذا تحول ـ كما هو حادث الآن ـ إلى ألوان من الخنا والفسق والفجور وإفساد الفطرة السوية، وحوَّل الإنسان إلى حيوان، وقطع صلاته بالروحانيات والمُثُل العليا، لا يمكن أن يكون فنًّا، فضلًا عن أن يكون جميلًا؛ لأنه ليس أخلاقيًّا، ومن ثَمَّ ليس شرعيًّا.
- محاولة بعض المفسدين الجمع بين الفساد والفن في مكان واحد ـ على الرغم من الفارق الكبير بينهما ـ محاولة ظاهرة الفساد، معروفة الغايات والأهداف الخبيثة، ففي حين أن الفساد يدمر أركان المجتمع، ويحارب القيم الفاضلة، نجد أن الفن عبارة عن تهذيب الأخلاق، وتوسيع الحياة الشعورية لدى الإنسان، فإذا كان ذلك كذلك فأين المجال الذي يجمع بين الطرفين في نظر هؤلاء؟!

---

١. الحضارة والتمدن الإسلامي بأقلام فلاسفة النصارى، د. عبد المتعال الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص٤٤: ٤٦.

الشبهة الثامنة عشرة

الزعم أن الإسلام ظاهرة اجتماعية لا وحي سماوي(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن رسالة النبي ﷺ إنما كانت دعوة اجتماعية، وأن الاضطراب الذي انتاب الحياة العربية قبل الإسلام يُحتِّم أن تظهر حركة إصلاحية تعالج أسبابه، وربما يزيدون على ذلك أن محمدًا ﷺ في جملة تعاليمه لم يتعدَّ العقلية العربية في تطلعاتها ومطامحها. وهذا صريح في أن الإسلام ليس وحيًا، إنما هو تصحيح اجتماعي تُلْتَمَسُ دواعيه على الأرض.

وجوه إبطال الشبهة:

١) للذاتية والانطباعية خطورتها في الدراسة العلمية؛ لأن إقحام الذاتية في البحث يفقده المنهجية السليمة، فضلًا عن عدم النزاهة التي تؤدي إلى نتائج بعيدة عن الوصول للحقيقة المبتغاة عند البحث.

٢) الظاهرة الاجتماعية تناسب بيئتها التي أنبَتَتْها فقط، فكيف يتناسب هذا مع الإسلام الذي انتشر انتشارًا واسعًا، وهو صالح للتطبيق في كل زمان ومكان.

٣) التفسير المادي للتاريخ ينتج مقولات واهية علميًّا ومنطقيًّا؛ لأن هذه المادية تعمي الأبصار عن إدراك حقائق وثوابت لمجرد أنها تُدرك بالحس والأدوات البشرية القاصرة.

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

التفصيل:

أولا. الذاتية والانطباعية وخطورتهما في الدراسة العلمية:

لقد نَعَت كل ناعق من هؤلاء كلامه بأنه علم، ورأيه بأنه مذهب ومنهج جديد في كتابة التاريخ، وهذا ما يرصده ويحلله د. محمد سعيد رمضان البوطي بقوله: "في القرن التاسع عشر ظهرت طرائق كثيرة متنوعة في كتابة التاريخ وتدوينه، إلى جانب الطريقة الموضوعية، أو ما يسمونه بالمذهب العلمي، وقد تلاقى معظم هذه المذاهب فيما أطلق عليه اسم المذهب الذاتي، ويعد (فرويد) من أكبر الدعاة إليه والمتحمسين له.

ولا يرى أقطاب هذا المذهب من ضَيْر في أن يقحم المؤَرِّخ نزعته الذاتية، أو اتجاهه الفكري والديني أو السياسي في تفسير الأحداث وتعليلها والحكم على أبطالها، بل إنهم يرون أن هذا هو واجب المؤَرِّخ، لا مجرد وصف الأخبار وتجميع الوقائع العارية... ونحن وإن لم نكن بصدد الحديث عن المذاهب التاريخية ونقدها، فإن علينا ألا نخفي أسفنا من أن يجد هذا المذهب ـ في عصر العلم والاعتزاز به وبمنهجيته ـ دعاة إليه ومؤمنين به؛ ذلك لأن هذا المذهب كفيل بأن يمزق جميع الحقائق والأحداث التي يحتضنها الزمن في هيكله القدسي القديم الماثل أمام الأجيال، بفعل سبحات من أخيلة التوسم وشهوة الذات، وعصبية النفس والهوى.

وكم من حقيقة مُسِخَت، وأحداث نُكِسَت، وأمجاد دُثِرَت، وبُرءاء ظُلِمُوا، تحت سلطان هذه المحكمة الوهمية الجائرة.

وبدأت تظهر كتب وكتابات في السيرة النبوية،

تستبدل بميزان الرواية والسند، وقواعد التحديث وشروطه ـ طريقة الاستنتاج الشخصي، وميزان الرضا النفسي، ومنهج التوسم الذي لا يضبطه شيء إلا دوافع الرغبة، وكوامن الأغراض والمذاهب التي يُضْمِرُهَا المؤلف، واعتمادًا على هذه الطريقة، أخذ يستبعد هؤلاء الكاتبون كل ما قد يخالف المألوف، مما يدخل في باب المعجزات والخوارق من سيرته ﷺ، وراحوا يُرَوِّجون له صفة العبقرية، والعظمة، والبطولة، وما شاكلها، شَغْلًا للقارئ بها عن صفات قد تجره إلى غير المألوف من النبوة والوحي والرسالة، ونحوها مما يُشَكِّل المقومات الأولى لشخصية النبي ﷺ.

ومن نماذج هذه الطريقة تلك الكتابات الكثيرة التي ظهرت من المستشرقين عن حياة سيدنا محمد ﷺ في نطاق أعمالهم وكتاباتهم التاريخية التي قامت على المنهج الذاتي الذي ألمحنا إليه آنفًا، إنك لتراهم يمجدون شخص محمد ﷺ، ويُنَوِّهُون بعظمته وصفاته الحميدة، ولكن بعيدًا عن كل ما قد يُنَبِّه القارئ إلى شيء من معنى النبوة أو الوحي في حياته، وبعيدًا عن الاهتمام بالأسانيد والروايات التي قد يضطرهم الأخذ بها إلى اليقين بأحداث ووقائع ليس من صالحهم اعتمادها أو الاهتمام بها"[1].

ثانيًا. مناسبة الظاهرة الاجتماعية لبيئتها:

إن من مميزات الإسلام الأصلية ـ كما يقول الأستاذ اتيين دينيه ـ ملاءمته لجميع الأجناس البشرية؛ فلم يكن العرب وحدهم هم الذين اتبعوا الإسلام، بل كان من ضمنهم من هو من فارس كسلمان الفارسي، وبعضهم من النصارى كورقة، وبعضهم من اليهود كعبد الله بن سلام، وبعضهم من الأحباش كبلال وغيرهم، ثم هو لا يعوق الرجل العملي الذي يرى حياته في العمل، ويعتبر الوقت من ذَهَبٍ كالرجل الإنجليزي، وكذلك لا يعوق الرجل الصوفي الشرقي المتأمل في بدائع الصنع، ويأخذ بيد الغربي المأخوذ بسحر الفن والخيال، وليس هذا فحسب، بل هو يستولي على لُبِّ الطبيب العصري أيضًا بما فيه من الطهارة المتكررة في اليوم والليلة، وتناسق حركات المُصَلِّي في الركوع والسجود، وما فيها من نماء للجسم، وإفادة للصحة الجسمية والنفسية"[2].

وخلاصة قول الأستاذ دينيه هذا أن الإسلام منهج عام لا يُجَسِّدُه عِرْق أو عنصر، ولا يتقيَّد بمكان أو حِيْنٍ من الزمن.

والحق أن الأوربيين أنفسهم قد دُهِشُوا للدعوة الإسلامية، وآثارها، ولم يستطيعوا أن يُجْرُوا تطورها ولا منجزاتها على سنة اجتماعية مألوفة، حتى لقد "بَقِي أهل الرأي فيهم ـ كما يقول الأستاذ محمد لطفي جمعة ـ في حيرة يتساءلون عن علة ظهور الإسلام بهذا المظهر العظيم، وكيف أن صَوْتَ النبي محمدٍ وحده أيقظ شعبًا من سُباته، بل خُمودِه الذي تطاولت عليه القرون، وكان لَفِيفٌ منهم اتَّهَمَ النبي ﷺ بالادِّعاء، فلما رأوا المتانة في الأخلاق، والشدة في الحروب، والدقة في التدبير، وشهدوا القوة في جميع مظاهرها المادية

---

١. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي ، دار السلام، القاهرة، ط١٤، ٢٠٠٤م، ص٢١: ٢٤.

٢. محمد رسول الله، أتيين دينيه (سليمان بن إبراهيم)، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، د. محمد عبد الحليم، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦م، ص٣٦٢، ٣٦٣.

والمعنوية خضعوا لها، وما فتئت القوة في نظرهم الحجة التي لا تُرَدُّ والوسيلة البالغة.

وبعد أن كانوا يقولون: "إن الإسلام حليف الشيطان، وثمرة جهود إبليس، ومظهر الغضب الرباني على الجنس الإنساني" (مجموعة التواريخ: تأليف دي تيرو، الكتاب الأول ـ الفصل الثاني) سكتوا ولم يَدْرُوا كيف يُعَلِّلون ما حاروا في فهمه، فعدلوا عن القذف والشتم، وَتَحَوَّلُوا إلى الدرس والبحث والتنقيب، لعلهم يهتدون إلى تفسير ذلك الحادث التاريخي، الذي كان من شأنه إخضاع الملايين لصوت رجل واحد، كان منهم ونشأ بين ظَهْرانَيْهم، وترجمة حاله معلومة لديهم"[1].

إذن فالنظر التاريخي النزيه عن مقررات وأغراض سابقة، وتصور الدعوة الإسلامية تصورًا بينًا ـ كلاهما أمران يَرُدَّان ردًّا سهلًا هذه الدعوة التي يَسْتَسْهلها النقد والادعاء بغير رَوِيّة.

ثالثًا. النتائج الواهية للتأويل المادي للتاريخ:

الماديون لا يؤمنون إلا بما يُحِسُّونه بحواسهم ويدركونه بأدواتهم البشرية القاصرة؛ ولهذا فهم ينكرون عالم ما وراء الطبيعة ـ على حد التعبير الفلسفي ـ يعني الغيب والوحي والأديان السماوية ومنها الإسلام، ويؤولون آثارها على أرض الواقع تأويلا فجًّا كقولهم بأنها ـ الأديان ومنها الإسلام ـ ظاهرة اجتماعية أنبتتها ظروف البيئة التي تَجَلَّتْ فيها هذه الآثار، وليست بالضرورة ناتجة عن تأثير وحي سماوي غيبي.

على هذا الفهم سار كثير من المفكرين الغربيين ومن نَهَجَ نَهْجَهم، حتى بعض المنصفين منهم الذين أشادوا بدور العرب والمسلمين التاريخي والحضاري، مثل: جوستاف لوبون، حيث وَسَمُوا هذا الدور والأداء التاريخي بتعليلات مادية لا دور فيها للوحي أو تأثير لدين كما يرون.

فعلى سبيل المثال، رد لوبون الانتشار السريع لحركة الفتح الإسلامي في صدر الإسلام وتَمَكُّن الفاتحين من البلاد المفتوحة ورسوخ أقدامهم فيها إلى عبقرية الخلفاء الأولين ومزايا العنصر العربي، دون اعتبار لتعاليم دين هؤلاء الفاتحين وتأثيرها فيهم.

وقد ناقش رؤيته هذه الأستاذ محمد فريد وجدي ـ رحمه الله ـ فقال: "نعرف أن أصحاب النبي ﷺ قد وفَّوا، وهم يُؤَسِّسون الدولة الإسلامية، بجميع ما وعدوا العالم من المساواة والعدل والرحمة، وبأنهم رفعوا شأن كل أمة افتتحوا بلادها درجات عمَّا كانت عليه، وأنهم امتنعوا عن ارتكاب مثل ما ارتكبته الأمم الفاتحة التي سبقتهم من إذلال المقهورين وسلب أموالهم واضطهادهم لِيُدخلوهم في ملتهم.

وأحسن ما نقدمه للقراء دليلًا على كل ما قلناه شهادة عالم من أشهر علماء أوربا وهو د. جوستاف لوبون، حيث قال في كتابه "حضارة العرب": "كان يمكن أن تُعمي فتوحُ العرب الأولى أبصارَهم، فيقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويقهروهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في أنحاء العالم. ولو فعلوا ذلك لَتَأَلَّبَتْ عليهم جميع الأمم التي كانت بعد غير خاضعة لهم، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما

---

١. ثورة الإسلام وبطل الأنبياء، محمد لطفي جمعة، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٤.

دخلوا بلاد سورية مؤخرًا، ولكن الخلفاء السابقين الذين كان عندهم من العبقرية ما نَدَر وجوده في دعاة الديانات الجدية، أدركوا أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرًا، فعاملوا أهل سورية ومصر وإسبانية، وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة في مقابل حمايتهم وحفظ الأمن بينهم. والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين رُحَمَاء متسامحين مثل العرب.

ورحمة العرب الفاتحين وتسامحهم كانا من أسباب اتساع فتوحهم، واعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم، ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع اللغات، وبقيت قائمة حتى بعد تواري سلطان العرب عن العالم، وإن أنكر ذلك المؤرخون. وتعد مصر أوضح دليل على ذلك، فقد انتحلت مصر ما جاءها به العرب وحافظت عليه، ولم يستطع الفاتحون الذين سبقوهم إليها من الفرس والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وأن يحملوها ما أتوها به".

هذه شهادة قيمة من عالم أجنبي، وليس هو بفذ في أداء هذه الشهادة، فقد سبقه وتأخر عنه جَمٌّ غفير من أعلام التاريخ. وليس لنا ملاحظة على ما قاله د. جوستاف لوبون إلا ما قاله من أن التسامح الديني كان بفضل الخلفاء الراشدين، وهو في الواقع من حكمة الشريعة الإسلامية نفسها...

ونحن إنما نتشدد في هذا الأمر الذي قد يرى كثير من القراء أنه مما يحسن التسامح فيه، وخاصة لكاتب أجنبي أنصف الإسلام والمسلمين إلى حد لم يبلغ إليه غيره من كتَّاب الفرنجة، إنما نتشدد معه لأنه يرى أن القبائل العربية قبل الإسلام كانت متمتعة بكل الصفات الأدبية والاجتماعية التي تؤهلها لإحداث ما أحدثته من الانقلابات الخطيرة في العالم، وأن ما أتاها به الإسلام ينحصر في توحيد قبائلها وتوجيه جهودها، وإن كل ما ظهروا به مما بَهَرَ العالم من رُقِي العلوم والصناعات، وما بلغوا إليه من الشأن البعيد في الكمالات إنما كانت البواعث إليه كامنة فيهم، وإنما منع ظهورها فيهم ما كانوا عليه من الفوضى والانقسام.

وهذا الكلام إن كان أنصف المسلمين باعتبارهم أمة، فإنه ظَلَم الإسلام باعتباره دينًا؛ فإنه في اليوم الذي يثبت فيه أن لقيام الدولة الإسلامية وتَبَسُّطِها في الأرض، وتَوَسُّعِهَا في العلم، وتَدَارُكِهَا للعالم من التدهور، ولمدنيته من الانحلال والدثور - عِلَلًا طبيعية، وأسبابًا مادية، تسقط أعظم حجة للمسلمين في إلهية الدين الإسلامي، فإن معجزته الخالدة وآيته الكبرى - هي أنه أوجد أمة من العدم، وأنه ربَّى نفوسًا في نحو ربع قرن تربية لم تبلغ شأوها العلَلُ الطبيعية في قرون كثيرة، ثم دفع بها في مجال الحياة الاجتماعية فبلغت فيه درجة الزعامة في كل شأن من شئون الحياة الإنسانية، ولا يزال فيها من قوة الروح وسُمُوِّ المبادئ وعوامل التطور - ما يدفع عنها الاسترداد، وكانت الأولى بين أرقى الأمم المعاصرة لو عاودت العمل بما رسمته لها شريعتها من الأصول الأولية.

إن د. جوستاف لوبون معذور في سلوكه هذا المسلك، لأنه كواحد من أكبر مفكري القرن التاسع عشر متشبع من الفلسفة المادية التي لا تذهب إلى ما وراء العالم المحسوس في سبيل تعليل أية ظاهرة من

ظواهر الوجود المادي، فلا يستطيع - وهذه حالته النفسية - أن يبحث في شيء إلا تحت هذا البصيص من ضوء الفلسفة المادية"[1].

على أن الرؤية المادية - في الجملة - إنما تعالج التاريخ العامّ بتصور سابق على دراسة تفصيلات وقائعه؛ فلذلك قد لا تستقيم لهم طريقتهم عند التطبيق، فيبدو أن تأويل الوقائع أقرب مُتناولًا من مراجعة النظر في أصل المنهج، وهذا منشأ العسر أو التعثر الذي نجده في عديد من المواقع التاريخية التي أُعْمِلَ فيها هذا المنهج المادي، وإعماله في فترة ظهور الدعوة الإسلامية وانتشارها هو مثال لهذا التعثر.

ويقول الأستاذ العقاد - رحمه الله -: "وآفة هؤلاء الماديين ضيق الأفق العقلي، أو ضيق حظيرة النفس في حالتي التصديق والإنكار، فهم ينكرون الرسالة النبوية؛ لأنهم لا يقدرون على تصورها في غير الصورة التي يرفضونها، ولعلَّهم يلذّ لهم أن يتصوروها على هذه الصورة؛ لأنها تتمشى في طبائعهم مع شهوة الإنكار التي تتسلط على عقول المُسَخاء، ولا سِيَّما المُسَخاء من أدعياء العلم والتفكير.

ولا يُرادُ من هؤلاء أن ينبذوا العقل ليدركوا حقَّ الإسلام، ولكن يُراد منهم أن يُوسِّعوا أُفُق العقل فيعلموا - من ثَمَّ - أن العقل لا يمنعهم أن يدركوا حقَّ الإسلام، بل لا يمنعهم أن يقبلوا عقلًا أنه وحي من عند الله"[2].

وإذن فلا موضع لإقحام صفة "العلمية" هنا على منهج يعالج التنوع اللافت للظواهر التاريخية بقوالب صماء من النظريات الذهنية التي قد تلاقي الواقع أو لا تلاقيه؛ فإن سلامة المنهج، إنما تقتضي أن يعالج التاريخ بتصور مُنْتَزع من حقيقته كما هي، لا أن تُخلع عليه خصائص من خارجه، ثم يزعم بعضهم أنها "علمية"®.

الخلاصة:

- إن تأسيس تصور تاريخي عن فترةٍ ما على الانطباع الذاتي ليس منهجًا في نفسه، ولا يصح أن يعتدَّ بالنتائج التي يصل إليها؛ إذ هي بلا مقدمات أو شواهد، لا سيما وهذا الانطباع راجع إلى إرْث ثقافي مختلف عن الإسلام وتاريخه.
- إن يكن أمرًا ممتنعًا أن تفرض ظاهرة اجتماعية مبتورة عن المؤثرات العرفية التي لابستها في أدوار تطورها، فإن هذه الحقيقة وحدها تدرأ هذا الزعم؛ فلسنا نجد - ولا الباحثون المنصفون يجدون - آصرة تصل مبادئ الرسالة الإسلامية، بما كانت تتعاهده البشرية في مجالات العقيدة والآداب والنظم الاجتماعية.
- التأويل المادي للتاريخ الذي ينتحل صفة العلمية - يفقد أصول الدرس العلمي بمجرد أن يُقْدِم على التحليل التاريخي بتصور سابق على بحث وقائعه التفصيلية، التي ستلتوي عند التطبيق نصرة للمنهج

1. مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص٣٥:٣٨ بتصرف.
2. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، مرجع سابق، ص٣٠١، ٣٠٢.

® في "قصور التفسير المادي للتاريخ" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والأربعين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢).

الذي يجل عند معتقديه عن أن يعاد النظر في أصوله النظرية، وهذا منشأ التكلف والعنت في كثير من محاولات تطبيق المنهج المادي، ومنها تطبيقه على تاريخ الدعوة الإسلامية.

الشبهة التاسعة عشرة

ادعاء أن الإسلام وباءٌ مهلك وداءٌ خطير على البشرية كافة (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتوهمين أن الإسلام وباءٌ قاتل وداءٌ موجع للبشرية كافة، وأنه لكي يتم التخفيف من هذا الداء، فإنه يجب عمل إعادة صياغة لأصول الإسلام من قرآن وسنة وتراث تشريعي، وحذف ما لا يتناسب منه مع أمزجة الآخرين، ولا يتماشى مع أهوائهم. وهم بهذا يرمون إلى إسقاط النظم الإسلامية التي جاء بها النبي ﷺ عن ربه ﷻ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) هذه فِرْية واضحة البطلان، لا ظل لها من الحقيقة ولا أثر لها من تعاليم الإسلام ولا من تاريخ المسلمين، وهي تأتي في سياق المنهج الاستشراقي الطاعن في الإسلام بغير حق؛ لتشويه صورته أمام غير المسلمين، وخلخلة عقيدته في نفوس المسلمين.

٢) لا مشكلة للإسلام مع الأديان السماوية السابقة عليه، فهو يعترف بأصلها الصحيح قبل تحريفها، بل إن المشكلة تكمن لدى الطرف الآخر،أي أتباع هذه الديانات المنكرين لنبوة محمد ﷺ غير المعترفين برسالة الإسلام.

٣) بناء على هذا الإنكار، وعلى النزعة الاستعلائية العنصرية لدى الصهاينة الزاعمين أنهم شعب الله المختار، وأنه يسوغ لهم فعل المنكرات في حق الأغيار، فقد ارتكب الآخرون في حق المسلمين ـ وما يزالون ـ ما يستحق الاعتذار عنه، وحذف كل ما يحرض عليه ويؤدي إليه من مرجعياتهم الدينية.

التفصيل:

أولا. المنهج الاستشراقي هو صاحب هذه الدعوى، وهدفه من ذلك تشويه صورة الإسلام لدى غير المسلمين، وخلخلة العقيدة الثابتة لدى المسلمين:

هذه فرية واضحة البطلان، فالإسلام دين كامل، ودوره التاريخي والحضاري الصحي غير المرضى ـ كما يزعمون ـ أمر واضح للعَيَان، وقد أقَرَّ به المنصفون من المستشرقين أنفسهم في شهادات مُسَجَّلة في مراجعهم المتداولة.

ما ينبغي الإشارة إليه هو أصل هذه المسألة وشبيهاتها التي لا يَفْتَأُ يثيرها تيار الاستشراق المغالط الغالب على الحركة الاستشراقية بعامة، الموجه لأهدافها ومراميها، وهو ما يصوره د. محمد خليفة حسن بقوله:

"يمثل الفكر الاستشراقي في معظمه حركة فكرية غربية مضادة للإسلام والمسلمين، وقد ترك هذا الفكر آثارًا سلبية كثيرة في الفكر الإسلامي، تظهر بَصَماتها واضحة في المجتمعات الإسلامية وفي أنشطتها

(*) قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، عبد الودود يوسف، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٨م.

المختلفة، ويُعْتَبَرُ الاستشراق مسئولًا مسئولية مباشرة عن عملية الغزو الفكري المتواصل للثقافة الإسلامية، إذ لا يكاد يخلو مجال من مجالات الحياة الإسلامية من أثر للفكر الاستشراقي، وعن طريق الاستشراق يحاول الغرب المحافظة على مكاسبه الثقافية التي جناها في المرحلة الاستعمارية، وتوسيع دائرة نفوذه الثقافي، وتوجيه الحياة ـ الشرقية عامة، والإسلامية خاصة ـ وجهة غربية، وعلى الرغم من وجود بعض الإيجابيات للفكر الاستشراقي، فإن حجم الآثار السلبية وعمق هذه الآثار في المجتمع الإسلامي لا يمكن مقارنته بالفائدة التي تحققت من خلال الآثار الإيجابية، فالاستشراق أهدافه غربية خالصة، ونتائجه بالنسبة للمجتمع الإسلامي نتائج خطيرة، تسعى إلى مَحْوِ الصفة الإسلامية وطَبْع المجتمع الإسلامي بطابع الثقافة الغربية"[١].

وحول أثر هذا الفكر الاستشراقي في تشويه صورة الإسلام والمسلمين يقول المؤلف نفسه: "ومن الآثار السلبية للفكر الاستشراقي تشويه صورة الإسلام والمجتمع الإسلامي في الغرب، ويُعْتَبَر هذا الأمر من أخطر الآثار السلبية للاستشراق، فالمسلمون في بلادهم ثابتون على عقيدتهم، عاملون بها ومطمئنون إليها، بينما صورة الإسلام خارج العالم الإسلامي يتم تشويهها وتقديمها في صورة مزيفة غير حقيقية بواسطة الاستشراق.

وهي صورة تعطي انطباعًا سلبيًّا للإسلام دينًا وحضارة في ذهن الإنسان الذي تلقى معرفة عن الإسلام من خلال المستشرقين، الذين يمثلون المصدر المعرفي الأساسي للمعلومات الخاصة بالإسلام وبالمجتمعات الإسلامية، ولا يوجد مصدر آخر للمعلومات يمكن الاعتماد عليه في تحسين الصورة الإسلامية، أو إحداث التوازن المطلوب وإعطاء البديل المعرفي للاستشراق.

وهنا يجب الإشارة إلى تقصير المسلمين في هذا الجانب؛ إذ إنهم حيث تركوا الاستشراق يسيطر على المعرفة الخاصة بالإسلام في الغرب، والواجب تكثيف المجهود العلمي في دائرة الكتابة عن الإسلام وحضارته ومجتمعاته باللغات الأوربية الحديثة، والاهتمام بترجمة الكتب الإسلامية الجيدة، التي تعطي صورة حقيقية عن الإسلام؛ حتى يجد القارئ والمثقف والمتخصص الغربي المادة الإسلامية التي نطمئن إلى أنها ستقدم المعرفة الصحيحة والجيدة عن الإسلام ومجتمعاته إلى الغرب.

ولا يخفى أن أحد أهداف الاستشراق الأساسية حَجْبُ المعرفة الصحيحة عن الإسلام، حتى لا يُؤَثِّر هذا الدين الكامل في أهل الغرب، وهي حرب فكرية موجهة لمنع انتشار الإسلام في العالم الغربي، والتعتيم على المثقف الغربي، وإعطائه معلومات خاطئة ومضللة عن الإسلام، وتنفير الغرب منه دينًا وحضارة، ولا شك أن كلمة المستشرقين مسموعة في الغرب؛ لأنهم علماء وتخصصوا في الإسلام وأصبحوا خبراء في شئون المجتمعات الإسلامية، وما يصدرونه من أحكام وآراء عن الإسلام، والمجتمع الإسلامي يتقبله المجتمع الغربي دون أن يشك في صحته، فالمستشرقون الحجة في

١. آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، د. محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث، الإمارات، ط١، ١٩٩٧م، ص٩.

تخصصهم، وعادة ما يُؤْخَذ برأيهم في كل المسائل التي تخص العالم الإسلامي.

وقد اكتسبوا ثقة الإنسان الغربي بما يمثلونه من علم وخبرة نادرة يستعين بها المسئولون الغربيون في الشئون السياسية والاقتصادية والفكرية الخاصة بالبلاد الإسلامية"[1]. هذا هو مكمن الداء وبيت القصيد في القسط الأعظم مما يثار حول الإسلام ونبيه وأهله من شبهات، وتلك هي بواعثه وأهدافه ومراميه من قِبَل الاستشراق المغالط ومن دار في فلكه®.

ثانيًا. الإسلام يعترف بغيره من الديانات الصحيحة السابقة عليه قبل تحريفها، لكن المشكلة تكمن لدى غير المسلمين الذين يرفضون الاعتراف بالإسلام أو نبي الإسلام:

في الأصل، لا مشكلة للإسلام مع الأديان السماوية السابقة عليه التي جاء خاتمًا لها ومهيمنًا عليها؛ فجميعها صدرت عن مصدر واحد، فلا مجال للتناقض أو الخلاف أو الاختلاف بينها، وعن هذا يقول المستشرق الألماني المسلم مراد هوفمان: "إذا سمع مسلم اسم النبي محمد ﷺ أو قرأه في أي نص كما في هذا الكتاب مثلًا، فإنه يدعو للنبي مصليًّا عليه ﷺ، وكذلك يصلي المسلم على سيدنا عيسى عليه السلام إن تَلَفَّظَ باسمه أو سَمِعَه.

قد يبدو هذا غريبًا مفاجئًا للقراء الذين ليسوا على علم كاف بطبيعة الإسلام وفهمه لذاته، ذلك أن الإسلام لا يعد نفسه دينًا جديدًا في مقابل المسيحية؛ لمجرد أنه جاء بعدها تاريخيًّا، بل إنه يرى نفسه إكمالًا وتصحيحًا للدين الداعي إلى الوحدانية المطلقة، التي وصَّى بها إبراهيم ومن بعده من الأنبياء كما نصَّت على ذلك آيات كثيرة بيِّنة، منها قوله ﷻ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى:١٣).

من هذه الزاوية يمكن النظر إلى الإسلام بصفته أقدم الديانات الداعية إلى التوحيد، وإن كان في الوقت ذاته أحدثها تاريخيًّا. إنه إذا غَضَضْنَا الطرف عن أخلاقياته ومبادئه التي تدعو للتسامح، لا يزعم لنفسه الأحقية المطلقة التي تَشْجُب غيرها من الأديان كما تفعل الكاثوليكية بموقفها من الديانات الأخرى، بل إن الأمر أبعد من هذا، فالإسلام يبني صرحه على أساس الديانتين السماويتين اللتين سبقتاه، مُشِيدًا بأنبياء الله، معترفًا ومؤكدًا لجوهرهما الذي لم يُنْسَخ بالوحي. إن الإسلام الحنيف رسالة الوحي إلى الناس كافة في المعمورة كلها، ولنتدبر معًا قوله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (آل عمران).

ليست صلاحية الإسلام ومشروعيته إذن ناتجة عن رفضه لليهودية والمسيحية، وإنما من المقارنة الموضوعية بين الأديان الثلاثة، والواقع أن تلك الديانات تربطها وشائج القُرْبَى، بحيث ترى الفروق التي تفصل فيما

---

١. المرجع السابق، ص١٩، ٢٠.

® في "دوافع المستشرقين إلى ادّعاءاتهم على الإسلام" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

بينها أقل بكثير من التي تفصلها عن البوذية[1] والهندوسية[2] مثلًا، ومن خلال ذلك نتفهم موقف الإسلام في اعتباره عيسى عليه السلام نبيًّا من أنبياء الإسلام، فقد أسلم لله، كما يدل على ذلك المعنى الحرفي اللغوي للفظة "مسلم"، بيد أنه ليس بحال من الأحوال خاتم النبيين.

ومنطلق علم الأصول أو الدين الإسلامي أن محمدًا ﷺ لم يَرِدْ ذِكْرُه في التوراة فحسب، وإنما الإنجيل كذلك، أي في العهدين القديم والجديد، وقد بشَّر عيسى نفسه بمَقْدِم الرسول الذي تعني ترجمة اسمه أحمد مشتقًّا من الحمد: قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ (الصف)، وقد نص في ذلك نصًّا على أنه آخر الأنبياء وخاتم المرسلين".

فليست لدى الإسلام ـ ومن ثَمَّ المسلمين ـ مشكلة مع غيره من الأديان السماوية السابقة عليه، وإنما مشكلته مع ما نتج عن تحريف هذه الأديان ذات الأصل السماوي التوحيدي الصحيح، وما تمخَّض عنه من مثل عقيدة التثليث والصَّلب وغيرهما ـ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٣ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾ (المائدة). قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ (النساء).

لكن المشكلة تكمن في أتباع الديانات السابقة على الإسلام، فهم منكرون لنبوة محمد ﷺ وغير معترفين برسالة الإسلام، وقد ترتب على هذا نتائج يُعَبِّر عنها هوفمان بقوله: "وعلى الجانب المسيحي أن يَكُفَّ عن الزعم قولًا وعملًا بأن لا نجاة أو خلاص خارج الكنيسة، وذلك كما يزعم بابا الفاتيكان الثاني ـ أعلى سلطة للكنيسة الرومية الكاثوليكية ـ هنا نخشى ألا يمتثل القوم طالما أن الكنيسة الكاثوليكية متمسكة بمبدأ رئيس لديها وهو: لا نبي إلا الأنبياء الذين تعترف الكنيسة بنبوتهم، أي أنها قد ترتضي أن يكون الإسلام دينًا يهدي للخلاص، لكنها ترفض رفضًا تامًّا أن تعترف بنبوة محمد، وكونه داعيًا إلى الله على ذلك الصراط المستقيم. الواقع أن بابا الفاتيكان قد وقع في تناقض يَدْمَغه المنطق ويُعْوِزه الصدق، ذلك إذ قرر أن المسلمين يجب معاملتهم بالاحترام الكامل، لكنه أغفل ـ عن عمد ـ الإشارة للقرآن والذي بلَّغ القرآن، وذلك

---

١. البُوذِيَّة: هي ديانة أسَّسها أحد حُكَماء الهند (بوذا (٥٦٤ ـ ٤٨٣) قبل الميلاد)، وهي أقرب إلى فلسفة الحياة منها إلى الدِّين؛ حيث لا تؤمن بإله، وتقوم على التَّجرُّد والزُّهد تخلُّصًا من الشهوات والألم وطريقًا إلى الفناء التام، وتقول بالتَّناسُخ ومبدأ السَّببِيَّة، وتنكر الرُّوحيَّة والبعث والحساب، وهي من أكثر الديانات انتشارًا في الهند والشرق الأقصى.

٢. الهِنْدُوسيَّة: مذهب ديني في الهند.

بشكل مُخْجِل مُخْزٍ"[1].

المشكلة إذن واقعة عند الطرف الآخر، وعليها تَنْبَنِي كثير من مواقفه العدائية المبدئية من الإسلام والمسلمين، وما أكثر ما يموج به العهدان القديم والجديد ـ المحرَّفين ـ لدى اليهود والنصارى من أقوال تحض على نفي الآخر وكراهيته، وتحرض ضده، والأمر نفسه ينسحب ـ بصورة أشد وضوحًا وتطرفًا ـ على مناهج التعليم ـ خصوصًا لدى الكيان الصهيوني ـ وهذا هو ما يحتاج حقًّا إلى إعادة نظر بصورة جذرية لتنقية شوائبه وإزالة كَدَره، وليس القرآن ـ كما يزعم المبطلون ـ هو ما يحتاج إلى تصفية وتكرير وتصويب وتصحيح.

ويتصل بهذا وجوب اعتذار الآخرين للمسلمين ـ لا العكس ـ عن الأخطاء، بل الفظائع التاريخية الفادحة من طرفهم في حق المسلمين، والتي انْبَنَتْ ـ أساسًا ـ على هذا الفكر التحريضي، وهذه المرجعية ذات الطابع العدواني لدى الآخر تجاه المسلمين، وذلك مثل حركة العدوان الصليبي في العصور الوسطى على الشرق الإسلامي، وهو ما تزال ترفضه الكنيسة الكاثوليكية الغربية حتى الآن، رغم أنها اعتذرت لكثير من شعوب العالم عن أخطائها.

ويجب تصحيح ما هو قائم من أوضاع مشابهة، كالاغتصاب الصهيوني لفلسطين، والاحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان، تحت زعم محاربة الإرهاب، ألم ينطلق اللسان بصريح مكنون الجنان، ووصف هذا العدوان الأخير على لسان بعض ساسة الغرب بأنه حملة صليبية جديدة؟!

فمن إذن الذي يتوجب عليه الاعتذار وتصويب أفكاره وتغيير مواقفه؟! تلك الأفكار المغالطة وهذه المواقف المشينة دون مُسَوِّغ! ولا يقولنَّ قائل: إننا ـ حين واتتنا القوة ـ فتحنا بلاد الآخرين وتوسعنا على حسابهم، ففَرْقٌ هائل بين الاحتلال والغزو من ناحية، وبين الفتح الإسلامي من ناحية أخرى، على مستوى الدوافع والممارسات والنتائج.

فالفتح الإسلامي دعوة تنتشر، وعقيدة تتغلغل، وحضارة تُبْنَى، فكم بعث الإسلام أممًا من مرقدها، وانْتَشَلَهَا من وَهْدَة التاريخ حين فتحها المسلمون، والأندلس خير شاهد على ظلام أوربا في العصور الوسطى باعتراف المنصفين من الغربيين أنفسهم، أما الاحتلال والغزو فأرض تُحْتل، وشعوب تُستعبَد، وثروات تُنهَب.

والحق أنه إن وجدت حضارة في التاريخ قَبِلَت الآخر وتفاعلت معه ـ فهي الحضارة الإسلامية، فالعثمانيون ـ مثلًا ـ في عنفوان مجدهم وذروة توسعاتهم في قلب أوربا، استحدثوا ـ أو قل: سلكوا ـ في حكم رعيَّتهم غير المسلمة في البَلْقان وغيرها ما يُسَمَّى بـ"نظام المِلَل"، وهو ترك كل طائفة غير مسلمة تدير شئونها الخاصة، وأحوالها الأسرية والشخصية وفق معتقداتها، وهذا أمر أصيل لدى المسلمين عبر تاريخهم، فانظر ما الذي حل بالمسلمين في شرقي أوربا، حين انحسرت عنه قوة العثمانيين من أهوال وفواجع، آخر تجليات هذه الأهوال كارثة البوسنة، ومأساة كوسوفا، فَمْن ـ مرَّةً أخرى ـ مِنْ واجبه الاعتذار لمن والتكفير عن سيئاته في حقه؟!

---

1. آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، د. محمد خليفة حسن، مرجع سابق، ص٦١.

يقول د. محمد خليفة حسن في دراسته عن آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية: "يعتبر مجال العقيدة الإسلامية من أهم المجالات التي اهتم بها المستشرقون ووجهوا لها النصيب الأكبر من دراساتهم، فقد نشأ الاستشراق[1] في مجال الدراسات الإسلامية أصلًا لدراسة العقيدة الإسلامية، والبحث عن الوسائل والعوامل التي يمكن تطويرها لهدم هذه العقيدة، وتخريبها وتشويه أصولها، ويعتبر الدافع الديني من أهم الدوافع التي وجَّهت المستشرقين لدراسة العقيدة الإسلامية.

فمنذ ظهور الإسلام وانتشاره في العالم النصراني القديم اكتشف الغرب أن الإسلام خطر عظيم يهدد النصرانية في عُقْر دارها، وعندما فشل الغرب في المواجهة السياسية والعسكرية مع المسلمين، ولم يتمكن من وقف الإسلام وانتشاره السريع في البلاد النصرانية وغيرها من بلاد العالم القديم، اتجه إلى دراسة الدين الإسلامي دراسة دينية عَقَدِيَّة متعمِّقة؛ من أجل وضع الخطط الدينية والفكرية للدفاع عن النصرانية بالوسائل الفكرية بعد فشل المواجهة العسكرية.

وهكذا تفرغ عدد من علماء النصرانية واليهودية للتخصص في العقيدة الإسلامية، والبحث عن أنجح الوسائل الفكرية لنقد الدين الإسلامي وتجريحه وتحريفه وتشويه صورته؛ عملًا على منع انتشاره بين النصارى واليهود من ناحية، ولتشكيك المسلمين أنفسهم في أمور دينهم وعقيدتهم من ناحية أخرى.

ومع تطور الدراسات الاستشراقية في العقيدة الإسلامية، جمع المستشرقون بين الهدف الدفاعي عن اليهودية والنصرانية ضد الإسلام، وبين الهجوم على الإسلام في محاولة يائسة لوقف تقدمه ومنع انتشاره، وفي هذا يقول د. حسن المعايرجي: "وقد نما هذا الهجوم الفكري والعَقَدِي وشَبَّ حتى وصل إلى مرحلة متطورة في عصرنا الحاضر، وهو هجوم من شعبتين:

الأولى: شعبة موجهة إلى الشعوب المسيحية لتحصينها ضد الإسلام، الذي انتشر واتسع نفوذه، وذلك بتشويه صورته وتجريحه، والقدح فيه ونقده والتطاول عليه وعلى القرآن وعلى نبي المسلمين، مما كوَّن ما يشبه الجدار السميك من الأفكار السوداء عن هذا الدين الحنيف.

أما الشعبة الثانية: فهي الشعبة الموجهة إلى المسلمين فيما نراه من هجمات تبشيرية بَشِعَة على أمة الإسلام، إن هذا الهجوم العقدي الفكري أخذ يتطور مع السنين حتى أصبح عِلْمًا، أو علومًا لها مدارس ومناهج، وما الاستشراق ومقارنة الأديان ومعاهد الدراسات الشرقية في الجامعات الغربية إلا من ثمار هذا الهجوم الفكري".

وعلى الرغم من أن الاستشراق لم يتمكن عبر تاريخه الطويل من تحريف العقيدة الإسلامية، وفشل في تحقيق هدف تشويه الإسلام، فقد نجح في إثارة العديد من المشاكل الدينية، والقضايا العقدية التي شغلت المسلمين من ناحية في الرد على شبهات الاستشراق في مجال العقيدة، ودفعت المسلمين إلى اتخاذ موقف الدفاع ضد الاستشراق، وهو الأمر الذي كان له تأثيره على الفكر الإسلامي الحديث، وصَبْغُه بالصِّبْغَة الدفاعية،

---

١. الاستشراق: عناية واهتمام بشئون الشرق وثقافته ولغاته، أو هو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وإعادة بنائه وبسط النفوذ عليه.

وإبعاد العلماء المسلمين عن الدراسة العلمية المتعمقة في أمور دينهم، والسعي إلى حل القضايا الإسلامية المعاصرة من خلال التأمل العميق في تراثهم الإسلامي، وإيجاد الحلول المناسبة لدينهم وحضارتهم لمشاكل الحياة الإسلامية الحديثة، وقضايا التنمية التي تواجهها البلاد الإسلامية في هذه الأيام.

لقد نجح الاستشراق في جذب الفكر الإسلامي الحديث إلى النظر في المشاكل والشبهات التي يثيرها المستشرقون، ووضع المسلمين في موقف الدفاع، وصرف نظرهم عن التعمق في أمور دينهم، وأجبرهم على متابعة القضايا الكَيْدِيَّة الكاذبة والشبهات والتحريفات والأباطيل التي امتلأت بها الكتابات الاستشراقية"[1] ®.

ثالثًا. الأوْلى أن يعتذر أصحاب الديانات الأخرى عما بدر منهم في حق الإسلام والمسلمين لا العكس، ولكن النزعة الاستعلائية العنصرية من قِبَل هؤلاء تحول دون ذلك:

من المناسب هنا أن نورد مقارنة أجراها د. "محمد عمارة" بين المنهج الإسلامي في معاملة الآخر والنزعة العنصرية الدموية لعقيدة شعب الله المختار عند اليهود، يقول: في مقابل المنهاج الإسلامي الذي يخضع الخيرية في الأمم والشعوب والحضارات للسببية والأسباب، ويجعلها ثمرة للصفات المكتسبة المتاحة للأفراد والجماعات، نجد النزعة العُنْصُرِيَّة في التراث اليهودي وفي تاريخ الجماعات اليهودية، وفي الممارسات الصهيونية القائمة في واقعنا المعاصر الذي نعيش فيه.

لقد حوَّلت هذه النزعة العنصرية شريعة اليهودية التي جاء بها موسى عليه السلام عن جوهر التوحيد، الذي يجعل الله عز وجل واحدًا أحدًا وربًّا لكل العالمين، إلى حيث احتكرته لذاتها - على قلة عدد أصحابها - جاعلة للشعوب الأخرى آلهتها، وحولت هذه النزعة العنصرية معايير التدين باليهودية عن أصولها الطبيعية والمنطقية، فبدلًا من أن يكون الإيمان الديني والالتزام بمنظومة القيم والأخلاق وعبادة الله وفق ما جاءت به الشريعة اليهودية الصحيحة، جعلوها معايير عرقية وعنصرية بيولوجية، فاليهودي - في هذه النزعة العنصرية - هو المولود من أم يهودية حتى ولو انقطعت علاقاته بجوهر الدين، وبعبارة المفكر اليهودي "إسرائيل شاحاك": "فإن كون الإنسان يهوديًّا يعتمد على الانحدار من سلالة الأم، وليس على الإيمان الفعلي للشخص".

وَحَوَّلَتْ هذه النزعة العنصرية تعابير الخيرية من الأسباب والصفات الموضوعية والمكتسبة، إلى حيث جعلوها احتكارًا موروثًا في نطاق هذه القلة التي تدَّعي الانتساب إلى العبرانيين القدماء، فقالوا: ﴿أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ (المائدة:١٨)، وزعموا أنهم وحدهم - وبصرف النظر عن المؤهلات والصفات - هم شعب الله المختار الذين اصطفاهم واختارهم، بل قدسهم دون العالمين، وفوق جميع العالمين.

---

١. آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، د. محمد خليفة، مرجع سابق، ص١١: ١٣.

® في **"الاعتراف بالآخر بين الإسلام واليهودية والنصرانية"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان). وفي **"حوار الإسلام مع الآخر: حدوده وضوابطه"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

وانطلاقًا من هذه النزعة العنصرية التي احتكرت الخيرية وارتفعت بها إلى مستوى القداسة والعِصْمة، عصمة الذين يفعلون ما يريدون، ولا يُسْألون عما يفعلون! كان العداء والاحتقار والكراهية والاستباحة لكل الأغيار الذين يبلغون اليوم أكثر من ستة مليارات نسمة في مقابل ثلاثة عشر مليونًا من اليهود! فكل هؤلاء الأغيار ـ أي كل خلق الله تقريبًا ـ مُسْتَباحة حُرُماتهم وأعراضهم ودماؤهم وأموالهم وأوطانهم؛ لأنهم ليسوا من "شعب الله المختار" المقدس دون جميع الشعوب.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النزعة العنصرية فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة)، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (آل عمران)، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (البقرة).

لقد فتح القرآن الكريم أبواب النجاة أمام كل الذين يؤمنون بوحدانية الله، ويؤمنون بالغيب، ويعملون الصالحات على تنوع الشرائع الإلهية التي اتخذوها سبيلًا للتعبير عن أصول هذا الإيمان فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (البقرة)، ودعا القرآن كل أمم الرسالات السماوية إلى كلمة سواء فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (آل عمران).

وقررت السنة النبوية ـ في الممارسات الحياتية والاجتماعية وحقوق المواطنة ـ كامل المساواة لكل البشر على اختلاف الأجناس والألوان والمعتقدات: "لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم"، ولقد نهض رسول الله ﷺ احترامًا لحرمة جنازة يهودي، فلما تساءل بعض أصحابه: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي؟ قال ﷺ: "أليست نفسًا"[1]؟

وصنع ذلك صحابته مع جنازات مجوسية إبَّانَ التحرير الإسلامي للعراق، وكتب الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في عهد تولية واليه على مصر الأشتر النخعي (٣٧هـ/ ٦٥٧م) يُعَلِّمه هذه القِيَم الإسلامية، فقال له: "الناس صِنْفان؛ إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخَلْق".

لكن النزعة العنصرية لعقيدة شعب الله المختار، قد

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (١٢٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٢٢٦٩).

جعلت اليهود ـ بنص الأسفار التي كتبوها بأيديهم، ثم قالوا: هي من عند الله، وبنص شروحها المرجعية في التلمود ـ يقولون: إن كلمة "نفس" تعني: اليهودية، ويُسْتَثْنَى منها غير اليهود والكلاب! وانطلاقًا من هذه النزعة العنصرية في احتكار الخيرية، بل احتكار الإنسانية، أفاض التلمود في الحض على: لعن الأغيار، وإسقاط الأهلية عن كل الأغيار، وإباحة النصب على الأغيار والخداع لهم، وإباحة سرقة الأغيار، والحض على الربا في التعامل مع الأغيار، بل إباحة الزنا بنسائهم؛ لأن كل النساء غير اليهوديات عاهرات.

وإذا كانت مجلدات التَلْمود هي الشريعة المعتمدة التي شرحت أسفار العهد القديم، فإن هذه الأسفار هي المرجعية العُلْيا المعتمدة، لا عند اليهود فقط، بل عند النصارى أيضًا، وهي الينبوع الطافح بهذه العنصرية الدموية، المكوِّنة لثقافة الكراهية السوداء ضد سائر الأغيار من مختلف الأمم والشعوب والديانات والحضارات، أي ضد سائر خلق الله.

ولو أن هذه العقيدة العنصرية الدموية قد وقفت عند اليهود، لهان الأمر بعض الشيء، ولجاز أن نقول: إنها شذوذ فكري تقف حدوده وتأثيراته الكارثية عند أقلية لا يتعدى عددها ثلاثة عشر مليونًا من الناس، لكن الطامة الكبرى أن أصبحت هذه العقيدة العنصرية الدموية عقيدة دينية للصليبية الغربية، التي تلعب الدور الأكبر في توجيه السياسة الدولية الحديثة والمعاصرة، فمنذ التحول العقدي الذي أحدثه "مارتن لوثر" (١٤٨٣ ـ ١٥٥٦م) في النصرانية الغربية، أصبح العهد القديم مرجعية مقدسة في هذه النصرانية ـ وخاصة البروتستانتية منها ـ وأصبحت هذه المسيحية الغربية ـ في جملتها ـ مسيحية صهيونية، ومن ضمن الإعلانات المفصحة عن هذه العقيدة السائدة لدى هؤلاء ما يأتي:

فالرئيس الأمريكي "ليندون جونسون" يخطب أمام إحدى المنظمات اليهودية الأمريكية ـ في العاشر من سبتمبر سنة ١٩٦٨م، أي عقب انتصار إسرائيل في حرب الأيام الستة ـ فيقول لهم: إن لأكثركم ـ إن لم يكن لجميعكم ـ روابط عميقة مع أرض ومع شعب إسرائيل، كما هو الأمر بالنسبة إلي، ذلك لأن إيماني المسيحي انطلق من إيمانكم، إن القصص التوراتية محبوكة مع ذكريات طفولتي.

أما الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ـ فإنه يضع كل النقاط على جميع الحروف، عندما يعلن ـ في خطاب أول مايو ١٩٧٨م ـ: "إن العودة إلى أرض التوراة التي أُخرج منها اليهود منذ مئات السنين، وإن إقامة الأمة الإسرائيلية في أرضها، هو تحقيق لنبوءة توراتية، وهي تشكل جوهر هذه النبوءة"..

أما قساوسة اليمين الديني والمسيحية الصهيونية فإنهم يعلنون بلسان رئيس التحالف المسيحي المسيطر على الكونجرس الأمريكي، والمتحكم في معركة الرئاسة الأمريكية القس "بات روبرتسون": إن هذه الأرض ـ أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات ـ هي أرض الله، وإن لله كلمات قوية تجلب الغضب على من يُقسِّم أرضه.

ثم يأتي القس "كلارنس واجنر" ليعلنها صريحة:"إن إسرائيل هي كيان إلهي مقدس، لا تطبق عليها القوانين البشرية؛ لأنها قانون توراتي لشعب الله المقدس والمختار والمعصوم.. علينا أن نشجع الآخرين على فهم الخطط الإلهية، وليس الخطط التي هي من صنع الإنسان

في الأمم المتحدة، أو الاتحاد الأوربي، أو في أوسلو أو واي ريفير... إلخ، إن الله بعيد عن أي مخطط يُعَرِّض مدينة القدس للصراع، بما في ذلك منطقة جبل الهيكل وجبل الزيتون - حيث المسجد الأقصى - وهو - الله - أبعد ما يكون عن إعطاء القدس للعالم الإسلامي، إن المسيح لن يعود لمدينة إسلامية تُدْعَى "القدس"، ولكنه سيعود إلى مدينة يهودية موحدة تُدْعَى "جروزالم".

تلك هي النزعة العنصرية الدموية لعقيدة شعب الله المختار، كما تجلت في نصوص العهد القديم والتلمود والسياسة والثقافة التي تحكم الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، وتلك هي الأبعاد التي اتخذتها هذه العقيدة في المسيحية الصهيونية الغربية، وفي الفكر الحاكم والموجه لمشروع الهيمنة الغربية.

فأين هذه النزعة العنصرية الدموية الخرافية من النزعة الإنسانية التي تجلت فيها العدالة الإلهية، التي حكمت المنهاج الإسلامي في تحديد الصفات والشروط والمعايير الحاكمة لخيرية الأمة الإسلامية، وصدق الله تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠)، والحمد لله على نعمة الإسلام، وإنسانية الإسلام، وعدالة المنهاج الإسلامي في العلاقات بين الأمم والشعوب والديانات والحضارات[1].

وبهذا يتبين لنا أن الداء الحقيقي الذي لا بد أن يُمحَى نهائيًّا هو ذلك الداء المتأصل في نفوس أعداء الإسلام من المسيحيين واليهود، الذين يحملون كل أنواع الكيد والحقد والغل للإسلام والمسلمين، لا لشيء إلا لأنهم يعتقدون أنهم شعب الله المختار، لذلك فهم الأسياد وغيرهم العبيد، أما منهج الإسلام الواضح الجلي، فإنه لا يفرق بين دين وآخر، ولا بين إنسان وآخر، فهو دين الفطرة السمحة الذي ختم الله به الرسالات، فالناس في الإسلام سواسية لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح. إذن فالذي يجب إعادة صياغته هو تشريعهم المفرق والمغاير لتعاليم الله الصحيحة.

الخلاصة:

- الهدف الرئيس المستقر لحركة الاستشراق - بأكثريتها المغالطة - من البداية هي إثارة البلبلة حول الإسلام وتاريخ المسلمين واختلاق الشبهات لغرضين:
  - الإساءة لصورة هذا الدين الإسلامي وتشويهها أمام غير المسلمين، حتى لا يحقق مزيدًا من المد والانتشار بينهم، أو للتخفيف - على الأقل - من انتشاره اللامحدود وقبوله المتزايد لديهم.
  - هز صورته في نفوس معتنقيه وخلخلة اعتقادهم الراسخ فيه.
- لا مشكلة لدى الإسلام ولا المسلمين تجاه الأديان السابقة التي يعترف الإسلام بأصلها السماوي الصحيح غير المحرف، والمسلمون مأمورن بإحسان معاملة غير المسلمين، بدافع من مبادئ دينهم السَّمْح ما سالموهم، في حين أن المشكلة تكمن لدى الطرف الآخر غير المسلم، المنكر لنبوة رسول الإسلام محمد ﷺ غير المعترف برسالته، وبالتالي يستحلون في حقه وحق

---

١. النزعة العنصرية لعقيدة شعب الله المختار، مقال د. محمد عمارة، مجلة الرسالة، العدد ٤٠، محرم ١٤١٨هـ/ يونيه ١٩٩٧م.

أهله كل محرم ويستحسنون كل قبيح.

- بناء على هذا الإنكار من طرف الآخرين لرسالة الإسلام ونبوة رسوله ﷺ، وبالإضافة إلى النزعة الاستعلائية العنصرية لدى الصهاينة، الزاعمين أنهم شعب الله المختار الذي سوغ لهم اقتراف كل منكر في حق غير اليهود دون حرج، بناء على هذا فقد ارتكب الآخرون الكثير من الجرائم في حق المسلمين، ولعل أبرز محطاتها أفعال الصليبيين المنكرة، ومذابحهم الشنيعة إبَّان العصور الوسطى في الشرق الإسلامي والأندلس، وما ارتكبوه بحق شعوب مستعمراتهم الإسلامية خلال حركة تطويق العالم الإسلامي ـ المعروفة بالكشوف الجغرافية ـ في مطلع العصر الحديث وما بعده، وصولًا إلى ما يرتكبه الصليبيون والصهاينة وغيرهم في حق المسلمين، مما لا يكفي ولا يليق في حقه مجرد الاعتذار، وحذف ما يُحَرِّض على ارتكابه ـ دون حرج ـ من مرجعياتهم الدينية وأصولهم الاعتقادية، لا أن يطالبوا المسلمين بذلك.

الشبهة العشرون

دعوى أن الإسلام يرسي مبادئ العنصرية والتعصب(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن الإسلام وضع بعض المبادئ التي تتسم بالعنصرية والتعصب، إذ إنه لم يُسَوِّ بين المسلمين وغير المسلمين في الحقوق والواجبات، وفي ذلك إهدار لإنسانية غير المسلم وحطٌّ لكرامته، هادفين من زعمهم هذا إلى تشويه حقيقة الإسلام والمسلمين في تعاملهم مع الغير.

وجوه إبطال الشبهة:

١) تكريم الإسلام للإنسان والارتقاء به، واستخلافه في الأرض واستعماره فيها من أهداف الدعوة الإسلامية ومقاصدها.

٢) إرساء الإسلام لمبادئ المساواة العامة وتأصيلها والحض عليها. كان من أول المبادئ في البعثة، بل هو الأساس الذي قامت عليه رسالة الإسلام العالمية.

٣) في المجتمعات الإسلامية تُصان الأقلية في ضوء احترام قيم ومشاعر الأكثرية.

٤) عنصرية غير المسلمين ترجمة لمعتقداتهم الزائفة، فكل إناء بما فيه ينضح.

التفصيل:

أولا. تكريم الإسلام للإنسان والارتقاء به، وَجعْلُهُ خليفةَ الله في الأرض.

إن أعظم ما امتازت به شريعة الإسلام هو تكريمها للإنسان، ولم يبلغ شأوها في ذلك ـ لا تشريعات سماوية، ولا قوانين وضعية، فقد ارتقت بالإنسان إلى حد أن أسجد الله له الملائكة، على نحو ما ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (ص)، وموجبات هذا التمييز

(*) مواطنون لا ذميون، د. فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م. موقع مفكرة الإسلام.

لإنسان أن الحق تعالى قد اصطفاه من بين جميع خلقه؛ ليكون خليفة عنه في الأرض يعمرها ويحميها من الفساد، مستثمرًا ما هيَّأه له الله تعالى فيها من الجهاد والمعاش، حتى يمكِّن فيها لكلمات الله من الحق والعدل والإصلاح[1].

وعن تكريم الإسلام للإنسان، ومعايير هذا التكريم يحدثنا المفكر الإسلامي الكبير فهمي هويدي قائلًا: "إن الكتابات الإسلامية التي تعالج موضع الإنسان من قريب أو بعيد، لا تكف عن ترديد عبارات التكريم، والاستخلاف التي يحفل بها القرآن الكريم. وهي ترسم صورة رائعة بحق لقيمة هذا المخلوق العظيم، التي تحدد ملامحها العديد من الآيات الكريمة، في مقدمتها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء)، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (التين)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ (الأعراف:١١)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠)، ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر).

ومن أوقع التعقيبات على الآيات، ما كتبه الشيخ محمد الغزالي في مدخل كتابه "حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام والأمم المتحدة"، وقال فيه: إن قَدْر الإنسان في نظر الإسلام رفيع، والمكانة المنشودة له تجعله سيدًا في الأرض وفي السماء، ذلك أنه يحمل بين جنبيه نفخة من روح الله، وقبسًا من نوره الأقدس.

وهذا النسب السماوي هو الذي رشح الإنسان ليكون خليفة عن الله في أرضه، وهو الذي جعل الملائكة، بل صنوف المخلوقات الأخرى، تعنو له وتعترف بتفوقه.

إن الآيات التي تمجد الإنسان وتُعْلِي مرتبته فوق كل المخلوقات، تتناول الإنسان لذاته لا لاعتقاده، من حيث هو تكوين بشري، وقبل أن يصبح مسلمًا، أو نصرانيًّا، أو يهوديًّا، أو بوذيًّا، وقبل أن يصبح أبيض، أو أسود، أو أصفر.

وليس صحيحًا على الإطلاق أن تلك الحفاوة القرآنية من نصيب المسلمين دون غيرهم كما يتصور بعض الواهمين، ذاك أن النصوص القرآنية شديدة الوضوح في هذه النقطة بالذات، فهي تارة تتحدث عن "الإنسان" وتارة تتحدث عن "بني آدم"، ومرات أخرى تُوَجِّه الحديث إلى "الناس". وهذا التعميم لا تَخْفَى دلالته على أي عقل منصف، ومدرك للغة الخطاب في القرآن الكريم، التي تستخدم موازين للتعبير غاية في الدقة، تحسب بها متى يكون الخطاب للإنسان وللناس بعامة، ومتى يُوَجَّه الكلام للمؤمنين والمسلمين قبل غيرهم.

إن الكرامة التي يقررها الإسلام للشخصية ليست كرامة مفردة، ولكنها كرامة مثلثة: كرامة هي عصمة وحماية، وكرامة هي عزة وسيادة، وكرامة هي استحقاق وجدارة.. كرامة يستغلها الإنسان من طبيعته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء:٧٠)، وكرامة تتغذى من عقيدته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨)، وكرامة يستوجبها بعمله

١. رسائل إلى عقل الغرب وضميره، د. عبد الصبور مرزوق، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص١١.

وسيرته، قال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ (الأحقاف:١٩)، ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ (هود:٣).

أوسع هذه الكرامات وأعمها وأدومها، تلك الكرامة الأولى التي ينالها الفرد منذ ولادته، بل منذ تكوينه، بل منذ تكوينه جنينًا في بطن أمه.. كرامة لم يُؤَدِّ لها ثمنًا ماديًّا ولا معنويًّا، ولكنها منحة السماء التي منحته فطرته، والتي جعلت كرامته وإنسانيته صنوين مقترنين في شريعة الإسلام.

ما حقيقة تلك الكرامة؟.. إنها قبل كل شيء سياج من الصيانة والحصانة.

هي ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد من البشر: ذكرًا أو أنثى، أبيض أو أسود، ضعيفًا أو قويًّا، فقيرًا أو غنيًّا، من أي ملة أو نحلة فرضت.. ظل ظليل ينشره قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يُسْفَك، وعرضه أن يُنْتَهَك، وماله أن يُغْتَصَب، ومسكنه أن يُقْتَحَم، ونسبه أن يُبَدَّل، ووطنه أن يُخْرَج منه أو يُزَاحَم عليه، وضميره أن يُتَحَكَّمَ فيه قسرًا، أو أن تُعَطَّل حريته خداعًا ومكرًا.

كل إنسان له في الإسلام قُدْسِيَّة الإنسان، إنه في حِمًى مَحْمِيٍّ وَحَرَمٍ مُحَرَّمٍ، ولا يزال كذلك حتى يُهْتِكَ هو حُرْمَةَ نفسه، ويَنْزِع بيده هذا السِّتْرَ المضروب عليه، بارتكاب جريمة ترفع عنه جانبًا من تلك الحصانة، وهو بعد ذلك بريء حتى تثبت جريمته، وهو بعد ثبوت جريمته لا يفقد حماية القانون كلها؛ لأن جنايته سَتُقَدَّر بِقدرها؛ ولأن عقوبته لن تجاوز حدها، فإن نزعت عنه الحجاب الذي مزقه هو، فلن تُنْزَعَ عنه الحجب الأخرى.

بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه، كما يحمي أبناءه وأولياءه.. إنه يحمي أعداءه في حياتهم، ويحميهم بعد موتهم، يحميهم في حياتهم، فَيَحُول دون قتالهم إلا إذا بدءوا بالعدوان، ويحميهم في ميدان القتال نفسه، إذ يُؤَمِّنهم من النهب والسلب، والغدر والاغتيال. ثم يحميهم بعد موتهم؛ إذ يُحَرِّمُ أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل وَلِمَ لا؟ أليسوا أَنَاسِيَ؟ فلهم إذن كرامة الإنسان.

هذه الكرامة التي كرم الله بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها، هي الأساس الذي تقوم عليه العلاقات بين بني آدم".

أليست نفسًا؟

هذه الحقيقة الكبرى في التصور الإسلامي، كانت لها أصداؤها، في عديد من النصوص والشواهد، ففي ظلها تفهم أبعاد البيان الإلهي في سورة المائدة: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة:٣٢).

وهو تصور بالغ القوة في الدلالة على بشاعة جريمة قتل الإنسان ظلمًا بغير حق؛ إذ هي في هذا النص ليست عدوانًا على الفرد فقط، ولا عدوانًا على المجتمع، كما تنص القوانين الجزائية أو الجنائية الوضعية، ولكنها شيء أكبر وأفدح: إنها عند الله ﷻ عدوان على الناس جميعًا، على الجنس البشري بأسره! إن النص القرآني هنا يتحدث عن "النفس الإنسانية" وعن "الناس"، دون تفرقة بين لون وجنس وملة؛ "لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس"، كما يقول ابن كثير، فضلًا عن أن الآية

"تعلمنا ما يجب من وحدة البشر، وَحِرْص كل منهم على حياة الجميع، واتقائه ضرر كل فرد؛ لأن انتهاك حرمة الفرد انتهاك لحرمة الجميع. والقيام بحق الفرد من حيث إنه عضو من النوع، وما قرر له من حقوق المساواة في الشرع، قيام بحق الجميع"، كما يقول الشيخ رشيد رضا.

وفي ظل تلك الحقيقة الكبرى نفهم قول النبي ﷺ، فيما ذكره عنه هشام بن حكيم: "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا"[1]. فالعدوان على كرامة الإنسان هنا لا يكفي فيه العقاب الدنيوي ـ إن وجد ـ وإنما تلك وصمة تلاحق المعتدي في الآخرة، حيث يلقى جزاءه عند الله ﷻ أيضًا في الآخرة.

وفي ظلها أيضًا نقرأ أن النبي ﷺ قام من مجلسه احترامًا لجُثْمان ميِّت مرَّ أمامه وسط جنازة سائرة، فقام من كان قاعدًا معه، ثم قيل له فيما يشبه التنبيه ولفت النظر: إنها جنازة يهودي؟ عندئذ جاء رد النبي ﷺ واضحًا وحاسمًا: "أليست نفسًا"[2]؟

ومن هذا المنطق كان عقاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن واليه على مصر عمرو بن العاص، عندما ضرب صبيًّا قِبْطِيًّا، فأصرّ عمر على أن يقتصَّ الصبي القبطي من ابن عمرو بن العاص، قائلًا له: اضرب ابن الأكرمين!! ثم وَجَّهَ قوله إلى القائد المسلم قائلًا: مُذْ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا[3].

وقد استحضر الإمام علي بن أبي طالب تلك المعاني في كتابه إلى مالك الأشتر، حين ولاه مصر بعد مقتل محمد بن أبي بكر، عندما قال: "وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم، واللطف بهم.. فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخَلْق".

ومن هذا الشعور العميق بقيمة الإنسان، فإن الإمام أبا حنيفة أفتى بعدم جواز الحَجْر على السفيه؛ لأن في هذا الحَجْر إهدارًا لآدميته، ولما كان الضرر الذي يصيب إنسانيته من جَرَّاء هذا الحَجْر أكبر من الضرر المادي الذي يترتب على سوء تصرفه في أموالهم، فإنه لا يجوز دفع ضرر بأعظم منه، ولا يجوز ـ في رأيه ـ الحَجْر عليه، إذ المساس بالمال محتمل وإن أضر، لكن المساس بقيمة الإنسان غير مقبول وغير محتمل، وإن أفاد.

هكذا تظل قيمة الإنسان واحدة من الثوابت الأساسية في التفكير الإسلامي، التي لا تقبل الانتقاص بأي قدر، وإن قبلت الإضافة إلى أبعد مدى. ويظل أي انتهاك لهذه القيمة بمثابة تصادم وتناقض مُبَاشِرَيْنِ مع دعامة أساسية في التصور الإسلامي بنصه وروحه.

نداءات إلى كل البشر:

لكن النصوص الإسلامية لم تَكْتَفِ بالتأكيد على القيمة المطلقة للإنسان، ولكنها أقامت انطلاقًا من تلك الحقيقة الكبرى، ذلك الكم من الجسور الذي يفتح الطريق واسعًا لإخوة بني الإنسان، من أجل بناء حياة

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والأدب، باب الوعيد الشديد عن عذاب الناس بغير حق (٦٨٢٤)، وفي مواضع أخرى.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي (١٢٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة (٢٢٦٩).

٣. أخرجه علاء الدين البرهان فوري في كنز العمال، كتاب فضائل الفاروق ﷺ، باب عدله ﷺ (٣٦٠١٠).

تملؤها المودة والرحمة.

فثمة نصوص مباشرة في هذا المعنى خاطبت كافة خلق الله تبارك وتعالى، من كل جنس ولون وملّة؛ منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ (النساء١)، وقوله تعالى: ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (لقمان).

وقال رسول الله ﷺ: "أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر - فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت، اللهم فاشهد، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب"[١].

إن هذه النصوص تذكّر بالأصل الواحد لبني الإنسان، وتنبه إلى أن ثمة حكمة إلهية في اختلاف الخلق شكلًا وموضوعًا، مؤكدة أنه ليس في هذه الدنيا إنسان بطبيعته أفضل من إنسان؛ إذ الكل من نفس واحدة، أبوهم آدم وأمهم حواء. والتفاضل أمام الله ﷻ له معيار واحد هو: التقوى والإيمان والعمل الصالح.

وثمة نصوص قرآنية أخرى في السياق ذاته تخاطب أصحاب الأديان الذين يؤمنون بالله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (البقرة)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (المائدة)[٢].

وعلى صعيد ثالث - في ذات الاتجاه - تخاطب المسلمين مجموعة أخرى من النصوص، مُذَكِّرة ومُنَبِّهة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ (الشورى:١٣)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ ﴾ (النساء)، وقال ﷻ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ (البقرة).

هنا تفتح الآيات باب التلاقي بين المسلمين وغيرهم، مُعْلِنَةً أن المسلمين مؤمنون بكل الأنبياء، والرسل، وأن جوهر الرسالات السماوية واحد في غير تعارض أو تنافر.

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٥٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، فصل ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء وخصوصًا بالجاهلية والتعظيم (٥١٣٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

٢. وهذا الخطاب لأصحاب الأديان قبل تحريفها، وإثبات الإيمان لهم لا يكون إلا بعد إيمانهم بمحمد ﷺ؛ إذ هو من أساسيات عقائدهم كما في كتبهم قبل تحريفها، أما بعد تحريف كتبهم وعدم إيمانهم بمحمد ﷺ فلا تنطبق عليهم الآيات.

وعلى صعيد رابع تخاطب النصوص النبي محمدًا ﷺ مُعَزِّزة معاني وحدة الأديان، وبشرية الرسالة، وهدف البعثة الأكبر، قال تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ (فصلت)، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء).

هذه النصوص في مجموعها تقيم في حقيقة الأمر عديدًا من نقط اللقاء بين المسلمين والآخرين، وتشق جسورًا تسع كل جهد مخلص من أجل إقامة عالم يحفظ للإنسان كرامته وسعادته ورخاءه"[1] ®.

مبدأ المساواة ـ اللاعنصرية ـ من المنظور الإسلامي:

الإسلام هو الدين الخاتم لرسالات السماء، وقد صار له بهذا امتياز على الأديان التي تَقَدَّمَتْه؛ لأن للأخير من كل شيء ميزة ليست لما تقدَّمه، وقد صرح القرآن الكريم بأن محمدًا رسول الإسلام آخر المرسلين، وأنه أرسل للناس أجمعين، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (الأحزاب)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سبأ). وهذا ما لم تدعه الكتب السابقة ولا أنبياؤها، فقد أرسل موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ مثلًا لبني إسرائيل.

ولما كان الإسلام دينًا عامًّا شرعه الخالق لهداية الشعوب جميعها أبيضها، وأصفرها، وأحمرها، وأسودها، فقد محا امتيازات الأجناس والعناصر، وحارب العصبيات، وقرر مبدأ المساواة العامة.

وحول هذا الموضوع خصص الأستاذ رجائي عطية مبحثًا بعنوان "دوحة المساواة في الإسلام" في كتابه "عالمية الإسلام"، ومما جاء فيه: "تنتمي حقوق الإنسان في الإسلام، وفي مقدمتها مبدأ "المساواة" إلى شجرة باسقة في دوحة ظليلة، تمثل ركنًا ركينًا من أركان هذه الدعوة العالمية التي أراد لها الله ألا تكون محدودة بمكان أو مقصورة على أقوام، أو مطوية في زمن واحد من الأزمان، عالمية الإسلام، تعني أنه دين العالمين من يوم نزلت الرسالة، وإلى يوم الدين، لا تحده أرض، ولا ينقضي بزمن، ولا يَسْتَأْثِر أو يَخْتَصُّ به قوم دون أقوام، ولا جيل دون أجيال. هذا الاتساع الكوني للدعوة، جعلها تطوي في حناياها كل الرسالات، وأوجب أن تتسع لكل الناس.

هذه الدعوة يتجه خطابها إلى الناس كافة، أمس، واليوم، وغدًا، على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وظروفهم وأحوالهم.

وتنوع الخلق لا حدود له، وتفاوتهم ـ مِنْ ثَمَّ ـ تفاوت واقع حادث لا حد لأشكاله ولا مُوقِف لِسُنَنِه، خطاب الدعوة العالمية يتجه إلى معمورات وحضارات، وإلى فيافٍ وصحارٍ وقفار، إلى بقاع باردة وأخرى

---

١. مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي، مرجع سابق، ص٨٠: ٨٥.

® في **"دونية النظرة المادية إلى الإنسان"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثلاثين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"هبوط الفكر الإلحادي بقيمة الإنسان"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الأولى، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"مراعاة حقوق الإنسان وكرامته في مجال العقوبات"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة عشرة، من الجزء الخامس عشر (السياسة الجزائية).

حارة، إلى أرض غنية وأخرى بلقع، يتجه إلى الذكور وإلى الإناث، إلى الشيوخ والكهول، وإلى الشباب والأطفال، إلى المرضى وإلى الأصحاء، إلى الفقراء وإلى الأغنياء، إلى الضعفاء وإلى الأقوياء، وتفاوت هؤلاء وأولاء حقيقة كونية، فكيف تكون بينهم "مساواة" وكيف يلتئم هؤلاء جميعًا، رغم هذه الاختلافات الهائلة والتفاوت الحتمي، الخلقي والمكتسب؟ كيف يلتئمون جميعًا في شجرة واحدة عمودها "المساواة"؟!

لقد استطاع الإسلام، هذه الدعوة العالمية، أن تحل هذه المعضلة، فتتعامل مع واقع الاختلاف والتفاوت، ولا تنزع عن الآدمي - في الوقت نفسه - إحساسه بالانتماء، وعلى قدم المساواة، إلى هذه الشجرة الإنسانية التي عمادها الإخاء والحرية والمساواة! الناس متفاوتون - ولا بد أن يتفاوتوا.. فلم ينكر القرآن ذلك.

بَيْدَ أن هذا التفاوت الذي يشير إليه القرآن لا يحظى من القرآن بصَكٍّ أو موافقة أو دعم، أو تأييد تقوم به العلاقات، أو تجري التمييزات بين الناس، أو يُصَنِّفُونَ به إلى طبقات، فأنت تلحظ أن القرآن المجيد لم يستخدم بتاتًا لفظ طبقة أو طبقات، وإنما حرص على أن يحدد العبارة في لفظ (درجة) أو (درجات)، فلا طبقات ولا تمايز في الإسلام بين طبقة وأخرى، أو بين عرق وأعراق، أو بين جنس وأجناس، أو بين عصبيات، أو بين أغنياء وفقراء، أو بين أقوياء وضعفاء.

وإنما هي شجرة واحدة لأسرة واحدة يجمعها رباط واحد، لا فرق فيه بين إنسان وآخر، وليس أجزى للإنسان - حيث كان - من دين يطوي الناس في أسرة إنسانية واحدة لا تفاضل بين أفرادها إلا بالعمل، لا بالحسب ولا بالنسب ولا بالأعراق ولا بالأموال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، حين ترد المفاضلة إلى هذا الميزان، فإنها تجمع بين العدل وبين الحكمة جميعًا، فلا تخذل النَّشِطَ العالِمَ الساعي المجاهد التَّقي الوَرِع، ولا تغلق في الوقت نفسه أبواب الرجاء أمام غيره، وإنما تُبْقِي الباب مفتوحًا، وفي إطار الأخوة التي تَحَدَّثَ عنها القرآن، لارتياد سبل التنافس والتباري على نيل المكانة، التي معيارها الوحيد التقوى والعمل الصالح: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ (المطففين).

هذه المساواة التي رفعها الإسلام، كانت أول ما شق على الأرستقراطية[1] القرشية، والعصبية الجاهلية المخلوطة بالثراء والمكانة. كان أعظم ما استهولته قريش وكبارها أن يجمع النبي ﷺ في مجلس واحد بينهم على ثرائهم وشرف أنسابهم وكريم مَحْتِدهم، وبين الفقراء والعبيد والمستضعفين، فيتقدم رءوس القرشيين إلى النبي ﷺ معارضين طامعين في حل، كيف يجلس إليه، ويريدهم معهم، أمثال بلال الحبشي، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان، والعبيد وعامة الناس، يريدون منه أن يطردهم ويُنَحِّيهم عنه، أو يخصص لهم يومًا وللقرشيين آخر، رعاية لحسبهم ومنزلتهم وأعراقهم وجاههم، فيأبى عليهم النبي ﷺ ما يريدون، ويتنزل في ذلك من الذكر الحكيم ما يقول للنبي ﷺ تأكيدًا لما قاله لهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ

١. الأَرِسْتُقْراطيَّة: هي طَبَقة الأشراف أو النُّبلاء ذوي الامتيازات. أَرِسْتُقْراطيَّة العِلْم: قَصْره على الطبقة العُلْيَا في المجتمع. أَرِسْتُقْراطيَّة المال: توظيفه في خدمة الطبقة العُليا.

وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنعام).

على سُنَّتِه في المساواة جرى خلفاؤه الراشدون.. من فَرْط احتياط عمر بن الخطاب وتَحَرُّجه هاله أن امرأة استدعاها فهابته، ومن شدة هَيْبَتِها أَلْقَت ما في بطنها، فأجهضت به جنينًا ميتًا. استفتى عمر الصحابة مخافة أن يكون مسئولًا عما أَلَمَّ بها، فقالوا له: لا شيء عليك. بيد أن الفاروق أشاح عن فتواهم وأخذ برأي علي بن أبي طالب أن يعتق رقبة احتياطًا، وتعبيرًا زائدًا عن المساواة التامة بين الحاكم والمحكوم أمام القانون.

ولا يستبعد الإسلام من واحة المساواة أهل الذمة الذين يقيمون في دار الإسلام. فهم أحرار في عقائدهم وفي إقامة شعائرهم، وفي ممارسة نشاطهم، وفي ولاية الوظائف، ولهم أيضًا نصيبهم في بيت المال، ويتمتعون بمظلته التي تقيهم العوز والحاجة.

جاء عن عمر الفاروق ﷺ أنه صادف شيخًا يهوديًا ضريرًا يتكفف الناس، فأخذه بيده إلى بيت المال يقول لعامله عليه: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم.

هذه الواحة الوارفة للمساواة في الإسلام مَعْلَم أساسي من معالم عالميته التي تتسع لكافة الناس جميعًا على امتداد المكان والزمان.

الأديان المتجهة إلى أقوام بعينهم أديان مغلقة لا تعطي للآدمي ما يعطيه الإسلام من إحساس عميق بآدميته وبانتمائه والناس طُرًّا إلى أصل واحد، وانضوائه وإياهم في أسرة واحدة، لا يتمايز فيها أحد بجنسه أو عِرْقه، أو لونه، أو حسبه، أو نسبه، أو عمله، أو منصبه، أو جاهه، أو ماله، أو ثرائه.

هذه المساواة هي رسالة الإسلام إلى الدنيا وإلى الناس كافة، أنهم في ظل دوحته الوارفة، يلتئمون جميعًا في شجرة واحدة عمودها المساواة، وأنهم في رحاب هذا الدين العالمي ينتمون إلى شجرة الإنسانية التي يتساوي فيها الجميع في رحاب الله، وفي إطار دعوته العالمية إلى الناس كافة، وعمادها الإخاء والحرية والمساواة"[١].

ويقول د. محمد خليفة حسن (وهو أستاذ متخصص في الدراسات العبرية): "إن حياة اليهود في الدولة الإسلامية وصلت إلى درجة من الازدهار والتقدم دفعت بعض المؤرخين اليهود إلى اعتبار حياتهم في الدولة الإسلامية، تمثل العصر الذهبي في التاريخ اليهودي؛ ففي ظل التسامح الإسلامي تمتع اليهود بكل الحقوق الدينية والمدنية وحققوا مكانة اجتماعية، واقتصادية عظيمة، وتولوا المناصب المهمة، ومنها منصب الوزارة، وبزغ من بينهم رجال علماء، وأطباء، وفلاسفة، وفقهاء تعلموا على يد العلماء المسلمين، وارتفعوا بشأن قومهم، وأداروا شئون حياتهم في ظل رعاية إسلامية شرعية، باعتبارهم أهل ذمة وأهل كتاب"[٢].

وعندما لاحظ آدم متز العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية منذ عصورها المبكرة كان تعليقه هو: "وكأن النصارى هم الذين يحكمون

١. عالمية الإسلام، رجائي عطية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٣١: ٢٥٩ بتصرف.

٢. اليهود في ظل الحضارة الإسلامية، د. عطية القوصي، ضمن سلسلة: فضل الإسلام على اليهود واليهودية، طبع مركز الدراسات الشرقية، العدد ٢، ٢٠٠١م، ص٥.

المسلمين في بلادهم"، وظل يعدد المناصب والإدارات التي ارتقاها النصارى في ظل الدولة الإسلامية إلى أن قال:

"وقد ظلت دواوين الحكومة، وخاصة ديوان الخراج، مدة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس، وظلت الحال في مصر على هذا النحو حتى زمن متأخر جدًّا؛ حيث كان السواد الأعظم من المسيحيين يحتكرون أمثال هذه المناصب احتكارًا يكاد يكون تامًّا"[1].

غير أن ما ينبغي أن يستوقفنا في هذا السِّياق حقًّا هو تلك الشهادة التي سجلها الأستاذ إدمون رباط في بحثه المهم "المسيحيون في الشرق قبل الإسلام"، وفيها يقول: "إنه للمرة الأولى في التاريخ انطلقت دولة هي دينية... إلى الإقرار في الوقت ذاته بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وطراز حياتها، وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد بإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم"[2].

ثالثًا. في المجتمعات الإسلامية تُصَان حرية الأقلية في ضوء احترام قيم ومشاعر الأكثرية:

إذا كان الإسلام بشريعته الخالدة قد أقرّ المساواة، وأعلن مبادئها، فهل يحق لهؤلاء الزاعمين أن يطلبوا المساواة في المجتمعات الإسلامية - أي ذات الأغلبية المسلمة - مع المسلمين في كل شيء حتى في الأمور التي تخص الأغلبية المسلمة أَوْ يتهم هؤلاء المغرضون الإسلام بالتعصب والمسلمين بالعنصرية؟!

تحت عنوان "مساواة نَعَمْ.. وتفرقة أيضًا" يقول الأستاذ فهمي هويدي:

"هل يُقْبَل أن يرأس شخص مسلم دولة أغلبيتها غير مسلمة؟

هل يُقبَل أن تَتَصدَّر مساجد المسلمين الواجهات والميادين الرئيسة في مدينة مسيحية الطباع والملة؟

هل يُقبَل أن يُؤَذِّن جماعة من المسلمين للصلاة عَبْر مُكَبِّر للصوت خمس مرات كل يوم في مجتمع أوربي غير مسلم؟

حتى إذا أجاز القانون هذه الخطوة أو تلك، فمن المؤكد أنها جميعًا تؤذي مشاعر الأغلبية غير المسلمة، بحيث يصبح من العقل والذوق، وربما المصلحة أيضًا، أن نجيب على الأسئلة بالنفي.

ذلك أن هناك ميزانًا يجب أن يُرَاعَى ضبطه بإحكام في علاقة الأغلبية بالأقلية، يقوم أساسًا على مراعاة النظام العام للمجتمع، وذوقه ومشاعره العامة، وللعمومية المعنية هنا درجتان: "عام" يهم المجتمع بأسره "وعام" يتمثل في قيم الأغلبية وقوانينها الخاصة، المستمدة سواء من عقيدتها أو من تقاليدها وأعرافها. وهو محور اهتمامنا هنا.

وهذا المنطق يسلم ابتداء بالتزام الأغلبية بواجب احترام مشاعر الأقلية، وهو الاحترام الذي عبر عنه - مثلًا - الخليفة عمر بن الخطاب في كتابه إلى سعد بن أبي وقاص، وفيه يقول: "... وَنَحِّ منازلهم - جنود المسلمين - عن قرى أهل الصلح والذِّمَّة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يُرْزَأ - يتقاضى - أحدٌ من أهلها شيئًا؛ فإن لهم حُرْمَة وذِمَّة ابتُلِيتُم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم

1. مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي، مرجع سابق، ص٦٩، ٧٠ بتصرف.
2. المرجع السابق، ص٦٥.

ففوا ـ أوفوا ـ لهم"!

إن أمير المؤمنين عمر هنا ينطلق من مشاعر غاية في التسامي والشفافية، ولو عسكر جنود المسلمين وسط قرى غير المسلمين لربما مارسوا حقًّا، وما وجدوا اعتراضًا، إذ لهم الغلبة والكلمة. ولكنه تجاوز تلك الحدود، وأملى كتابه الذي يقوم أساسًا على قاعدة من الاحترام والمبالغة في مراعاة الشعور والذوق الرفيع. فنهى عن استقرار جند المسلمين وسط تجمعات غير المسلمين؛ حتى لا يكون في ذلك إيذاء لمشاعرهم ومساس بحرمتهم!

إن احترام قيم ومشاعر الأغلبية لا يعني بالضرورة انتقاصًا من حقوق الأقلية، وينبغي ألا يكون على حسابها في كل ما هو جوهري وأساسي؛ لأن الشرط المفترض هنا أن تكون حقوق الأقلية مصونة، غير مهدورة بأي صورة من الصور، ولكننا ـ كما نفهم في القانون ـ نشدد على أن هناك حدودًا للحق، هي في حالتنا هذه النظام العام والشعور، أو الذوق العام للأغلبية، وأي تجاوز لهذه الحدود، يدفع بالممارسة إلى نقطة أبعد مما ينبغي، تدخل في إطار يُسَمَّى بإساءة استخدام الحق.

فكما أن هناك حدودًا لممارسة الحرية، فإن هناك حدودًا لاستخدام الحق.

والحفاظ على ذلك الميزان ـ بغير إخلال ـ أمر شديد الأهمية، بل هو الضمان الوحيد لاستقرار أي مجتمع تتعدد فيه المِلَل والنِّحَل، دينية كانت أم سياسية أم عرقية.

وإذا كان أي عدوان من جانب الأغلبية على الحقوق الأساسية، يهدد هذا الاستقرار، فإن شبح التهديد يظل قائمًا إذا ما تجاوزت الأقلية حدود ما أسميناه النظام العام والشعور العام، أو نازعت الأغلبية حقوقها المشروعة بدعوى المساواة.

وعلى مدار التاريخ الإسلامي، فإن أكثر الظواهر السلبية التي شابت علاقة المسلمين بغيرهم، لم تكن ناشئة فقط عن اعتداء الأغلبية على حقوق الأقلية، لأي سبب كان، ولكن تلك الظواهر السلبية نشأت أيضًا إما عن سوء استخدام للحق مارسته الأقلية، أو إحساس سَرَى بين تلك الأقلية ـ تحديدًا في حالات الضعف أو الانكسار ـ دفعها إلى محاولة قلب الميزان والتصرف بمنطق الأغلبية.

خصوصًا وأن الطامعين في الدولة الإسلامية ـ من الروم في القرن السابع الميلادي، إلى الفرنسيين في القرن الثامن عشر، والإنجليز في القرن التاسع عشر، ومن بعدهم الأمريكان في هذا القرن، مرورًا بالصليبيين في القرن العاشر، والتتار في القرن الثالث عشر ـ لم يَكُفُّوا عن محاولة استمالة الأقلية ومحاولة النفاذ إلى قلوب بعض فصائلها، من باب مداعبة أحلام منازعة الأغلبية حقها، والإخلال بذلك الميزان الواجب الإحكام.

إن دعوتنا إلى الاحترام المتبادل بين الأغلبية والأقلية، وتمسكنا بأن ثمة حقوقًا أساسية يجب عدم المساس بها (حدها الأدنى يتمثل في حقوق الإنسان بالتعبير المعاصر)، ثم مطالبة الأقلية باحترام مشاعر الأغلبية، هذه الدعوة لا تنسحب فقط على الأقليات غير المسلمة في المجتمع الإسلامي ولكنها تنسحب أيضًا على الأقليّات المسلمة في المجتمع غير الإسلامي؛ إذ يظل من واجب الأقلية المسلمة أن تحترم النظام العام والشعور العام للأغلبية حيث وجدت، طالما أن

الحقوق الأساسية للأقلية مصونة بغير مساس كما قلنا".

ويواصل أستاذ فهمي هويدي حديثه طارحًا هذا السؤال:

"ماذا تريد الأقلية الدينية أو المذهبية في أي مجتمع معاصر؟

والرد الطبيعي في هذه الحالة، هو أن الأقلية تريد ضمان حرية الاعتقاد، وتحقيق المساواة في الحقوق والواجبات مع الآخرين.

وإذا أردنا أن نناقش مدى استجابة المجتمع الإسلامي لكل من هذين المطلَبَيْنِ، فلن يختلف معنا أحد في أن قضية حرية الاعتقاد من المسَلَّمات المحسومة والبدهية، فيما يتعلق بأصحاب الديانات السماوية، والتي بلغت حد كفالة هذه الحرية ـ قبل ألف سنة ـ للمجوس والزرادشتيين[1]، والهندوس والبوذيين.

غير أن هناك جدلًا حول الشعائر والمعابد، يستوقفنا فيه أمران:

الأمر الأول: أنه ليس في نصوص القرآن والسنة قَيْدٌ من أي نوع على حق غير المسلمين في ممارسة شعائرهم، بل إن العكس هو الصحيح، فاعتراف القرآن بأصحاب الديانات الأخرى، والتوجيه الإلهي الداعي إلى التعامل معهم بالبر والقسط، بمثابة دعوة ضمنية لاحترام حق غير المسلمين في أداء الشعائر وإقامة المعابد.

الأمر الثاني: أن الوقائع والممارسات التاريخية في هذا الصدد لم تَخْلُ من دَسٍّ واختلاق، وهو الأمر الذي يدعونا إلى الحذر الشديد في التعامل معها، ومع ذلك فإن ما هو صحيح من تلك الوقائع والممارسات يظل قابلًا للمناقشة والمراجعة، في ضوء اعتبارات المصلحة الراهنة، طالما أنه في النهاية اجتهاد خاص، لا التزام فيه إلا بقدر موافقته للكتاب والسنة الصحيحة، نصًّا وروحًا.

ومن الممارسات التي يمكن الاسترشاد بها في هذا السياق، نص معاهدة استسلام القدس، التي كتبها معاوية بن أبي سفيان، ووقع عليها الخليفة عمر بن الخطاب، وبطريرك المدينة سوفرونيوس، نيابة عن المسيحيين، وأثبتها الطبري في تاريخه بالنص الآتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر مِلَّتها، أنه لا تُسْكَن كنائسهم ولا تُهْدَم ولا يُنْتَقَص منها ولا من حَيِّزِهَا، ولا من صليبهم ولا شيء من أموالهم، ولا يُكْرَهُون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجِزْيَة كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخْرِجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويُخَلِّي بِيَعهم وصُلُبهم، فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مَأْمَنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحْصَدَ حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب

---

١ . الزرادُشتيَّة: ديانة فارسية قديمة أوجدها زاردشت، تقوم على عبادة وثنيَّة في إطار من الصراع بين قُوَى النور وقُوى الظلام.

عَهْد الله وذِمَّة رسوله وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين إذا أَعْطوا الذي عليهم من الجزية"[1].

وختم عمر الكتاب بتوقيعه، ثم شهد عليه خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، الذي كتبه بيده عام ١٥هـ.

"وقد منحت نفس الشروط من المسلمين إلى سكان المدن الأخرى في جميع أنحاء الأقاليم التي اجتمعت تحت راية الإسلام، طبقًا لتقرير البلاذري في "فتوح البلدان".

"وقد منح أبو عبيدة شروطًا مماثلة للسامريين في نابلس. وتلك الشروط تمثل جوهر الذمة التي تحكم العلاقات المقبلة بين المسلمين وغير المسلمين، وبصفة أساسية، فقد ضمنت الأمن للأشخاص والممتلكات، والحق في ممارسة الديانات غير الإسلامية، والحفاظ على المؤسسات العامة التي لديهم أيًا كانت، مثل الكنائس، والمدارس التي دائمًا ما كانت تلحق بالكنائس".

ويواصل د. فهمي هويدي تجلية الحقائق في قضية المطالبة بالمساواة التامة بين غير المسلمين والمسلمين، فيذكر تحت عنوان "تصنيف وليس تمييزًا" الرد على المطلب الثاني للأقلية، وهو: المساواة في الحقوق والواجبات مع الأغلبية.

هنا تتدخل النصوص الشرعية، ولا تدع مجالًا للبس في تقرير الأساس والمبدأ، حيث نواجه بحشد من الآيات القرآنية والأحاديث التي تضع الجميع منذ البداية ليس فقط على قدم المساواة، بل تؤكد أصلهم الواحد، مشددة على كرامة الإنسان وحصانته.

١. تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ، ج٢، ص٤٩٩.

وإضافة إلى عنصري الأصل الواحد وحصانة الآدمية لذاتها، يطرح التصور الإسلامي دعامة أخرى لها دورها، هي اعترافه بأنبياء اليهود وبالمسيح عليه السلام. فأضاف الإسلام في أسس التعامل مع الآخرين وشيجة إيمانية، إلى جانب الوشيجة الإنسانية.

إن الأساس القوي للمساواة قائم في نصوص القرآن والسنة، حتى يكاد يصبح بدوره من مسلمات التصور الإسلامي للعلاقة مع الآخرين، فحديث رسول الله: "ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"[2]. لا يَنْصَبُّ فقط على ما يتصوره البعض إيذاء ماديًا أو جسديًا، ولكنه يشمل أيضًا الإيذاء المعنوي، الذي يقوم أساسًا على احترام الشعور والكرامة. ولفظ الإيذاء استُخْدِمَ في القرآن الكريم في عدة معانٍ، بينها إيذاء الشعور، ففي مقام توجيه المسلمين إلى التأدب والتوقير في معاملة النبي، ودعوتهم إلى عدم دخول بيته بغير إذن، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ (الأحزاب:٥٣).

ثم، ألا تؤكد هذه المساواة ما تقرر في الإسلام من أن "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" وكلمة الإمام على "أنهم قَبِلُوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا". ثم قول واحد من مشاهير الفقهاء، هو

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٤)، والبيهقي في سننه، كتاب الجزية، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئًا بغير أمرهم (١٨٥١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٤٥).

السَّرْخَسي: "ولأنهم قبلوا عقد الذمة، لتكون أموالهم وحقوقهم كأموال المسلمين وحقوقهم".

وفي هذا السياق قال عبد الله بن مسعود (كما يُسجِّل صاحب الخراج): "من كان له عهد أو ذمة فَدِيَتُه دِيَة المسلم"، وبهذا جرى العمل طوال عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، إذا اعتدى مسلم على ذِمِّي، فَدِيَتُه مساوية للدِّيَة المقررة للمسلم.

وقد ذهب الفقه الإسلامي مدى أبعد في هذا الاتجاه، فلم يَكْتَفِ بتقرير المساواة بين المسلمين وغيرهم، بل زاد على ذلك أن أعطى غير المسلمين حق مباشرة التصرفات التي تتعارض مع ما تقضي به الشريعة الإسلامية، ما دامت شرائعهم ودياناتهم تسمح بها. وإباحة الخمر وتربية الخنزير هما أبرز مثال على ذلك. وأفْتَوْا بأنه إذا أتلف أحد من المسلمين خمر الذمي أو خنزيره كان عليه غُرْمُه وفي "الدُّر المختار": "ويضمن المسلم قيمة خمره وخنزيره إذا أتلفه".

وثمة ملاحظة يوردها د. عبد الكريم زيدان، هي أن مصدر الحقوق والواجبات للذميين هو القانون الإسلامي،أي الشريعة الإسلامية، وليس مصدرها القانون الداخلي لدولة أخرى. ومن ثم فإن هذه الحقوق والواجبات لا تتأثر مطلقًا بسوء معاملة الأقليات غير المسلمة في الدول غير الإسلامية. فلا يجوز لدار الإسلام أن تسيء معاملة الأقليات غير المسلمة في إقليمها، بحجة الأخذ بقاعدة المعاملة بالمثل؛ لأن هذه القاعدة تقف ولا يُعْمَل بها، ما دامت تتضمن ظلمًا وانتقاصًا لحقوق غير المسلم التي قررتها له الشريعة الإسلامية، التي من قواعدها الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (فاطر:١٨).

إن هذا التأكيد على قيمة المساواة، لا بد أن يقابله تحديد لمعنى المساواة؛ ذلك أننا لا نتحدث هنا عن فكرة رومانسية أو قيمة مطلقة ومجردة، إنما نحن بصدد قيمة اجتماعية، تنشد مثلًا أعلى بغير شك، لكنها تظل محكومة بخريطة الواقع، ومزروعة في أرض البشر.

إن حق الأغلبية في أن تحكم لا يخلُّ بقاعدة المساواة بأي حال. وهو الأساس الذي تقوم عليه الديمقراطيات الغربية. والأمريكيون يصوغون القضية في التعبير الشائع "حكم الأغلبية وحقوق الأقلية" ***Minority rule, Majority rights***. بل إن العرف الأمريكي يذهب في قمة الديمقراطيات الغربية إلى اشتراط أن يكون الرئيس من فئة ذات مواصفات محددة، تُعْرَفُ باسم "واسب" ***W.A.S.P***، وهي اختصار لمواصفات: أبيض وأنجلو سكسوني، وبروتستانتي.

وقيام الدولة على العقيدة يرتب نتيجة بدهية أخرى هي حق الدولة في أن تستخدم كوادرها على رأس المواقع ذات الصلة - البعيدة والقريبة - بتلك العقيدة، فضلًا عن حقها في أن تصون خصوصيات المؤمنين بعقيدتها، عن طريق إدارة ومباشرة تلك الخصوصيات من خلال كوادرها المؤهلة للقيام بتلك المهام.

إن انتقال الرئاسة الأمريكية من حزب إلى حزب، يقضي حسب العرف الأمريكي، بأن يقدم حوالي ألفين من الموظفين الكبار في الإدارة السابقة استقالاتهم إلى الرئيس الجديد، حتى يَتَسَنَّى له أن يعيد بناء إدارته

الجديدة بأكبر قدر من التوافق والانسجام، وليس مفترضًا هنا أن موظف الحزب الذي تَقَلَّدَ الرئاسة أفضل من موظف الحزب الذي ترك الحكم، ولكن لأن الحزب الجديد يَتَبَنَّى سياسة معينة، ومن حقه أن يعيد بناء الإدارة الأمريكية بالشكل الذي يخدم هذه السياسة.

والدول الاشتراكية نموذج آخر، فكونها قائمة على اللينينية الماركسية[1]، رتب نتيجة منطقية هي اتجاه هذه الدول إلى دفع كوادرها إلى جميع مواقع القيادة والتوجيه في الدولة، ما اتصل منها بالعقيدة وما انفصل. حتى إن أعضاء الحزب لهم الأولوية ليس فقط في تولي المناصب في الإدارة والسياسة، بل إنهم يتمتعون بميزة الأولوية هذه حتى في الحصول على السلع الاستهلاكية!

وإن كنا لا نقرُّ أن تصل الأمور إلى هذا المدى، لكننا نتفهم الفكرة الأساسية في هذا التوجه، التي تقضي بحق الدولة التي تقوم على العقيدة ـ أيًّا كانت ـ في أن تسلم مقاليد الأمور فيما يتصل بالتوجيه إلى المؤهلين المؤمنين بتلك العقيدة.

وقد يساعدنا ذلك على فهم موقف الإسلام من تلك القضية الدقيقة. فهو إذ يقر بالمساواة ويؤكدها فيما يتعلق بالجميع، إلا أنه يقبل استثناءات ترد على هذه القاعدة، يفرق فيها بين المسلم وغير المسلم، ليس انطلاقًا من أفضلية المسلم على غيره، لكن استيفاء لشروط معينة في مواقع بذاتها، تفترض أن اعتناق الفرد للإسلام، عنصر يوفر قدرًا أكبر من التوافق والانسجام، ومن ثم تحقيق المصلحة.

واشتراط الإسلام هنا هو من قبيل مواصفات ومؤهلات الوظيفة، وينبغي ألا يحمل باعتباره انحيازًا يقوم على التفرقة الدينية أو الطائفية.

فذلك يتم في إطار التصنيف ***(Classification)***، وليس التمييز ***(Discrimination)***. والتصنيف لا يتعارض مع المساواة، لكن التمييز يتعارض مع العدل.

وإذا كان مقبولًا أن يُعَاد تعيين ألفي موظف كبير في الإدارة الأمريكية مثلًا، لمجرد انتقال الإدارة من رئيس إلى رئيس لكي يضع الرئيس الجديد في المواقع الحساسة من هم على التزام شخصي بسياسته، فلا بد أن يكون مقبولًا أيضًا أن تعطي الدولة الإسلامية حق تعيين كوادرها في المواقع التي تفترض في شاغليها التزامًا شخصيًّا بالإسلام.

وإذا أثيرت هنا مسألة تبادل المواقع بين الأحزاب في الديمقراطيات الغربية، وكون القيادة والصدارة ليست حكرًا على حزب بذاته، وهو الأمر الذي يتيح للآخرين فرصًا مماثلة، فإن ردنا على هذه النقطة يتمثل في تساؤل واحد هو: أليست "الأغلبية" هي التي تحكم في النهاية؟

إن التفرقة بين البشر فيما هو دنيوي حسب اعتقادهم، أو جنسهم، أو لونهم، ليس من منهج القرآن في شيء؛ إذ القاعدة هي المساواة، والجميع في ديار الإسلام "أمة واحدة"، والخلق كلهم عيال الله، بالتعبير النبوي، فضلًا عن أن الناس خلقوا "من نفس واحدة" بالتعبير القرآني، وهو ما سبق تفصيله من قبل.

وهي حكمة إلهية لها مغزاها، أن يحرص القرآن في

---

١. الماركسيَّة: مذهب قائم على المبادئ التي وضعها ماركس، وتقوم نظريَّته في الفلسفة والاجتماع على الجَدَل المادي، وتقول بوجود مادة سابقة للفكر ومستقلّة عنه، كما أن الفكر مادة واعية لذاتها.

كل موضع يتضمن إشارة إلى تفضيل فئة على فئة، أن يذكر العلة بوضوح، إذ التفضيل هنا استثناء على القاعدة المقررة، واجب الإيضاح، والتفصيل حسمًا للبس وسوء الفهم.

وهذا المعنى تؤكده آيات قرآنيةعديدة، منها قوله تعالى:﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ (النساء:٣٤)، وقوله تعالى: ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ (النساء:٩٥)، وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ (النحل:٧١)، وقوله: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (البقرة:٢٥٣). وهكذا يظل التفضيل ـ إذا حدث ـ محصورًا في نطاق محدد، وبعلّة محددة[1].

رابعًا. عنصرية الآخرين ترجمة لمعتقداتهم الزائفة:

لإيضاح معالم بضاعة الآخرين ـ غير المسلمين ـ في هذا المضمار، ربما يجوز لنا أن نتوقف مليًّا أمام أفكار وآراء تضمنتها دراسة مطولة قام بها محمد خليفة التونسي مترجم كتاب "الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون" جاء فيها: "نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومُفْسِدِيه، ومُحَرِّكِي الفتن فيه وجَلَّادِيْه..."[2] "وليس من هَمِّي هنا أن نجاري اليهود فننظر إليهم كنظراتهم المشينة إلينا، ولا أن نلقى ظلمهم إيَّانا باضطهادهم أفرادًا وجماعات، حيث لا يرفعون رأسًا ولا يُشْهِرُون سيفًا، وإنْ حقَّ القصاص كلما فعلوا، بل أكثر همي هو الوعي الشامل لنيَّاتهم، وعزائمهم العلنية ضد أمن الإنسانية وشرفها، ثم كفِّهم عن المظالم التي تُسَوِّغُهَا لهم تعاليمهم الهمجية بل الشيطانية الخبيثة، إذ يستحلون العدوان على سائر الأمم وادعاء ملكيتها كأنها جمادات، ويوجبون بل يستوجبون على أنفسهم عداءها، والعدوان عليها؛ لأن شريعتهم لا تكتفي بتسويغ جرائمهم بل تشجعهم على التفنن والإفراط فيها، ثم تَكْفُلُ لهم المثوبة عليها من معبودهم (يهوه) رب الجنود الذي يختصونه بالعبادة، ويزعمون أنه اختصهم لنفسه دون سائر البشر، ووفق هذه المعاهدة الشيطانية، بينهم وبينه يتسلطون على كل العباد والبلاد".

إن هذا الكتاب لَيَنْضَح ـ بل يفيض ـ بالحقد والاحتقار والنِّقْمَة على العالم أجمع، ويكشف عن فِطْنَة حكماء صهيون إلى ما يمكن أن تنطوي عليه النفس البشرية من خِسَّة وقسوة ولُؤْم، كما يكشف عن معرفتهم الواسعة بالطرق التي يُسْتَطَاع بها استغلال نزعاتها الشريرة العارمة لمصلحة اليهود، وتمكينهم من السيطرة على البشر جميعًا، بل يكشف عن الوسائل الناجحة التي أعدها اليهود للوصول إلى هذه الغاية".

إنه لمن الإفراط في الجهل والغفلة والهوى ـ أن يخطر على عقل قابل للفهم أن يهوديًّا يتمنى مخلصًا خيبة الحركة الصهيونية أو فشلها، مهما يخالفها في خططها أو مراحلها أو وسائلها أو مواقيتها، وأبعد من ذلك في الشَّطَط أن يستريح عقل إلى أن يهوديًّا يسعى مخلصًا لمقاومة الحركة الصهيونية بقلمه أو لسانه أو نفوذه أو ماله، وإن رآه يغمد سيفه في قلب فرد أو هيئة من

---

١. مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي، مرجع سابق، ص١٤٧: ١٥٦.

٢. بروتوكولات حكماء صهيون، مجموعة وثائق، ترجمة: محمد خليفة التونسي، دار التراث، ص٧ وما بعدها.

أتباعها أو أتباع حركة سواها.

ومهما يتعاد اليهود أو يتفانوا طوعًا لما رسخ في نفوسهم من البغضاء والضراوة بالشر، فلا اختلاف بينهم على من يكون الضحايا. والضحايا هم أنا، وأنت، ومن إلينا من الأميين الذي حرمهم الله شرف النسب اليهودي، فإنهم يرون أنهم وحدهم "شعب الله المختار" ومن عداهم أشياء هي مِلْكهم وحدهم يتصرفون فيها على ما يشاءون، دون قيد إلا مصلحة اليهود الخاصة، فهكذا تُمْلِي عليهم التوراة والتلمود، ونصائح سائر الأئمة بينهم والزعماء".

"قديمًا قسَّم الرومان الناس قسمين: رومانًا وبرابرة، وقسمهم العرب قسمين: عربًا وعجمًا، وقسمهم اليهود منذ خمسة وثلاثين قرنًا قسمين: يهودًا وجوييم، أو أُممًا (أي غير يهود). ومعنى جوييم عندهم: وثنيون وكفرة وبهائم وأنجاس. وإليك البيان: يعتقد اليهود أنهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لا يسمح بعبادته ولا يتقبلها إلا من اليهود فغيرهم إذن جوييم، أي عُبَّاد أوثان أو وثنيون، مهما يكن الإله الذي يعبدونه.

واليهود وحدهم لهذا السبب هم المؤمنون فغيرهم إذن جوييم؛ أي كفرة، واليهود يعتقدون ـ حسب أقوال التوراة والتلمود ـ أن نفوسهم وحدهم مخلوقة من نفس الله، وأن عنصرهم من عنصره، فهم وحدهم أبناؤه الأطهار جوهرًا، كما يعتقدون أن الله منحهم الطينة البشرية أصلًا تكريمًا لهم، على حين أنه خلق غيرهم (الجوييم) من طينة شيطانية أو حيوانية نجسة، ولم يخلق الجوييم إلا لخدمة اليهود، ولم يمنحهم الصورة البشرية إلا محاكاة لليهود، لكي يسهل التعامل بين الطائفتين إكرامًا لليهود.

إذ بغير هذا التشابه الظاهري ـ مع اختلاف العنصرين ـ لا يمكن التفاهم بين طائفة السادة المختارين، وطائفة العبيد المحتقرين، ولذلك فاليهود أصلاء في الإنسانية، وأطهار بحكم عنصرهم المستمد من عنصر الله، استمداد الابن من أبيه، وغيرهم إذن جوييم أي حيوانات وأنجاس، حيوانات عنصرًا وإن كانوا بشرًا في الشكل، وأنجاس؛ لأن عنصرهم الشيطاني أو الحيواني أصلًا لا يمكن أن يكون إلا نجسًا.

وكان الرومان والعرب وبعض الآريين في العصر الحديث يفضلون أنفسهم على غيرهم ببعض المزايا العقلية والجسمية، ولكنهم يعتقدون أن البشر جميعًا من أصل واحد.

فهم ـ مهما غَلَوا وأسرفوا في التفرقة ـ لا يتطرفون تطرُّف اليهود في التعالي على غيرهم، وقَطْع ما بينهم وبينهم من مشاركة في أصل الخِلْقة، والمزايا البشرية العامة.

لكن اليهود ـ حسب عقيدتهم التي وضحناها هنا ـ يسرفون في التعالي والقطيعة بينهم، وبين غيرهم إلى درجة فوق الجنون، فهم يعتقدون أن خيرات الأرض والعالم أجمع مِنْحة لهم وحدهم من الله، وأن غيرهم من الأُمِّيين أو "الجواييم" وكل ما في أيديهم ملك لليهود، ومن حق اليهود، بل واجبهم المقدس، معاملة الأميين كالبهائم، وأن الآداب التي يتمسك بها اليهود لا يجوز أن يلتزموها إلا في معاملة بعضهم بعضًا، ولكن لا يجوز لهم بل يجب عليهم وجوبًا إهدارها مع الأميين. فلهم أن يسرقوهم ويغشوهم، ويكذبوا عليهم ويخدعوهم

ويغتصبوا أموالهم، ويهتكوا أعراضهم ويقتلوهم، إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم، ويرتكبوا في معاملتهم كل الموبقات، والله لا يعاقبهم على هذه الجرائم، بل يعدها قُربات وحسنات يُثِيْبهم عليها ولا يرضى منهم إلا بها، ولا يعفيهم منها إلا مضطرين.

وقد أشار القرآن إلى هذه العقيدة الإجرامية، ونحن نذكر ذلك من باب الاستئناس، لا لنُدينَهم ولا لنُبَرْهِن على عقيدتهم به؛ لعدم اعترافهم بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران:٧٥)، أي لسنا ملتزمين بمراعاة أي شريعة كريمة مع الأميين "غير اليهود".

ولا تقتصر هذه الروح العدائية العنصرية لدى اليهود تجاه الآخر، وهذا الفكر الشاذ على البروتوكولات السرية وبطون الكتب، بل إنها تجري من الصهاينة مجرى الدم من العروق، وتنطبع على سلوكهم وتصرفاتهم، بل مناهج تعليمهم المعلنة الطافحة بالحقد والبغضاء مما تُرَبَّى عليه أجيالهم، وقد تعددت الدراسات والكتابات حول المضامين العنصرية في كتبهم الدراسية، وقد كتب مؤخرًا الأستاذ إبراهيم نافع حول هذه النقطة فقال: "تكشف متابعة وسائل الإعلام الإسرائيلية، وتحديدًا الصادرة باللغة العبرية، أن إساءات بالغة للعرب، وأيضًا للإسلام والمسيحية لم تتوقف، بل تكاد تكون الحملة على (الأغيار) متواصلة دون انقطاع في وسائل الإعلام العبرية، وفي تقديري أن الإساءات التي تقدمها وسائل الإعلام العبرية للإسلام والمسيحية تفوق بمراحل ما يجري التركيز عليه في الشرق والغرب، أيضًا فإن ما يصدر عن بعض رجال الدين اليهود بحق الإسلام والمسيحية لا يمكن تصوره.

فجميع العقائد والأديان لديهم عدا اليهودية مزيفة وغير صحيحة، وفيما عدا اليهود، فإن باقي الشعوب أدنى من مرتبة البشر. ولا توجد حدود للإساءات والإهانات التي تُوجَّه لجوهر الإسلام وأساس الديانة المسيحية، ومن قبيل ما نشر بحق العرب والمسلمين على مدى الشهرين الماضيين نذكر مقالًا بعنوان "كل نوايا العرب سيئة، لكاتب يُدْعَى يتساحق بن زئيف نشره في صحيفة: "عولام هاحسيدوت" بتاريخ ٢٥ أغسطس الماضي، وأعاد نشره موقع ***www.mahsom.com*** بتاريخ ٢٧ أغسطس الماضي تحت عنوان "العرب مجموعة من السفاحين الهمج" وجاء في المقال أن العرب شعب يشبه الحمير، إنهم أمة منحطة من الهمج يشعرون بمتعة كبيرة، عندما يقتلون إنسانًا وهم أسوأ من النازي.

وقد جاء المقال على خمس صفحات، واستند في تحقير العرب والمسلمين إلى فتاوى رجال دين يهود، وتشريعات وردت في فتاوى الحاخام موسى بن ميمون في كتاب أرسله ليهود اليمن. ومن بين ما ورد في المقال: إن كراهية العرب ـ محا الله اسمهم وذكراهم ـ لليهود ووحشيتهم حِيَالهُم تفوق بكثير كراهية النازيين، وأضاف: الحماقة في العالم مكونة من عشرة أجزاء، تسعة منها عند الإسماعيلية، وواحد فقط عند باقي الأمم، وفي موقع آخر من المقال يقول الكاتب: إن رجال الدين اليهود يصفون المسيحيين بالخنازير والعرب بالبُدَائِيِّين الهَمَج، وفي المقال قائمة طويلة من البذاءات بحق

الرسول الكريم ﷺ لا يمكن بحال من الأحوال ذكرها لما تتضمن من بذاءات وانحطاط.

ويكفي أن تزور موقع المنظمة العربية لمناهضة التمييز، وهو ***www.aad.onlien.org*** لتقرأ مئات المقالات التي تسب المسيحية والإسلام، وتراهما ديانتين غير سماويتين، وترى في الأغيار ـ أي غير اليهود ـ مجموعات أدنى من مستوى البشر"[1].

وليست ملامح العنصرية بادية في فكر وسلوك كثير من اليهود فقط، فهذه شهادة منصفة لباحثة غربية هي المستشرقة الألمانية المعروفة: "زيغريد هونكة" تتوقف فيها عند بعض محطات علاقة المسلمين بالغرب، مقارنة بين سلوكهم فيها وسلوك الآخرين، تقول: "وبينما عاشت النصرانية في ظل الحكم الإسلامي قرونًا طوالًا ـ في الأندلس وفي صقلية وفي البلقان ـ فإن انتصار النصرانية على الإسلام ـ في الأندلس سنة ١٤٩٢م ـ لم يَعْنِ سوى طرد المسلمين واليهود واضطهادهم، وإكراههم على التَّنَصُّر، واستئناف نشاط محاكم التفتيش التي قامت بتعقب كل من يتخذ سوى الكاثوليكية دينًا، والحرق العلني في احتفالات رسمية تحفها الطقوس والشعائر الكنسية لكل من اعتنق الإسلام أو اليهودية، ولم تُلْغَ محاكم التفتيش إلا في سنة ١٨٣٤م.

لقد كفلت معاهدة السلطان الكامل ابن أخي صلاح الدين الأيوبي مع القيصر فريدريك الثاني المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، والاحترام المتبادل، والحرية الكاملة لليهود والنصارى والمسلمين في إقامة شعائرهم الدينية في كافة أنحاء الأرض المقدسة كما شاءوا.

ولقد كتب بطريرك القدس "تيودوسيوس" ـ في أوائل القرن الحادي عشر ـ إلى الأسقف "أجنايتوس" في بيزنطة يقول: إن العرب هنا هم رؤساؤنا الحكام، وهم لا يحاربون النصرانية، بل على العكس من ذلك يحمونها، ويذودون عنها، ويوقرون قساوستنا ورهباننا، ويجلون قديسينا.

بينما أصدر كبير وُعَّاظ الحروب الصليبية: برناردكليرفوكس أمره إلى المحاربين الصليبيين: إما التنصر وإما الإبادة، ووصف المؤرخ الأوربي ميشائيل درسيرر مذبحة المسلمين في القدس سنة ١٠٩٩م على يد الصليبيين، وكيف كان البطريرك نفسه يعدو في زقاق بيت المقدس، وسيفه يقطر دمًا، حاصدًا به كل من وجده في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح فأخذ في غسل يديه تخلصًا من الدماء اللاصقة به، مرددًا كلمات المزمور التالي: "يفرح الصِّدِّيق إذا رَأَى النَّقمة. يغسل خطواته بدم الشِّرِّير. ويقول الإنسان: إنَّ للصِّدِّيق ثَمَرًا. إنَّهُ يوجد إلهٌ قاضٍ في الأرض". (المزمور ٥٨: ١٠، ١١)، ثم أخذ في أداء القُدَّاس قائلًا: إنه لم يتقدم في حياته للرب بأي قربان أعظم من ذلك ليُرضي الرب.

وعندما احتل الصليبيون دمياط، بعد الاستيلاء على حصنها، أبادوا جميع من بها بناء على أوامر البابا ومبعوثيه الكرادلة ورجال الكنيسة، فلما انتصر السلطان الكامل على هذه الحملة سنة ١٢٢١م، أكرم أسراهم، ولم يقتص منهم: العين بالعين والسن بالسن، وإنما أطعمهم في مَسْغَبَة أربعة أيام طوالًا، مرسلًا إلى

---

١. المضامين العنصرية في كتب اليهود الدراسية، مقال ابراهيم نافع، جريدة الأهرام، الثلاثاء ٣١ أكتوبر ٢٠٠٦م.

جيوشهم التي كانت تتضور جوعًا كل يوم ثلاثين ألف رغيف، ومواد غذائية أخرى.

وشهد بهذا الإكرام أحد هؤلاء الأسرى - عالم الفلسفة اللاهوتية "أويفروس".. فكتب يقول للملك الكامل: منذ تقادم العهود لم يسمع المرء بمثل هذا التَّرَفُّق والجُوْد، خاصة إزاء أسرى العدو اللدود، ولما شاء الله أن نكون أسراك، لم نعرفك مستبدًّا طاغية ولا سيدًا داهية، وإنما عرفناك أبًا رحيمًا، شملنا بالإحسان والطيبات، وعونًا منقذًا في كل النوائب والمُلِمَّات، ومن ذا الذي يمكن أن يشك لحظة في أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله.

إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، وأذقناهم مرَّ العذاب، لما غَدَوْنَا أسراهم، وكِدْنا نموت جوعًا، راحوا يُؤْثِرُونَنَا على أنفسهم على ما بها من خصاصة، وَأَسْدَوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان.

وحين تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس، التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل، بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها مذبحة وحشية وقسوة، فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقامًا لسفك دماء المسلمين، بل إنه شملهم بعفوه وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضاربًا المثل في التخلق بروح الإسلام.

وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خُلُقي تجاه كلمة الشرف أو الأسرى، فالملك ريتشارد قلب الأسد، الذي أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربي أن حياتهم آمنة، إذا هو فجأة يأمر بذبحهم جميعًا[1].

ولم تسلم الحضارة - المدنية بالأحرى - الحديثة من داء العنصرية، وقد لاحظ هذا أحد أعلام علم الإنسان المعاصرين في تعليقه على وصف بعض المستشرقين العهد النبوي بالعنف والوحشية، مقارنة بعصرهم الحاضر الذي يصفونه بالوداعة والأمن، يقول متهكمًا: "وهذه المقارنة بين الجانبين لا تفتأ تسليني، فالذين يعقدونها أفراد ينتمون إلى الشعوب المتمدنة التي هوت بالعالم كله، في بحر هذا القرن وحده، في أتون حروب دامت سنين عددًا، وحصدت الملايين من الأنفس.

وما زلنا جميعًا ندفع ثمن سنوات الجنون العالمي هذه، فإن نطاق كل من الحربين العالميتين، وتخطيط كل منهما ووحشيتهما - شيء لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية، وقد نكون اليوم نجنح إلى حرب ثالثة - نووية هذه المرة - تخوضها شعوب العالم المتقدمة المتحضرة مرة أخرى!. فهل المستشرقون جادون في حديثهم عن وداعة عصرنا؟ وإذا كانوا كذلك فكيف نُسَوِّغُ قتل الملايين بوداعة على يد ستالين وهتلر، وماو وبول يوت.

إن هتلر مُتَّهم بإبادة ما بين خمسة إلى ستة ملايين من البشر، بدرجة من الوحشية لم يسبق لها مثيل، وهي واقعة خلفت ندبة دائمة في ضمير الإنسان المعاصر، هذا كله حدث في عصر وادع تميز بالالتزام الخلقي العام، وبالمقارنة دعونا نضرب مثلًا لشعب بُدَائي في حالة حرب. إن النبي ﷺ بعد أن فتح مكة وبعد أن ذاق الأمرَّين من الإهانة على يد المكيِّين، عفا عن كل من رغب منهم في العيش بسلام، فلم يقتل أحدًا. حتى إن

---

١. الإسلام في عيون غربية، د. محمد عمارة، مرجع سابق، ص٣٢٣: ٣٢٥.

فتح مكة ـ وهو نقطة تحول في تاريخ الإسلام ـ نتج عنه أقل من ثلاثين قتيلًا، وحتى أثناء دخول مكة لم تكن إنسانية الرسول ﷺ لتضعف، بل ظهرت جلية حين أمر بحماية كلبة، ولدت جِرَاءَهَا لِتَوِّهَا. وعلى مدى عصر الرسالة كله لم يُقْتَلْ سوى نحو من ألف رجل. فيا له من ثمن رخيص، مقابل أعظم الثورات في تاريخ العالم كله"[1].

ولعل هذا ما يصدق عليه وصف شوقي لمعالم هذه الحضارة الحديثة وآثارها في قصيدته "عمر المختار" في قوله:

إِنِّي رَأَيْتُ يَدَ الحَضَارَةِ أُولِعَتْ
بِالحَقِّ هَدْمًا تَارَةً وَبِنَاءِ
شَرَعَتْ حُقُوقَ النَّاسِ فِي أَوْطَانِهِم
إلا أُبَاةَ الضَّيْمِ والضُّعَفَاءِ

وقول أحمد سالم باعطب من قصيدته: "صوت من الزنزانة":

عَصْرُ الحَضَارَةِ والتَّحَرُّرِ والرَّخَا
عَصْرٌ بِهِ يُسْتَعْبَدُ الإِنْسَانُ
وَالسِّلْمُ ذُلٌّ للشُّعُوبِ وَنِقْمَةٌ
تُبْلَى بِهَا وتُمَزَّقُ الأَوْطَانُ
هَذِي فِلِسْطِينُ الجَرِيحَة لَمْ تَزَلْ
نَهْبَ الغُزَاةِ وَتِلْكَ بَاكِسْتَان
أَيْنَ الضَّمِيرُ العالمي؟ أَلَمْ يَفِقْ؟!
وَمَتَى مَتَى يَتَحَرَّكُ الوِجْدَان؟
أَيْنَ العَدَالَةُ وَالحِيَادُ، فَلَمْ يَعُدْ
في الأَرْضِ لا عَدْلٌ ولا اطْمِئْنَان
السِّلْمُ في نَظَرِي حَدِيثُ خُرَافَةٍ
تَرْوِيه سُخْرِيَةً لَنَا الأَزْمَان

وختامًا لهذه القضية، فقد أعدَّ أحد الباحثين دراسة عن الإسلام والعنصرية خلص فيها إلى القول بأن: "الواقع أن موقف الإسلام من العنصرية موقف ربط عُرَى الإنسانية بعضها ببعض، وذلك أن البشرية منذ أن ظهرت على كوكب الوجود وهي تعاني العنصرية، تعاني من إنكار حقوق الكرامة والاحترام، تعاني من تيارات الفصل بين أبناء الإنسانية الواحدة، تعاني من سلب الحريات، وسياسات العزل بين الإنسان وأخيه الإنسان، وجميع الرسالات السماوية كانت تهدف بصورة أساسية إلى انتزاع هذا الحقد الدفين، وطبيعي ألا يسمع زعماء العنصرية قديمًا وحديثًا بنداء السماء، منذ أول رسالة سماوية، وهو يدعو إلى المساواة الكاملة في الإنسانية بين الأبيض والأسود وجميع الأجناس، لولا أن مست الرسالات السابقة لرسالة محمد ﷺ يد السوء بالتحريف والتغيير والتبديل.

ويمكن لأي إنسان مؤمن على هذه الأرض أن يدرك أن الرسالات السماوية، قد دعت إلى المساواة ونبذ الطبقية بدراسة موقف الإسلام، ذلك الموقف الذي شجب جميع أنواع الفوارق بين الأجناس المخلة بالإنسانية، ودعاوى التشكيك بالإنسان وحريته وإنسانيته.

وإن كانت الرسالة المحمدية للناس كافة، الشرق والغرب سواء، الأسود والأبيض لا فرق بينهما، فهذا

١. نحو علم الإنسان الإسلامي، د. أكبر. س. أحمد، ترجمة: د. عبد الغني خلف الله، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص١٠١، ١٠٢.

أكبر دليل نـدلل بـه عـلى أن الإسـلام لا يعـرف وثنيـة العصر، بل لا يعرف طبقية الهند واليونـان والرومـان، ولا يعـرف عنـصرية الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وعنـصرية جنـوب أفريقيـا وامتيـاز الجـنس الآري، ودعوى شعب الله المختار"[1] ®.

الخلاصة:

- من أعظم ميزات الشريعة الإسـلامية تكريمهـا للإنـسان، وهـذا التكـريم لم يـسمُ إليـه ديـن سـماوي، أو قانون وضعي، بل ارتقت به إلى الحد الذي أسجد الله له الملائكة، وسخر الكون لخدمتـه، بغـض النظـر عـن عقيدته، وجعل كرامته وإنـسانيته صِنْوَيْنِ مقترنـين في شريعة الإسلام، ورفع مرتبته فوق كل المخلوقات.
- الإسلام قائم على المـساواة؛ لأنـه دعـوة عالميـة ورسالة خاتمة لا يخص قومًا دون قـوم، ولا جـيلًا دون جيل، بخلاف غـيره مـن الأديـان التـي تخـص أقوامًـا بعينهم.
- غير المسلمين تمتعوا بالحماية والحريـة والمـساواة التامة في ظل الدولة الإسلامية، واعتلوا المناصب العليا حتـى قـال المنـصفون: "كـأنهم يحكمـون المـسلمين في بلادهم".
- تـسامح المـسلمين وعنـصرية غـيرهم يـترجم معتقدات كل فريق، وكل إناء بما فيه ينضح، والحـروب الصليبية تشهد بوحشية الـصليبيين عنـدما تمكنـوا مـن المـسلمين في بيـت المقـدس فعـاملوهم بكـل عنـف ووحشية، مقابل سماحة وعدل النـاصر صـلاح الـدين الأيوبي عندما أظهره الله ﷻ عليهم، فـشملهم بعفـوه، وضرب المثل للتخلق بروح الإسلام.
- الأقليـات في المجتمعـات الإسـلامية مـصونة الحقوق، من الأمن والحماية وغيرهما من الحقوق، لكـن يجب أن يكون في ظل احـترام قـيم ومـشاعر الأغلبيـة المسلمة وعدم تجاوز الحدود.

الشبهـة الحاديـة والعشـرون

الزعم أن أبناء الدم الآري يتميزون على غيرهم من الأجناس[2] (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المفترين أن أبناء الدم الآري أرقـى مـن غـيرهم، وأن الجـنس الأوربي عامـة والألمـاني خاصـة يَفْضُل بطبيعته غيره من الشعوب الأخرى الـسامية[3]،

1. الإسلام والتفرقة العنصرية، د. علي عبد العزيز العميريني، مكتبة التوبة، الرياض، ط١، ١٩٩٠م، ص٢٤٤.

® في **"العنصرية في التوراة"** طالع: الوجه الثاني، مـن الـشبهة الأولى، والوجه الثالث، من الـشبهة الثانيـة، مـن الجـزء الثـامن (مقارنة الأديان).

2. الآريّة: لغةٌ يُقال: إنّهـا أصـل اللغـات الهندأوربيّـة. أو فكـرة تقول بتفوُّق الجنس الآري، وقد استندت إليها النّازيَّة الألمانيَّة.

(*) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسـلامية، مـصطفى عبـد الـرازق، مكتبة الثقافـة الدينيـة. الـشبهات والأخطـاء الـشائعة في الفكـر الإسـلامي، أنـور الجنـدي، مرجـع سـابق. مـاذا خـسر العـالم بانحطاط المسلمين، أبو الحـسن عـلي النـدوي، مرجـع سـابق. التبـشير والاستـشراق: أحقـاد وحمـلات عـلى النبـي ﷺ وبـلاد الإسلام، محمد عزت إسـماعيل الطهطـاوي، المكتبـة العـصرية، بيروت.

3. الساميَّة: مجموعة من الشعوب ترجـع بأصـولها إلى سـام بـن نـوح، وتـضم: العـرب والأكَّـادِيِّين والبـابليين والآشـوريين والكنعانيين والفينيقيين والعِبْرانيـين. ودعـوى معـاداة الـسامية تعني: سياسة معادية لليهود.

وتبع هذا الزعم شعور عند القوم بالاستعلاء والكبرياء والتعالي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) البشر جميعًا يستوون في كونهم نفخة من روح الله، وكلهم لآدم، وآدم من تراب.

٢) الأجناس الأوربية - والآريُّون كذلك - عانت كثيرًا من التَّردِّي والانحطاط، والعصور الوسطى خير شاهد.

٣) تفوُّق الغرب الأوربي في بعض جوانب الحياة المادية لا يعني بلوغه ذِرْوَة الكمال للإنسان في الحياة كلها.

التفصيل:

أولا. البشر جميعًا يستوون في كونهم نفخة من روح الله، وكلهم لآدم، وآدم من تراب:

البشر جميعهم أبناء آدم، يجمعهم نسب مشترك، وهم في الأصل نفخة من روح الله في آدم، وآدم من تراب، فهم متساوون في أصل الخلقة.

إن الإسلام يحترم الإنسان ويكرمه من حيث هو إنسان، لا من أي حيثية أخرى، الإنسان من أي سلالة كان، ومن أي لون كان، من غير تفرقة بين عنصر وعنصر، وبين قوم وقوم، ولون ولون، مسقطًا كل أنواع التفرقة القبلية والعنصرية والقومية واللونية، يقول القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجرات).

وقد أرسى النبي ﷺ في خطبة الوداع حين قال: "يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[1].

وفي الحديث الآخر: "والناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب"[2].

وبهذا تسقط الاعتبارات الطبقية التي قامت عليها كثير من المجتمعات قديمًا وحديثًا، والتي أقام عليها بعض الناس فلسفتهم الحاقدة السوداء التي تبني طبقة واحدة بهدم كل الطبقات.

قد يختلف الناس في أجناسهم وعناصرهم، فيكون منهم الآرِي والسَّامِي والحامِي والعربي والعجمي، وقد يختلفون في أنسابهم وأحسابهم، فيكون منهم من ينتمي إلى أسرة عريقة في المجد، ومَن ينتهي إلى أسرة صغيرة مغمورة في الناس.

لكن القيمة الإنسانية واحدة للجميع، فالعربي إنسان والعجمي إنسان، والأبيض إنسان والأسود إنسان، والحاكم إنسان والمحكوم إنسان، والغني إنسان والفقير إنسان، ورب العمل إنسان والعامل إنسان، والرجل إنسان والمرأة إنسان، والحر إنسان والعبد إنسان... إلخ، وما دام الكل إنسانًا، فهم إذن سواسية

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٥٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، فصل ومما يجب حفظ اللسان منه بالآباء وخصوصًا بالجاهلية والتعظيم (٥١٣٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

٢. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ (٨٧٢١)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن (٣٩٥٦)، وحسَّنه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣١٠١).

كأسنان المشط[1].

لا فرق بين جلد أبيض أو أسود أو أصفر أو أحمر، إن هذه الألوان المختلفة تشابه ما تراه العيون من اختلاف الألوان في الأزهار والورود لا دلالة على عراقة أو تفاهة. إن الوراثة لا تنشئ عظمة، ولا تُكسِبُ خصوصية، فهناك أنبياء من أصلاب كافرة، وهناك فجار من أصلاب أنبياء، وقد كان أبو الطيب شاعرًا مُفْلِقًا من أب لا يعرف شعرًا ولا نثرًا.

ثم إن روافد الوراثة غامضة المنبع والكُنْه في أبناء الجيل الواحد، فكيف إذا تكاثرت الأجيال؟ ونحن نعرف بعد هذا أن القول بأن جنسًا آخر استأثر بأصل الخِلْقة قول فيه ادعاء ظاهر؛ إذ إن ظروف البيئة هي التي تصنع الأعاجيب، وهي التي تُنَمِّي المواهب أو تقتلها، بل هي التي تُحْيِي الفطرة أو تميتها.

إن أساس الخليقة يرجع إلى أصل إنساني واحد، وإلى أب واحد وأم واحدة، بل إن رب العزة ﷻ خلق الناس من أصل واحد، ومن ذكر وأنثى، وجعلهم شعوبًا وقبائل لحكمة ربانية عليا، ألا وهي التعارف والتضامن والتكامل، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات).

وما دام الأصل الإنساني واحدًا، فلا يصح لأحد أن يستعلي على غيره، لا من أجل المال، ولا من أجل الأشكال، فالإسلام لا يقر استعلاءً بحسب أو نسب، أو تفاخرًا بالآباء أو الأجداد؛ فأساس التفاضل إنما هو تقوى الله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ (الحجرات:١٣)[2].

إن هذه النظرة الاستعلائية غير المنصفة ليس لها أساس من الصحة، ولا دليل من الواقع، بل هي محض افتئات على الحركة الإنسانية جميعًا.

ومن نافلة القول أن نذكر أن هذه النظرة تتناقض تمامًا مع ما يدَّعونه من ضرورة المساواة والإخاء والحرية لجميع الشعوب، وعلى ذلك فما كلامهم إلا هراء ليس له نصيب من الواقعية والتحقق على أرض الواقع.

ثانيًا. العنصر الأوربي اشتهر بالغباوة وعانى كثيرًا من الانحطاط أعوامًا طوالا، والعصور الوسطى خير شاهد:

كان سقوط روما على أيدي البرابرة الجرمان سنة ٤٧٦م إيذانًا بانهيار الحضارة اليونانية، وساد أوربا دمار حضاري، وانهيار فكري، وتأخر اقتصادي، فَعَمَّهَا ظلام الجهل والتعصب، والجمود والتخلف، واستمر ذلك حوالي ألف عام، واعتبروا سقوط القسطنطينية نهاية لهذه العصور المظلمة، وذلك عام ١٤٥٣م؛ إذ بدأ عصر النهضة يشع نوره في أوربا، وفي هذه الحقبة نفسها من التاريخ ـ أي خلال ما سمَّته أوربا "عصور الظلام" ـ ازدهرت حضارة الإسلام، فتقدمت العلوم وكثر العلماء، وانتشرت في المشرق والمغرب المؤسسات العلمية من مدارس ومكتبات، فكانت هذه الأعصر بالنسبة للمشرق العربي الإسلامي ـ مغربه وأندلسه ـ أعصر العلم والتقدم، والتسامح والرقي الحضاري.

١. الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٨٥: ٨٧ بتصرف.

٢. وحدة الأصل الإنساني، مقال د. أحمد عمر هاشم، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق، ص٩٦: ٩٨ بتصرف.

وكانت في أوربا عصور موات، وحرق للعلماء ومحاربة للمعرفة؛ حيث عاشت أوربا قرونًا طويلة من القرن الخامس الميلادي وحتى القرن الرابع عشر الميلادي تحت رحمة المثَلَيْنِ القائِلَيْنِ: "الجهل رأس العبادة" و"القذارة من الإيمان"[1].

وقد سلم العلماء الأوربيون بغلبة المادية في حضارتهم، ونوّهوا بها في كتبهم وبحوثهم العلمية، وقد ألقى العالم الألماني هاس "***HaaS***" ثلاث محاضرات في جنيف عنوانها: "ما هي المدنية الأوربية؟". يقول هاس: "كان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب، وليس هذا إلا اعتدادًا بالمحسوسات، وكان الدين خِلْوًّا من الروحانية المعنوية... أما اللون الروحي فمستعار من المشرق"[2].

ألم يكن الجنس الأوربي الأبيض في غرب أوربا وشمالها، والذي يفرض وصايته على العالم كله، يشتهر بالغباوة والانحطاط أيامًا طوالًا؟! وقد نُقِلَ كلام عن المستشرق فيليب حِتّي يؤكد فيه تأخر الأوربيين الحضاري وتفوق عرب الأندلس عليهم.. إذ يقول: "في الوقت الذي كانت فيه جامعة أكسفورد ترى الاستحمام عادة وثنية، كانت الأجيال من علماء قرطبة تتمتع بالاستحمام في مؤسسات فاخرة".

ويدلنا على موقف العرب حيال برابرة الشمال، ما ورد في كلام عالم طليطلة "صاعد القاضي" المتَوَفَّى سنة ١٠٧٠م، فقد كتب عنهم أن إفراط بُعْد الشمس عن مساحة رءوسهم بَرَّد هواءهم وكشف وجوههم، فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة! فعظمت أبدانهم، وابيضت ألوانهم، وانسدلت شعورهم، وانعدمت دقة أفهامهم، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشت فيهم العلل والغباوة!

أرأيتم هذا الوصف؟ إنه للأوربيين الذين يقودون العالم الآن، وليس للهنود ولا الزنوج ولا العرب أو بقية العالم الثالث.

إذن لم يكن الاستعلاء باللون يومًا من الأيام مصدرًا من مصادر التقدم أو الامتياز، فإن الجنس الآري الذي يوصف بأنه الإنسان الأبيض قد وصل إلى أوربا قادمًا من قلب آسيا من فارس والهند. ومع ذلك فإن شأنه في هذا يختلف عن شأنه هناك؛ وذلك لأن عوامل كثيرة ومختلفة هي التي أعطت الأوربيين قيادة الحضارة في هذه المرحلة حين بلغ العرب والمسلمون في مرحلة الضعف، والرجل الأبيض الذي وَرِثَ التراث الإسلامي للعلم والحضارة قد استعلى في غطرسة وغرور عن أن يعترف بالفضل، وتَنَكَّر لحضارات الأمم والشعوب المختلفة التي سبقت وأَثَّرت في مسير الحضارات البشرية، ولم تكن من نتاج الرجل الأبيض أصلًا.

وقد كان الرجل الأبيض يدَّعي أنه معدن البشرية، وأن سلطانه ونفوذه ليس إلا عملًا إنسانيًّا يستهدف تحضير الشعوب وتعميرها (واشتق اسم الاستعمار من التعمير)، ولكن الشعوب رأت كيف كان الرجل الأبيض قاسيًا وظالمًا وعنيفًا، وأنه لم يكن مُمَدِّنًا بقدر ما كان مُحْتَلًّا جشعًا، يحرص على أن يمتلك كل شيء، وأن

---

١. أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٣٦، ٢٣٧ بتصرف.

٢. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مرجع سابق، ص١١٩.

يسيطر على مختلف الخامات والثروات وينقلها لبلاده، وأنه كان حريصًا على ألا يُقَدِّم لهذه الشعوب من حضارته إلا الجوانب السلبية والبَّراقة، التي تحمل جراثيم قتل الكيان والشخصية وتذويب القيم وتحطيم المعنويات، وذلك بقصد استدامة السيطرة وإبقاء النفوذ وإطالة أَجَل الاحتلال. وقد كشفت الأبحاث العلمية المُنصِفة خطأ نظرية الرجل الأبيض، وتميزه عقليًّا أو جسميًّا، وتأكد أن ما حصل عليه من التقدم العلمي، إنما هو تطور البشرية الطبيعي، والجهد المشترك الذي ساهمت فيه مختلف العقول والقُوَى.

إن نظرية الجنس الأبيض لم تكن في الحقيقة إلا أسلوبًا من أساليب السيطرة عن طريق بعض الأفكار الاستعمارية، ومظهر يُخفي وراءه أهواء الاستعمار، ويحاول أن يصورها بصورة الواقع المفروض، ويَنْقُض هذه النظرية تاريخيًّا أن أوربا ظلت أكثر من ألف عام تعيش ظلمات القرون الوسطى، بينما كانت أجناس أخرى ليست بيضاء تتولى مقاليد الحضارة الإنسانية، وتذيعها في كل مكان، ومن هنا، فإن فكرة الجنس الأبيض نفسها لم تكن هي مصدر الحضارة[1].

ثالثًا. تفوُّق الغرب الأوربي في بعض المجالات المادية لا يعني بلوغه ذِرْوَة الكمال:

فالفقر الروحي في أوربا أظهر من أن نُدَلِّل عليه، ولسنا في حاجة إلى إبراز تفوق الإسلام والمسلمين في جانب الأخلاق والإنسانية في التعاملات وإقامة العلاقات، كما أن تفوق المسلمين ونبوغهم في جوانب الحضارة المادية والعلوم التطبيقية قديمًا وحديثًا لا يمكن تجاهله، ومن ثم فلا وجه لما يدَّعيه هؤلاء من تفوق الجنس الأوربي وتميزه على أهل الديانات الأخرى، ولا سيما الإسلام، فالإسلام بتميُّزه الروحي والمادي في آن واحد يردُّ بقوة مثل هذا الادعاء.

وبشيء من التفصيل نقول: "إن الأوربيين قد فقدوا تعادل القوة والأخلاق والتوازن بين العلم - بظاهر من الحياة الدنيا - والدين منذ قرون، فلم تزل القوة والعلم في أوربا بعد النهضة الجديدة ينموان على حساب الدين والأخلاق، ولم يزل الأوَّلان في ارتفاع وارتقاء، والآخران في انخفاض وانحطاط، حتى بَعُدَت النسبة بينهما، ونشأ جِيْلٌ كأنه ميزان لُصِقت إحدى كِفَّتيه بالأرض (وهي كِفَّة القوة والعلم)، وخفَّت الثانية (وهي كفة الدين والأخلاق) حتى ارتفعت جدًّا.

وبينما يتراءى هذا الجيل للناظر في خوارقه الصناعية وعجائبه الكونية، وتسخيره للمادة والقُوَى الطبيعية لمصالحه وأغراضه كأنه فوق البشر، إذ هو لا يتميز في أخلاقه وأعماله، وفي شَرَهه وطمعه، وفي طيشه ونزقه - خفة عقله - وفي قسوته وظلمه عن البهائم والسباع، وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة، إذا هو لا يدري كيف يعيش! وبينما هو بلغ الغايات ووراء الغايات في الكماليات وفضول الحياة، إذا هو لم يعرف المبادئ الأولية والبدهيات للحياة الإنسانية والمدنية والأخلاق، فتراه يَصَّعَد إلى السماء ويريد أن يُناطح الجَوْزاء، وهو لم يتقن شئون الأرض ولم يصلح ما تحت قدميه، وقد خوَّلته العلوم الطبيعية قوة قاهرة وهو لا يحسن استعمالها، كطفل صغير أو سفيه أو مجنون يملك أزمة الأمور ويؤتى مفاتيح الخزائن، فهو لا يزيد على أن

---

1. الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، د. أنور الجندي، مرجع سابق، ص٣٦٠، ٣٦١ بتصرف.

يبعث بالجواهر الغالية والنفائس المخزونة، ويعيث في دماء الناس ونفوسهم"[1].

إن القيم الأخلاقية تمثل ولا ريب مراكز الثقل في حضارات الأمم، وشِحْنات الدفع في مسيراتها، وتكاد علاقاتها المؤكدة بالنمو الحضاري تبدو طردية باستمرار على مستوى الكيف والكم، فكلما التزمت جماعة ما بمزيد من القيم وسعت إلى صقلها وتأصيلها في أعماق البنية الاجتماعية، تمكنت من حماية وِحْدَتها ومدِّ عمرها الحضاري، وإبعاد شبح التدهور والسقوط عنها، وكلما بدأت جماعة بالتخلي عن هذه الالتزامات واطراحها جانبًا، وعدم السعي لبلورتها وتعميقها في الممارسة الاجتماعية، عرَّضت وحدتها للتفتُّت، وآذنت نشاطها ومعطياتها الحضارية بسوء المصير.

ولا شك أن الحالة الأخلاقية ومفردات السلوك يرتبطان أشد الارتباط بالوضع الحضاري؛ فهي تعينه على التماسك والنمو في بعدها الإيجابي، وتقوده إلى التفكك والانهيار في بعدها السياسي[2].

"وكم من أمة غنية ولكنها تعيش في شِقْوة، مهددة في أمنها، مُقَطَّعة الأواصر بينها، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال، فهي قوة بلا أمن، ومتاع بلا رقي، وهي وفرة بلا إصلاح، وحاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نَكِد، وهو الابتلاء الذي يَعْقُبه النَّكال"[3].

"إن العذاب النفسي والشقاء الجنسي والانحلال الخلقي... الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم يكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع، ويكاد يَصْبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تُباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمة، في مقابل شهوة أو شذوذ... وهي طلائع لا تخطئ على نهاية المطاف.

وليس هذا كله إلا بداية الطريق... وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: "إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا ـ على معاصيه ـ ما يحب، فإنما هو استدراج"، ثم تلا: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الأنعام)[4][5].

إن الفساد الأخلاقي والانحلال الروحي الذي يسود المجتمعات الأوربية التي تظن أنها فوق الأجناس وأنها بلغت ذروة الكمال ـ بدءًا بالممارسات المنحرفة التي تمس السلوك كالجنس والفجور والانغماس في الملذات، وتَفَشِّي الخمر والميسر والغناء والرقص، وانتشار ظاهرة القِيان[6] والغلمان... وانتهاءً بمنظومة القيم التي تمس العمل والسلوك، كالغش والكذب والمنفعة والأثرة والكبر والرياء والغدر والنفاق والخيانة وشهادة الزور،

---

١. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن علي الندوي، مرجع سابق، ص١٦٢.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص١٣٣٩.

٣. مدخل إلى الحضارة الإسلامية، د. عماد الدين خليل، مرجع سابق، ج١، ص١٦٩، ١٧٠ بتصرف.

٤. المرجع السابق، ج٣، ص١٠٩١.

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث عقبة بن عامر الجهني عن النبي ﷺ (١٧٣٤٩)، والروياني في مسنده، عقبة بن مسلم التجيبي، إذا رأيت الله يعطي العبد بالمنى وهو مقيم على معصية (٢٥٩) بنحوه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤١٣).

٦. القَين والتقَيُّن: التزَيُّن بألوان الزينة، والقَيْنةُ الأَمَةُ المُغَنِّية، وقيل: القَيْنة: الأَمَة مُغَنِّية كانت أو غير مغنية، وإنما قيل للمُغَنِّية قَيْنةٌ إذا كان الغناءُ صناعة لها، وذلك من عمل الإماء دون الحرائر، والقَيْنةُ: الجارية تخدُمُ، والقَيْنُ: العبد، والجمع قِيانٌ.

وتضاؤل الإحساس بالمسئولية، وغياب رقابة الضمير، والتدليس، وعدم الالتزام بالعهود وانعدام الأمانة.. إلخ، كل هذا يشير إلى لُحُوق الدمار بهذا النشاط الحضاري، وخوائه من المقومات الأساسية له، ألا وهي الأخلاق، وما تلبث هذه الممارسات غير الأخلاقية أن تتكاثر حتى تقود الحركة الحضارية إلى الانهيار[١].

ومجمل القول في هذا الصدد، "أن هذا التميز العلمي وحده ليس هو كل شيء في الحضارة، وإنما الحضارة قُوًى روحية ومادية، وأن العمل المادي الصِّرْف منفصلًا عن الأخلاق والدين لم يحقق إلا أزمة العصر، أزمة العالم الذي كَبُرَ عقله وتَوَقَّف قلبه عن النمو، فبان ما بين قوتيه الصانعتين لحياته"[٢] ®.

الخلاصة:

- البشر جميعًا يستوون في كونهم نفخة من روح الله في آدم عليه السلام، فهم جميعًا ينتمون لأصل واحد ويجمعهم نسب مشترك، أليسوا كلهم أبناء آدم؟! وقد أرست الديانات السماوية ـ وعلى رأسها الإسلام ـ دعائم المساواة والعدالة بين بني الإنسان، ولا فرق بينهم لعرق أو جنس، فهم سواسية كأسنان المشط، وهم إخوة في الإنسانية والعقل والمنطق، وهذا يقتضي المساواة في التعامل بينهم.
- الجنس الأوربي عانى من التردي والانحطاط قرونًا طويلة، والعصور الوسطى خير شاهد؛ ففي حين كانت المدنية الإسلامية تشع بنورها وتتلألأ أضواؤها، لِتُعَلِّمَ أرجاء المعمورة، كان الغرب بعد سقوط روما يترنح في سبات من الجهل والظلام الفكري والروحي؛ فليس الاستعلاء باللون ـ إذن ـ مصدرًا من مصادر التقدم والامتياز.
- تفوق الغرب في بعض المجالات المادية لا يعني تفوقه في جميع مناحي الحياة، وحسبك هنا أن تشاهد ما يعانيه القوم من خواء عاطفي روحي ـ رغم التقدم المادي ـ وقد أعلن كثير منهم ذلك الفقر والعوز الخلقي، فمنهم من هداه الله إلى الإسلام، وكثير منهم لا يزال يتخبط في ظلام الشك والحيرة، وأنت تعلم أن نسبة الانتحار في أغنى بلاد أوربا هي الأعلى، وهذا يكفيك في دحض هذه الفرية إن أردت. وإذا كانت الحالة الأخلاقية والسلوك يرتبطان أشد الارتباط بالوضع الحضاري، فإن المجتمعات الغربية تفتقد كثيرًا من مقومات الحضارة الحقة، حتى ما تلبث هذه الممارسات غير الأخلاقية أن تتكاثر حتى تقودها إلى الانهيار والتخلف المبين: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ (ص).



١. مدخل إلى الحضارة الإسلامية، د. عماد الدين خليل، مرجع سابق، ص١٦٩، ١٧٠ بتصرف.

٢. الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، د. أنور الجندي، مرجع سابق، ص٣٦١.

® في **"أثر الدين في تحقيق الاستقرار النفسي والروحي"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة، من هذا الجزء. وفي **"رعاية الإسلام لجانبي الروح والجسد"** طالع: الشبهة الثلاثين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). والوجه الأول، من الشبهة الثانية والثلاثين، من الجزء الثالث عشر (العبادات والمعاملات الاقتصادية).

الشبهة الثانية والعشرون

الزعم أن نهضة المسلمين في العصر الحديث لم تكن إلا نتيجة لحملة نابليون(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن نهضة العالم العربي الحديثة إنما أحدثتها الحملة الفرنسية على مصر في آخر القرن الثامن عشر؛ فهي التي أمدَّت العرب بما لم يكونوا يَعْهَدون من مُنْجَزات الحضارة الغربية ونُظُمها، كالـمَطْبَعة والمجامع العلمية والمجالس النيابية، ولذلك تعتبر الحملة الفرنسية - من أجل ذلك - فاتحة اليقظة العربية، والدافع إلى التغيير الفكري والاجتماعي والسياسي في التاريخ العربي الحديث. ويراد بمثل هذا التماس أصل أوربي لنهضة العرب الحديثة كما التمسوا من قبل أصلًا يونانيًّا لنهضتهم القديمة، فيكون العرب مدينين لأوربا بالفضل الحضاري في البدء والختام.

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد ابتغت فرنسا من اتجاهها نحو الشرق تحقيق هدفين اثنين، هما: محاربة الإسلام، ونَهْب ثروات الشرق، ولم تكن حاملة رسالة حضارية للشرق كما يدعي هؤلاء.

٢) لم يقدم الفرنسيون أيَّ إنجاز حضاري لبلاد الشرق، وما تركوه لم يتم اكتشافه إلا في مدة متأخرة، ولم يفد المسلمون منهم إلا خراب الديار، ونهب الأموال، وسرقة المخطوطات والآثار.

التفصيل:

أولا. المقاصد الحقيقية للحملة الفرنسية:

نحن لا ننكر ما كانت عليه أوربا في تلك الآونة من تقدم حضاري، ولا ننكر أيضًا أنها كانت تريد نشر هذه الحضارة في ربوع العالم الإسلامي، ولكن هل كانت أوربا تهدف من وراء نشر هذه الحضارة تمدين العالم الإسلامي؟ أو بتعبير آخر: هل كانت بغية الاستعمار من نشر حضارته هو تمدين البلاد التي استعمرها؟ سنرجئ الإجابة عن هذا السؤال إلى ما بعد الحديث عن الأهداف الحقيقية للحملة الفرنسية، وإن كان الحديث عنها جزءًا من الإجابة عنه.

كثيرًا ما نقول - حتى لأبنائنا في المدارس -: إن الحملة الفرنسية كانت فتحًا عظيمًا لمصر وللعالم العربي - وإنها هي بداية الانفتاح المصري - ومن ثَمَّ العربي والإسلامي - على العالم المتحضر، وبداية الخروج من الظلمات إلى النور، وفي الواقع أنها كانت حملة صليبية على مركز من أهم مراكز العالم الإسلامي.

ويُقَال في أهداف الحملة: إن نابليون كان يريد أن يتخذ من مصر قاعدة له لقطع "الطريق الإمبراطوري" بين بريطانيا والهند، بسبب التنافس الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا، ويقال: إنه حمل معه مطبعة ذات أحرف عربية لطبع الأوامر والمنشورات "الإصلاحية" التي يصدرها نابليون إلى الشعب المصري، وإنه جاء معه ببعثة علمية للتنقيب عن آثار الفراعنة. وببلاهة وغفلة - أو بخبث وسوء نية - تُتَجَاهَل الأهداف الحقيقية للحملة، وأهداف المطبعة والبعثة العلمية!

(*) شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، القاهرة، ١٩٧٨م.

فأما التنافس الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا في تلك الفترة فحقيقة تاريخية لا شك فيها، وكذلك رغبة نابليون الأكيدة في أن يتخذ من مصر قاعدة يحارب منها بريطانيا، ويقطع "طريقها الإمبراطوري" إلى الهند، أما أن هذه هي كل أهداف الحملة، فأمر يكذبه واقع التاريخ.

ولنا أن نتساءل: ما العلاقة بين قطع الطريق الإمبراطوري وبين محاولة تَنْحِيَة الشريعة الإسلامية في مصر، وإحلال القوانين الوضعية محلها؟! وما العلاقة بين قطع الطريق الإمبراطوري وبين البعثة العلمية التي تنقب عن آثار الفراعنة؟!

أما حين نعلم أنها حملة صليبية تحمل معها أهدافًا محددة ضد الإسلام، فهناك يتضح كل شيء[1].

ونحن حين نقول إنها حملة صليبية لسنا مغالين في ذلك، فنحن إذا رجعنا إلى أواخر الحروب الصليبية في العصور الوسطى - وهي ليست ببعيدة عن حملة نابليون بمقياس التاريخ - نجد وصية للويس التاسع - وقد وردت ترجمتها في كتاب عن "العلاقات بين الشرق والغرب، من الحروب الصليبية إلى اليوم" - فَحْواها: أنه يرى أن يُؤَخَّرَ دور السيف، ويُقَدَّمَ دور الخديعة، وأن يُجَنَّدَ جيش كثيف من المبشرين لتحويل المسلمين عن إيمانهم، وعلى أوربا أن تنظم هذا الجيش وتحميه، ويرى أن المعالنة بالقضاء على الإسلام خطأ، ويوصي بإخفاء ذلك وإظهار غيره، ويرى ضرورة دراسة الشرق الإسلامي وأحواله ليتيسر وضع اليد الصليبية عليه، وقد ظلت وصيته هذه الأساس الدبلوماسي والعسكري للسياسة الأوربية لقرون طويلة[2].

نعود إلى الحملة الفرنسية، بعد هزيمة المماليك أمام نابليون في معركة إمبابة، جاء واستقر في القاهرة في منزل الألفي بك، وكان - بوصفه مسلمًا محبًّا للإسلام والقرآن كما زعم - يرأس مجلس العلماء، ويخلع عليهم أحيانًا خِلَعًا سَنِيَّة، ويحاول استخدامهم في ترويج القوانين الوضعية التي أراد إحلالها محل الشريعة الإسلامية، والتي كان يطبعها في المطبعة العربية التي جاء بها معه ووضعها في بولاق، يا له من إجراء يقطع به الطريق الإمبراطوري بين بريطانيا والهند!

إنها لسذاجة أن نتصور أن نابليون جاء فقط ليقطع الطريق الإمبراطوري بين بريطانيا والهند! نعم، إنه ينافس بريطانيا ويلاحقها ويضيق عليها، ولكنه جاء ومعه مُخَطَّطه الصليبي لإخراج مصر من دائرة الإسلام، لعلها تكون بعد ذلك نقطة ارتكاز لإفساد بقية العالم الإسلامي.

ولقد كانت محاولة تنحية الشريعة الإسلامية هي أول نقاط المخطط الذي بدأ بتنفيذه بالفعل، حتى كشفه واحد من علماء الأزهر، إذ قال له في وجهه: لو كنت مسلمًا حقًّا كما تدعي لطبقت الشريعة الإسلامية في بلدك فرنسا، بدلًا من تنحية الشريعة هنا، ووضع القوانين الوضعية بدلًا منها.

وأما المطبعة - تلك المَأْثَرَة العظيمة من مآثر الحملة كما يُزْعَم - فقد جاء بها نابليون لأكثر من سبب، فَبِهَا يطبع المنشورات التي يطالب فيها الشعب المصري

---

١. واقعنا المعاصر، محمد قطب، مرجع سابق، ص١٩٩ بتصرف.

٢. ظلام من الغرب، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص١٤٣ بتصرف يسير.

المسلم بالخضوع لأوامر المغتصب الصليبي، كالمنشور الذي قال فيه: إن الإيمان بالقضاء والقدر يستلزم الاستسلام الكامل للفرنسيين وعدم مقاومتهم؛ لأن تغلبهم على مصر والاستيلاء عليها كان بقدر من الله! كذلك كان يطبع فيها المنشورات الحاوية "القانون نابليون" التي يصدرها لإبطال الشريعة الإسلامية بالتدريج.

وإذا كانت المطبعة قد استُخْدِمَت فيما بعد لهدف مغاير تمامًا لأهداف نابليون، من نشر للتراث العربي الإسلامي، فهذا أمر لا يُحْسَبُ لنابليون، ولا يُحْسَبُ من مآثر الحملة؛ لأنه لم يكن مقصودًا عند نابليون، بل كان عكسه تمامًا هو ما اسْتُخْدِمَتْ فيه على أيامه.

وأما البعثة العلمية التي جاءت تنقب عن آثار الفراعنة، وهي المَأْثَرَة الثانية من مآثر الحملة، فأمرها أَنْكَى.

يقول أحد المستشرقين الصُّرَحاء في كتاب "الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته": "إننا في كل بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات".

هذا هو الهدف المخطط للبعثة العلمية المرافقة للحملة، لم يكن هدفًا علميًّا، إنما كان هدفًا صليبيًّا مُغَلَّفًا بالعلم، شأنه شأن الرحلات الاستكشافية التي قام بها الصليبيون ابتداء من القرن السادس عشر من الميلاد.

لقد وُجِدَ في كل مكان من العالم الإسلامي ـ كما كانت الآثار الفرعونية في مصر ـ آثار من بقايا عبدة الأوثان الذين كانوا يسكنون الأرض قبل مجيء الإسلام، سواء في الجزيرة العربية أو بلاد الشام والعراق أو غيرها من البلاد، وظل الأمر كذلك ما يزيد على ألف عام، الناس في إسلامهم، وهذه الأوثان في الأرض، لا تثير فيهم إلا عبرة التاريخ.

ولكن المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون معهم، وهم يجوسون خلال الديار، كان هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ، لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وبين تلك الحضارات، تمهيدًا لاقتلاعهم نهائيًّا من الولاء للإسلام. وكان من بين ذبذبة الولاء بين الإسلام وبين الحضارات السابقة عليه، إثارة النعرات الشعوبية، ومنها إثارة النعرة الفرعونية في المصريين المسلمين، حتى إذا انتسبوا لم يكن انتسابهم إلى الإسلام، إنما إلى مصر بعيدًا عن الإسلام.

هذا هو الهدف من البعثة العلمية التي جاء بها نابليون معه إلى مصر، فمن السذاجة ـ إذن ـ أن نقول: إن أهدافها كانت علمية بحتة، وقد شهد شاهد من أهلها أنها لم تكن كذلك.

أضف إلى ذلك "بغايا الحملة" اللواتي تَحَدَّثَ عنهن الجبرتي، أولئك الساقطات اللواتي جاء بهن نابليون، يسرن في شوارع القاهرة حاسرات متخلعات، يثرن الفتنة وينشرن الفاحشة، ويغرين النِّساء بتقليدهن. وكذلك نداء نابليون الخطير الذي أذاعه غداة احتلاله لمصر ليهود العالم كي يعودوا لوطن آبائهم.

ولنا أن نتساءل: إذا كانت الحملة هدفها الحقيقي هو

نشر العلم بين أبناء المجتمع المصري، فلماذا ضرب نابليون الأزهر بالقنابل من القلعة، واتخذه اصطبلًا للخيل، مع علمه بأنه أكبر معاقل العلم في العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

تلك هي المآثر الحقيقية للحملة الفرنسية التي لا تذكرها كتب التاريخ المكتوبة بأيدي الأوربيين، والتي ينقلها ويتتلمذ عليها الأساتذة الكبار من المؤرخين المسلمين[1].

نعود الآن إلى السؤال الذي طرحناه في صدر حديثنا، وهو هل كان هدف الاستعمار من نشر حضارته هو تمدين البلاد التي استعمرها، كما أعلن؟

في حقيقة الأمر أنَّه كان يهدف من وراء ذلك إلى "إزالة الحواجز التي تقوم بينه وبين هذه الشعوب، وهي حواجز تهدد مصالحه الاقتصادية، وتجعل مهمة حراستها والمحافظة عليها صعبة غير مأمونة العواقب، كانت هذه الحواجز الناشئة عن الاختلاف في الدين وفي اللغة، وفي التقاليد والعادات، سببًا في إحساس الوطنيين بالنفور من الأجنبي المحتل، وفي إحساس المستعمر بالغربة"[2].

هذا هو الهدف الحقيقي من نشر الاستعمار لحضارته، وطالما أن الحملة الفرنسية كانت جزءًا من هذا الاستعمار، إذن تنطبق عليها هذه الأهداف والنيات، ففرنسا وما سواها من قوى الاستعمار الغربي لم تأتِ إلى الشرق إلا لشيئين هما: محاربة الإسلام، ونهب الثروات، ومن العبث الاعتقاد أنها كانت تحمل رسالة حضارية إلى الشرق، وأن من قاموا بها كانوا دعاة إصلاح[3].

ثانيًا. لم يقدم الفرنسيون أي إنجاز حضاري لبلاد الشرق:

إن القول بالتأثير الحضاري لفرنسا في بلاد الشرق فِرْيَة لا أساس لها من الصحة، فإن ما تركوه لم يتم اكتشافه وفَكُّ رموزه إلا في فترة متأخرة، بعد أن خطا المسلمون نحو التقدم والمدنيَّة والحضارة خطوات واسعة.

فالقول بأن علماء الحملة قد دوَّنوا معلوماتهم في كتاب "وصف مصر" صحيح، لكنه لم تُتَرْجَم منه - حتى حِقْبة متأخرة - سوى أجزاء متناثرة في سبعينيات القرن الماضي، أي بعد مرور حوالي قرنين على ذهاب الحملة وفشلها، وبعد أن كتب المصريون أنفسهم ما هو أدق منه بكثير.

وكذلك عادت مصر إلى حياة الفوضي حتى مجيء عصر محمد على، فلم توجه الحملة أنظار المصريين نحو المدنية الغربية.

ولم يظهر للديوان الذي شكَّله نابليون - كأسلوب دعاية - أي أثر، وقد أُلْغِي بعد ثورة القاهرة الأولى، وأُعِيدَ تشكيله على نمط لا يرعى الصالح العام.

وكان اكتشاف حجر رشيد مصادفة، ولم تُفَكَّ رموزه إلا بعد ذهاب الحملة بحوالي ثلاثين عامًا.

وقد سبق لنا الحديث عن الأهداف الحقيقية من

---

١. واقعنا المعاصر، محمد قطب، مرجع سابق، ص٢٠٠: ٢٠٥ بتصرف.

٢. الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسين، دار الرسالة، السعودية، ط٩، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٤٦.

٣. للمزيد يُرجى مطالعة: الحملة الفرنسية: تنوير أم تزوير، د. ليلى عنان، كتاب الهلال، العدد ٥٦٧، مارس ١٩٩٨م.

اجتلاب نابليون للمطبعة، وأنها لم تكن إلا وسيلة لترويج القوانين الوضعية التي أراد إحلالها محل الشريعة الإسلامية.

إن الشرق لم يَجْنِ من الغرب سوى نهب الأموال، وتخريب الديار، وسرقة الآثار والمخطوطات العلمية والفنية العريقة، هذا ما قدمته الحملة للشرق!

والقول بأن الشرق الإسلامي لم يعرف اليقظة قبل الحملة الفرنسية دعوى باطلة بواقع التاريخ نفسه، وهي دعوى تستهدف القول بأن العالم الإسلامي لم ينهض إلا بفضل الغرب ونفوذه، وأنهم لم يستيقظوا حتى أيقظهم الغرب، وهو خطأ صريح؛ إذ لا سند تاريخي أو علمي له، فإن العالم الإسلامي والأمة العربية قد استيقظت قبل الحملة الفرنسية بأمد، وقد بدأت هذه اليقظة في منتصف القرن الثامن عشر أو حوالي ١٧٤٠م، وعلى التحديد حين انبثقت صيحة الإمام محمد عبد الوَهَّاب في قلب الجزيرة العربية بدعوة التوحيد، وما كان لها من أصداء واسعة في العالم الإسلامي كله، وهذا قبل الحملة بأكثر من نصف قرن.

ومن قبل وصول الحملة كانت حركة العلماء في الأزهر قد وضعت أول وثيقة لحقوق الإنسان، حينما أخذت العهد المكتوب على الأمراء المماليك بألا يظلموا الرعية، ولا يفرضوا عليها أي ضرائب أو قيود؛ فإذا كان ذلك كذلك، فإن القول بإعلاء شأن الحملة الفرنسية ليس إلا من دعوَى المستعربين والمستغربين. وإن المراجع الصحيحة تجمع على أن الحملة الفرنسية لم تكن مصدر نهضة بقدر ما كانت عامل تعويق للنهضة الأصلية. والأمم لا تتجسَّد من خارجها، وإنما تتجسَّد من مصادر فكرها ومن أعماق روحها.

ونستطيع أن نقولها بصراحة: إن تأثير الحملة الفرنسية كان سلبيًّا لدرجة كبيرة، وقد ولَّدت الحملة الفرنسية في مصر ما ولَّدت المعاهد التبشيرية في سواحل الشام وبيروت؛ فقد ولَّدت حذرًا من المدنية التي مثَّلوها للناس متقاربة مع تقاليدهم، وولَّد الحذر قلقًا، وامتد القلق والحذر بتأثير بعض التصرفات السيئة، فأصبح تعصبًا وكرهًا. ومن المستحيل عقلًا أن نتصور أن الشرق العربي الإسلامي كان سيظل نائمًا؛ لأن لهذا الشعب تاريخًا في الحضارة وقدمًا في التمدن وجذورًا عريقة في الثقافة، ولقد نهضت الشعوب التي هي أقل عراقة كالصين والهند واليابان.

بل إننا نصل إلى أكثر من هذا فنقول: إنه لولا الحملة الفرنسية لاستطاع الشرق العربي أن ينهض نهضة حضارية حقيقية، والشرق له تقبُّل ذاتي للحضارة، وليس مفروضًا عليه من الخارج، ولم يعرف المسلمون الموت، بل الانحطاط فقط، وقد مرَّت بهم كما مَرَّ بغيرهم أدوار الخمول[1].

الخلاصة:

- إن القول بأن الحملة الفرنسية كانت فتحًا عظيمًا، وأنها بداية الخروج من الظلمات إلى النور هو خدعة تاريخية كبرى؛ ففرنسا وما سواها من قوى الاستعمار الغربي لم تأت إلى الشرق إلا لغرضين هما: محاربة الإسلام، ونهب الثروات، ومن العبث الاعتقاد أن الحملة الفرنسية كانت حاملة رسالة حضارة

---

١. الشبهات والأخطاء الشائعة على الفكر الإسلامي، أنور الجندي، مرجع سابق، ص٣٣٥، ٣٣٦ بتصرف.

للشرق، أو أن من قاموا بها كانوا دعاة إصلاح.

- لم تقدم الحملة الفرنسية أي إنجاز حضاري لبلاد الشرق، فالمطبعة التي حملها معه نابليون لم تكن لنشر مشروعاته الإصلاحية، ولكن لترويج القوانين الوضعية التي أراد إحلالها محل الشريعة الإسلامية، والبعثة العلمية التي جاءت لتنقب عن الآثار إنما كان هدفها ذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وبين الحضارات السابقة عليه؛ فلم يقدم الفرنسيون إلى الشرق إلا من أجل محاربة الإسلام ونهب الأموال، وسرقة الآثار والمخطوطات.

الشبهة الثالثة والعشرون

دعوى ضرورة التقارب بين المسلمين والغرب ولو على حساب الإسلام(*)

مضمون الشبهة:

يرى أنصار بعض الاتجاهات الفكرية المعاصرة أنه لا بد من التقريب بين مبادئ الإسلام والحضارة الغربية، ولو أدى ذلك إلى التخلي عن كثير من الأسس الإسلامية، كالقضايا المتعلقة بالمرأة والحجاب... إلخ. وهم كثيرًا ما يهتفون بهتافات جديدة، مثل: تطوير الإسلام، تجديد الخطاب الديني، تجديد الدين... إلخ. ويهدفون من وراء ذلك إلى تنحية مبادئ الإسلام وتعاليمه، ومن ثم إذابة هويته.

(*) الإسلام المفترى عليه، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الإسلام دين لا يرفض الحوار والتقارب مع الآخر، ولكن الغرب هو من يأبى ذلك، فهو لا يريد سوى الهيمنة على الآخر، وتبني فكرة إخضاع الحضارات الأخرى - وبخاصة الحضارة الإسلامية - للنموذج الغربي.

٢) إن التجديد المنشود للإسلام هو حماية أصله مما عداه، وتنقيته مما شابه وعَكَّر رَوْنَقه، وليس إذابته في الآخر، وطَمْس معالمه وإخفاء هُوِيَّته.

٣) الحملة الغربية على الإسلام ليست نابعة من عيوب جوهرية فيه ولا الجهل به، وإنما لثرائه الفكري واستعصائه على العلمنة والخضوع للغرب.

٤) إن العالم الغربي يحاول السيطرة على ثروات العالم الإسلامي بكل الوسائل، حتى ولو كانت هذه الوسائل اغتيال العقل الإسلامي ومصادرة حرية المسلمين.

التفصيل:

أولا. الإسلام دين لا يرفض الحوار والتقارب مع الآخرين:

إذا أمعن المرء النظر في التاريخ العام للحضارات الإنسانية، فإنه يستطيع أن يَتَبَيَّنَ بوضوح أن التعددية الحضارية كانت دائمًا هي القاعدة، على الرغم من الطبيعة الواحدة للإنسان في كل زمان ومكان، والتي يشترك فيها كل الناس.

وإذا كان الله قد خلق كل فرد من أفراد الإنسان بشخصية مستقلة تميزه عن غيره من أبناء جنسه، فإن الأمر كذلك بالنسبة للحضارات التي بناها ويبنيها

الإنسان، فكل حضارة لها شخصية معينة تميزها عن غيرها.

وهذا التمايز الحضاري لم يكن في يوم من الأيام يمثل عقبة في سبيل التفاعل والتواصل بين الحضارات، ومن أجل ذلك لا توجد حضارة إنسانية عريقة نمت وتطورت دون أن تتأثر بغيرها من الحضارات، فالتراث الإنساني أخذ وعطاء، ولا توجد أمة عريقة في التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث، ولم تَشِذ حضارة من الحضارات الكبيرة عن هذه القاعدة.

ومن هنا نجد أن الحضارة الإسلامية قد شيَّدها المسلمون شيئًا فشيئًا في تبادل حي مع الحضارات الأخرى التي التقت بها، ويؤكد الفيلسوف العربي ابن رشد أهمية الالتقاء بين الحضارات مُبْرِزًا ضرورة الاطلاع على ما لدى الآخرين من ثقافات، ومُبَيِّنًا أن ذلك يُعَدُّ واجبًا شرعيًا، ويضيف قائلًا: "فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم وسُرِرْنَا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق نَبَّهنا عليه وحذَّرنا منه وعذرناهم"[1].

وعليه فالإسلام لا يرفض الحوار والتقارب مع الآخر بحال من الأحوال ما دام هذا الحوار مثمرًا، وما دام هذا التقارب يقوم على العقلية الناقدة التي تميز بين ما يفيد وما لا يفيد، ويستطيع المسلم فيه أن يحمي حضارته، وهذه هي الطريقة التي يصبح بها الطريق ممهدًا إلى التوصل إلى ما فيه الخير والسلام للجميع[2].

ولكن هذا الحوار، وهذا التقارب اللذين يدعو لهما الإسلام، لا يعترف الغرب بهما؛ لأن الحضارة الغربية تتميز بروح الهيمنة التي تحاول السيطرة على الآخر بكل سبيل، يقول د. بو عبد الله غلام الله وزير الشئون الدينية والأوقاف بالجزائر: "الحضارة الغربية تلغي التعددية الكونية التي هي سنة الله في الخلق؛ فلا تعترف بالآخر ثقافيًا وإعلاميًا واقتصاديًا؛ لأن هدفها الوحيد هو تصدير النمط الغربي الليبرالي بقيادة أمريكا. ويكفي أن نرجع إلى مختلف الإعلانات المعاصرة من مثل حقوق الإنسان، حقوق الطفل، حقوق المرأة وما إلى ذلك، كلها إعلانات تريد أن تكون عالمية، وما هي في الواقع إلا تعبير عن النظرة الغربية، ولم تأخذ أبدًا في عين الاعتبار نظرة الحضارة الإسلامية في الموضوع.

وهكذا أصبح هذا الفكر الغربي - باسم الرقي الحضاري وحقوق الإنسان - يفرض مفاهيم غربية: اجتماعية واقتصادية وسياسية؛ معتبرًا كل مخالف لها - سواء باسم الدين أو الخصوصية الثقافية - انحرافًا وشذوذًا حضاريًا أو إرهابًا مدمرًا للحضارة الغربية.

ومن ثم فمن العبث الحديث عن مستقبل علاقة حوار حضاري إنساني بين الإسلام والغرب، إذا كان الأساس قائمًا أصلًا على أفكار مسبقة خاطئة لدى الغرب، سواء في التصور والتحليل، أو في معرفة الآخر وتقييمه.

إن الحوار الحضاري من أُسُسِه أن يُحدِّد المتحاوِر موقفه بموضوعية وصدق؛ مع إضمار حسن التقدير للآخر؛ لا أن يحدد لهذا الآخر موقفه أو أن يمليه عليه.

فعندما يدَّعي هذا المتحاور امتلاك الحقيقة من دون الآخرين، فستكون لهذا الادعاء امتدادات في واقع

---

١. الإسلام وقضايا الحوار، د. محمود حمدي زقزوق، ترجمة: د. مصطفى ماهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٥٦، ٥٧.

٢. المرجع السابق، ص٥٧ بتصرف.

الحياة؛ فهو ينصب نفسه مرجعًا وحيدًا لمعرفة من يحق له مثلًا أن يمتلك القوة التكنولوجية أو القوة العسكرية أو التشريعية وما إلى ذلك، باسم الحقيقة والخيرية والريادة، وفي هذه الحال يصبح الغير مجبرًا على التبعية والإذعان، من دون نقاش؛ لأنه الطرف الضعيف في المعادلة، أو القاصر حضاريًّا[1].

ونحن في عرضنا لتلك الحقائق لا نتحامل بحال من الأحوال على الغرب والحضارة الغربية، بل يؤكد هذه الحقائق، فقد أعلن كثير من علماء المسلمين الذين شاركوا في جلسات ما يُسمَّى بمؤتمرات "الحوار بين الأديان" أو التقريب بينها في بعض الجوانب - أنهم غالبًا ما خلصوا بعد طول المشاركة إلى نتيجة مُؤَدَّاها أن المقصود ليس التقريب، وإنما التغليب، تغليب طرف على آخر، والآخر هذا هو الإسلام - بالطبع - والغرض الانتقاص لا رفع الالتباس، وإن كان لطرف أن يتنازل أو إن لزمه على الأحرى أن يتنازل، فليكن هو الإسلام على الدوام، وهذا ما لا يطالب به الطرف الآخر فقط، وإنما يتبناه بعض المسلمين ممن يحرصون على إظهار استنارتهم الفكرية - كما يزعمون - ومجاراتهم لمقتضيات المدنية الحديثة®.

ثانيًا. تجديد الإسلام لا يعني طمس هويته وإخفاء معالمه:

والغريب أن مثل هذا لا يحرص أحد عليه مع الأديان الأخرى، وكأن العين على الإسلام وحده، وكأنه هو بعينه المقصود بالأمر لغرض ما في نفس يعقوب، وقد دلّس بعض المغرضين فوصف مثل هذا الصنيع بمصطلح "تجديد الإسلام" ليجاري الواقع المعيش، وهذا ما يبيِّنُه الشيخ الغزالي - رحمه الله - بقوله: "جرت على الألسنة كلمة تجديد الإسلام، وظن فئة أن المقصود منها ترْقيعُ ثَوْبٍ لَحِقَهُ البِلَى، أو تحريك آلة أدركها العَطَب، وقد يتطلب ذلك إهمال شعبة من شعب الإيمان، أو التجاوز عن حد من حدود الله، أو إرخاص الماضي غرورًا بالحاضر، وتمشيًا مع المدنية الحديثة، وهذا كله لا يخطر ببال مسلم، ولا يفكر فيه إلا لصيق بديننا لا يدري عنه شيئًا".

ثم يُبين الشيخ الغزالي المعنى الحقيقي للتجديد بقوله: "إن التجديد المنشود حماية الأصل مما عراه، وتنقيته مما شابه وعكر رونقه، إنه غسل الثوب حتى يزول عنه القذى، أو إزالة الغبار عن صورة غطّى الإهمال ملامحها.. إن حقائق الدين من منابعه الفريدة، ما إن أخذت تسير في مجراها من هذه الحياة حتى عَلِقَ بها من رواسب البيئات، ومخلفات القرون، وجهالات العامة، وشهوات الخاصة، ونزوات الحكام - ما ذهب بالكثير من نقائها وصفائها، حتى لتشبه ماء النيل في مجراه الأدنى، لا يصلح للشراب إلا بعد مجهودات متعاقبة من التنقية والتصفية، تردُّه سماويًّا كما كان.

هل إمداد الناس بالمياه النقية يضيف شيئًا إلى جوهرها الأصلي؟ لا، الأمل كله أن يعود الماء كما نزل من السماء، وأملنا في تجديد الإسلام قريب من عملنا في تنقية مياه الشرب، وقد نبَّه رسول الله ﷺ إلى جلال هذا العمل عندما قال: "يحمل هذا العلم من كل خلف

---

1. مستقبل العلاقة بين الحضارات الإسلامية والحضارات المعاصرة، مقال د. بو عبد الله غلام الله، ضمن أبحاث ووقائع المؤتمر الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق، ص٩٦٠: ٩٧٠ بتصرف.

® في **"انفتاح المسلمين على الحضارات الأخرى"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء.

عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"[1] [2] ®.

شروط النهضة:

ويقارن الشيخ الغزالي بين محاولات العلمانيين القفز فوق الدين وتعاليمه، عند حديثهم عن مشاريع الإصلاح والنهضة عندنا، وبين الإصلاح والتجديد مع الحفاظ على الثوابت والقيم الخاصة وملامح الهوية عند الشعب الياباني مثلًا، فيقول: "كان رجال التعليم والتربية في اليابان أيقاظًا عندما اتصلت بلادهم بأوربا في القرن الماضي، أو قل: كان حُرَّاس التقاليد الموروثة صاحين عندما قررت اليابان الاستفادة من التفوق الصناعي الغربي، فقد أَعَدُّوا لكل جديد يُقْتبَس مكانه فوق أرضهم ومساحته المادية والأدبية التي لا يعدوها، وهيمنوا ببصر حاد على الآثار المتوقعة حتى لا تفلت من أيديهم، أو تتحرك بعيدًا عن خططهم المرموقة.

ومع التزام هذا الخط الصارم بقيت الشخصية اليابانية محفوظة السمات، ثابتة الملامح، فانتقلت الصناعات الغربية إلى اليابان، ولم يتحول اليابانيون إلى أوربيين في عقائدهم، أو لغتهم، أو آدابهم، أو أخلاقهم.

إنهم فعلوا، ولم ينفعلوا، وقادوا ولم ينقادوا، وكانت هناك أديان بينها فجوات: البوذية من ناحية، والشنتوية من ناحية أخرى، والأتباع المخلصون تتقسمهم وجهات نظر شتى، ومذاهب فقهية كثيرة - إن صح التعبير - بَيْدَ أن لونًا من المعايشة السلمية فَرَضَ نفسه على الجميع، فإذا اليابانيون كلهم دون حساسيات دينية، يتعاونون على إنهاض بلدهم ورفع لوائه، وتم لهم ما أرادوا.

إن للنجاح الحقيقي أساسًا لا يتغير، هو النفس الإنسانية، فإذا استقر هذا المهاد لم يبق شيء ذو بال، وقد كان محمد ﷺ أعرف إنسان بهذه الحقيقة، فاتجهت جهوده كلها قبل أي شيء إلى داخل الإنسان تصوغه وتضبطه، وتطمئن إلى قراره، وهو يعرف أن هذا الإنسان سوف يفرض نفسه على بيئته يومًا عندما تنزاح العوائق من أمامه"[3].

ثالثًا. سر الحملة الغربية على الإسلام:

هل ينطوي الإسلام على عيوب حقيقية وعورات واضحة تتعارض مع الحياة السوية من مثل أحكام المرأة والحدود مثلًا في الشرع الإسلامي - كما يزعمون - أم أن في المسألة سرًّا آخر، وأن لها وجهًا خفيًّا لا يراه كثيرون، ويحرص على إخفائه المتسترون؟! بتعبير أوضح: ما سر الحملة الحقيقية على الإسلام وحده دون غيره من قِبَلِ الغرب؟!

هذا ما يسهب د. عمارة في إيضاحه والإبانة عن أبعاده فيقول: " فإننا نقدم شهادة - غربية هي الأخرى -

---

١. صحيح: أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار، باب بيان مشكل عن رسول الله ﷺ، يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله (٣٢٦٩)، والطبراني في مسند الشاميين، مسند عبد الرحمن بن زيد بن جابر، بن جابر عن علي بن مسلم البكري (٥٩٩)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٨).

٢. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٢١٣.

® في **"ضوابط التجديد في الفكر الإسلامي"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة، من هذا الجزء.

٣. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٤٧٠.

على مقاومة الإسلام للعلمانية واستعصائه على العلمنة، وعلو نجمه في سماء التدين بديانات السماء.

ففي مجلة "شئون دولية".. الصادرة في (كمبردج) يناير سنة ١٩٩١م، ملف عن الإسلام، فيه دراستان: عن الإسلام والمسيحية، والإسلام والماركسية، كتبهما اثنان من علماء الاجتماع... وفي هاتين الدراستين تعليل للحملة الغربية على الإسلام، يُرجع سبب هذه الحملة - التي تصاعدت عقب سقوط الشيوعية - إلى استعصاء الإسلام على العلمنة، وهو الأمر الذي جعل ثقافته صامدة أمام الثقافة الغربية، التي تعيش مأزق المسيحية والعلمانية، ولاأدرية وتفكيكية وفوضوية وعدمية ما بعد الحداثة، يقول العالمان: لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي، وبالنسبة لهذا الغرض كان الإسلام جاهزًا في المتناول.

فالإسلام رافض لأي تميز بين ما لله وما لقيصر، وهو لا يسمح لمعتنقيه بأن يصبحوا مواطنين في دولة علمانية، إنه استثناء مدهش وهام جدًّا من النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول: إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث، يحل العلمنة محل الإيمان الديني، فلم تتم أية علمنة في عالم الإسلام، وسيطرة هذا الدين على المؤمنين به هي سيطرة قوية، بل هي أقوى الآن مما كانت عليه من مائة سنة مضت، إنه مقاوم للعلمنة في ظل مختلف النظم السياسية - راديكالية[1] وتقليدية وبين بين - وعمليات الإصلاح الذاتي التي تتم في العالم الإسلامي باسم الإيمان الديني، وليس على أنقاض هذا الإيمان، وهو الأمر الذي مكَّن العالم الإسلامي من الإفلات من المعضلة التي جعلت مجتمعات أخرى ضحية للاضطراب والإذلال، بسبب إضفاء الغرب الطابع المثالي على نموذجه في التحديث، الأمر الذي جعلها تقف منه موقف المحاكاة والتقليد.

ذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة للعلمنة؛ ولأن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ حقيقي للثقافة الغربية، ثقافة الشك واللاأدرية، ثقافة المتخصصين الذين لا روح لهم، والعلماء الذين لا قلوب لهم.

كان الإسلام من بين ثقافات الجنوب - الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة على الإسلام. إذن، فهذه الحملة الغربية الشرسة على الإسلام بشهادة هذه الدراسات العلمية الغربية - ليست نابعة من عيوب جوهرية وحقيقية في الإسلام - كما يزعم هؤلاء - ولا هي نابعة من الجهل بحقيقة الإسلام، كما يحسب كثير من المسلمين - وإنما نابعة - بشهادة هؤلاء العلماء الغربيين - من إفلاس المسيحية الغربية، وإفلاس العلمانية الغربية، أي إفلاس "الدين الكنسي" و "الدين الحداثي" في الغرب الحديث والمعاصر، ومن فشل الغرب الاستعماري في إدخال الإسلام وأمته وعالمه إلى النفق العلماني المظلم، الذي دخل فيه الغرب، وهو الأمر الذي جعل الكثيرين يتحدثون - ثقافيًّا ودينيًّا وديموجرافيًّا - عن "موت الغرب" و "صحوة الإسلام".

تلك هي حقيقة الأسباب الموضوعية والجوهرية

1. الرادِيكاليَّة: اتجاه سياسي يُطالب بالإصلاح الجِذْري التام في إطار المجتمع القائم، ويقوم على إطلاق الحرية في الاقتصاد وعلى التفكير العقلاني غير المتسرِّع قبل اتخاذ الخطوات المؤدِّية للإصلاح.

الكامنة وراء الهجمة الغربية على الإسلام، وهذا هو السبب في شدة الضربات التي يحاول بها الغرب معاجلة صحوة الإسلام، وإلا فلو كان الإسلام هزيلًا لما اسْتَأْهَلَ هذا الضرب الشديد.

وهذه الحقيقة ـ التي شهد بها العلماء الغربيون ـ تدعو المسلمين إلى الاعتزاز بإسلامهم، ولكن دون غرور، وتدعوهم إلى مواجهة هذه الهجمة بالكشف عن حقائق الإسلام، ليعلمها الذين لا يعلمون ـ في الغرب وغير الغرب ـ ويكشف الدعاوى الكاذبة، التي تَسْتُرُ وتُزَيِّف الأسباب الحقيقية لهذه الهجمة الغربية على الإسلام.

كذلك يجب أن نكشف الزيف الذي تمارسه هذه الحملة على الإسلام، عندما يزعم أقطابها أنهم إنما يهاجمون "الأصولية الإسلامية"[1] ولا يهاجمون الإسلام، فَسَبْرُ غَوْرِ كتابات هؤلاء الكُتاب الغربيين، إنما يكشف عن أن حديثهم، بل تعريفهم للأصولية الإسلامية، إنما هو التعريف لحقيقة الإسلام، فالأصولية في المصطلح الإسلامي والفكر الإسلامي والتراث الإسلامي ـ هي الانطلاق من الأصول ـ أصول الدين وأصول الفقه ـ وهما عِلْمان من أبرز علوم العقلانية الإسلامية، العقلانية التي تَفْقَهُ الأحكام وتَفْقَهُ الواقع المعيش، ثم تَعْقِدُ القِرَان بين الفقهين والقراءتين، ومن ثم فالأصولية الإسلامية هي على النقيض من الأصولية المسيحية والأصولية اليهودية، اللتين مثَّلتا وتُمثِّلان الجمود والحرفية والتقليد، ومعاداة العلم والعقل والتجديد، والوقوف ـ ببلادة ـ عند ظواهر النصوص.

والكُتَّاب الغربيون الذين يهاجمون الدين الإسلامي تحت غطاء مصطلح "الأصولية الإسلامية" يكشفون هم أنفسهم عن هذه الحقيقة ـ حقيقة أن مقصدهم في الهجوم هو الإسلام ـ ويشهد بذلك الرئيس الأمريكي الأسبق "ريتشارد نيكسون" ـ وهو مفكر إستراتيجي ـ عندما يتحدث عن الأصوليين الإسلاميين، يدعو نيكسون الغرب (أمريكا وأوربا الغربية والشرقية) إلى الاتحاد لمواجهة خطرهم الداهم بسياسة واحدة.

تلك هي الأسباب الحقيقية التي تشهد بها وتعلنها الشهادات الغربية للهجمة على الإسلام، وهي أسباب تدعو المسلمين ـ وهم يخاطبون الغرب ويقدِّمون إليه حقائق الإسلام ـ أن يتحدثوا من موقع العزة والاعتزاز بالإسلام ـ دونما تكبر أو غرور ـ وألا يقعوا في خطأ ـ بل خطيئة ـ تقديم التنازلات التي تزيف الإسلام، على أمل أن يرضى عنه هؤلاء الذين يعادونه؛ لأنهم يعرفونه، ويعرفون حقيقته، وليس بسبب جهلهم له، كما يحسب بعض السطحيين والجهلاء، وصدق الله تبارك وتعالى؛ إذ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (البقرة).

وحقيقة أخرى من حقائق هذه الهجمة الغربية على الإسلام، هي أن عداء هؤلاء الذين يناصبون الإسلام العداء، ليس لأن المسلمين يغايرون الغرب في الدين، ولا لأنهم يمارسون من الشعائر الدينية الإسلامية ما يخالف شعائر النصرانية الغربية، فالديانات الوضعية

1. الأُصوليَّة: هي التمسُّك بكلّ اتِّجاه فكري أو ديني قديم.

هي الأخرى تغاير النصرانية الغربية في الشعائر والاعتقادات، ومع ذلك فإنها لا تَحْظَى بِعُشْرِ مِعْشَارِ ما يحظى به الإسلام من العداء.

ذلك أن الذي يناصب الإسلام العداء من الغربيين هم أولئك الذين يعرفون أنه ليس مجرد شعائر ومناسك وعبادات، ولا مجرد مالك لأقدم وأعرق المواريث الحضارية العالمية، وإنما هو مع كل هذا وفوقه:

- **توحيد:** يجعل المؤمنين به يرفضون الخضوع لكل الطواغيت، وفي مقدمتها طاغوت الهيمنة الغربية وإمبرياليتها.
- **ومشروع نهضوي يعني** - عندما يوضع في التطبيق - تحرير ضمائر المسلمين وعقولهم من الهيمنة الثقافية الغربية، وتحرير محيطات العالم الإسلامي وبحاره من الأساطيل العسكرية الغربية، وتحرير سياسات حكومات العالم الإسلامي من التبعية للمركزية الغربية، ومن ثَمَّ إعادة الأمة الإسلامية إلى مكانتها الطبعية في مقدمة الأمم والحضارات.

والإسلام، مع ذلك وفوق ذلك، دعوة لتحرير ثروات العالم الإسلامي من استغلال الرأسمالية الغربية المتوحشة.

رابعًا. محاولات الغرب في الاستيلاء على ثروات العالم الإسلامي:

إن العالم الإسلامي يمثل في الثروات:

١. العالم الأول في البترول، والغاز، والمنجنيز، والكروم، والقصدير، والبوكسيت. وإذا كان مخزون البترول في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي النرويج - بحر الشمال - لن يزيد عمره - مقارنةً بالإنتاج الحالي - على عشر سنوات، وعمره في كندا ثماني سنوات، فإن عمر هذا المخزون في العالم الإسلامي سيجعل هذا العالم هو المصدر الوحيد للطاقة على النطاق العالمي، في المستقبل من الزمان، فعمر المخزون الإيراني ٥٣ عامًا، وعمر المخزون السعودي ٥٥ عامًا، وعمر المخزون في الإمارات العربية المتحدة ٧٥ عامًا، وعمر المخزون في الكويت ١١٦ عامًا، أما في العراق فعمر المخزون النفطي ٥٢٦ عامًا.

غير بترول العالم الإسلامي في بحر قزوين، وفي السودان، ووسط إفريقيا، تلك هي كعكة الطاقة التي تعض عليها الإمبريالية[1] الأمريكية لتتحكم في عالم القرن الواحد والعشرين.

٢. كما يمثل العالم الإسلامي - في الثروات الخاضعة لاستغلال الشركات الغربية متعددة الجنسيات - العالم الثاني في النحاس والفوسفات، والعالم الثالث في الحديد، والعالم الخامس في الرصاص، والعالم السابع في الفحم.

٣. وفي العالم الإسلامي أطول أنهار الدنيا، وأقدم فلاح عَلَّمَ البشرية فن الزراعة، والأرض الزراعية الصالحة لتكون سلة غذاء تحرر المليار ونصف المليار مستهلك من التبعية الذليلة للاستيراد والاستهلاك من الغرب. كما أن فيه من الشواطئ المترامية للبحار والأنهار والمحيطات ما يجعله مصدرًا عظيمًا للثروة السمكية.

٤. وفي العالم الإسلامي من الفوائض النقدية ومن

---

١. الإمبرياليّة: هي استعمار أو احتلال أو نزعة تَسَلُّطيَّة من بعض الدول؛ للاستحواذ على بعض الأقاليم المستقلَّة أو شبه المستقلَّة بالسيطرة الاقتصادية والسياسيّة.

مصادر التمويل للتنمية الاقتصادية، وثروات المسلمين وإراداتهم وحريتهم وكرامتهم لدى مراكز الهيمنة الاقتصادية الغربية.

ويكفي أن الزكاة وحدها، وخاصة زكاة "الرِّكاز" التي تمثل ٢٠٪ من الثروات المركزة في الأرض ـ وأغلب ثروات العالم الإسلامي مركوزة في الأرض ـ يمكن أن تتحول إلى صندوق تنموي يجعل تنميتنا بالحلال، كما يجعلها مصدرًا لِتَحَرُّرِنَا.

٥. كذلك يُصَدِّر هذا العالم الإسلامي إلى الشمال الأوربي والأمريكي ـ بأرخص الأسعار ـ ٤٠٪ من المعادن، ٣٥٪ من النفط، ٩٣٪ من القصدير، ٦٥٪ من الخشب، ٤٠٪ من القطن. بينما يحرمه الغرب من التقنيات التي تحقق استقلاله الاقتصادي وتنميته المستقلة.

بل يحرمه الآن ـ بعد أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م في أمريكا ـ من تَعَلُّمِ العلوم الدقيقة وتقنياتها، بل حتى من الدوريات العلمية، كما صنع مع العراق طوال سنوات الحصار؛ وذلك لاغتيال العقل العلمي في بلاد الإسلام، والحيلولة دون امتلاك المسلمين استقلالهم الاقتصادي، وامتلاكهم لأسلحة الردع التي تحمي هذا الاستقلال، وفي هذه الميادين ـ ميادين التحرير لثروات العالم الإسلامي ـ تكمن المقاصد العظمى للتحرير التي تتغياها الصحوة الإسلامية، التي يسمونها "الأصولية" التي تريد استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضي وتطبيق الشريعة الإسلامية، والمناداة بأن الإسلام دين ودولة، واتخاذ الماضي الإسلامي هداية للمستقبل.

لهذه الأسباب ـ الفكرية والثقافية والاقتصادية ـ يتعرض الإسلام لهذه الهجمة الغربية الشرسة والظالمة، وليس بسبب الجهل به، أو لعيوب كامنة فيه"[1].

نِيَّات المُتَغَرِّبِينَ:

وبكل كلام قوي كاشف زاجر يحمل الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ على المستغربين من أبناء الشرق ممن يمَّموا شطر الغرب وجوههم وهوى أفئدتهم وعقولهم، وعملوا ـ كالغواني ـ على إرضائه بكل سبيل، ولو بالنزول عن ثوابت العقيدة والشريعة، وتمييع الهوية وإضاعة الاستقلالية الفكرية؛ لنيل رضا الأسياد، يقول في مقدمة كتابه "ظلام من الغرب":

"هناك مستشرقون مصريون وُلِدُوا في بلادنا هذه، ولكن عقولهم وقلوبهم تربَّتْ في الغرب ونمتْ أعوادهم مائلة إليه، فهم أبدًا تَبَعٌ لما جاء به، إنهم من جِلْدَتِنَا ويتكلمون بألسنتنا، بَيْدَ أنهم خطر على كياننا؛ لأنهم كفار بالعروبة والإسلام، أعوان ـ عن اقتناع أو مصلحة ـ للحرب الباردة التي يشنها الاستعمار علينا، بعد الحرب التي مزَّق بها أمتنا الكبيرة خلال قرن مضى، وهم سفراء فوق العادة لإنجلترا وفرنسا وأمريكا، دول التصريح الثلاثي الذي خلق إسرائيل وحماها، والفرق بينهم وبين السفراء الرسميين أن هؤلاء لهم تقاليد تفرض عليهم الصمت، وتصبغ حركاتهم بالأدب، أما أولئك المستشرقون السفراء فوظيفتهم الأولى أن يثيروا في الصحف وفي المجالس، وأن يختلقوا كل يوم مشكلة

---

١. الغرب والإسلام: أين الخطأ وأين الصواب، د. محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٢: ٢٠ بتصرف.

موهمة ليُسقِطوا من بناء الإسلام لَبِنَة، وليذهبوا بجزء من مهابته في النفوس، وبذلك يحققون الغاية الكبرى من الزحف المشترك الذي تكاتفت فيه الصهيونية والصليبية في العصر الحديث...

إن هذا النفر من حملة الأقلام الملوثة أخطر على مستقبلنا من الأعداء السافرين فإن النفاق الذي برعوا فيه يخدع الأغرار بالأخذ عنهم، وقد يقولون كلمات من الحق؛ تمهيدًا لألف كلمة من الباطل تجيء عَقِبَها، فلنحذر هذا العدو المقَنَّع، ولنُؤَمِّن طريق نهضتنا بتجلية هذا الظلام الوافد من الغرب... قد انفجرت بغتة أحقاد بعض الناس على الإسلام، وبدت سرائرهم مسودة تجاه عقائده وشرائعه، لقد خيل إلى هذا النظر الواهم أن الأوان قد حلَّ للتخلص من وصايا الإيمان وأعباء الفضيلة وأمر الله جملة، ولكن خاب فَأْلُهم.

إنهم يكذبون على الحرية حين يجعلونها تُرَادِفُ الفوضى، ويكذبون على الحضارة حين يَحْسَبونها تُقَارِنُ الميوعة، ويغدرون بأنفسهم وأمتهم وتاريخهم حين يمكِّنون لسماسرة الغرب الناقم علينا أن ينالوا مآربهم ويبلغوا ما يشتهون.

التحرير الكامل أن ننظف الجو العام من أولئك الذين فقدوا كل شيء إلا النقل الأعمى عن أوربا دون ميز بين خبيث وطيب، ونافع وضار، إما عن فساد في عقولهم أو فساد في ضمائرهم"[1].

الخلاصة:

- من العبث إقامة حوار وتقارب بين الإسلام والغرب، ما دام الغرب يعتقد أنه الوحيد الذي يمتلك الحقيقة، ويحاول بكل وسيلة فرض إرادته وطمس هوية الإسلام.
- تهدف جولات وندوات ومؤتمرات الحوار بين الأديان في الغالب إلى تغليب وجهة نظر طرف على الطرف الآخر ـ الآخر هنا عادة ما يكون الإسلام ـ لا التقريب بينهما.
- الحملة الغربية الشرسة على الإسلام ليست نابعة من عيوب جوهرية فيه ولا من الجهل به وإنما لإفلاس مرجعيات الآخرين فكريًّا.
- تغري ثروات العالم الإسلامي الآخرين بمحاولة الهيمنة على مقدراته بكل سبيل، ومن ذلك محاولة هز ثوابته وتضييع هويته.
- المتغربون من أبناء الشرق يسعون لإرضاء الغرب ولو بالنزول عن أسس عقيدتهم وهدم أركانها.

---

١. ظلام من الغرب، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص٥، ٦.

المصادر والمراجع

- الاتجاهات المعاصرة في الفكر الإسلامي، د. عبد المقصود عبد الغني، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٨م.
- آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية، د. محمد خليفة حسن، عين للدراسات والبحوث، الإمارات، ط١، ١٩٩٧م.
- أدلة الحجاب، د. محمد أحمد إسماعيل المقدم، دار الإيمان، مصر، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.
- الإسلام، سعيد حوى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام المفترى عليه، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦م.
- الإسلام دين الفطرة والحرية، عبد العزيز جاويش، دار الهلال، القاهرة، د.ت.
- الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- الإسلام في عيون غربية، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٦، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة، أبو الأعلى المودودي، ترجمة: خليل الحامدي، دار القلم، الكويت، ط٤، ١٩٨٠م.
- الإسلام كبديل، د. مراد هوفمان، مؤسسة بافاريا، الترجمة العربية، مجلة النور الكويتية، ط١، ١٩٩٣م.
- الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية: لماذا ؟ وكيف ؟ د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام وأصول الحكم، د. علي عبد الرازق، تحقيق ودراسة: د. محمد عمارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.
- الإسلام والتفرقة العنصرية، د. علي عبد العزيز العميريني، مكتبة التوبة، الرياض، ط١، ١٩٩٠م.
- الإسلام والحضارة الغربية، د. محمد محمد حسين، دار الرسالة، السعودية، ط٩، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- الإسلام والغرب، روم لاندور، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢م.
- الإسلام والغزو الفكري، محمد عبد المنعم خفاجي، وعبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- الإسلام والفنون الجميلة، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٥م.
- الإسلام والفنون الجميلة، د. محمد عمارة، كلية آداب جامعة السلطان قابوس، ١٩٩٨م.
- الإسلام والقرن الحادي والعشرون، أبحاث ووقائع المؤتمر العاشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- الإسلام وأوربا: تعايش أم مجابهة، إنجي كارلون، ترجمة: سمير بوتاني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- الإسلام وقضايا الحوار، د. محمود زقزوق، ترجمة: د. مصطفى ماهر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- أضواء على مواقف المستشرقين والمبشرين، د. شوقي أبو خليل، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ١٩٩٩م.
- افتراءات المستشرقين على الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الأقليات الدينية والحل الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
- إنسانية الحضارة الإسلامية، أبحاث ووقائع المؤتمر السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- أوهام العلمانية حول الرسالة والمنهج، توفيق يوسف الواعي، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٢م.
- بروتوكولات حكماء صهيون، مجموعة وثائق، ترجمة: محمد خليفة التونسي، دار التراث، القاهرة، د. ت.
- بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارت، ترجمة: صبري محمد حسن، دار الأهرام، القاهرة، د. ت.
- بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- تاريخ الحضارة الإسلامية، بارتولد، ترجمة: حمزة طاهر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
- تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
- التبشير العالمي ضد الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة النور، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- التبشير والاستشراق: أحقاد وحملات على النبي ﷺ وبلاد الإسلام، محمد عزت إسماعيل الطهطاوي، المكتبة العصرية، بيروت.
- التجديد في الفكر الإسلامي، أبحاث ووقائع المؤتمر الثالث عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م.
- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، دار القلم، القاهرة، ط١، د. ت.
- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، مصطفى عبد الرازق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت.

- تنقية أصول التاريخ الإسلامي، د. حسين مؤنس، دار الرشاد، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
- تهافت العلمانية في الصحافة العربية، سالم علي البهنساوي، دار الوفاء، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، د. شوكت محمد عليّان، دار الشوّاف، الرياض، ط٢، ١٩٩٦م.
- ثورة الإسلام وبطل الأنبياء، محمد لطفي جمعة، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.
- حضارة الإسلام، جوستاف لوبون، ترجمة: عبد العزيز جاويش، وعبد الحميد العبادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
- الحضارة والتمدن الإسلامي بأقلام فلاسفة النصارى، د. عبد المتعال الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.
- الحق المر، محمد الغزالي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٣م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد، طبعة المؤتمر الإسلامي، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- حقيقة الإسلام في عالم متغير، أبحاث ووقائع المؤتمر الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- الحملة الفرنسية: تنوير أم تزوير، د. ليلى عنان، كتاب الهلال، العدد ٥٦٧، مارس ١٩٩٨م.
- حول الإسلام وقضايا العصر، د يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
- الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- الخلافة العباسية والمشرق الإسلامي، د. محمد عبد الحميد الرفاعي، مكتبة النصر، القاهرة، ١٩٩٩م.
- دراسات إسلامية في الأسرة والمجتمع، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.
- دراسات في النظام السياسي والمالي في الإسلام، د. عبد الرحمن سالم، دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- دستور أمة الإسلام، د. حسين مؤنس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- الرد على شبهات أحمد الكاتب حول إمامة أهل البيت ووجود المهدي المنتظر، سامي البدري، مطبعة قسم شريعت، إيران، ط٢، ١٤١٧هـ.
- رسائل إلى عقل الغرب وضميره، د. عبد الصبور مرزوق، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- سقوط العلمانية، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

- السنة النبوية بين كيد الأعداء وجهل الأدعياء، حمدي عبد الله الصعيدي، مكتبة أولاد الشيخ، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- السنة قبل التدوين، د. محمد عجاج الخطيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٦م.
- شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي، أنور الجندي، المكتب الإسلامي، ١٩٧٨م.
- شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٢٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- شبهات وأباطيل حول الإسلام والرد عليها، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، د. ت.
- الشبهات والأخطاء الشائعة في الفكر الإسلامي، أنور الجندي، دار الاعتصام، القاهرة.
- صورة الإسلام في الإعلام الغربي، محمد بشارى، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.
- ظلام من الغرب، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- عالمية الإسلام، رجائي عطية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٦، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الغارة الجديدة على الإسلام، د. محمد عمارة، دار الرشاد، القاهرة، ط٣، ١٩٩٨م.
- الغارة على العالم الإسلامي، شاتليه، ترجمة: محب الدين الخطيب، مساعد اليافي، القاهرة، ١٣٨٥هـ.
- الغرب والإسلام: أين الخطأ وأين الصواب، د. محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، الشيخ محمد الغزالي، مؤسسة الشرق، عمان، ط١، ١٩٨٥م.
- فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، د. علي محمد محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار السلام، القاهرة، ط١٤، ٢٠٠٤م.
- فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، عبد الودود يوسف، دار السلام، القاهرة، ١٩٨٨م.
- القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث، كارين أرمسترونج، ترجمة: فاطمة نصر، محمد عناني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
- القرآن والرسول ومقولات ظالمة، عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

- القرآن وعلومه في مصر، عبد الله خورشيد، دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- قضايا إسلامية، محمد رجب البيومي، الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ١٩٨٤م.
- قضية التنوير في العالم الإسلامي، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.
- كيف نحكم بالإسلام في دولة عصرية، د. أحمد شوقي الفنجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.
- مائة سؤال عن الإسلام، الشيخ محمد الغزالي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- محمد رسول الله، اتيين دينيه (سليمان بن إبراهيم)، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، د. محمد عبد الحليم، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٦م.
- مدخل إلى الحضارة الإسلامية، د. عماد الدين خليل، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- مدخل لمعرفة الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٩، ٢٠٠١م.
- المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠١م.
- المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- مستقبل الأمة الإسلامية، أبحاث ووقائع المؤتمر العام الخامس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- المضامين العنصرية في كتب اليهود الدراسية، مقال إبراهيم نافع، جريدة الأهرام، الثلاثاء ٣١ أكتوبر ٢٠٠٦م.
- معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية، عبد الله علوان، دار السلام، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٥م.
- المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- المنصفون للإسلام في الغرب، رجب البنا، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- من قضايا البعث الحضاري، د. عون الشريف قاسم، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

- منهج عمر بن الخطاب في التشريع، د. محمد بلتاجي، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- مواطنون لا ذميون، فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية، فريق من المستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات العربية المتحدة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٨٢م.
- موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، خديجة النبراوي، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- موقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة، د. عبد الحليم محمود، دار الرشاد، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٣ م.
- نحو علم الإنسان الإسلامي، د. أكبر. س. أحمد، ترجمة: د. عبد الغني خلف الله، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، د. ت.
- نحو مشروع حضاري للنهضة، د. حمدي شاهين، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط١، ٢٠٠٥م.
- نحو مشروع حضاري لنهضة العالم الإسلامي، أبحاث ووقائع المؤتمر العام الحادي عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- النزعة العنصرية لعقيدة شعب الله المختار، د. محمد عمارة، مقال بمجلة الرسالة، العدد ٤٠، محرم ١٤١٨هـ/ يونيه ١٩٩٧م.
- نظام الإسلام، د. وهبة الزحيلي، دار قتيبة، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- نظام الدولة في الإسلام، د. عبد الله جمال الدين، طبعة خاصة، ١٩٩٨م.
- النظريات السياسية الإسلامية، د. ضياء الدين الريس، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٧، ١٩٧٦م.
- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، محمد ياسين صديقي، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، هجر للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م.
- واقعنا المعاصر، محمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية، ط٣، ١٩٨٩م.
- وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، د. وهبة الزحيلي، جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط٢، ١٩٩٩م.
- اليسار الإسلامي وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- اليهود في ظل الحضارة الإسلامية، د. عطية القوصي، ضمن سلسلة: فضل الإسلام على اليهود واليهودية، مركز الدراسات الشرقية، العدد ٢، ٢٠٠١م.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول: القرآن

المجلد الثالث

ج ٥

شبهات حول النظم الحضارية في الإسلام